



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمية

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:

يناير ١٩٤٩



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد خروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاسم

العدد ٥٧٩

مارس ١٩٩٧ • ذو القعدة ١٤١٧ هـ

No - 579 - MA - 1997

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٥٥
جنيفاً داخل ج . م . ع تسدد مقدماً نقداً او
بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية
٣٥ دولاراً - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا
٥٠ دولاراً - باقي دول العالم ٦٠ دولاراً .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر
مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال
عملات نقدية بالبريد .

في الكويت السيد عبدالعل بسبوني زحلول
ل . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ١٧١١١٦٤
لمرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبنيين
٣٦٢٥١٥٠ (٧ خطوط) المكاتب من ب
القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافياً
القاهرة ج . م . ع .

TELEX 92703 hilal u

شرف

بقلم

صنع الله إبراهيم



دار الهلال

القسم الأول

من المؤكد أن الحذاء ليس هو المسئول عن المصير الذى آل إليه أشرف عبد العزيز سليمان (أو شرف كما ألفت الأم أن تنادى حبة عينها) ؛ فقد كان مبرمجاً ، بجيناته الداخلية ، والخارجية لما وقع له من أحداث . ولا يغير من الأمر قصر الطريق الذى قاد من "كوتشى" إلى "جون" ، ولا من الأخير إلى بور أخرى

صحيح أن كوتشى صارت رائحته لا تطاق وبليت مقدمته ، لكن هذا لم يكن السبب الذى دفعه إلى التوقف أمام الواجهة الزجاجية المضاعة بمصابيح سبوت لايت السبب الأسمى أن كوتشى كان أخضر اللون بينما هو مقبل على المرحلة السوداء ، التى وضع أساسها برأس حلق على المودة الإنجليزية مع مقدمة مفلفة ، طالعها الآن فى زجاج الواجهة .

أبرز الزجاج أمرين آخرين : الأسعار الفلكية للأنواع الأخرى ذات النقش الأسود من "أسكوت" إلى "أديداس" مروراً بـ "نايك" ، وهيكلى أنثوى يحاذيه : أربعينية أو خمسينية ممثلة الجسم فى الملابس الشائعة المنحدرة من عصور الجليد ، التى تتألف من جوبة طويلة حتى القدمين ، وجاكت ملون وطريحة تغطى الرأس وتحيط بالوجه

وسواء أكانت السيدة تعاني من قصر النظر أم كان لديها مأرب أخرى ، فقد انحنت مدققة النظر فى أسكوت ، ثم إستدارت قليلاً لتحصل على زاوية رؤية أكثر ملاءمة ، لكن نظرها لم يسعفها ؛ فقامت بحركة خفيفة ، وضعتها فوق خط التماس مباشرة

يجب أن نكون موضوعيين في تقديرنا لموقف أشرف : كان في السن التي تفور فيها الدماء وتغلي لأقل لمسة (ولد سنة ١٩٧٤) ، لكنه - أيضا - كان مثقلا بمجموعة من المحرمات التي تقيد الفعل ، ولهذا السبب كان رد فعله التلقائي ، على عكس ما هو متوقع ، التراجع إلى الخلف ، بدلا من الاندفاع إلى الأمام ، مما عرضه لدفعة من أحد المارة قذفت به إلى نهر الزحام الجارف

فرغم إرتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، أو بسبب ذلك ، خرج سكان القاهرة جميعا إلى الطرقات ، وتدفقوا على شوارع وسط المدينة ، وطلعت حرب بالذات ، وإلى نقاط تجمع ثابتة أمام محلات الملابس والأحذية والساندوتش والمثلجات ، فضلا عن السينمات والمسارح ، كان شرف قادما من ميدان التحرير ، وقد عبر ميدان طلعت حرب ، معطيا ظهره ، بطبيعة الحال ، لتمثاله وكان جوعانا ، عطشانا ، حائرا في كيفية إنفاق الساعات المتبقية من المساء

كانت الأوبشنز أمامه كالآتي : دخول السينما و بالتحديد فيلم تسيل فيه دماء كافية طالما أن الأفلام الأخرى ذات الـ "صور" غير متاحة بفضل الرقابة التي تتولاها سيدة فاضلة وصارمة في أن ، أو شراء علبة سجاائر "مارلبورو" ، أو شراء ساندوتش وكوب من الكولا وسيجارتين من "كليوباترة" التي يكره مذاقها ، أو العودة إلى البيت الاختيار الأخير كان في الحقيقة إثنين : تحت ، وفوق . تحت أي في الشارع ، على الناصية (حيث كشك سجاائر ودين كبير) أو عند حانوت الميكانيكي مع أفراد الشلة وسيجارتين من البانجو الذي يجلب الصداق والغثيان إذا كان على معدة فارغة ثم الشاي في مقهى الكورنيش الذي أقيم في موقع استراتيجي على حافة ترعة قديمة تحولت إلى مقلب زبالة (وإذا كانت لدى الميكانيكي سيارة صالحة للسير انتقلت المجموعة إلى المعادي القريبة لتلتحق بشلة الطلبة والمزيد من البانجو) فوق معناها الشقة (الضيقة

حيث لا يوجد مكان للجلوس أو النوم) والمواجهة (مع النفس و الآخرين)
ومحاولة حل المعادلة المستحيلة .

ففى هذا الوقت من اليوم يكون أبوه بين مسلسلين تليفزيونيين، وبالتالى فى حالة عدم توازن ، فيستبدل نظارة المشاهدة بنظارة القراءة ، ويتناول ورقة وقلم ويشرع فى تدوين مجموعة من حقائق الحياة يحفظها أشرف عن ظهر قلب منذ كان أبوه حريصا على ألا يخفيها عنه .

التمرين اليومى كانت له عدة أهداف إضافة إلى إزجاء الوقت حتى موعد مسلسل السهرة : تقرير أفراد الأسرة (وخاصة الولد الكبير) وإشعارهم بالعبء الذى يمثلونه ومدى الجميل الذى يصنعه الوالد لهم عندما يجعل ٣٤٠ جنيها (راتبه الشهرى المضمون) تتحول إلى ٨٠٠ (النفقات الفعلية) .
محاولة إيجاد نوع من التوفير وإستبعاد بعض الأيتمز (فى آخر مرة تم شطب بند الجريدة اليومية على أساس أنها لا تقدم غير مادتين : الكوارث وخطب الرئيس وهى مواد يقدمها التليفزيون بالتفصيل و الألوان) ، إثارة شئ من الحمية فى بدن أشرف أو قلبه كى ينهى دراسته أو يجد لنفسه شغلة تخفف العبء (وهى محاولة كانت تصطدم دائما بدفاع الأم عن حبة عينها).
الهدف الأخير يدخل تحت طائلة علم المستقبلات ، إذ تجرى محاولة استشراف الوضع فى ظل قانون المساكن المتوقع وبعد رفع الدعم الحكومى عن الكهرباء والمياه والمواصلات والخبز والسكر والشاي ، أى التحرير (للأسعار) ، والتثبيت إن لم يكن التقليص (للأجور) .

لم تكن العودة إذن ، بمستوياتها الاثنين ، مغرية . ولأنه لم يتمكن من الحسم فقد تشاغل بالاستكمال ، النظرى فقط ، للطاغم الجديد والإكسسوار المناسب له

تغاضى عن قمصان "فان هاوزن" ، "سيلفانو" ، "فستياكو" ، "بيير كاردان" ،
وعن "سونيتى" الأسبور ، وتوقف برهة أمام قميص "ليفائيس" و جمع بينه وينطلون
جينز "رانجلر" . ثم إنتقل إلى الأكسسوار : ساعة "سواتش" بخلفية سوداء اللون
وسوار من نفس اللون ، (رغم أن الموضة السائدة هي الساعة الكبيرة على شكل
بوصلة) ، سلسلة ذهبية للعنق وإنسيال ذهبى للمعصم . و لم يقدر للطاقم أن
يكتمل لا فى هذا المساء ولا بعده ، لأنه لم يعثر بين النظارات الشمسية ، من
"ستينج" و "بوليس" حتى "ريبان" ، على النظارة المستديرة المذهبة
الإطار بالعدستين السوداوين التى ارتداها "سلفستر ستالونى" فى آخر افلامه .

خلال ذلك كان الزحام قد بلغ أقصاه و تمت غريبته من العنصر الأنثوى ،
وتحولت حركة السيارات التى ملأت عرض الشارع إلى زحف بطئ . وسادت
الحمى التى تسبق عادة الحفلات الأخيرة لعروض السينما ، فتجمع كبير من
الشبان ، أسفل ملصق كبير ملأته "ليلى علوى" بما تملك من وفرة . الشاب
الذى أبدى نقصا فى الخبرة أمام حانوت الأحذية ، كان مدربا فى مجال آخر: فقد
أخذ ينقل البصر فى حنكة بين صفوف السيارات التى ملأت عرض الشارع ،
متجاهلا الماركات الشعبية مثل "الفيات" ، والأخرى الكلاسيكية مثل
"المرسيدس" ، مركزا على "الهوندا سيفيك" و "التويوتا كرولا" إلى أن حالقه الحظ :
"جولف" ذات نوافذ سوداء قائمة تتصاعد منها موسيقى صاخبة وتقودها فتاة
تطير شعرها وأبرزت من النافذة ساعدا عاريا حتى الكتف مما بشر بالمزيد .
لكن "ب م دابليو" لم تلبث أن حجبته عن ناظريه وقد انسابت فى بطء حتى
أوشكت أن تتوقف أمامه مباشرة . هكذا ألقى نفسه يطل على ساقين بديعتين
انحسر الثوب عن أعلاهما لتتمكن صاحبتهما من نقل قدميها بين المارش
والفرامل . لم يكن مهتما بتحت وإنما بفوق . فلم يكن بعد قد انتقل من مرحلة
التعلق بالمكان الذى تغذى عليه إلى المكان الذى دلف منه . لكن المرور

انساب قبل أن يعيد تصويب نظراته ، فاندفعت السيارة إلى الأمام وسرعان ما اختفت عن ناظره .

انتظر حتى تباطأت حركة السيارات من جديد وعبر الشارع . عاد القهقري في اتجاه الميدان ، متعثرا في أفريز من الرخام أمام حانوت للنظارات ، مد بمنسوب أعلى من الرصيف ، هبط به بالنتيجة إلى حفرة طينية كومت فيها بعض المخلفات . بعد خطوات كان أمام "ومبى" فوقف يتأمل أكلى الهامبورجر ويستعرض قائمة الأسعار المضيئة ، رغم أنه يحفظها عن ظهر قلب ، ثم واصل السير حتى حانوت يتصدر مدخله عمود شاورمة ، ساعدته راثحتها على الوصول إلى قرار قائم على التضحية : الاكتفاء بكيس من الشيبسى وكوب من الكولا .

انضم إلى الأكلين الذين زحموا الرصيف ، فاتيح له مثلهم متابعة الظاهرة الشقراء من لحظة ظهورها : سائحتان ترتدى إحداهما شورتا كشف عن ساقين سمينتين لفحتهما الشمس ، أسفل مؤخرة قوية وممتلئة ، بينما أبرزت الأخرى نقاط قوة مختلفة ، ففوق بنطلون ضيق من الجينز استقرت بلوزة ملونة بلا أكمام يبدو منها شعر إبطها و جانب من سوتيانها . و على أية حال فقد نجحت الفتاتان فيما فشلت في تحقيقه كافة الأحزاب السياسية في مصر .

فسرعان ما وجد شرف نفسه على رأس حشد كبير لبي نداء الفلقتين المتماسكتين لصاحبة الشورت؛ اضطره إلى استخدام منكبيه للمحافظة على موقعه القيادي . هكذا كان خلفها مباشرة عندما توقفت فجأة ، فأوشك أن يصطدم بها . وأساعت هي من جانبها تفسير الموقف فاستدارت بوجه عابس وهي تفتح حقيبة يدها وتستخرج ورقة مالية من فئة الجنيه دفعتها إليه مرردة كلمة لم يتبينها .

فوجئ بمبادرتها فلم يمد يده لالتقاط الورقة وتركها تهوى إلى الأرض بينما استأنفت الفتاة السير مع رفيقتها ومن خلفهما كوكبة التابعين و تطلع حوله فوجد

أكثر من عين تتأمله فى تفكه . وربما كان هذا هو السبب فى أن الدماء اندفعت إلى وجهه وأنه أشاح به ودس يديه فى جيبي بنطلونه، وواصل السير ، غير عابئ بالنقود ، مقتربا من المصير الذى بُرمج له .

لم يبتعد كثيرا إذ اجتذبه تجمهر آخر أسفل لوحة كبير تملأها وفرة من اللحم، لا ليلى علوى وإنما لـ "شوارزينجر". وبينما هو يتأمل اللقطات المعروضة من الفيلم فى لوحة الإعلانات سمع من يوجه إليه الحديث باللغة الإنجليزية .
إستدار ليجد نفسه أمام رجل أجنبى ، طويل القامة عريض الصدر أشقر شعر الرأس والحاجبين والشارب ، يرتدى قميص الأحلام ، قصير الكمين أسود اللون ، وتتدلى من عنقه سلسلة ذهبية ، خاطبه قائلا :

- معنى بطاقة زائدة .. هل تريدها ؟

ككل الأجيال الجديدة من المصريين ، كان شرف يجيد اللغة الإنجليزية ، أكثر حتى من العربية ، لكن ذاكرته لم تسعفه بمفرداتها فتلعثم فى محاولة الإجابة إلى أن تمكن أخيرا من أن يقول :

- شكرا .. لا أحتاج إليها .

وكل الأجانب الشقرى مصر ، لم يكن صاحبنا معتادا أن يُرفض له طلب :

- يجب أن ترى هذا الفيلم فهو مثير للغاية . و لا أظن أنك ستجد بطاقة أخرى

الآن .

تدافعت حصيلة أشرف من الكلمات الإنجليزية وسعد بقدرته على استخدامها:

- فى الحقيقة أُرغب فى ذلك . لكنى لا أملك كفاية من النقود

قال الأجنبى وهو يهز كتفه فى غير مبالاة : أنا أقدمها لك من غير مقابل

فلست فى حاجة إليها ، إن لم تأخذها سأرميها

سلوك طبيعى لدى الأجانب ، الأمر الذى دفع شرف إلى إعادة التفكير:

- فى الحقيقة هل أنت واثق ؟

مد الأخریده بالبطاقة و دسها فى يد شرف قائلا : خذها . لا تكن (و لم يفهم معنى الكلمة) .. اسرع فالعرض على وشك أن يبدأ .

أخذها و تبعه إلى داخل السينما وإلى مقعدين متجاورين وسط الصفوف الخلفية كان الحصول عليهما وسط الإقبال الشديد مكسبا حقيقيا . وكانت المقدمة الإعلانية قد انتهت و تبعتها استراحة ضرورية ، فحانت فرصة للحوار

قال الأشقر : أنا إسمى جون . و أنت ؟

قال : أشرف .. أشرف عبد العزيز .. فى الحقيقة حصل لى الشرف .

كان مخلصا فى هذا القول ، فلقاء الأجانب الشقر لا يحدث كل يوم . لكن جون ، لسبب غير مفهوم ، ضحك ومد ساقين طويلتين وأراح ذراعيه المفتولتين على مسندى مقعده فتماس ذراعاهما وأبعد أشرف ذراعه فى الحال .

قال : فى الحقيقة البطاقة كانت لشاب مثلك تعرفت عليه فى الصباح و وعد بالحضور لكنه لم يأت .

قبل أن يستفسر منه عن سر غرامه بتوزيع بطاقات السينما على الشباب ، رآه يطيل النظر إلى فمه ، فشعر بالزهو لأن أخته كانت تعرب دائما عن إعجابها بشفتيه و تتمنى لو لديها مثلهما ، ثم إن الفيلم بدأ فى هذه اللحظة ، فوجه إليه اهتمامه و تابع أعاجيب شوارزينجر مبهور الأنفاس ، و قد حرص على أن يترك لرفيقه المسند المشترك كى لا يتلامس ذراعاهما العاريان

علق جون على الفيلم عندما انتهى بكلمة لم يفهمها شرف لكنه أوما برأسه

موافقا ، وعندما خرجا إلى الطريق سأل : من أى بلد أنت ؟

- استراليا .

- ظننتك أمريكيا ؛ أنت تتكلم مثلهم تماما ، وتعيش هنا ؟

- مؤقتا .

- منذ متى ؟

هزكتفه : منذ عدة شهور .

سأله : أول مرة ؟

- فى مصر ؟ أجل و أنت ، أين تسكن ؟

أجاب على الفور : فى الحقيقة فى المعادى .

أراد أن يصف له المكان، فتراعى له مدخله عند محطة المتروالذى تتجمع فيه القاذورات وتفوح منه رائحة المجارى ويغطيه الذباب ، والحارات المليئة بالحفر والمطبات تحلق فوقها أسراب الذباب والناموس ، والبيوت الصغيرة التى يرتفع منسوب الأرض عن مداخلها بصورة مستمرة ، والغرف التى يقيم فيها بين خمسة أشخاص وعشرة والمياه المقطوعة وأجهزة الراديو والمسجلات فى التوافذ والمقاهى وميكروفونات المساجد والأفراح .

بدت الإنجليزية عصبية على كل هذه التفاصيل فاكتفى بأن يقول : فى الحقيقة أنا أسكن فى مكان جميل على حافة القاهرة يجب أن تراه و أنت أين تسكن ؟

أين فى غير الزمالك ؟

- تعال معى لأريك منزلى . فلا بد أن تعرفه نحن الآن أصدقاء

طاوعته إنجليزيته فى سلاسة : أوكى .

أشار جون إلى سيارة أجرة بالغ سائقها فى إبداء تهذيبه ورقته عندما تبين الشعر الأشقر ، فتظاهر بتشغيل العداد ، و خفض من صوت الكاسيت الذى كان

يردد أغنية جديدة لوردة الجزائرية . ثم أغلقه تماما وحاول تشغيل الراديو على برنامج للموسيقى الغربية ، كما لم يفته القيام بقليل من الإرشاد السياحي ، فتمهل فوق كوبرى ٦ أكتوبر أما م عروسين يلتقطان صورة تذكارية يتحمل فيها النيل نصيبه من المأساة المقبلة ، وعندما أبدى الخواجة عجبه من زحام السيارات فوق رصيف نادى الجزيرة ، تبرع بالإيضاح :

– الأعضاء هنا بالآلاف .

ثم أضاف بزهو : الإشتراك بالدولار .

شعر شرف هو الآخر بالزهو وهو يتطلع بعيني رفيقه إلى الشوارع الواسعة المرصوفة التى تحف بها الأشجار والقصور الفاخرة ، متغاضيا عن القانورات والأتربة التى كومت بحذاء الأرصفة وأسفل السيارات الفاخرة ، وفى الزوايا المتوارية ، حتى توقف التاكسى أمام منزل من الأربعينيات (تحيط به حديقة ويضع أشجار) ، يتصدره بواب من التسعينيات (يجمع بين مهنتى الحراسة والقوادة) قادهما إلى مصعد حداثى ، (بلا باب وبأثر واحد من العهد الغابر عبارة عن مرآة عريضة حال لمعانها) ، صعد فى ببطء شديد أتاح لشرف أن يتأمل صديقه الجديد الذى وقف ممسكا بمقبض الباب وقد أعطاه ظهره ، فكشف بذلك عن قفا عريض أثار إهتمام الشاب لا بسبب ما أوحى به من إمكانيات للعبث ، ولا بسبب شحوب بشرته البالغ ، وإنما بسبب السلسلة الذهبية التى أحاطت به .

غادرا المصعد فى الطابق الثالث إلى طريقة نظيفة مضائة ، تتوسطها نافذة تطل على منور ، تختهى فى أحد طرفيها بباب خشبى متين ، تزيينه قضبان من النحاس اللامع ، أدبى إلى ردهة وثيرة الأثاث وصالة فسيحة تتوسطها مائدة واطئة بصينية كبيرة من النحاس ، ويتألف أحد جدرانها من مدفأة كبيرة صفت فوق رفها الرخامى التماثيل الصغيرة والمشغولات النحاسية وزجاجات الخمر . أما

الجدران الأخرى فقد إزدحمت باللوحات الفرعونية الملونة وقطع القماش والسجاد التي تمثل مناظر من الريف المصرى ، فى محاولة جاهدة للإنتماء .

بإشارة من مضيفه إحتل فوتيا وثيرا فى حرص . و أنزل الآخر "جونى ووكر" من عليائه مع كأسين قائلا، كما فى الأفلام بالضبط : لا تمنع فى كأس ، أليس كذلك ؟

غالب شرف إنجليزيتة : فى الحقيقة يا مسترجون هذه مناسبة تتطلب الاحتفال . لكنى لا أشرب سوى البيرة .

قال مسترجون مقلدا طريقته فى الحديث : فى الحقيقة أنا عندى بيرة . بيرة مستوردة . وعندي أيضا حشيش لو أحببت .

وقام على الفور إلى المطبخ وعاد منه بعلبتين " هينيكين " وإناء من مكعبات الثلج وصحن مليئ بالفستق واللوز والبندق . ثم مضى إلى الناحية الأخرى من الشقة وعاد بعربة معدنية صغيرة فى حجم علب السجائر ودفتر من ورق البفرة ولغافة من السلوفان فى حجم عربة الثقاب تصاعدت منها رائحة المخدر النفاذة اللذيذة .

صب لنفسه كأسا من جونى ووكر وأشار لشرف كى يصب لنفسه البيرة ورفع كأسه فى الهواء ليقرعه بكأس أشرف قائلا : نخب صداقتنا .

ردد شرف النخب فى حماسة بينما إنصرف الخواجة إلى إعداد سيجار قملقومة : أفرغ أولا محتويات سيجارة عادية ثم إقتطع حمصة من قطعة الحشيش وأودعها ورقة مفضضة استخرجها من عربة السجائر : سخنها قليلا بعود كبريت حتى لانت فدهسها مع التبغ ثم أفرغ المزيج فى ورقة السجائر وأدخلها العربة المعدنية وأخرجها منها ملفوفة جاهزة .

قدم السيجارة إلى ضيفه وأشعلها له . جذب شرف عدة أنفاس ثم أعادها إليه . وتبادل الإثنان التدخين حتى انتهت السيجارة . وقدم الخواجة لضيفه قطعة شكولاتة أوشك أن يعتذر عن تناولها إلى أن تبين نوعها .

قال شرف و هو يلتهم " كادبوري " : عندك شقة جميلة .

كان الرأي صادرا عن وعى كامل فلم تكن السيجارة قد أحدثت تأثيرا بعد .

قال الآخر : تعال أفرجك عليها .

تبعه إلى غرفة نوم وثيرة يتصدرها فراش مغطى بالدانتلا و دولا ب أنيق من خشب لامع وأباجورة بجوار السرير وأخرى بجوار فوتيل أنيق ذي مسندين محشوين جيدا وبينهما نافذة مفتوحة تملأ فراغها أغصان الأشجار . انتقلا إلى الحمام الذى كان فى سعة الصالة يتصدره بانيو ضخم وبه توالت نظيف وله باب متين يُفتح ويُغلق فى هدوء وإحكام ، و إلى مطبخ فسيح تتصدره ثلاجة تكدست بالمحتويات التى أشهرتها إعلانات التليفزيون ، استخرج منها الخواجه أطباقا صغيرة بها شرائح من اللحوم الباردة والسجق الغريب الشكل وأنواع من الأجبان لم يسبق لأشرف أن رآها ، وضعها فوق صينية خشبية ناوله إياها فحملها إلى الصالة و هو فى أعقابها .

تناول شرف كأسه ورشف منه ثم قال : أنا أيضا أعيش فى بيت له حديقة كبيرة .

قاطعه مضيفه : فى المعادى ؟

بلغ ريقه وقال : فى الحقيقة نعم . ولى حجرة خاصة مدهونة بالزيت و نظيفة تطل نافذتها على شجرة ياسمين فأشم رائحتها طول الوقت . ولى سرير فى الركن ، لى أنا وحدى ، أمامه ستارة و مكتب خلفه دولا ب فيه راديو ستريو

وكاسيتات ولوحة الموناليزا على الجدار، هل تعرفها ؟ وصورة كبيرة أيضا لمايكل جاكسون ، هل تحبه ؟ وفي الصباح تحضر لى أمى وأختى الكبيرة الإفطار: بيض و حليب و مربى ، كما تأكلون أنتم . أليس هذا إفطاركم ؟ تحضره أمى فى صينية كبيرة بها زهرية من ورود الحديقة . لا تتخيل الرائحة .

كان جون يستمع باسمنا . و خيل إلى شرف أن وجهه إزداد شحوبا .

سأله و هو يصب له بقية البيرة : هل أنت طالب ؟

أجاب على الفور : فى الجامعة

شعر أن ضوء المصابيح إزداد توهجا و إلتمعت السلسلة الذهبية المحيطة بعنق الخواجه الذى لم يفتة إتجاه نظر ضيفه فقال و هو يمسكها بأصابعه : تعجبك ؟

أجاب : فى الحقيقة نعم .

خلعها من عنقه وناولها له قائلا : هى لك .

قال : لا أستطيع أن آخذها .

كان الخواجة حاسما فألقى بها نحوه واضطر أشرف إلى تلقفها .

– سأشتريها منك .

– لن تستطيع فهمى غالية جدا .

قال فى عناد متمسكا بمفهومه عن الشرف : بل سأفعل !

وسواء أكان السبب إدراكه لعجزه أم أن السيجارة بدأت عملها ، فإنه شعر بالدوار فجأة وبالرغبة فى البكاء ، الأمر الذى مس قلب الخواجة ، فانتقل إلى جواره و أحاطه بذراعه .

أسند شرف رأسه إلى صدر الخواجة العريض فقد حانت لحظة الاعتراف .

وأثبتت اللغة الإنجليزية أنها عصية على الحقيقة ؛ فعاد إلى لغة موطنه : العربية لا

"المعادية" : كيف أنه كان يكذب ، وأنه لن يستطيع شراء شئ ، وحتى الآن لم يتمكن من دخول الجامعة ، ورائحة الياسمين التي ذكرها عندما تحدث عن منزله هي الرائحة الدائمة « لخرانا » الذي يتجمع في بئرأمام باب المنزل وتأخذه شاحنة مرة في الأسبوع .

ذروة الإعتراف بدت كمقطع من أغنية لأم كلثوم ، أى ميلودرامية تماما . أنا زهقت من حياتي ونفسي أسيب البلد . يا ريت تأخذني معك بعيد .
لم يتكلم الخواجة واكتفى بأن وضع السلسلة حول عنق الشاب ثم مد يده إلى ساقه وتحسس فخذه .

أعادت إليه اللسة إنجليزيتة ، إذ قال مستنكرا:

- أنت لا تصدقنى ؟ لن تجد فى جيبى نقودا تذكر

أبعد جون يده وقال . يمكننى أن أعطيك ما تشاء و تناول مجلة مصورة من فوق رف المدفأة وناولها له قائلا : هل تحب الصور ؟
من الذى يكرهها ؟ كانت المجلة أجنبية بها صور كثيرة لنساء ورجال عرايا فى أوضاع أجرت الدماء ساخنة فى عروق الشاب الغر ، كما أثبت السؤال الذى بدر منه :

- هل أنت متزوج ؟

أجاب : كلا ، أنا لا أطيق النساء .

كفت الغرفة عن الدوران لحظة و لأول مرة شعر شرف بقلق مبهم

سأله الآخر : و أنت ؟

قال : أنا أحب جارة لى لكن أهلها يريدون تزويجها .

- لك ؟

- لا ، لقريب لها غنى .

- هل هى تحبك ؟

- إنها تتلطف معى أحيانا ، وفى أحيان أخرى تتجاهلنى وتعاملنى بقسوة .

غير جون الموضوع قائلا : السلسلة حلوة عليك . أنظر إلى نفسك فى المرآة أشار إلى مرآة مذهبة الإطار على الجدار الواقع خلفه ، فنهض شرف وهو يترنح واستدار يواجهها . بدت السلسلة فعلا جميلة وشيك ، لا ينقصها إلا القميص الأسود والنظارة السوداء . لكن ما انضم إليها فى المرآة هو وجه جون الذى ازداد إقترابا حتى أوشك أن يلمس خده بشفتيه ، بينما أحاطه بذراعيه من الخلف .

أبعد شرف وجهه و هو يحاول الإفلات من الذراعين قائلا : ما هذا يا جون ؟ ماذا تفعل ؟

لم يكن جون فى حالة تسمح له بالرد شفاهيا ، وبدلا عن ذلك أطبق على فريسته الذى قاوم بعنف و نجح فى أن ينسل من بين ذراعيه إلى أسفل ويقفز ناحية الباب ، لكن الحظ لم يكن فى صف أشرف من البداية ؛فقد تعثر فى السجادة وسقط على الأرض إلى جوار المائدة . وفى اللحظة التالية كان الخواجة فوقه .

جاهدالشاب فى دفع مهاجمه الذى كان يفوقه قوة ونجح فى شل حركته إلى أن شعر به يحاول تجريده من ملابسه و هو يلهث ، فأمدده العدوان الصريح بقوة جديدة ؛ وجه إلى رأسه ضربات عشوائية بقبضتى يديه أجبرته على محاولة

توقئها . وئدا أن الءظ ءء ءءءل أءئرا فى صفه إء ارءطم رأس المءءءى بءافء الصئئىة فءءف ءبضءه . اسءءاع شرف أن ىءررءسءه وئزءف مءءءءا . وءما ىءءء عاءة فى هءه المواقف ، ءئر الءظ موقعه على الفور . فقءل أن ىصبع شرف بمئأى عن مهاءمه ءمكن هءا من الإمساك بساقئه و أوقعه أرضا ءم إرءمى فوقه من ءءء

بءء الءءئءة مءسومة هءه المرة وشعر بها شرف بءسءه ءبل أن ىءركها بعقله . ولأنها المرة الأولى الءى ىواجه فىها عءوانا صارءا من هءا النوع فقد اسءءفر كل طاقاءه . كان ءء فقد السئطرة على نصفه الأسفل ، فطوح ذراعئه على ءئر هءى هءذا لمسء ىءه سطح الصئئىة فءءسسها فى لهفة ءءى عئر بصءن الفسءق لم ىءرءء ءائىة واءءة : ءبض علىه وقءف به الرأس الءائمة فوقه .

كان ءون منهما فى ءل مشءلة الملابس ومع ذاك إنءبه للصءن المءءع نحوه فءفاءه . وأئقن شرف أنه ءسر المءركة وعءءئذ لمع بطرف عئنه زءاءة الءمر فءاءء ءءى ءرب أصابعه من عنقها وأطبق علىه ءم رفعها فى الهواء وأهوى بها على صءء مهاءمه .

لم ىءمكن ءون من ءفاءى الزءاءة . وأصابءه الضربة بالذهول فءمءء ءركئه . ولم ىلءظ شرف الءماء الءى ساءء على وءهه ، لم ىلءظ شئنا على الإءلاق ولا ءءى أن ىءه القابضة على شظئىة مءببة من ءطام الزءاءة كانت مسءمرة فى الإرءفاع والهبوط فوق الرأس الأشقر المءضب بالءماء .

(٢)

أسلمنى الرقيب فى صمت إلى حارس وقع بإستلامى على دفتى وتبعته فى ممر طويل تضيئه المصابيح الكهربائية وتتصاعد من جنباته رائحة غريبة هى مزيج من الفنيك والبول مررنا بغرف خالية اكتظت بالمكاتب الخشبية وأضاءتها شمس العصارى ، ونزلنا سلما إلى الطابق الأرضى ؛ فأبرز الحارس حلقة من المفاتيح الضخمة فتح بأحدها بوابة من القضبان الحديدية انتهزت الفرصة لأطلب منه مساعدتى فى الاتصال بأهلى .

قال : إيدك على خمساية

قلت : أنا دلوقت ممعيش لكن أهلى حيدوك

لم يرد على و دفعنى أمامه فى ردهة صغيرة بها ثلاثة أبواب مصفحة وفى طرفها فتحة بغير باب تضم مرحاضا مكشوبا ، تكوم البراز حول حافت ، وتتصاعد منه رائحة خانقة

أبرز مفتاحا آخر فتح به أحد الأبواب الثلاثة ودفعنى إلى الداخل ثم أغلق الباب ورائى دون أن يعبأ بالصيحات التى استقبلته ، شققت طريقى بين بضعة أشخاص تجمعوا عند الباب وانهلوا عليه بالدق والصياح

ألفيت نفسى فى غرفة كبيرة تلطخت جدرانها بالحبر و بقع الدماء و كتابان مختلفا ، واكتست أرضها بالزفت و خليط من البصاق والبول . أشار لى رجل ضخم الجثة يجلس القرقصاء على الأرض كى أنضم إليه كان يرتدى جلبابا قدرا شق من منتصفه ليكشف عن صدره وعورته شعرت بالخوف فتجاهلته ومضيت إلى ركن بعيد عن الباب . جلست فوق مصطبة من الأسمنت أسفل نافذة عالية من القضبان الحديدية المغطاة بشبكة من السلك

اقترب منى رجل أكبر منى فى السن ، ذو ملامح وادعة ، يرتدى قميصا عاديا وينطلقنا ، ويضع نظارة طبية ، ذات إطار من نوع رخيص . جلس إلى جوارى وأخرج سيجارتين من جيب قميصه قدم إلى إحداهما . أخذتها رغم أنها كانت من طراز " كليونباترة " . عرفنى بنفسه قائلا أنه موظف فى وزارة التربية والتعليم وأنه احتجز على سبيل الخطأ بسبب التشابه بين اسمه واسم أحد المتطرفين الهاربين . كشف عن باطن ذراعيه أسفل الإبط وباطن ساقيه أسفل الركبة فرأيت كدمات زرقاء كبيرة وأثار تقيحات على حوافها .

قال : مصدقونيش إلا بعد ما أكلت الطريجة .

سألته : قصدك إيه ؟

قال : مسمعتش عن الجهاز ؟

هرزت رأسى نفيا .

قال : بكره تدوقه .

تسارعت دقات قلبى و سألته بصوت مرتجف : هم بيعذبوا كل واحد ؟

- اللى ما يعترفش ياخذ نصيبه . واللى يعترف كمان . أmaal يتأكدوا إزاي

إنه بيقول الحقيقة ؟

ران علينا الصمت يرهة وشعرت بقرصة حادة فى ساقى ، عندحافة الجورب. حركت ساقى فى حذر وجذبت ساق البنطلون فى عناية ثم تطلعت إلى حافة الجورب ، لكنى لم أجد أثرا للبرغوث الذى قرصنى .

قال أن القاضى أمر بالإفراج عنه منذ ثلاثة أسابيع وأنه ينتظر التنفيذ فى أية لحظة .

قلت : ثلاث أسابيع ؟ المفروض تكون خرجت مادام أفرج عنك .

قال . دخول الحمام حاجة والخروج منه حاجة ثانية

راح يعدد لى الإجراءات المصاحبة لقرار الإفراج : العودة إلى المحكمة فى اليوم التالى للحصول على ورقة اسمها صحة إفراج تفيد مراجعة الأوراق ، ثم الذهاب إلى مديرية الأمن فى باب الخلق للحصول على ورقة تفيد أنه ليست عليه أحكام سابقة وبعد ذلك المباحث فى لاطوغلى لكى تسجل أنه لا يوجد لديها مانع من إطلاق سراحه بشرط ألا يكون مطلوبا فى جهة أخرى ، ثم العودة إلى القسم للحصول على امضاء رئيس المباحث الذى كان قد انصرف ولم يظهر إلا فى اليوم القالى ، وبعد أن وقع اصطحبه الباشكاتب إلى مكتبه و طلب منه بطاقة الهوية ثم بسط يده طالبا الحلوة

- طبعا عادى ، المشكلة إنى من ساعة ما القاضى أفرج عنى و أنا بتؤزع شمال و يمين . كل خطوة مبروك ألف مبروك يعنى اطلع بالسجاير والشاي والقهوة . خلصنا الورق وخلصت فلوسى . و لما الباشكاتب طلب الحلوة كنت وصلت لأخرى . لعنت أبوه و أبو الضباط والحكومة . تفتكر عملوا فى إيه ؟

- ضربوك ؟

- يا ريت .. الضرب كان أهون . لا يا سيدى . عملوا لى كعب داير .

- يعنى إيه ؟

- يعنى ألف محافظات مصر كلها عشان كل محافظة تشوف إذا كان عندها حاجة ضدى .

هونت عليه و دعوت له بالإفراج القريب ثم طلبت منه أن يتصل بأهلى إذا خرج و أعطيته رقم تليفون بوتيك على ناصية شارعنا ، تعمل به أختى . وعدنى بأن يفعل قائلا :

- حاقولهم يجيبوا لك بيجامة و فوطه و صابونة و أكل طبعا .

سألته مترددا : هو مفيش أكل هنا ؟

نظر إلى مستنكرا ثم ضحك : أكل ؟ أنت فاكرها لوكاندة ؟ . لك رغييف واحد

حاف فى اليوم و الباقي عليك . أنت تغديت ؟

قلت : ولا فطرت .

مد يده إلى كيس كبير من البلاستيك بالقرب منه و أخرج لفافة قدمها لى

- كل . . جبنة و لانشون .

تطلعت إلى الساندوتش فى تردد و دفع هو به إلى يدي فى حزم فأخذته وعاد

ينيش فى الكيس البلاستيك حتى استخرج فلفة خضراء مسحها فى ملابسه

وقدمها إلى قائلا : كل يا راجل .

التهمت الساندوتش وأنا تطلع حولى إلى الآخرين إلتقت عيناي بعينى الرجل

العارى الذى سلطهما على فى تركيز غريب . و دون أن أشعر وجدت نفسى

أقترب من كعب الدايروكأنا أحتمى به .

فرغت من الأكل فقدم لى سيجارة وسألنى عن سبب احتجازى . حكيت له

قصتى وكيف أن الشرطة تتهمنى بقتل الأجنبى بفرض السرقة و قلت له أن

جون كذب على فقد عرفت من التحقيق أن هذا ليس اسمه الحقيقى وأنه من

إنجلترا و ليس من أستراليا . استمع إلى باهتمام دون أن يعلق بشئ .

تدافعت الدموع إلى عيني وواجهته قائلا : أنت مش مصدقنى ؟

بدا عليه الارتباك و قال : لا . مصدقك

أضاف بعد لحظة : الواحد هنا يسمع حكايات يا ما .

لم أفهم مايعنيه فسألته عن رأيه فى مصيرى . قال :

- محامى شاطر يطلعك براءة أو بحكم بسيط .

انفجرت فجأة عاصفة من الشتائم البذيئة من الركن البعيد عن الباب .
رأيت اثنين يمسكان بخناق بعضهما البعض و يتبادلان الاتهام بالغش وقد
تأثرت حولهما أوراق كوتشينة قديمة . كان الشر يبدو على وجهيهما وبخاصة
إحد منهما نحل شعر رأسه من الجانبين و المؤخرة تاركاً جزيرة صغيرة فوق
جبهته مباشرة . ورأيت زميله يرفع يدا برزت منها مطواة صغيرة . ولحت
إصبعاً زائدا يتدلى منها إلى جوار الخنصر .

اعتدلت فى جلستى متوتراً فضحك كعب الداير قائلاً : متخفش . مش
حيحصل حاجة . وبالفعل هدأ الإثنان بعد لحظة واستأنفا اللعب وكأن شيئاً
لم يحدث .

اقترب منا شاب فى سننى يرتدى نظارة طبية سميكة ، عقد ذراعيه أمام
صدره وأخذ يضغط بهما على جسمه الهزيل . وكان وجهه شديد الشحوب
وحول عينيه حلقات سوداء .

تطلع إلى فى صمت . ولحظت أن وجه كعب الداير قد تجهم . ظل
الشاب فى مكانه وجسمه يرتعش بين الفينة والأخرى وأصابه تدك
ذراعيه . ورأيت العرق يتجمع على وجهه .

خاطبه كعب الداير فى جفاء : مفيش معاه .

ظل الشاب واقفاً وهو يتطلع إلى كأنه لم يسمع .

قال له كعب الداير : إذا كنت عاوز تاكل عندى سنوتش زيادة .

استدار الشاب مبتعداً نون كلمة . وتابعته بنظري فى استغراب .

زائلت الجهامة وجه كعب الداير وحل محلها تعبير حزين :

- متن راضى ياكل . شاي وقهوة على طول . طالب بالجامعة . ضبطوه
ببأخذ حقنة ماكس تحت الكوبرى . كانوا اثنين . هو اتحبس هنا وزميله
اتحبس فوق فى مكتب مأمور القسم وبعدين أفرجوا عنه .

قلت : كوسة ؟

قال : طبعا . أصله إبن رئيس المحكمة العليا .

وأضاف ساخرا : المسكين ده فاكّر أن صاحبه حيتوسط للإفراج عنه . ما
يعرفش أنه هو اللى حيشيل القضية كلها .

تابعت الشاب وهو ينتقل من مجموعة إلى أخرى نون أن يتوقف عند أحد
ثم يدور بالقاعة وهو يدعك ذراعيه فى غضبية .

أومأت إلى رجل وقور بلحية كثة تتدلى على صدره وقلت : من الجماعات،

مش كده ؟

ضحك : أبدا . ده سواق على نقل "سوزوكى" . حرامى .

أبديت استغرابى .

قال : وحرامى خطر كمان . إتفق مع تاجر ينقل له كمية بيض وفى
الطريق هددّه بموس وأخذ منه البيض وخمسائة جنيه .

واصل تعريفى بالباقيين : سائق سفير أعطاه شيكا بسبعة آلاف دولار
لصرفه من البنك فصرفه وترك السيارة وسافر إلى الأردن بحثا عن عمل وعندما
فشل عاد فقبض عليه فى المطار، مدير فرع فى مؤسسة حكومية لتعبئة الأغذية
وجدوا عنده كميات كبيرة من الشاي الذى انتهت مدة صلاحيته وأقر بأنه
تلقى تعليمات من رؤسائه بإعادة تعبئتها فى عبوات أخرى ببيانات جديدة ،
جزار ذبح عجلا مريضا فى المقابر ، عاطل ينتظر الترحيل إلى الزقازيق حيث

اغتنصب فتاة صغيرة هاربة من بيتها عمرها ١٥ سنة هو وإثنان من أصدقائه ،
كهل بدين فى ثياب متسخة قبض عليه لأنه يبيع مكرونة فى عربة مكشوفة .
سمعته يشكو لمغتصب الفتاة قائلا : المكرونة بتجيلنا فى براميل من
غير غطا . وكل الناس شايفها . يبقى أنا لما أبيعها عريانة أتمسك . ليه ؟
عشان مدفعتش .

أضاف بعد أن هدأ : وفيها إيه يعنى ؟ حيحصل إيه ؟ ده إحنا
شعب يهضم الزلط .

تصاعدت ضجة فى الخارج ، وتجمع المحتجون عند الباب و أخذوا يدقون
عليه . نهضت واقفا وانضمت إليهم . نادى صوت جهورى عدة أسماء ثم
ظهرالصول عند الباب وفتح ليخرج أحد المحتجين ثم أغلقه من جديد فى وجه
الآخرين الذين تزاحموا حوله . وأمكننى أن ألمح طرفا من البوابة الحديدية
الخارجية وقد تجمع عندها عدد من السيدات فى الملابس البلدية و أطفال فى
جلاليب .

تابعت النداء على الأسماء فى ترقب أملا فى سماع اسمى . و تكرر فتح
الباب و إغلاقه . وعاد البعض يحمل كيسا من الطعام وبطانية وظهر البعض الآخر
خاوى الوفاض كسيف البال . وفرش أحدهم بطانية سميكة ملونة جاعته وجلس
فوقها سعيدا أسفل عبارة سجلت على الجدار بحبر جاف : "كله من النسوان" .

انتهت الزيارة بعد ساعة و دب النشاط فى المحتجين و تجمع بعضهم حول
الطعام الذى جاءهم من أهلهم وجلست أنا وحيدا فى الركن أتأملهم . واستأنف
طالب الماكس جولاته بين الذين جاؤهم زيارات ، ثم إنكمش إلى جوار الحائط
وتكور وهو يرتعش . وبعد قليل قام أحدهم ومضى إلى النافذة ونادى على جندى

فى الخارج ثم لف ورقة مالية على شكل سىجارة مدها له من ثقب بالشبكة وأتى بكوب من البلاستيك وضعه أسفل الثقب فامتد منه خرطوم رفيع من البلاستيك إنسال منه الشاى.

سال لعابى لمنظر الشاى والتفت إلى صديقى آملا أن يشتري لنفسه كوبا ويعزمنى على واحد أو على الأقل تنوينى رشفتان من كوبه . وجدته قد إلتف ببطانية واستسلم للنوم وترددت أصوات غاضبة فى الخارج ميزت بينها صوت امرأة بلدية تصيح :

- وإيه يعنى لما أضربه ؟ داجوزى وأنا حرة فيه . محدش له دعوة .

تباعد صوتها بعد قليل وسمعت صوت إغلاق باب الحجز المجاور لنا والخاص بالنساء .

فتح بابنا بعد لحظات وانضم إلينا كهل فى ملابس بلدية فاخرة لم يكن يبدو عليه الإنزعاج كأنما ألف المكان . ولم يلبث الحارس أن فتح الباب وناولہ لحافا سميكاً وبطانية جديدة وعدة لفائف من الطعام تصاعدت منها رائحة الكباب . وكان يدعوہ بالحاج . بسط الرجل فرشته ثم فض لفافة الطعام ووجه الحديث إلى الجميع نون أن ينظر إلى واحد بالذات : تفضلوا معايا . ترددت بضع كلمات الشكر ولم يستجب أحد إلى الدعوة ويبدو أنها لم تكن جادة فلم يكررها وانقض على طعامه فى شهية وحماس .

غالبت نفسى كى لا أنظر إلى قطع اللحم والكفتة المفطاة باليقدونس وإلى أرغفة الخبز التى كان يقضم منها لقمات كبيرة وإلى أنواع السلطات التى أحاطت بالطبق . وجهت انتباهى إلى كهل فى جلباب رخيص بيكى فى صمت . واجتذبنى حديث رجل هادئ ، أصلع الرأس ، كان يحكى لجاره عن

زوجته . فهمت أنها ادعت عليه بأنه سرقها لأنه قال للقاضي أنها ما زالت بكرا وأنه لم يدخل بها حتى الآن ، فاعتبرت ذلك طعنا في شرفها .

سمعت نداءً على اسمي وظهر الصول في فرجة الباب . أشار إلى فتبعته إلى الخارج . صعدنا السلم من جديد إلى أعلى وفى هذه المرة تجاوزنا الطابق الأول وواصلنا الصعود إلى الثانى .

انطلقنا فى ممر تحف بجانبه الغرف المغلقة حتى وصلنا إلى باب بحواره لافتة تعلن عن : "ضابط المباحث "يقف أمامها رجل فى قميص وبنطلون . أشار لنا بالانتظار و طرق الباب و دخل ثم عاد بعد دقائق و أوماً لنا بالدخول .

كان ثمة سائر خشبى فى المدخل درنا حوله لتطالعنى غرفة كبيرة وصورة رئيس الجمهورية فوق شاب مديد القامة وسيم الملامح يبدو عليه أنه من أولاد الناس ، كان يتحدث فى سماعة تليفون بصوت هامس بينما يده الأخرى تنفض رماد سيجارة "كنت " فى منفضة معدنية على مكتبه . وكان يرتدى قميصا سبور مخططا من طراز "سونيتى " لم يعجبني ذوقه ، و تنبعت منه رائحة عطر "كارتييه " ، وإلى الجانب الضيق من المكتب جلس فى احترام رجل آخر فى قميص عادى بنصف كم يتشاغل بالتقليب فى بعض الأوراق .

أدى الصول التحية العسكرية وظل واقفا فى انتباه إلى أن أنهى الضابط حديثه التليفونى وأشار له بالإنصراف دون أن يرفع إليه عينيه . خرج الصول بينما ظل الضابط يتطلع إلى يده التى تنفض السيجارة و قد بدت عليه علامات التفكير العميق .

شعرت بشخص خلفى يضع كفه على قفاى و يتحسس برقة . إرتعش جسدى من اللمسة التى لم أعهد مثلها من قبل و بدت لى اليد دافئة توحى بالإطمئنان ثم سمعت صوتا يقول فى أذنى : تكلم أحسن لك .

التفت برأسي لأرد على من خاطبني فهوت يد على صدغي ، ترنحت من وقع الصفعة وكيت أقع على الأرض لكن مخبرا آخر تلقفني بين ذراعيه ، ونهرني الضابط قائلا : بص لي وجاوب بسرعة .

قلت : حاضر .

هوت يد المخبر الثاني على صدغي فأعادتنى إلى حضن الأول . قول أفندم يا ولد .

رددت بسرعة : حاضر يا أفندم .

قال : تعترف والا أعلقك ؟

قلت فى توسل : والله العظيم يا سعادة البيه أنا قلت كل حاجة زى ما حصلت .

تلقيت لكمة صاعقة فى وجهي فأضفت على الفور :

- متأخذنيش يا سعادة الباشا ، مش قصدى ، وحياة المصحف زى ما قلت أول مرة . هو اللي إدانى السلسلة من نفسه ولما حب يعتدى على شرفي دافعت عن نفسي لكن ما قصدتش أقتله أبدا ، هاتلي مصحف أحلف عليه .

ظل يتطلع إلى نون أن يتكلم فشككت أنه مسيحي .

قلت : والإنجيل يا سعادة الباشا زى ما قلت .

بدا عليه الغضب وقال : قلعوه .

شدوا بنطلوني إلى أسفل بينما تولى أحدهم ربط يدي بكباشات معدنية خلف ظهري .

خاطبني الضابط متهكما : عارف إحنا حنعمل فيك إيه ؟

انتابنى الرعب و جذبت يدي فازدادت الكليشات ضيقا حول رسغى .وجذب
أحدهم كيلوتى إلى أسفل فتضاعف رعبى . ربط به قدمى ثم أحضر طرحة
نسائية وربط بها عينى . وأخيرا رفعونى و علقونى فى النافذة بحيث ألس
الأرض بأطراف الأصابع .

جريت أن أنقل ثقل جسدى بالتناوب بين اليدين و القدمين لأخفف الألم بينما
إنهالوا على بالكرباج و الشتائم .

هتفت : ارحمونى . أنا مستعد أقول أى حاجة . بس كفاية كده . و مش
حاقول على اللى إنتو عملتوه فى . أنا عارف أنه غصب عنكم . كفاية بأه . حرام
عليكم .

شعرت بإعياء شديد و سمعت من يسبنى طاعنا فى رجولتى فلم أملك نفسى
و صحت به : أنا أرجل منك . و هنا سمعت الضابط يقول لواحد منهم : هات
الجهاز .

ربطنى المخبر بسلك فى كتفى و بدأ يضع شيئا تحت رجلى . و سمعت
صوتا يقول : الفيشة بايظة .

قال الضابط بصوت نافذ الصبر : حطه فى الثانية يا حمار .

مرت لحظات بطيئة و فجأة إخترق ساقى قضيب من النار فصرخت .
وتكررا الأمر مع الساق الثانية . أخذت أئن و شعرت فجأة بأنى أقفز من مكانى
وأطير فى الهواء . ثم غبت عن الوعي .

أفقت لإجد نفسى راقدأ على الأرض غارقا فى المياه و عاريا تماما ، و قدمائى
مربوطتين بالكيلوت ، و الكليشات فى يدي خلف ظهري كما هى ، و الغمامة تغطى
عينى .

أدركت من الأصوات المحيطة بي أن الضابط و المخبين ما زالوا موجودين ،
فخاطبتهم قائلاً : حرام عليكم ، وبدأت أبكى .

سمعت الضابط يقول : إختار إسم واحدة نندك بيه .

قلت : ليه ؟ ما أنا لى إسم !

قال : إيه رأيك فى إسم شريفة ؟ و الأ فتحة ؟

قلت : اعمل معروف .

قال : اسمع الكلام أحسن ننده لأختك و نقلعها .

قلت له : كله إلا ده . أنا مستعد أعمل أى حاجة ، أبوس رجلك .

قبل أن أغلق فمى شممت رائحة نتنة تقترب منى و بجسم غريب يستقر بين

فكى لم ألبث أن أدركت أنه قدم الضابط المكسو بجورب نتن .

لم أتمكن من تحريك فمى لكى أقبل قدمه . و سمعته يقول : إخترت إسم يا

واد؟

لم أتمكن من الإجابة . ثم سمعت لطمة و صوت أختى تصرخ : يالهوى .

صرخت : أنا معترف بكل حاجة . أنا كنت عاوز أسرقه و لما قاومنى ضربته .

وفقدت الوعى .

لم أدر بنفسى إلا و أنا جالس على الأرض وسط صمت مطبق و ما زلت مغمى

العينين ، مقيد اليدين .

مضت عدة ساعات كنت خلالها مشلول التفكير و الإرادة . ثم سمعت وقع

أقدام تقترب و صوت باب قريب يفتح . امتدت يد إلى غمامة عيني فأزالتها .

وألفيت نفسى أمام رقيب من جنود القسم طلب منى الوقوف و فك قيدي .

أسلمنى الرقيب فى صمت إلى صول وقع باستلامى على دفتر . تحاملت على
نفسى و تبعته فى صعوبة إلى الطابق الأرضى حيث يقع الحجز .

كنا فى الفجر والجميع نيام فوق المصاطب أو على الأرض حيث انفرد البعض
ببطانية فرشها تحت جسده و اشترك آخرون فى بطانية واحدة استلقى فوقها
إثنان أو ثلاثة . أما الذين لم يكن لديهم شئ فقد تمددوا على الأسفلت مباشرة
وتوسدوا أحييتهم .

وجدت مكانا إلى جوار كعب الدائر فرقدت فوق الأرض العارية و أنا أتحرك
فى حذر لأن كل عضلة وعظمة فى جسمى كانت تؤلمنى . خلعت حذاء نى ووضعته
تحت رأسى . شممت رائحة عرقى النفاذة و تقلبت عدة مرات بحثا عن جانب
مريح دون فائدة . اصطدت بضع بقات ظهرت على ملابسى فدعكتها فى
الأرض و أنا أكتم نفسى كى لا أشم رائحة دمائها . استعدت صورة فتاة سيارة
الجولف وتخيلتها ترتدى بلوزة بفتحة واسعة تكشف عن منبت ثدييها وأنى
أطاردها فى سيارة كابورليه بمقعدين وأسبقها حتى أجبرها على التوقف . عندئذ
تفتح باب سيارتها و تستدير لتغادرها فتتكشف ساقاها . إستميت على هذه
الصورة من فوق ملابسى و أنا أتطلع حولى فى حذر . ثم استدرت على جانبى
وأغلقت عينى . ورحت فى نوم عميق لم تزعجه الحشرات .

فى الصباح قاسمنى كعب الدائر إفطاره من الطعمية و الجبنة البيضاء
واستمتعت بجزء من بصلة قذف بها إلينا أحد المحبوسين فى قضية مخدرات .
رويت له ما حدث و كيف أنى سمعت صوت أختى . علق قائلا أنها قد تكون
تمثيلية من المباحث للضغط على .

اكتشفت أن طالب الماكس تبول على نفسه بالليل وأن هناك نزلاء جددا
إنضموا إلينا . كان أحدهم فلاحا من كفر الشيخ جعل يضرب كفا بكف وهو

يردد : حسبي الله ونعم الوكيل . حسبي الله ونعم الوكيل . وعندما رآني
أنظر إليه وجه إلى الحديث :

- الواد ابني بيكمل عملية مخ في أبو الريش . إديته دم . وطلعت أبات
بره على الرصيف . يقوم البوليس يمسكني في الفجر . يرضى رينا الكلام
ده ؟

كان الباقون جماعة واحدة من ثمانية أشخاص من مختلف الأعمار
والأشكال ، ملابسهم ممزقة وعليها آثار دماء . بعضهم يرتدي ملابس كاملة رغم
الحر ، والبعض الآخر جلابيب بيضاء ومع ذلك تبدو عليهم مظاهر النعمة كما
تجلى لى من الأقدام النظيفة الناعمة فى الصنادل الجلدية .

عرفت من كعب الداير أنهم كانوا يستمعون إلى درس ديني من الشيخ
عمر عبد الكافي في المسجد ، وعندما انتهى الدرس بدأ يجمع التبرعات لمسلمي
البوسنة قائلا أنه يفعل ذلك بتكليف من وزير الأوقاف وشيخ الأزهر . إعترض
هؤلاء على جمع التبرعات قائلين أنهم تأكدوا من الوزارة والأزهر عدم صحة هذا
الزعم ، فاعتدى أنصاره عليهم . وعندما أبلغ مدير المسجد الشرطة جاءت على
الفور وبدلا من إلقاء القبض على أعوان عبد الكافي ألقت القبض على
الضحايا .

عرف كعب الداير أيضا قصة الحاج صاحب الكباب ، فهو تاجر أسماك
مستوردة وجدوا في ثلاجته كمية من سمك الماكريل منتهية الصلاحية وكان
ينوى تعديل تواريخ إنتاجها وطرحها في الأسواق .

أتاح لنا الحارس الذهاب للمرحاض المكشوف حتى إنتهينا جميعا من
استخدامه على مرأى من بعضنا البعض . وعندما أعادنا إلى الحجز بدأ النداء
على أسمائنا .

لاحظت البعض يتداولون شيئاً فى سرية . وسألنى أحدهم : معاك حمام ؟

تطلعت إليه فى بلاهة : حمام إيه يا عم ؟ إحنا فى إيه ولا إيه ؟

كان صديقى يستمع فضحك وقال لى : الراجل يقصد برشام .

كنت أعرف القرص الأبيض الذى يحمل على أحد وجهيه صليبا . وهو فى

الأصل نواء أجنبى للشلل لا تصرفه الصيدلية إلا بروشتة . وهو غالى جدا .

فالقرص الواحد يشتريه صديقى زلطة الميكانيكى بثمانية جنيهات . وهو يأخذ

فى العادة قرصين كل ثلاث ساعات ويعدهما كوب شاي . وجربت تعاطيه مرة

واحدة شعرت بعدها بانبساط وجرأة رهيبتين . ولم أكرر هذه المرة لأنه مكلف

للعاية ولا يبقى أثره لليوم التالى على عكس الأنواع الأخرى . وكنت أعرف

انه يسمى أحيانا من باب التذليل " صلايش " لكنى لم أسمع من قبل

باسم " حمام " . وشرح لى كعب الداير أن المجريين يأخذونه قبل العرض

على ضابط المباحث ليساعدهم على تحمل التعذيب .

لم يرد اسم كعب الداير بين الأسماء فبدأ عليه الابتهاج وقال: معنى كده أنا

باقى هنا . يمكن أطلع على طول .

قلت له : وحياتك ما تنساش . فى أقرب فرصة . حد يزورنى ويجيب معاه أكل

وفوطه وبيجامة وغيار داخلى سكت قليلا ثم أضفت : وصابونة ضرورى وماكينه

حلاقة و أمواس وسجاير . وأضفت بعد تفكير : مش ضرورى مالبورو . يجيبوا

كليوباترة . أرخص .

كانت أمى تعرف أنى لا أدخن غير المارلبورو التى يقترب ثمنها من الأربعة

جنيهات . وكانت تتحایل دائما لتمدنى بالنقود الضرورية لأن مصروفى لم يكن

يسمح لى بشرائها بل إن أبى لم يكن يعرف أنى أدخن وإن كنت قد لاحظت

أنه بدأ يشك فى الآونة الأخيرة فضربنى وطرمنى من البيت حتى اضطرت للمبيت فى الشارع .

غادرنا الحجز من جديد وألفيت نفسى أمام الزنزانة المجاورة فوضعت عينى على الفتحة الدائرية فى بابها . رأيت عدة نساء بينهن واحدة شقراء الشعر ترتدى جوية و شيشب زنوبة أمسكت بسيجارة بين أصابعها وجلست فى الوضع الذى تفضله أمى : ثانية ساقها اليمنى أسفل فخذها الأيسر، الذى أقامته عموديا على الأيمن واستندت إليه بمرفقها . وكانت تختلف عن أمى فى السجارة التى تمسك بها بين أصابعها والكيلوت الأحمر اللون الذى ظهريين ساقها . وتربعت أخرى سميكة فى ملابس بلدية سوداء على الأرض وانطلقت تحكى وهى تشوح بيديها يمنا ويسرة فى سطوة و عنجهية . و قدرت أنها المرأة التى ضربت زوجها .

اصطففنا طابورا فى الردهة الخارجية امتد حتى الطابق الأعلى . كنت فى مقدمة الطابور وفى مواجهتى مباشرة قاعة استقبال كبيرة يجلس فى طرفها ضابط بثلاثة نجوم منهمكا فى الكتابة . لاحظت أنه يتصبب عرقا ويبذل مجهودا بالغاً فيما يفعل . وكان هناك عدد من الضباط الشبان أغلبهم بنجمة واحدة أو اثنتين يروحون ويجيئون بين المكتب وقائم خشبي مرتفع فى الجانب الآخر من القاعة صفت فوقه مجموعة من الدفاتر . تابعتهم فى إعجاب وحسد . كانت النعمة تبدو عليهم من بياض ووسامة وشياكة : الكاب الأبيض تحت الأبط ، القميص الأبيض الناصع بنصف كم ، البنطلون الأبيض الضيق الذى يكشف تفاصيل الفخذين و الأليتين ، المسدس المثبت فى جانب داخل حافظته، ومشية فيها زهو واعتداد . ولفت نظرى واحد منهم ذو وجه بيضاوى وشفاه حمراء مكتنزة حلق شعره على طريقة كابوريا .

سمعته يهتف : يا عوض . ثم يكرر يا عوض يا وسخ . يا عوض يا زفت .
ولبى النداء شاب ريفى مكتئب الوجه كان منهما فى إغراق الطريقة بالمياه
تمهيدا لمسحها . أنبه الضابط على قذارة المكتب أمره بمسحه وصفعه على
قفاه . وتناوب بقية الضباط صفعه على قفاه وهم يضحكون .

انتهى عوض من تنظيف المكتب فعاد إلى الطريقة وشرع يجرف المياه
بالمساجة الكاوتشوك حتى كومها قرب الدرج . تركها ومضى إلى قاعة
الاستقبال فأغرقها بالمياه ثم أزالها بالمساجة فتجمعت أمامها قاذورات
مختلفة كومها فى الجزء الذى نظفه من الطريقة . وتركها . واختفى .

أمرنا الحارس بأن نجلس القرفصاء . وصاح آخر فى قمة السلم :
الشحاتين والنشالين و الحرامية . الناحية دى بعدهم يتوع المخدرات
والتسعيرة . وهنا يتوع التزوير والدعارة .

توزع الجميع طبقا للأمر . واحترت أين أقف . وأخيرا تراجعت إلى
نهاية الطابور . اقترب منا حارس آخر وأخذ يضع القيود الحديدية فى أيدينا :
كل ذراع يمنى فى ذراع يسرى . وجاء نصيبى مع رجل طويل القامة يرتدى
بلوزة رخيصة وينطلقون من قماش ردى ويحمل فى يده كيسا بلاستيكا
تبدو منه رجة كوكاكولا كبيرة الحجم .

نادى أحد الحراس : بحق البنزين يا حضرات . وبدأ كل واحد يدس يده فى
جيبه متأقفا ويخرج مبلغا من المال يدفعه للحارس . وتحسست جيبى رغم أنى
لا أحمل نقودا .

جمع الحراس النقود وقانونا إلى الخارج فدسنا فى القاذورات التى خلفها
عوض وأعدنا توزيعها فى الطريقة . اتجهنا إلى سيارة نقل مخلقة الجوانب لها

فتحات صغيرة مسورة بالسلك . دفعنا الجنود بغلظة من بابها الخلفى . كان سلمه يعلو عن الأرض بنصف متر على الأقل . فوجد أغلبنا صعوبة فى القفز إليه بسبب القيود الحديدية فى أيدينا . وعندما اكتمل عددنا أغلقوا الباب علينا بالرتاج واحتل حارسان مقعدين متقابلين خارج الصندوق .

كان الزحام كثيفا داخل العربة وأوشكت أن أختنق من روائح العرق و الأفواه التى استمتع أغلبها مثلى بأكل البصل . علق أحد الواقفين :

- مش إحنا دفعنا عشان يحطونا فى عربيتين ؟

قلت له : لا . إحنا دفعنا عشان البنزين .

ضحك وقال : انت يابنى على نياتك خالص .

جاهدت حتى اقتربت من إحدى الفتحات المسورة من أجل نسمة هواء . بدالى الشارع غريبا كئى أراه لأول مرة . وتنبهت لأشياء لم أعرها إهتماما من قبل: حركة الناس و السيارات و اشكال النساء وخطواتهن المرتبكة ولحظت أن الناس تمشى كالمنومة وأن سيارتنا لم تثر إهتمام أحد .

مررنا بثلاث محطات للبنزين ، دون أن نتوقف عند إحداها .

ترجلنا أمام مديرية الأمن حيث اتجه أغلبنا إليها بينما تابعت السير على الاقدام مع جوالى العشرة فى طابور يقوده الصول و يحف به اثنان من الحراس حتى مبنى المحكمة المجاور .

ولجنا ردة غاصة بالناس . وشق لنا الصول طريقا إلى حجرة كبيرة بها أرائك خشبية و بمجرد أن دخل آخر واحد فينا بخاطبنا قائلا :

- الشاى يا حضرات .

أخرج البعض جنيهااتهم فجمعها الصول ، وكنت بين قلة لم تدفع بينهم زميلى فى القيد والكهل الباكي الذى يدعى فوزى ، ونزع الأول سداة زجاجة الكوكاكولا وأصر أن نشرب منها فروينا عطشنا رغم أنها لم تكن باردة . عرفت انه عامل بشركة شحن وتفريغ تهدم منزله فى الزلزال وأقام بمساكن الإيواء حيث حصل هو وزوجته وأطفاله الثلاث على حجرة صغيرة فى شقة من حجرتين وبورة مياه واحدة تسببت فى مشاجرات دائمة مع الأسرة التى احتلت الغرفة الأخرى وخصوصا فى الصباح عندما يستعد أطفال الأسرتين للذهاب إلى المدرسة . وفى يوم دخل جاره الحمام صباحا وظل أكثر من ساعة بينما كان الأطفال الصغار يصرخون خوفا من التأخر على الإمتحان . وعندما خرج دبت بينهما مشاجرة وتضاربا .

لمحت من فتحة فى الباب كهلا فى بدلة زرقاء من الكتان بكمين قصيرين يقتعد الأرض ويضع أمامه لفافة من ورق الصحف تضم عدة أقراص من الطعمية وعلبة مخللات ورغيفين من الخبز . اقترب منه كهل آخر فى ملابس الصولات فخطف لقمة من الخبز والتقط بها قرصا من الطعمية . وجرى ريقى وأنا أتابعهما يلتهمان الطعمية .

انفتح الباب بعد ساعة ، وتسلمنا حارس جديد قادنا إلى باب آخر ألفينا أنفسنا بعده فى القفص الحديدى بقاعة المحاكمة . وقفنا خلف شبكة من السلك تمتلئ حافتها السفلى القريبة من الأرض بالثقوب التى تسمح بمرور الأيدي . وتطلعت إلينا أنظار الجالسين فوق الدك الخشبية . وقف إلى جوارى طالب آخر بكلية الطب عثر على بطاقة اشتراك مجانية فى المواصلات ملقى فى الشارع فوضع صورته عليه ليركب الأوتوبسات مجانا إلى أن شك فيه المحصل فأمسك به وسلمه إلى الشرطة التى أحالته إلى النيابة بتهمة التزوير فى أوراق رسمية .

وتلاه شابان يرتدى أحدهما قميصا مشجرا فوق بنطلون متسخ ويمسك فى يده
بعلبة مارلبورو . والآخر بشديد السمرة قذر للغاية يرتدى بوتا يتابع ما يجرى
حوله بلامبالاة وهو يمضغ لبانة . وفهمت أنهما من لصوص السيارات .

مضت ساعة ظلت فيها منصة القاضى خالية . كانت القاعة تمتلئ فجأة
بالجالسين ثم تخلو منهم بعد قليل لتمتلئ بهم من جديد على الفور وهكذا دواليك .
ولم يظهر أحد من أهلى . وبعد ساعة أخرى دب النشاط فى القاعة . وانشقت
الأرض عن حاجب فتح بابا خلف المنصة وهو يصيح فينا : محكمة .

انفرج الباب عن ثلاثة رجال تقدموا من المنصة فاحتل اثنان منهما مقعدين
خلفها ، أحدهما ضئيل الحجم بائى الخجل و الانطواء ألقى علينا نظرة عابرة من
خلف عوينات داكنة ثم ثبت عينيه فى سطح المكتب ، والثانى شاب متأنق يرتدى
ربطة عنق ماركة "تيد لابيدوس" . أما الثالث فقد دار حول المنصة وجلس إلى
جانبها وبسط عدة ملفات أمامه وبعد أن دون عدة سطور فى إحداها بقلم " بيك "
تناول أولها وقدمه للقاضى الذى تمتم بشئ فزعق الحاجب الذى وقف تحت
المنصة مناديا بأحد الأسماء .

تتابع القضايا ، و نودى على كثيرين بينهم أبو إصبع وزميله وسائق النقل
السوزوكى وعم فوزى و الحاج آكل الكباب . ثم رفعت الجلسة بعد ساعة دون أن
يتم استدعائى أنا أو الطالب أورفيقى فى القيد . واختفى القاضى وزميله خلف
الباب الذى جاء منه . وبعد نصف ساعة سمعت اسمى وقادنى الحارس بعد
أن فك قيدي إلى غرفة المداولة .

جرى بعد كل شئ بعد ذلك بسرعة مذهلة . وبينما كنت أحاول أن أحدد نوع
العطر الذى ينبعث من زميل القاضى سألتنى هذا عما إذا كان لدى محامى .
أجبت بالنفى وقبل أن أفكر فى إعلان براءتى أعلن القاضى بصوت مرتفع :

- قررت المحكمة استمرار حبس المتهم ٤٥ يوما وإيداعه السجن .

أعادنى الحارس إلى القفص . وجاء الدور على الطالب الذى خرج من غرفة
المدافلة منهارا . بعد ذلك أعلن الحاجب القرارات فنال الحاج إفراجا بكفالة .
تصاعدت الزغاريد من أهله وتكاتف عليه عدد من الحاضرين وأخذ يوزع النقود
بلا حساب وسرعان ما اختلطت الزغاريد بالصوت عندما تليت بقية الأحكام .

خرج بنا الحارس إلى الردهة الخارجية وألفيت أُمى فجأة أمامى . بدا عليها
كأنها شاخت و تقدمت فى السن عدة سنوات . كانت ترتدى ملابس سوداء وتلف
رأسها بطرحة سوداء . احتضنتنى فى صمت و هى تبكى . وتخلصت منها فى
غضب شاعرا بالخجل من أنظار الآخرين . تطلعت حولى بحثا عن أختى و أبى
فلم أجد لهما أثرا .

غاص قلبى بين قدمى و سألتها : فىن عايذة ؟ . هى بخير؟

ردت بصوتها الباكى : بخير يا بنى .

لم أشأ أن أستوضحها السبب فى عدم حضورها أو أستفسر منها عما إذا
كانت قد تعرضت لشيء على يد ضابط المباحث . ولم تتبرع هى بأى إيضاح
فسألتها عن أختى الثانية وأبى .

- فاطمة فى الشغل وأبوك تعبان شوية . راقد من ساعة ما سمع الخبر .
سألتها كيف عرفت بمكانى فقالت أن أحد الحراس زارها وأخبرها .

- اديتيلو كام ؟

قالت : حكم دماغه على عشرة جنيه .

- وهدى أخبارها إيه ؟

- يابنى انت فى إيه واللايه .

كررت السؤال وشعرت أنها تتهرب من الإجابة .

- قوليلي ، عايز أعرف .

- يابنى ماقلتلك . مش لك .

- حصل حاجة ؟

- الظاهر اتخطبت رسمى .

جذبني الحارس من ساعدي لنصرف وسألتني أمي عما أحتاج إليه فطلبت منها نقودا . أعطتني خمسة جنيهات . أرادت أن تعطيني كيسا كبيرا من البلاستيك لكن الحارس اعترضها وأبعد يدها في عنف قائلا :

- ممنوع يا ست .

استعطفته أنا وأمي ومدت إليه يدها بورقة من فئة الخمسة جنيهات فثار . استبدلتها بعشرة جنيهات فسمح لي بأخذ الكيس . وجدته يحتوى على خبز و فاكهة وأطعمة ملفوفة في أوراق الصحف . تبينت بينها علبة تونة "شاييس" وصابونة "زست" وعلبة شاي "ليببتون" وفانلتين "جيل" ملونتين ولبان "شيكلتس" وفرشاة أسنان "سنيك" و أنبوبة معجون أسنان "كولجيت" وماكينة حلاقة "جيليت" ومعجون حلاقة "بالموليف" وجوارب تايلاندية ومنشفة للوجه .

طلبت منها أن تتصل بصديقي سيد وتخبره بمكاني وأن تجد لي محاميا شاطرا . وتركت نفسي للحارس شاعرا بالارتياح لأنى تخلصت منها .

(٢)

توقفت عربة السجن أمام بوابة ضخمة مقوسة من الخشب الثقيل تعلوها لافتة تعلن عن رسالة المؤسسة بكلمتين مقتضبتيْن هما " التأديب والإصلاح ". لم يكن ثمة محاولة للتضليل ، فالكلمتان عبرتا بدقة عن الغرض المستهدف وهو المحافظة على تدفق المنح الأمريكية الموجهة للغرض نفسه (التدفق لا التأديب والإصلاح) ، بل ومضاعفتها إن أمكن . وهو الأمر الذي تكشف لأشرف عبد العزيز سليمان منذ لحظة العبور .

فالبوابة الضخمة كانت تحتوى فى منتصفها على باب صغير بحجم القامة الإنسانية تطلب المرور منه القفز فوق حاجز خشبى بارتفاع قدم . عندئذ ألقى نفسه فى فناء مربع أقسم وسطه نصب غامض تحيط به دائرة من الحجارة الملونة مزروعة بالنجيل والزهور . بعد هذه الافتتاحية المضللة سيق إلى قاعة كبيرة ازدهمت بالوافدين الجدد وبجيوش الذباب التى كانت تقوم بعمليات إقلاع وهبوط منتظمة فوق مرحاض فى الركن ، تناثرت الإفرازات حول فتحته .

يولى الجنود تفتيش الإيراد الجديد (الذى جمعته العربة من عدة أقسام فأربى على الثلاثين محبوسا) تفتيشا دقيقا ، فقلبوا أكياس الطعام فوق الأرض ، وتحسسوا السيقان والآباط والأفخاذ ومسا بينها ، لم يبد شرف تأقفا من الأيدي التى جالت فى جسده بحرية ، مستفيدا من درس التحسس الأول على يد جون ، ولا اعترض على ما قام به الجنود من مصادرات : ماكينة الحلاقة لأن كل الأدوات المعدنية والأسلحة البيضاء ممنوعة (وهو إجراء قديم من

إجراءات الحماية يهدف إلى دعم المنتجات المحلية) ، النقود (كى لا يشتري من الكانتين الذى يبيع للنزلاء ما يحتاجون إليه من أطعمة وسجائر) ، الساعة (كى لا يخسرها فى لعب الكوتشينة) ، الخاتم (كى لا يسرقه منه أحد) ، رباط الحذاء (كى لا يشنق به نفسه فى النهاية) . وبالمقابل سُمح له باستبقاء كوتشى والمنشفة والصابون الحلو وإفافة طعام (عدا الشاى والسكر اللذين وضعا جانبا من أجل عدم إعدامهما فيما بعد) .

جلس الوافدون القرفصاء إلى جوار الحائط واضعين أكياسهم بين سيقانهم وهم يمسخون عرقهم وينشون الذباب ، ومضى بعض الوقت قبل أن يبدأ المشهد التالى . ومهد له جنديان يحملان كرسيا وضعا فى مدخل القاعة (حتى تخفف تيارات الهواء من الروائح والحرارة) ويحيث يواجه الساحة الخارجية التى تتوسطها الزهور ، وبعد قليل ظهر ضابط شاب ، رياضى الهيئة ، وسيم الطلعة ، على وجهه تعبير من الضجر الدائم ، احتل الكرسي وجلس فى استرخاء متجنباً النظر إلى الضيوف ، مثبتاً عينيه على الزهور . أعطاه أحد الجنديين دفترا فتحه وقلب صفحاته ثم بدأ ينادى منه الأسماء بصوت ملول ، وجاء دور الحلاق فى الملابس الخضراء التى تميز المساجين ، فمر عليهم فى عجلة كشفت عن خبرة مع البهائم فى سوق القرية .

تابع شرف باهتمام عملية الحلاقة ولاحظ منزعجا أن الحلاق يطلق آله بقوة فى الرأس ويجردها من الشعر تجريدا تاما فى حركتين سريعتين . كما لاحظ أيضا أنه يرق أحيانا فيأخذ من أحدهم علبة سجائر ، عينى عينك تحت بصر الضابط ، ويستبدل آله بمقض يعالج به الشعر فى رفق .

كان كعب الداير قد نصحه باستبدال المارلبورو بكليوباترة ، لأن الملكة المصرية فضلا عن رخصتها بالمقارنة مع الكاوبوى الأميركى ، هى العملة

السائدة في مؤسسة التربية . هكذا كان شرف مستعدا للتضحية بعلية كاملة للحيلولة دون الإستئصال الوحشى للشعر الذى عانى كثيرا فى تربيته ومحاولة تطويعه للمودة المتقلبة . فأعطى الحلاق علبة سجاثر عندما بلغه و هو يتوسل إليه :

- و حياتك تخف إيدك شوية .

استخدم الحلاق مقصه فى رفق فتساقطت الخصلات الثمينة على الأرض . وكما يحدث فى أمثال هذه الصفقات ، لم يتجاوز ما فاز به شرف من شعر طبقة لا يزيد سمكها عن سنتيمتر واحد .

بعد الحلاقة جاء دور التصوير ثم القرفصة من جديد ، لتبدأ نمرة الصول . كان هذا كهلا ذا كرش ضخمة ، يدعى لسبب غير مفهوم "عقرة" ، قام بتقسيمهم إلى مجموعات طبقا للتهمة مستعينا فى ذلك بعصا رفيعة فى يده إتخذها من فرع شجرة . و عندما إنتهت تلك العملية أعاد لخبطتهم من أجل تقسيم من نوع آخر:

- الى عاوز يدخل عنبر الميرى شمال واللى عاوز الملكى يمين .

توقف لحظة محسوبة ثم تعطف فشرح المقصود بالمصطلحين : الملكى يهنى تاكل وتلبس زى ما انت عايز . والميرى تلبس بدلة السجن وتاكل عيش وجبنة وتشتغل كل يوم عند بتوع الملكى .

لمزيد من الايضاح حول الفرق بين القطاعين الخاص والعام أضاف الصول أن الشغل المقصود هو تنظيف الزنازين وتفريغ دلاء البول والخراء .

انقسموا على الفور إلى مجموعتين ، واحدة صغيرة تألفت فيما يبدو من القادرين - كان بينهم طالب الجامعة المدمن وصاحب التى شيرت -

وأخرى أكبر من الرعاع تضم صاحب الأصبع . السادس و زميله و عم فوزى
الدائم البكاء ، وشاب فى قميص مزركش و نظارة طبية مذهبة وآخرين . وجاء
وضع شرف فى منزلة بين المنزلتين .

هل إنتهى الأمر ؟ ليس بعد .

صاح الصول بأعلى صوته : ألى عاوز ملكى يقدم طلب على عرضحال
دمغة .

بدأ القادرون كتابة الإلتماسات التى وزعها عليهم أحد الحراس بثمنها :
ثلاثة علب سجائر للواحد . ولح الصول شرف وأقفا على حدة فصرخ فيه :
إنت واقف كده ليه زى اللطع ؟

اعترف اللطع بأنه لا يعرف موقف أهله من هذا الأويشن ، وأنه لا
يستطيع أن يحسم الأمر قبل أن يأخذ رأيهم ، طالما أنهم سيدفعون الثمن .
ضحك الصول وقال : شالله يأهلى .. خش يا خويا ع الميرى لغاية ما يبقوا
بيعتوك .

انضم إليهم و وقفوا ينتظرون حتى إنتهت كتابة الإلتماسات وقام الصول
بمراجعتها . وإذا به يصرخ غاضبا ، وتنهمر الشتائم من فمه . لم يكن ثمة
خطأ فى محتوى الإلتماسات . الخطأ كان فى حصيلة ثمنها . وأثمرت ثورة الصول
محاولة تصحيح متواضعة . وفى النهاية تم اقتياد الجميع إلى الحمام حيث
تعرض شرف لأول تجربة من نوعها فى حياته : أن يقف عاريا بين العراة .
حاول بالطبع أن يحمى خصوصيته بكفيه . لكنه إضطرب لإستخدامهما بعد
قليل لدعك جسمه بصنابونة سوداء متحجرة أسفل مياه الدش الساخنة .
ودفعه الحياء (و محدودية التجربة أيضا) إلى أن يستدير مواجهها الحائط ،
حاميا بذلك خصوصيته ، ومقدما للآخرين أعز ما يملك .

ارتدى المليون ملابسهم و انصرفوا إلى عنبرهم ، بينما اقتيد أهل الميرى إلى غرفة "الأمانات" حيث خلعوا ملابسهم ووضعت في أكياس بأرقامهم . كان أغلبها خرقا بالية لن تتحمل لبستين آخرين أوقذرة لدرجة لا يصلح معها تنظيف، وما كان أصحابها أنفسهم يعارضون لو شاء السجن إعدامها . لكن المؤسسة، فيما يبدو ، كانت متعنتة في أمانتها . ولهذا السبب قدمت إليهم خرقا بالية من مودة مختلفة عبارة عن رداء من الدمور السادة أبيض اللون يتألف من أربع قطع : قميص مثل الفانلة بلا أكمام ، قميص مثل البلوزة بكمين طويلين وفتحة صغيرة عند الرقبة ، بنطلون يعقد بواسطة شريط من نفس القماش أشبه بالحبل ، وطاقية مثل الكاب . لم يكن ثمة كيلوت إذ قدرت المؤسسة أن المحبوسين (بالنظر إلى طبيعة الظروف التي جاءت بأغلبهم ، وما ينتظرهم من تأديب و اصلاح) لن يكونوا بحاجة إليه .

لم يكن أشرف عبد العزيز ، الخبير بالملابس وأنواعها ، وتقلبات موداتها ، جاهزا لرداء لا يتناسب فقط مع حجم لابسه وإنما يتألف أيضا من قطع غير متناسقة . ولا تردد في الجهر برأيه .

قال للحارس منفعلا وهو يتأمل البلوزة التي تستوعب نزليين في أن والبنطلون الذي غطى ركبتيه بالكاد :

- مش مقاسى .

على كثرة الغرائب التي مرت بالحارس في حياته السجنية ، لم يسبق له أن استمع إلى وجهة نظر من هذا النوع . وكان رد فعله طبيعيا . هوى بيده على قفا الشاب وهو يقول :

- حاضر . حشوفلك مقاسك حالا . شيل ثمرتك وقدامى ع الزنزانة .

كانت الصفعة إشارة لبقية الحراس بأن عملية التأديب والإصلاح قد بدأت، فانهالت الصفعات تقود النزلاء الجدد إلى عنبرهم .

حمل كل منهم "نمرقه" على كتفه : بطانيتين رثتين وبرش (سجادة من الليف الخشن المجدول كقيلة بتذكير النائم فوقها بما ارتكب من جرائم) وحملوا أكياس الطعام والحاجيات الأخرى في أيديهم وخرجوا إلى الفناء حيث كان الضابط المفرم بالزهور قد نقل كرسيه (أو بالأحرى نقل له) إلى ظل مبنى صغير من طابق واحد رصت أواني الزهور حول مدخله . وبدأ العبور الثاني في هذا اليوم . . .

لم يكن اجتيازاً لعائق واحد كما كان شأن الأول ، فالفناء انتهى ببوابة كبيرة من القضبان الحديدية ثم فناء آخر على صورة مربع يتوسطه مبنى قديم من الحجارة السمكية المطلية بألوان جيرية كالحة له باب حديدي ضخمة انفرج عن رائحة عفنة طاغية ذكرت شرف بالملابس المتسخة إذا ما تسلفت إليها الرطوبة أو المياه وتركت عدة أيام في حاوية مغلقة ، كما دأبت أمه على أن تفعل .

امتدت أمامهم ردهة طويلة صفت الزنازين على جانبيها وتوسطها سلم حديدي يؤدي إلى الأنوار العليا . وكان ثمة لافتة خشبية تحمل كلمة " الإيراد " ، كتبت بالطباشير في خط ركيك ، بجوار عدد من الزنازين إتجه إليها الحارس ، دس مفتاحه الحديدي الكبير بعنف في قفل أول باب محدثاً صليلاً مدوياً ، ثم دفعه إلى الداخل ، وتنحى جانباً دون أن يتخلى عن المفتاح في قفله .

فاحت رائحة العطن مركزة هذه المرة ، وتيدى عدد من أصحاب الأردية البيضاء يفترشون الأرض ، نهض أحدهم وكان طويلاً نحيفاً بكرش بارز يجعله يبدو كالمرأة الحامل في شهرها الخامس فتقدم للقاء الوافدين وهو يمد يده

بعلبة مارلبورو لا إليهم وإنما إلى الحارس الذي لم يكتف بسجارة وضعها في فمه وإنما التقط أخرى أودعها خلف أذنه ، وأشار إلى أقرب خمسة من رعيته بالدخول ، ثم انسحب في صمت مغلقا الباب خلفه ، منتقلا إلى الزنزانة المجاورة .

وقف الخمسة في مدخل الزنزانة وحاجياتهم في أيديهم وعلى أكتافهم : شرف ، الشاب ذو النظارة المذهبة ، أبوإصبع (ولهذا يدعى بلحة) ، زميله سعد صلصة ، عم فوزي دائم البكاء - وكما يفعل الدجاج المذعور عندما يدخل العشة تدانوا من بعضهم البعض وأخذوا يتبادلون النظرات مع القاطنين ، الذين لم تبدر منهم إشارة ترحيب بمن سيضيئون عليهم فسحة المكان

خطا صاحب "المالبورو" إلى منتصف الزنزانة وقال في حزم :

- أنا بطشة نبطشي الزنزانة . كل واحد له بلاطتين ونصف عرض وسبع بلاطات طول ، ولا سنتي زيادة .

إذا كان هذا البيان السنيادي قد فهم من قبل المجريين أمثال بلحة و زميله ، فإن الآخرين ظلوا يتطلعون في بلاهة إلى المتكلم الذي خص بحديثه أقربهم إليه ، صاحب النظارة المذهبة الإطار ، صبرني ، الذي فقد قميصه المزركش وبدأ ضئيلا منكسرا في رداء السجّج غير المتناسق ، فقرب منه رأسه وتأمل متحديا :

- إيه ، مش عاجبك ؟

وقبل أن يتاح له ايضاح موقفه صفعه

رفع المسكين يده إلى خده في استكانة بينما تطلع بطشة حوله ميتصرا . لم يكن قد صدر عنهم ما يبرر هذه المواجهة ، لكنها كانت الطريقة الوحيدة المتاحة

أمام شخص فى أهمية النبطشى ، أى المناوب بالتركية المصرية ، كى يعلن عن (ويؤكد) منصبه الذى يجعله بسبب سجله الحافل ، حارسا غير رسمى ، أو ممثلا شخصيا للحارس ، وفى العمق ، أى أن درجة تمثيله تمتد إلى من يقف خلف الحارس (أو أمامه حسب منظور الرؤية) ابتداء بالوصول ثم الضابط ويعدده وكيل السجن ثم مديره صعودا حتى وزير الداخلية ورئيس الوزراء .

تشاغل الضيوف بمسح عرقهم الذى أسالته حرارة الجو والاستقبال حتى انتهى القدامى من تحريك الفرشات (النمر) ليفسحوا لهم مجالا طبعا للقانون العصامى الذى يقضى بأن يبدأ الجدد من القاع (وهو هنا الباب ودلو البول الموضوع إلى جواره) . وكان بلحة وصلصة على معرفة بالقانون فقفزا إلى الداخل تاركين زملائهم حيارى فى المدخل . ولأنه أصغر الجميع فى السن ، استقر شرف فى نهاية المطاف إلى جوار الدلو (مشرفا على تشكيلة فريدة من النعال يصعب نسبة أى منها إلى ماركة معروفة) .

أحصى شرف ستة من السكان القدامى ، لم يكن من السهل تمييزهم لأول وهلة ، فالملابس البيضاء متمائلة وكذلك الوجوه السمراء . لكنه تعرف بعد لحظة على سائق السوزوكى بلحيته الكثة ومسبحته (وكان يحتل أحد الركنين الاستراتيجيين) ، وميز شابا ذا وجه شديد الشحوب ، وآخر أسود البشرة ورابع بلحية مشذبة تدور بوجهه ولا تحتل سوى شريط ضيق من الوجنتين والذقن .

هل إنتهت إجراءات الدخول ؟ ليس بعد .

دار المفتاح مرة أخرى فى قفل الباب وظهر حارس ضخم الجثة غريب المنظر !

إذ تألف جسمه من عدة انبعاجات فى اتجاهات مختلفة .

رحب به بطشة قائلاً : مساء الخير يا بو على ، ثم التفت إلى النزلاء الجدد وصاح :

- كل واحد يطلع علبة سجائر .

تجلت على الفور فائدة الصفعة التي نالها صاحب النظارة المذهبة ، إذ سارع الجميع بتنفيذ أوامر النوبتجي الذي جمع العلب وقدمها للشاويش " بَعَجَر " . وانسحب هذا بعد أن أخذ العلب دون أن يفه بكلمة تاركا الباب مفتوحا .

لم يتبرع بطشة بأي إيضاح لنوعية الرسوم المدفوعة ، ولم يخطر لأى من النزلاء الجدد أن يستفسر عن الأمر ، على أنهم سيعرفون فيما بعد انها حلوة المفتاح وهي احدى رسوم الريسبشن التى يحصل عليها شاويش العنبر من كل وافد جديد .

لكن الحلوة مثل الصفعة كانت تهدف إلى توصيل رسالة هامة . وكانت هذه الرسالة فى منتصف الطريق إلى أدمغة الضيوف الذين تبادلوا نظرات متفهمة ، عندما نادى الحارس على بطشة فغادر الزنزانة وعاد فى صحبة مسجون قذر الهيئة حافى القدمين يجر دلو معدنيا من النوع الذى جلس شرف إلى جواره ، تتصاعد منه أبخرة الطعام لا البول ، وتبرز منه يد مغرفة . تناول أحد النزلاء ثلاث "قروانات" (وهى أطباق غويطة من الألومنيوم) وهرع بها إلى صاحب الدلو الذى ملأها بسائل أسود تعلوه طبقة زيتية . وانتقل الدلو إلى الزنزانة التالية وحل محله دلو آخر من الحجارة البيضاء تشبه الجبن القريش وتغطيها الشوائب . ثم ظهر ثالث (سجين لا دلو) يجر بطانية كبيرة فوق الأرض إحتوت على أكوام من أرغفة الخبز أعطي ثلاثة منها لكل نزير .

انطلق صوت بعيد يردد : تمام ، أعقبه صوت إصطدام المفتاح فى قفل زنزانة .
وتكرر الصوتان وهما يقتربان ، ثم ظهر الشاويش بعجر فى صحبة بطشة .
ودخل الأخير حاملا زجاجة مياه مثلجة تحت إبطه ثم قام الشاويش بإحصاء
العدد وهتف مرة أخرى : تمام . وأغلق الباب بالمفتاح قبل أن ينتقل إلى
الزنزانة التالية .

لم يرفع شرف عينيه عن زجاجة المياه وآثار برودتها المنعكسة على
جدرانها ولعله لم يشعر بالعطش فى حياته كما شعر به الآن . لكن
السبيل كان ممتنعا عليه وتعين عليه أن يقنع بزجاجة بلاستيكية أخرى
فوق دلو المياه فمد يده إليها ورفعها إلى شفتيه ، متجاهلا دفتها، ولم يكد
يجرع رشفتين حتى فوجئ بيد بطشة تنتزعها بعنف وصوته يصرخ :

- إنت حتشرب المية كلها .. عندك الجردل اشرب منه .

كان يشير إلى دلو مماثل لدلو البول وضع فى الناحية الأخرى من الباب
يعلوه غطاء معدنى استقر فوقه كوب معدنى نوأذن . نهض شرف وتناول
الكوب و أزاح الغطاء وتطلع داخل الدلو . كان ممتلئا بالمياه إلى قرب حافته .
وإنعكس الضوء على سطحها كاشفا عن طبقة زيتية خفيفة تمرح فيها
الكائنات الدقيقة . فى الظروف العادية ما كان شرف ليتنازل عن كوب المياه
المثلج تحمله إليه أمه أو إحدى أختيه ، لكن الله غالب . غالب اشمئزازه
وغمس الكوب فى المياه . وفى اللحظة التى بدأ يتجرع فيها الماء عادت
الرسالة تشق طريقها إلى أدمغة الضيوف ، واختار بطشة هذه اللحظة ليعلن
أن ملأ جرادل الماء وتفريغ جرادل البول يتم بالدور وأن هذا الدور يبدأ من الغد
بشرف . ساعد هذا الإعلان على وصول الرسالة بسرعة ، فتقاربت رؤوس

الضيوف ثم أخرج كل منهم عليه سجائر وباتفاق صامت عهدوا بها إلى محمد بلحة ، بعد أن توسموا فيه (بسبب إصبعه السادس) أنه المؤهل مهنيا بينهم ، ليقدّمها باسمهم إلى السيد المناوب .

كان هذا قد إرتقى عرشه في الركن الاستراتيجي (الذي لا يصل إليه بصر المار في الطريقة إذا كان الباب مفتوحا ولا المتلصص من خلف الباب إذا كان مغلقا) الذي أتاح له أن يستولى على جدارين في آن واحد رتب المساند الكافية لهما : أكياس ولفافات عديدة ويطاطين قديمة ، بينما تألفت قاعدة العرش من طبقة سميكة من عدة بطاطين جديدة مازالت محتفظة بوبرها جلس فوقها بالطريقة المناسبة : الساق اليسرى مثنية ومستقرة في إسترخاء على الأرض تحت اليمنى القائمة وفوقها الذراع اليمنى تحمل في نهايتها سيجارة بين اظفرين متسخين . الذراع اليسرى كانت في المكان المتوقع ، في نقطة ملائمة تسمح لأصابعها أن تعبث بالتبادل بأصابع القدمين في ناحية والأجهزة الإخراجية في الناحية أخرى . نفس الوضع الذي اتخذه أسلافه من الولاة والسلاطين و الخلفاء عندما كانوا يتلقون خراج الولايات والأقاليم والأمصار .

تلقى النويتجي الهدية المتواضعة من ممثل الوافدين في غير مبالاة إذ ناولها لوزيره - النحيف مثله لكن أقصر وله أنف متورمة وشفاه متشققة وكتفين محدبتين - الذي أودعها في نشاط أحد الأكياس الغامضة المدسوسة في غياهب نمرة رئيسه .

شرع النؤلاء يعدون نمرهم فبسطوا الأبراش والبطاطين وطووها بطريقة معينة فشل شرف في تقليدها . وهنا هب إلى نجدته جاره صبرى ، الذي

وسعت مدرسة الجندي مداركه ، فطوى إحدى البطانيتين ثلاث طيات وفرشها فوق البرش واقترح عليه أن يجعل الثانية وسادة إلى أن يتغير الطقس فيتغطى بها.

انقسم القدامى إلى مجموعتين بسطت كل واحدة أطعمتها أمامها . وتجمع الخمسة قرب المدخل ، وجردل البول ، حول القروانة ذات السائل الأسود . أخرج كل منهم ما لديه فتكونت مائدة حافلة من البقايا : أنصاف وأرباع ساندوتشات الفول والجبن وأقراص الطعمية وأكياس الشيبسى . قامت جيوش الذباب بعملية إنزال ساحقة ، على الطريقة الإسرائيلية ، انضمت إليها قوات أرضية من صراصير صغيرة الحجم داكنة اللون خرجت من خلف دلو البول الذى فاحت رائحته النفاذة ، فلم يشعر شرف برغبة فى الأكل . بلحة الذى عاد للتو من سفارته شاعرا بأهميته ، هو الذى أخذ على عاتقه قيادتهم فهش الذباب بيد ومد الأخرى إلى " نصف فول " أمام شرف ورفعته إلى فمه قائلا :
بسم الله .

كانت المائدة متواضعة بالقياس لمائدة المجموعة التى تزعمها بطشة وضمت معاونيه وسامبو . أو الأخرى التى ضمت الملتحيين والشباب ذا الوجه الشاحب . ما كان يميز المائدتين (ويساوى بينهما) هى المختارات التى تألفت منها : جزء من دجاجة ، أربع قطع من محشى ورق العنب ، قطعة من مكرونة الفرن ، إصبعان من الكفتة وأشياء أخرى (منها ربع صينية كنافة أمام بطشة) تمثل حصيلة اليوم من الأطعمة الوافدة إلى عنبر الملوك . وبهذا لم يعوبوا فى حاجة لقروانة السائل الأسود ، وصار باستطاعة النوبتجى أن يبدى رضاه عن الهدية التى تلقاها ، فأشار لمعاونه أن يعطى القروانة للضيوف ، قائلا فى نبرة لم تخل من تهكم :

تناولوا منه قروانة السائل ذا اللقب التركى ، لكن أحدا منهم لم يقربها .
تظاهروا بالإنهماك فى الأكل بينما كانوا يرقبونهُ هو ومجموعته وهى متابعة
إستمع بها النوبتجى وحرص على إستمرارها . ففى لحظة توقيت دقيقة ،
انتهى فيها الضيوف من ساندوتشاتهم وأخذوا يحدقون بمشاعر ملتبسة
إلى محتويات القروانتين ، مد يده إلى أحد أكياسه وهو يتطلع إليهم
ليتأكد أن المشهد لن يفوتهم ، واستخرج علبة من الطعام المحفوظ ، أعطاها
لمعاونته الذى عكف على مهمته فى نشاط : وضع العلبة فوق أرض الزنزانة
وأخذ يحكها فى قوة حتى تاكلت حافتها ثم رفعها وقلبها وضغط على سطحها
بيده فسقط داخله . تناول الغطاء بأصبعه ووضعها جانبا ثم أفرغ محتويات
العلبة فى صحن معدنى واستقر اثنا عشر زوجا من الأعين على السمكات
الأربعة التى رقدت فى صلصتها .

انضمت عين جديدة من خلف الباب ، ظهرت فى فتحة دائرية صغيرة
بمنتصفه استقبلها النوبتجى بالهتاف : مساء الخير على غفرالليل . تراجعت
العين وظهر مكانها فم ردد : مساء الورد . وعلى الفور قام بطشة وألقم الفم
سجارة . انسحب الفم بالسيجارة وانسدل الغطاء فوق العين السحرية ثم تكررت
التحية المتبادلة عند الزنزانة التالية .

انتهى طقس الأكل وأشعل المدخنون سجائرهم . وتولى معاون ، صنقر ، إدارة
الطقس التالى : خلع قميصه معريا صدره وأفرغ محتويات قروانتين من
السائل الأسود فى دلو البول ثم وضعهما إلى جواره مقلوبتين ومتباعدين قليلا ،
واستخرج من مخلاة كبيرة معلقة فوق رأس سيده برادا صغيرا من الألومنيوم

وعلبة معدنية صغيرة وبضع شرائط من القماش ، ومن خلف جردل البول قنينة زجاجية فى حجم زجاجة الكولا ، ومن جيبه علبة ثقاب . وضع كل هذه المعدات على الأرض إلى جوار دلو البول وقرص أمام القروانتين . فتح العلبة المعدنية واستخرج منها لفافتين من الورق : أفرغ من الأولى فى البراد قدر ملعقتين من الشاي ومن الثانية حفنة من السكر، ثم أعادهما إلى العلبة وملاً البراد من مياه الشرب ووضعها جانبا . وجه اهتمامه إلى بقية المعدات فضبط وضع القروانتين وبلل القماش بمحتويات القنينة الزجاجية ودعكه بين كفيه ثم ألقى به بين القروانتين وأضرم فيه النار من عود ثقاب . وعندئذ تناول البراد فأقامه فوق النيران مستندا إلى حافتي القروانتين .

قام صنقر بهذه العمليات فى دقة تامة ومهارة عالية فاستحق المكافأة فى صورة سيجارة قدمها إليه سيده وهو يتطلع إلى الجمهور قائلا : ولع يا صنقر .

اهتز صنقر فى جلسته يمينا ثم يسارا كأنما يقف وراء النصبة فى مقهى حقيقى و تناول السيجارة قائلا : تسلم إيدك يا معلمى . تبادل التدخين عدة مرات قبل أن يتعطف النوبتجى ويقدمها إلى سامبو الذى كان منهما فى غسيل علتين فارغتين من علب السالمون وكوب من البلاستيك له أذن جانبية ، أفرغ فيها صنقر الشاي طبقا للقواعد : كوب البلاستيك للرئاسة ، علبة سالمون ينتهى الشاي قبل حافتها باصبع سامبو، وعلبة سالمون ، مملوءة حتى الحافة بطبيعة الحال ، لصنقر شخصيا .

انتقل البراد للمجموعة الثانية وتولى الشيخ سوزوكى إعداد الشاي . خلال ذلك قام بلحة بمفاوضات مكوكية بين بطشة والضيوف أسفرت عن

تلقية من الشاي والسكر والوقود) بضع قطرات من محتويات القنية الزجاجية
المؤلفة من الطبقة الزيتية التي تعلو محتويات دلاء الطعام (مقابل سجاائر
جمعها من زملائه الأربعة ، وتولى خبيراً آخر نو تجرية هو سعد صلصة إعداد
الشاي وتوزيعه .

هكذا وصلت علبة السالمون أخيراً إلى قم شرف الذى تلقى فى الدقائق
الأخيرة الرذاذ الناجم عن عمليات الغسيل فوق جردل البول ، فأراح رأسه
على الجدار ومضى يرتشف محتوياتها فى تلىذ ، دون أن يعبأ بالطعم الكارف ،
من جراء دخان الوقود ، وانصرف إلى متابعة المباريات .

كانت ثلاثاً : واحدة للأيدى والثانية للأنف والثالثة للسان . فبينما كان ورق
الكوتشينة ينتقل فى سرعة خاطفة بين الأرض وأيدى سوزوكى والشاب ذى
الوجه الشاحب ، مشفوعاً بالسجاائر التى إتخذها عملة للمكسب والخسارة ،
تحلقت جماعة بطشة ، فى مقر قيادته ، حول طبق كبير من البلاستيك به
أقراص بيضاء مثل أقراص الأسبيرين تولى صنقر طحنها بملعقة ثم قسم
الطحين إلى أكوام صغيرة . وكان بطشة مستعداً بورقة لفها على شكل
سيجارة وهو يتطلع إلى الضيوف ليتأكد من متابعتهم لما يفعل من أعاجيب
ثم دس أحد طرفى الورقة فى كوم وأخذ يستنشق حتى أتى على نصيبه فنال
الطبق لصنقر ، واضطجع على وسائده تاركاً للمسحوق أن يفعل فعله ،
ومفتحاً المباراة الثالثة :

القرص الواحد بعلة سجاير يا بلاش . يعمل دماغ حلوة . يخليك
تنسى كل حاجة والوقت يعدى من غير ما تحس .

لن خالجه بعض التردد أو شاء الإستزادة فى المعلومات أضاف المعاون:

- فى أقراص ثانية تودى فى داهية . أخذت منها مرة عشرة أقراص مرة واحدة وروحت . يقوم يحصل إيه ؟

أدلى سامبو بالمداخلة المطلوية : يعنى حىحصل إيه يا خى . مالحنّا عارفين اللى فيها .

واصل صنقر دون أن يهتم : الولية مراتى فتحتلى . رحى قالى ملط على طول .

هلل المستمعون وتوالت التعليقات إلى أن تبرع صنقر بالإيضاح :
- جريت على الدولاى . فتحته ودخلت جواه . ورحى قافل الباب على وقاعد .

انفجرت عاصفة من الضحك والتهليل ضاعفها بطشة عندما روى كيف تهباً للمعلم حنكوشة أن السلم أمامه فالتقى بنفسه من الطابق الرابع ونزل حقت فى قناء العنبر . والظاهر أن مصير المعلم حنكوشة كان محملاً باغراء لا يقاوم بالنسبة لبلحة وصلصة إذ أحذا يزحفان حتى بلغا الرئاسة ، وحصلوا على استنشاقه ، أجريا بعدها مفاوضات هامة بشأن استمرار التمويل ثم عادا إلى قاعدتهما ليستمتعا بالنتائج : دور جديد من الشاى ونزاع غامض ما لبث أن فضح سرهما . فبعد أن حمل صلصة زميله مسئولية التهمة التى يواجهانها تكشف التفاصيل : صعدا إلى إحدى سيارات الركاب القادمة من الأقاليم وأشهرا المطاوى وجمعا تحت تهديد ما يحمله الركاب من نقود وساعات . وعندما أراد أحد الأغبياء ، واد تلميذ ، المقاومة وجه إليه بلحة عدة طعنات أودت بحياته .

أرهف بقية الضيوف أسماعهم وهم يتبادلون النظرات . وشعر صلصة بالأمر
فلزم الصمت فجأة وهو ينقل البصر بين شرف وجاره المصفوع في حدة
أثارت قلقهما ودفعت شرف إلى تشغيل لسانه فسأله عن السبب في إسمه .
تجهم وجهه وتبرع بلحة بالإجابة : أصله من صغره غاوى يسرق علب
الصلصة .

إنفجر ضاحكا وهو يتطلع إلى مستمعيه منتظرا مشاركتهم وهي ما انتووه .
وبالفعل فتحوا أفواههم لكن النظرة الباردة في عيني صلصة كتمت الضحك فيها
وتركتها فاعرة في بلاهة . وتدارك بلحة الأمر فسأل أشرف عما أتى به . استمعوا
إلى قصته في اهتمام أسفر عن تنشيط للكاتب القانونية : أكد صبرى
فرصة أشرف في النجاة لأن القانون يبرئ الشخص الذى يقتل دفاعا عن
النفس، فما بالك بالدفاع عن الشرف ؟ وهز صلصة رأسه متشككا وقال بلهجة
العليم :

- لو ماكانش اعترف كان نفذ .

روى بلحة حادثة مشابهة ، تعرض فيها صديق له لاعتداء راح ضحيته لكن
القاتل فاز بالبراءة لأن محاميه أثبت أن القتل كان مسلحا وبادر بالهجوم .
وسرد سعد صلصة عدة وقائع نال فيها المعتد البراءة أو حكما مخففا لأن القاضى
لم يجد دليلا على نية مدبرة .

قال صبرى : الأسبوع اللى فات واحد دبح مراته عشان لقاها نايمة مع واحد.
تفتكروا خد إيه ؟

هتفكروا جميعا فى صوت واحد : إيه ؟

تطلع إليهم منتصرا : براءة .

إنتعشت آمال شرف فقال متكلفا الضحك و هو يتلمس صدى كلامه في

عيونهم : المهم الواحد ميخدش إعدام .

- يا راجل تف من بقل . أقصاها سبع سنين .

جاء التعليق العنيف من سامبو ، الذي قرر أن يأخذ حقه ، فلوضع أن

الدفاع عن الشرف له أوجه مختلفة ، هو واحد منها : المهنة نقاش والحكاية

بدأت بعلاقة مع زوجة خفير في التبين . ما إن يغادر الخفير منزله ليقوم

بالحراسة في مدينة ١٥ مايو ، حتى يتسلل سامبو داخلا ليقوم بالواجب ، إلى

أن وقع المحذور . ففي إحدى الليالي قرر الخفير أن يقوم بالواجب بدلا من

الحراسة ، وعندما وصل النقاش فوجئ بوجود الزوج الذي قرر ، بالطبع ، أن

يدافع عن شرفه . وكان من الممكن أن تكون النتيجة كلاسيكية لولا تدخل

الزوجة التي عالجت زوجها بضربة على رأسه بالهون أتاح للعشيق أن ينهال

عليه طعنا بسكين المطبخ حتى أجهز عليه .

تبارى المتخصصون في التكيف القانوني للحادث قطعه صوت جهورى

في الخارج صاح في لهجة أمرة : عنبر كله يسمع ..

صاح بطشة بدوره : اسكت إنت وهو خلونا نسمع النشرة .

كرر الصوت الجهورى : عنبر كله يسمع .. بعد مساء الخير على المساجين

على حرس الليل .. النشرة يحييكم و يقدم الوصف التفصيلي للخارجين بكرة ..

وصمت لحظة ثم صاح فجأة : ردوا ورايا .. يا رب الخارجين بكرة يروحوا

ما يرجعوا .. آمين .

رددت كل الزنازين الدعاء خلفه . وبدت يا رب وأمين خارجة من أعماق القلوب
النقية التائبة . ثم ساد الصمت وأنصت الجميع للأسماء والجهة المستدعى
إليها أصحابها ، تليت باللهجة التي يستخدمها الراديو عند إذاعة أسماء
الناجحين في الثانوية العامة . وبعد أكثر من خمسة عشر اسما قال المذيع في
أدب جم : أشكركم لحسن الاستماع و عقبال ما تروّحوا جميعا .

ساد الزنزانة الوجوم الذى يتلو إذاعة نتائج الثانوية العامة . وتذكر البعض
ربهم فاصطفوا لصلاة العشاء خلف صاحب اللحية المشذبة . وأشعل
المدخنون سجائر جديدة وأسند شرف ظهره إلى الجدار ثانيا ساقبه بحيث
تصبح ركبتاه فى مستوى ذقنه . كان الحر لا يطاق و الذباب لصوحا بطئ
الحركة لا يحفل بمحاولة إبعاده أو قتله فراودته الرغبة فى أن يخلع ستورته
السجنية ويعرى صدره و ذراعيه كما فعل صنقر أمام النار . لكن نظرة
غامضة ، ليست الأولى ، من سوزوكى ، مصحوية بابتسامة ودية ، جعلته يحجم
عن ذلك . واكتفى بأن يتطلع فى حسد إلى ورقة الكرتون التى كان بطشة
يروح بها عن وجهه متنازلا عنها لأحد الجالسين حوله بين الحين والآخر فيما
خاله شرف أريحية إلى أن تبين حقيقة الموقف عندما لاحظ أن من يأخذ
الكرتونة يستخدمها فى التهوية ، لا عن نفسه ، وإنما عن بطشة .

بدا الجميع عازفين عن استئناف المباريات وهى اللحظة التى يعرفها حارس
الليل بالتجربة ولهذا إختارها ليظهر مرتين . فى الأولى أعلن عن نفسه بواسطة
راديو ترازستور صغير وضعه بين القضبان التى تتألف منها شراعة الباب وأداره
على أغنية لأم كلثوم انتزعت صيحات الإعجاب والتهليل بالإضافة إلى سيجارة
من كل مستمع . وفى الثانية أغلق الراديو عندما أوشكت الأغنية على الانتهاء
وسحبه منتقلا إلى زنزانة أخرى .

شرف كان من الذين ضاقوا بالأغنية رغم أنه ساهم في تكلفتها ، فمن يسمع أم كلثوم اليوم ؟ كان يفضل بالطبع أغاني الشباب : من أول " ما تخافيش أنا مش ناسيكي " حتى " تعبتيني قوى يا عمتي " ، وعندما اكتشف أن جاره المكتتب منذ صفقة الرئاسة يشاركه الرؤية ، وجه إليه السؤال التقليدي ليحصل على إجابة تقليدية : العمل في مصانع إيديال ، في المخازن بالطبع . فماذا غيرها يمكن أن يأتي بالواحد إلى هنا ؟

المجئ إلى هنا كان بسبب الترموستات : ففي أثناء الجرد السنوي اكتشف المسئولون نقصا في العهدة .

أبدى شرف إدراكا للمشكلة من واقع تجربته . فعلا، تلاجنا عطلة بسبب الترموستات وكل ما أروح أسأل عندكم يقولوا مفيش .

لم يقل شرف أنه وجدها في حوانيت القطاع الخاص ، بثلاثة أضعاف ثمنها الأصلي عند إيديال . فقد خالجه إحساس مبهم بأن هذه الإضافة قد تكون مخرجة ..

ومن ناحيته قطع صبرى الطريق عليه بسؤال حاسم :

- زانوسى ؟

أجاب شرف بمسكنة : لا . إيديال .

بعد التحديد الصارم للمواقع عرج صبرى على جذر المشكلة : كان فيه مشروع لمصنع ترموستات وبعد ما بنوه وصرفوا عليه ثلاثة مليون جنيه رئيس مجلس الإدارة اتغير والرئيس الجديد لغى المشروع .

- ليه ؟

لم يقل صبرى أن الرئيس القديم يملك شركة مقاولات بناء والرئيس الجديد يملك وكالة لإستيراد قطع الغيار بينما هو لا يملك غير الستر، إذ تذكر فى هذه اللحظة النصيحة القرائية المجربة بشأن اللسان وأذان الجدران .

سؤال آخر جال بذهن شرف ولم يجسر على التفوه به : إذا كان هذا هو الحال فلماذا لم ينضم صبرى إلى عنبر الملوك ؟

اجتذبت وحدة الجذور لسان صاحب اللحية المشذبة . فهو سائق أتوبيس تعطلت فرامل سيارته فصعد على رصيف المحطة و أسقط تحت عجلاته خمسة أشخاص مات منهم ثلاثة . أولاد الحرام هم السبب فهو يسوق منذ عشرين سنة ولم يرتكب حادثة واحدة . لم يكن لديه رئيسان : قديم وجديد ، وإنما رئيس واحد يجمع بين ملكات الاثنين ، وجاراج هائل مثل الغابة لا يعرف أحد الداخل إليه ولا الخارج منه .

لم تنجح التجربة فى هز إيمان السائق المسكين ، فمصيره على أية حال لا يختلف عن مصير زميل له هاله ما يرتكبه المديرون الكبار من انحرافات فأبرق إلى رئيس الجمهورية طالبا إنقاذ أموال الشعب وممتلكاته ، فتم تحويل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى حوله إلى وزير النقل الذى حوله إلى رئيس الشركة الذى حول العامل الغيور إلى التحقيق ثم الفصل ثم السجن .

بدأت الحكايات تنحو إلى التكرار فهبط حماس اللسانيين . وانصرف بعضهم إلى لعب القمار بينما أخذ الباقون يستعدون للنوم . هنا حانت فرصة شرف للتعرف على جانب آخر من شخصيات زملائه .

فقد شرعوا يغادرون أماكنهم واحدا بعد الآخر ، مقربين من حيث جلس، وما أن يصبح الواحد منهم فوق رأسه تماما ، حتى يفك رباط سرواله ثم

يخفضه قليلا لأن السروال ليست له فتحة من الأمام و يخرج قضيبه ويحكم توجيهه فوق دلو البول . و بعد أن يتبول يهز القضيب في يده ليتخلص من آخر نقطة ، ويعيده إلى سرواله بعد أن يلقي نظرة على شرف تعكس إحساسا بالزهو أو ضالة الشأن حسب الحال .

اختلق هواء الزنزانة ببخار البول ودخان السجائر ونشط الناموس ودبت الحدة إلى تعليقات لاعبي القمار وأوشكوا أن يتماسكوا بالأيدي ، بينما غفا آخرون وهم جلوس . تمدد شرف فوق بطانيته ورأسه عند الحائط فأوشكت قدماه أن تحتكا بقدمي بطشة الراقد في مواجهته . وإلى جواره ، بعد صبري ، بدأ عم فوزي ، بمجرد إطفاء النور ، يندب حظه ويبكي ، تمهيدا لجولة أخيرة في مباريات اللسان .

لم يكن في حاجة إلى تشجيع أو حث ، فهويائع جوال ، صناعته النداء على البضاعة طول النهار ، ويعود منها في نهايته إلى غرفة ضيقة يسكنها مع زوجته وأولادهما بالإضافة إلى أخته وولديها . في اليوم المشئوم اشتدت الحرارة والرطوبة و عاد من جولاته في السوق ليجد المياه مقطوعة . أراد أن يغفو قليلا - فأيقظه شجار الأطفال وقام وهو يتصبب عرقا شاعرا بصدا ع . نجحت زوجته في الحصول على قليل من المياه من حنفية عمومية في حي مجاور فأشعلت موقد الكيروسين في ركن الغرفة المخصص للطهي وعهدت لابنة أخته أن تعد له الشاي ففعلت . وعندما غلى الشاي طلبت البنت من أخيها البالغ من العمر عشرة أعوام أن يصبه له فأسقط بضع قطرات على قدمه . هنا قاض به الكيل - كما يقول الأدباء - فمد يده و تناول موقد الكيروسين المشتعل وقذف به الفتاة . الباقي قامت به النيران التي أمسكت بها وأحرقتها . عند هذه النقطة كان قد استنفذ مؤونة اليوم من الدموع فلزم الصمت .

أثارت الحكاية شفقة شرف كما حركت مشاعره العائلية و أحاسيسه الجمالية ، إذ ألقى نفسه يتأمل مسكنه بعين فاحصة زادتها الأيام الأخيرة عمقا في الرؤية . وظهر تأثير اللسانيات التي نشطت طوال الساعات الأخيرة وحفلت بشتى ألوان الفعل . فلم يضيع وقتا في المقارنات . ولم يستسلم للنظريات الإصلاحية إنما اختار القطيعة التامة منطلقا من شقة جديدة في منزل حديث بحى راقى . اختاره في البداية ذا واجهة من الزجاج والألميتال ثم اكتفى ببنية عادية لها مدخل عادي يتألف من بوابة حديدية وبواب و عدة درجات من الرخام تؤدي إلى سلم عريض وشقة في الطابق الثانى أو الثالث ، لها باب خشبى متين يفتح على أنتريه به ثلاث فوتيهات أو أربعة من الجلد الأسود بالإضافة إلى أريكة ومائدة معدنية يعلوها لوح من الزجاج الفيديمه ، ويؤدي إلى صالة بها مائدة مستديرة للطعام فوقها مفرش مزركش وحولها أربعة مقاعد وخلفها بوفيه .

عندما وصل إلى هذا الحد لم يعد بالإمكان اعتراض طريقه : فرش الشقة كلها بالموكيت الأحمر وجهزها من جميعه : مكنسة " ناشيونال " وجهاز تكييف سبليت " باور " ، وزود المطبخ الواسع بثلاجة " جنرال إلكتريك " بيايين ، وحوض " ستانليستيل " وغسالة أطباق " بوش " و " ميكروويف " و بوتاجاز " ماجيك شيف " بخمس شعلات و كيتشن ماشين " مولينيكس " ، وشفاط " توشيا " لطرد الروائح الناتجة . أما الحمام فكسى أرضه وجدرانه بسيراميك ملون ووحدة " ليسيكو " كاملة من حوض ويانيو وكومبينيشن ، وسخان " جونكر " ، وغسالة " وستنجهاوز " فول أوتوماتيك . أهم الأجهزة كانت فى الأنتريه ، خلف بارتيشن ، فوق طاولة صغيرة مخصصة من سطحين : تليفزيون

"شارب" ٢٠٦ بوصة بالريموت ، ديش ضخمة فوق المسطح (و بالتالى تليفون محمول "نوكيا" لتسهيل الإتصال بين فوق وتحت) ، فيديو "سونى" متعدد الأنظمة ، و ستريو "أكاي" كبير علقت سماعاته فى ركنين متقابلين قرب السقف .

هكذا تم الإعداد للمشهد الرئيسى ، الذى ضمه هو وأصدقائه ، سيد و زلطة و جمال ، يتناولون البيرة ويدخنون "جوانت" الماريجوانا بينما يستمعون إلى أغنيات "ساندرا" و "مادونا" . ولم يلبث أن كشف عن هدفه الحقيقى عندما طردهم ووضع هدى مكانهم . لكنه لم يدر ماذا يفعل بها فاستبدلها بفتاة الجولف . وكان على وشك أن يضع يده داخل صدرها عندما تبين فجأة ما لم يحسب حسابه . وتم ذلك مع أول قرصة .

فعندما اطمأن البق للظلام خرج من مكانه وانطلق يعربد ، معيدا شرف لا إلى الزنزانة وحدها وإنما إلى حافة المعادى أيضا حيث تظهر آثار المقاومة فى خطوط دموية على الجدران . هكذا انتبه إلى أنه لم يحسب حساب شركائه فى الجدران الأربعة التى قسمتها كنية بلدية إلى جناحين : واحد له مع أبيه والثانى لأختيه مع أمهما . لم يكن بوسعه أن يخصص لكل منهم حجرة ، لا بسبب الإمكانيات ، وإنما لأن الهدف الأساسى كان يتمثل فى الانفراد بمسكن خاص من أجل أن يصبح سيد مصيره . بدا التخلص من عايذة سهلا بإعادتها إلى زوجها الذى تطلقت منه لأن أمه (التي تأويهما) تسيئ معاملتها . ثم ألحق بها أمه هو وزوج الأخت الأخرى وأوجد عملا لأبيه خارج البلاد .

أوضحت له قرصة حادة ، من برغوث هذه المرة ، هشاشة الحلول التى لجأ إليها (لأن طلاق عايذة بائن لا عودة فيه وأخته الأخرى سيئة الحظ

وأما لن تقبل الحياة فى منزل غريمتها كما أن أحدا لن يقتل استيراد الأب
الذى أوشك عمره الافتراضى على النهاية) فقرر أن يترك للعناية الإلهية
مهمة التخلص منهم . لكنه لم يسلم من شعور بالذنب نتيجة هذا المنحى فى
التفكير، فأنصرف عن الأمر برمته .

كان تدبر الأوبشنز التى أتيحت له قد أرهاقه ، فراح مرة واحدة فى نوم
عميق استيقظ منه مفزوعا على ساق صبرى فوق فخذه . هدا روعه قليلا عندما
إستمع إلى شخير جاره المتواصل فأزاح الساق وإبتعد عن صاحبها قدر
الإمكان حتى إلتصق بدلو البول تماما وغرق فى رائحة متعددة الأبعاد كونتها
الأحذية المحيطة برأسه ونتائج تخمر كل من الأطعمة فى البطون والإفرازات فى
الدلو . استسلم لغفو متقطع تسلى خلاله بالإنصات إلى النشرة الأخيرة ذات
البناء الأوبرالى المؤلف من شخير (تمسك بطشة بقيادته وهونائم) ، يتردد
بين العويل و الحشرجة (حسب نوع الصور المصاحبة) ، تعترضه إيقاعات
من زرطات متباينة الشدة (حسب نوع الطعام الذى أنتجها) ، ممتزجة بندايات
حراس السور الخارجيين ، فى أبراجهم المشيدة ، معلنين عن وجودهم كل ساعة
بصوت جهورى (يغالبون به خوفهم) : واحد تمام . اثنين تمام . ثلاثة تمام...
حتى ستة .

(٤)

فتحوا علينا فى الصباح الباكر ليخرج بطشة وحده ، ثم أغلقوا الباب .
وألقيتني عاجزا عن التنفس إذ كان جو الزنزانة خائفا مكتوما . وازداد
الأمسوءا عندما أشعل البعض سجائرهم وأخذوا يسعلون ويصقون .

فتح لنا بطشة بعد نصف ساعة لنذهب إلى المرحاض . واندفع القدامى إلى
الخارج قافزين فوقى . دسست قدمى فى حذائى ، طاويا مؤخرته ، محولا إياه
بذلك إلى خف . ووضعت منشفتى حول رقبتى وحملت صابونتى فى يدي
واقتربت من دلو البول . كان ممثلا لحافته والرائحة المنبعثة منه قوية زاعقة .
انحنيت فوقه وأمسكته من مقبضيه لكن الصابونة التى فى يدي عاقتني .
ألقيت بهافى عبي ورفعت الدلو وغادرت الزنزانة .

مشيت بصعوبة منحنيا إلى الأمام ، محاذرا أن تهتز محتوياته كي لا
يصيبني الرذاذ . اتجهت إلى حيث وقف الحارس بجوار باب فى منتصف العنبر
يؤدى إلى ردهة صغيرة ثم جناحين متقابلين بكل واحد صف من مراحيض بلدية
مكشوفة مزودة بستائر من الخيش لا تكفى لستر الجالس وأمامها صف من
الحنفيات ثبتت فى الجدار المقابل فوق مجرى أرضى . دأقت الدلو فى المجرى
وشطفته بمياه الحنفية عدة مرات ووقفت أنتظردورى فى استخدام المرحاض .
أوشكت الروائح المتصاعدة أن تصيبني بالغثيان ، وعندما حان دورى أخيرا لم
أتمكن من التبرز . غسلت وجهى وأسنانى وألقيت بالمنشفة حول عنقي ثم حملت
الدلو وعدت إلى الزنزانة .

وجدت بطشة يصرخ بعصبية أمام دلو المياه موجهًا السباب لشخص مجهول . وتبينت أن أحد النزلاء أخطأ الهدف بالليل وتبول في دلو المياه . أمرنى أن أحمل الدلو إلى الدورة وأنظفه بالصابون ثم أملاه بالمياه وطلب من صبرى أن يعاوننى ، منبها على ألا أنسى غسيل القروان المتخلف عن عشاءنا .

انصعنا لأمره ثم تناولنا إفطارنا المؤلف من الجبن القريش المتحجر ورغيف من الخبز المتجمد . ولاحظت أن صنقر أضاف قطرات من الزيت إلى نصيبه من الجبن وكسر بصلة فى مصراع الباب أما بطشة فلم يأكل معه .

وضعت علبة السجائر فى عبي وطويت فرشتي حسب التعليمات وأخرجتها إلى الممر ووضعتها إلى جوار الحائط وفوقها القروانة . لمحت بطشة جالسا إلى جوار الحارس فوق دكة مكتب خشبى صغير مثل مكاتب التلاميذ وضع فى منتصف الطابق . كان يأكل معه فى رصانة من طبق كبير أحاطت به أعواد من الفجل والجرجير والبصل الأخضر .

تودى علينا بعد قليل وجمعنا الحارس وهو يتجشأ فى ردهة العنبر مع نزلاء الزنازين الأخرى فأربى عددنا على المائة . وكان ثمة عدد من الشبان المتماثلى الهيئة وفهمت أنهم من المجندين الهاربين من الجيش وحكم على كل منهم بسنتين . أمرنا بطشة أن نجلس القرفصاء . وأطل علينا نفر من نزلاء الطوابق العليا أخذوا يتفرجون علينا . أحصيت ثلاثة طوابق فوق الأرضى ، تدور بها أسيجة حديدية ، يعلوها سقف من القضبان المتشابكة . وعرفت من صلصة الذى قرقص إلى جوارى أن أغلب سكان الطابق العلوى متهمون متلى فى جرائم قتل دفاعا عن الشرف .

ألقى علينا الحارس كلمة عن أهمية المحافظة على النظام والعمل بالتعليمات واللوائح وتجنب إحراز المنوعات . كنت أمامه مباشرة فجعل يخط على

رأسى بخرزانة رفيعة ليؤكد حديثه . ثم ترك الكلمة لبطشة الذى طلب ممن له
دراية بيننا بالطهى أو الخبز أو أشغال النجارة أن يرفع يده .

اختارنى بطشة مع صبرى وآخرين للنظافة وأوضح الحارس أنها على
عكس الأعمال الأخرى يجمع تكلفتها من نزلاء كل زنزانة ملكية فينال الواحد
ثلاثة جنيهات .

همس صلصة : مش حنشوف منها حاجة . حيقسم مع بطشة .

تبعنا الحارس إلى الخارج حاملين بطاطينا ، فنشرناها فى الشمس و مضينا
إلى العنبر الآخر المخصص للملكية . فعهد بنا إلى جارسه الذى سلم كل
مناقطة كبيرة من خيش المسح ووزعنا على الطوابق المختلفة لرفع البول والمخلفات
ومسح الزنازين .

بدألى أن العنبر للملكى لا يختلف عن عنبرنا إلا فى شئ واحد هو
الملابس . وفهمت أن هذا وضع مؤقت طالما أن نزلائه تحت التحقيق . فيمجرد
الحكم عليهم سيرتدون ملابس السجن الخضراء .

عهد الحارس إلى أنا وصبرى بالطابق الثانى الذى يقطنه السنية من
أصحاب اللحى . وأفهمنا أنهم ينظفون زنازينهم بأنفسهم وأن مهمتنا تقتصر
على تنظيف الطرقة الخارجية التى تمتد أمام الزنازين فضلا عن المراحيض .

لم يسبق لى أن أمسكت فى حياتى خيشة حتى أو مكنسة فقد كانت أمتى
تنفرد بكل أعمال البيت بمعاونة أختائى . و يبدو أن صبرى كان مثلى فقد وقفنا
نتبادل النظرات فى مدخل الدوة لا ندرى ما ذا نفعل إلى أن جاء الحارس ونهرنا .
خلعت حذائى وتقدمت حافيا إلى المراحيض فأزحت ستارة أحدها و طالعتنى على
الفور كومة من المخلفات يغطيها الذباب . تراجعمت متأقفا وأنا أشعر بالغثيان

وتذكرت يوم الترنش عندما تأتى سيارة الفضلات لتفريغ البئر الموجود فى مدخل منزلنا .

تدافعت الدموع فى عيني و تطلعت إلى صبرى فوجدته قد فتح حنفية المياه فى المرحاض المجاور ففعلت مثله وفتحتها على آخرها حتى تجتاح المخلفات فى طريقها . ثم وانتنى فكرة فتناولت دلوالمسح وملاؤه إلى منتصفه بالماء وألقيت بمحتوياته فى المرحاض . كررت العملية حتى نظف تماما فإنتقلت إلى المرحاض المجاور.

استخدمنا الدلو بعد ذلك فى تنظيف أرض الدورة ، ومسحت مدخلها بالخيشة ثم خرجنا إلى الطرقة فتولى صبرى النصف الأيمن وتعهدت أنا باليسر . بللت قطعة خيش ومضيت حتى نهاية الطرقة فبسطتها فوق البلاط ثم سحبتها إلى الخلف فى اتجاه دورة المياه . كانت الزنازين مفتوحة ووقف أصحابها على عتباتها يتابعون ما أفعله . كان أغلبهم يرتدون الجلابيب البيضاء فوق سراويل طويلة من نفس اللون . اختلست الفخر داخل إحدى الزنازين وأنا أجز الخيشة فرأيتها مرتبة ممثلة بصناديق من الكرتون اصطففت فوقها أنواع المعلبات وعلب لبن " نيدو" الكبيرة وصناديق " كولمان " . ولحنت فى أخرى سخانا كهربائيا فوق صفيحة كبيرة .

لم أجد معنى لإعادة إرتداء الحذاء فحملته فى يدي وحذا صبرى حذوى . هبطنا حفاة إلى الطابق الأرضى فوجدنا القدامى قد سبقونا إلى الزنازين بحيث وقع تنظيف المرحاض من نصيبنا . و عندما إنتهينا منها أمرنا الحارس بتنظيف الزخارف الحجرية البارزة التى تحيط بأبواب الزنازين وكانت مدهونة حديثا بلون رمادى كئيب .

إختلست النظر داخل الزنازين التى عقلت بجوار بعضها لافتة " الإيراد " .
كانت حاشدة هي الأخرى بصناديق الملعبات وحبال الملابس التى تدلت من
السقف . أما أصحابها فكانوا يرتدون خليطاً منها . ولحت أكثر من
شخص يرتدى الروب دى شامبر الملون . وكان أحدهم يدخن غليوناً وخيل
إلى أنى رأيت صاحب التى شيرت الذى تعرفت عليه فى مركز الشرطة ،
وكان يرتدى هنا شورتا رياضيا أبيض اللون .

جمعنا الحارس أنا وصبرى فى طرف الطرقة ، بعد أن ضم إلينا عم فوزى .
أوقفنا صفنا بالعرض وجوهنا إلى الجدار وأمرنا أن نبسط قطع الخيش
أمامنا على البلاط بحيث تلاصقت وغطت كل شبر منه ، وبحركة واحدة سحبنا
الخيش إلى الخلف مكتسحين القانورات التى تخلفت عن نظافة الزنازين .
تراجعنا بظهورنا حتى بلغنا مدخل المراحىض فكونناها أمامها وغسلنا الخيش
فى الدلاء ، وعدنا إلى نقطة البداية . كررنا هذه العملية عدة مرات حتى لمع البلاط
من نظافته ثم إنتقلنا إلى النصف الآخر ، الذى يبدأ من باب العنبر ، فأعدنا الكرة .
ظهر سجين قديم فى مدخل العنبر ؛ ونادى من ميكروفون فى يده النزلاء
الذين جاعتهم زيارة . كنت على يقين من أن اسمى لن يكون بينهم . إذ لا يستحق
النزيل زيارة إلا بعد أن يمضى شهر على حبسه . ومع ذلك أصغيت للأسماء
وتابعت أصحابها وهم يغادرون زنازينهم على عجل وقد إعتنوا بمظهرهم وبدا
البشر والتلف على وجوههم .

انتهينا من عملنا فجمعنا الحارس وتمم علينا ثم أسلمنا لحارس هنبرنا .
واقفنا هذا إلى الفناء الخارجى المفروش بالرمل ، فقمنا بجمع ما تبعثر فى
أنحائه من قصاصات ورق وأعقاب سجائر وضعناها فى برميل مخصص
للقمامة . و حان موعد آذان الظهر ، فسحبوا منا اثنين لتوزيع الطعام .

مر بنا السجناء العائدون من الزيارة و هم يحملون أكياسا متفاوتة الأحجام وصناديق "تيك أوأي" من "كنتاكي فراي تشيكن" و "بروست فود" . كانوا يبدون في لهفة للعودة إلى زنازينهم . و سمح لنا الحارس أن نحصل من موزعي الطعام العائدين إلى المطبخ على قروانة من سائل طيني لزج تسبح فيه حبات من الفول المسلوق .

انتحيت جانبا أنا و صبرى وحجاج واقتعدنا الأرض وما لبث صلصة و بلحة أن انضمنا إلينا . خطر لي أن أشرب السائل لكن منظره لم يشجعني . تطلعت إلى بلحة قرأيته يلتقط حبات الفول وينزع قشرتها ثم يقذف بها إلى فمه . قررت أن أفعل مثله ، فتناولت حبة وأزلت قشرتها وبعثت إنفصلا فلقناها . وجدت قلبها مهترئا ترقد داخله حشرة سوداء غريبة : ألقيت بالفولة وحشرتها جانبا في إشمئزاز وتناولت غيرها . لكنني صادفت نفس الأمر . وأوشكت الكمية أن تنتهي نون أن أحشر على حبة سليمة فعدلت سياستي بأن صرت ألقى بالحشرة وألتهم الفولة .

واقبني بلحة في استهزاء ثم خاطبني قائلا : إيه اللي بتعمله ده يا بابا؟ والتفت إلى صلصة وقال: الواد ده باين عليه ابن ناس ، شفت بياكل الفول إزاي ؟

دافعت عن نفسي قائلا أنها أول مرة أدخل السجن
قال صلصة : كان لازم تدخل أيام ماكان يوم عدس ويوم فول ، يوم " وس
ويوم زلط " الوقت العدس بيصدروه فمعدش غير السوس .

لمحت بطشة يسير بمفرده قادمة من ناحية الإدارة متجها إلى باب عنبرنا

سألت : هو بطشة جاى فى ايه ؟

قال بلحة : نفوس ، واخذ مؤيد .

سأل فوزى : وايه اللى جابه هنا . مش مفروض يودوه الليمان ؟
- كان فيه لغاية ما مسكوه بيتاجر فى البرشام . بقاله سنة ونحس مستنى
يتحاكم .

سألت مدهوشا : يقوموا يعملوه نبطشى ؟
قال بلحة : يابنى انت كركى . هم بيختاروه عشان كده . المأمور عارف انه
بيتاجر فى المخدرات يقوم عمله نبطشى . يطنشوا على شوية الإقراص اللى
بيوزعها عشان يضمنوا انهم يعرفوا كل حاجة بتحصل فى العنبر .
سألت : قصدك إنه ...

قال ضلصة : طبعا ، مش عاوزه كلام . مكنوش يخلوه رايح جاي
كده ومعاة المفاتيح .
تابعه بلحة فى حسد : أهوده اللى عايش زى الملك . ميجسش بالحبسة
أبدا .

سألتة : إزاي البرشام بيدخل لما هم بيقتشوا كل واحد . يمر إزاي على
العساكر والضباط ؟

- ما هم نول اللى بيدخلوه . العسكرى من نول يحط الأقراص فى بالونة
ويلبسها من تحت لغاية ما يمر من بوابة السجن و ياخذ على كل عملية ثلاثين
جنيه . بعد كده التاجر يبيع القرض اللى باتنين جنيه برة بأربعة وخمسة .
صاح الحارس فينا كى نواصل العمل . انتشرنا من جديد فى الفناء لتنقية
رماله من الشوائب إلى أن أذن العصر وحان وقت الفسحة فقادنا الحارس إلى
فناء عنبرنا .

وجدته مكتظا بالنزلاء الذين شكل بعضهم طابورا يطوف حول الفناء
على مهل بينما جلس البعض الآخر القرفصاء إلى جوار الجدار وانهمكوا فى لعب

السيجة . وكان بينهم عدد ملحوظ من الأفارقة . وبسط أحدهم صحيفة على الأرض رص فوقها أنواعا مختلفة من السلع مثل يكر الخيط والابر والامشاط والفنيك والبخور وماكينات "ناسيت" البلاستيكية للحلاقة ، وسجائر " كنت " و"مارلبورو" و"سيلك كت " ، بألوانها المختلفة ، وأظرف الجوابات والاقلام الجافة وعلب الفول والخضراوات الاخرى والاعصرة المحفوظة .

اشترت ظرفين وطابعين وورقتين وقلم " بيك " بنصف علبة كليوباترة . وانضمت إلى سوزوكى وجابر ، سائق الأتوبيس ، اللذين كانا يرقبان شابين شديدي الشبه يثراثرن مع الحارس بعجر . قال لى جابرأنهما شقيقان من بولاق الذكور ساعدا أمهما فى قتل شقيقتهما فأوثقوها بالحبال فى الحمام وسكبوا عليها جركن كيروسين وأشعلوا فيها النيران ثم أغلقوا عليها الباب حتى فارقت الحياة .

استبشعت الأمر وسألت : هى عملت إيه ؟

قال جابر : هربت من البيت عشان تتجوز واحد غنى من بتوع الخليج . الظاهر حد ضحك عليها ولما كشفت الحقيقة رجعت . لكن الناس قعدوا يعايروا أمها .

تركتهما إلى حلقة أحاطت بشيخ مهيب المنظر تحيط بوجهه السمح لحية بيضاء كثيفة ويرتدى طاقية من الصوف المشغول خضراء اللون . سمعتهم يلقبونه بالشيخ عبد الله وكان يتحدث فى صوت رزين والجميع ينصتون إليه فى إحترام :

- يجب أن يسير كل شئ فى حياة البنى آدم على ترتيب حضرة النبى صلى الله عليه وسلم . . . فى الأكل والشرب ودخول المسجد والخروج منه . فى كل حاجة . ابن أحد الصحابة مات فى دورة المياه فخاف أبوه إنه مش

حيث دخل الجنة لكن الفتى جاله في المنام وطمأنه أنه دخل الجنة لأنه لما دخل الحمام دخله على ترتيب حضرة النبي .

تطلع الشيخ إلى مستمعيه مثبتاً عينيه في كل واحد لحظة ثم استطرد :
- أنا عيلتي اهتدت جميعاً و ابني و عمره سنتين لا يشرب و لا يجلس لطعام إلا بالطريقة الإسلامية وهم لا يفتحون التلفزيون و كنت اشتريته بفلوس العراق ومرضتش أبيعه عشان اللي يشتريه ميفتحوش و يرتكب معصية .

استمعت إليه في إهتمام و قد سحرني صوته . و شعرت بالسكينة فاقتربت منه و قد تعلقت عياني بوجهه السمع . مضى يتحدث عن الآيات المختلفة للحكمة الإلهية فقال : ربنا خلق لنا مفاصل في الكوع لولاها كنت تيجي تاكل يقوم براعك ياكل وش اللي جنبك .

أعلن بعجز انتهاء الطابور فحملت بطاطيني ودخلت العنبر . وسمع لنا بالذهاب إلى دورة المياه للإغتسال . أخذت صابونتي ومنشفتي سهيدا بأني سأخلص من العرق والتراب اللذين التصقا بجسدي وهنا ناداني بطشة وطلب مني وهو يتحسس خدي بيده أن أملا مياهاً إضافية للشرب . سارعت بتنفيذ أمره و قد سرني أنه تخلص من عدوانيته معي . ملأت أربع زجاجات "سبرايت" كبيرة من حنفية الدورة و حملتها إليه ثم عدت ادراجي .

انتظرت حتى جاء دوري في استعمال المرحاض الأخير المخصص للاستحمام . دخلت و أنزلت الستارة ثم خلعت ملابسى وعلقتها على مسمار في الحائط . تلفت حولى بحثاً عن مصدر المياه فلم أجد غير الحنفية الواطئة القريبة من الأرض . قرفصت بجوارها و فتحتها ثم بللت الصابونة و دعت جسمي .

انقطعت المياه فجأة و انتظرت عودتها و أنا مقرفص فوق فتحة المرحاض . سمعت بعد لحظات صوتاً يشكو من انقطاع المياه كعادتها كل يوم . نادى علينا

بعجر من أجل التمام . و بعد قليل فوجئت به يرفع الستارة و يطل على و المفتاح
الحديدى الثقيل فى يده .

بادرنى قائلا : إنت بتعمل واحد و ثلاثين و الا إيه يا مسجون ؟
شكوت له إنقطاع المياه و أنى لم أنته بعد من الإستحمام فأشار لى بالخروج
قائلا :

- معلش يا بيه . اخرج الوقت و إحنا نجيبك المية لحد عندك فى الزنزانه .

قلت محتجا : أخرج إزاي و أنا عريان كده .

تطلع إلى ثم قال متفكها : البس هدومك .

- فوق الصابون ؟

انحنى فوقى و مد يده فقبض على ذراعى بيد من حديد و جذبني إلى خارج
المرحاض قائلا :

- تعال زى ما انت .

جذبت ملايسى و ارتديتها فوق الصابون الذى امتزج بعرقى و قذارتى .
وتبعته إلى الزنزانه .

وجدت وضعى قد تحسن قليلا إذ انضم إلينا زيون جديد استقرمكاني إلى
جواردلو البول فتقدمت أنا خطوة نحو عمق الزنزانه . ولاحظت أن سوزوكى فقد
موقعه المتميز ، بينما إحتفظ بطشة بركنه .

تعرفت فى الزيل الجديد على محمود سعيد ، فلاح كفر الشيخ الذى
قبض عليه البوليس لأنه كان نائما فى الشارع . سألته عما جاء به فقال
أنهم أفرجوا عنه فى الصباح الذى رحلونا فيه إلى السجن فأسرع إلى
المستشفى و هناك نصحه الأطباء بنقل ابنه إلى مستشفى استثمارى توجد به

استعدادات أكثر . عمل بالنصيحة وذهب إلى المستشفى الذى طالبه بأن يدفع
أولا ألف جنيه . فأسرع بالعودة إلى قريته حيث رهن بيته و جاء بالنقود فى
نفس اليوم وأدخل ابنه المستشفى وفى المساء قالت له إحدى الحكيمات البقية فى
حياتك ياعم محمود . لم يدر ما حدث بعد ذلك سوى أنه عاد مرة أخرى إلى القسم
وأحيل إلى النيابة بتهمة التعدى على أطباء المستشفى و تحطيم واجهته
الزجاجية .

ملأت كوزا من البلاستيك من دلو المياه وانحنيت فوق دلو البول فصببت
منه فى يدي اليسرى وحاولت أن أغسل وجهى . و شعرت بسوزوكى إلى
جانبى . تناول منى الكوز قائلاً:
- كده مينفعش . لازم حد يصبك .

غسلت يدي ووجهى أنا أتوقع زجرا من بطشة . أوصح ما توقعته إذ صاح :
- ضيعولنا المية بأه . الشوية دول عشان الشرب مش عشان مسح
الطين .

لم يأبه سوزوكى بالرد عليه ، و شعرت أن الجوبيئهما ليس طبيعيا .
بدأ توزيع اليمك و كان عبارة عن حساء الرجل و قطعة من اللحم أو بالأصح
قطعة من الجلد .

أبدى صبرى تذمره فعقب بطشة - الذى لا يأكل أبدا من اليمك - قائلاً فى
غير مبالاة :

- محدش بيشوف اللحم هنا خالص . . .

تكونت مجموعات الأكل الثلاث مثل الأمس . وأصر بطشة على استضافة
محمود سعيد الذى كان يحمل لفافة بها عدة ساندوتشات . أما نحن فلم

يكن لدينا غير قروانة اليك فوضعناها وسطنا وأمسك كل منا برغيفه وبدأنا
نغمس .

توقف صالصة فجأة عن الأكل وتطلع إلى في غضب . إتهمني بأني أكل
مثل الخنازير . وقلد طريقتي في الأكل فغمس لقمة ورفعها عموديا إلى فمه بعد
أن مده إلى الأمام بحيث تساقطت نقاط الحساء من أصابعه وفمه في الإناء .
وتطوع بلحة ليشرح لي طريقة الأكل الجماعي السليمة فطوى اللقمة بين
أصابعه وغمسها ثم رفعها بالقرب من حافة الإناء و أدارها في خفة حتى
إلتقطها بفمه دون أن تسقط منها نقطة واحدة .

أتينا على القروانة بسرعة ثم التجأنا إلى نمرنا . واكتشفت أنه لم يتبق معي
غير سيجارتين هما كل ما أملك . وكان أمامي أحد سييلين : إما أن أستمتع
بتدخينهما مرة واحدة أو أقسمهما على عدد من المرات بحيث تكفياني حتى مساء
الغد . وبينما أنا أتدبر الخيارين رأيت سامبو يضع سيجارة على الأرض
ويعكف على تقطيعها بنصف مشروط إلى ثلاثة أجزاء متساوية ثم ثبت إحداها
في مبسم خشبي صغير .

سألته عن المصدر الذي حصل منه على المبسم ، فأجاب:
- اشتريته .

تدخل بطشة في الحديث بعد أن سمع حوارنا و سألتني :

- عاوز واحد ؟

أومأت برأسي .

قال : بعلبة سجائر .

تدافعت الدماء إلى وجهي فضحك مستهزئا .

خاطبنى سوزوكى من فرشته متجاهلا بطشة :

- ميهمكشى يا أشرف ، أنا حشوفلك واحد ، ولو عزت برشام أنا أجيبك
القرص بنص علبة .

تجهم وجه بطشة و تردد فجأة صوت صاحب النشرة المألوف : عنبر كله
يسمع .

أردف بعد أن ساد الصمت : بعد مساء الخير على الجدعان ، أعرفكم إن
المعلم الفص طالع بكرة من خمس سنين جدعنة يا رب يروح ما يرجع ، عقبال
عندنا يا حباب

تصاعدت صيحات التهليل و بدأت الزنازين توجه التحية إلى سعيد الحظ ثم
جاء نور نشرة الخارجين فى الغد . سألت صلصة عن حكاية هذه النشرة فقال
لى أن المذيع مسجون قديم محكوم بست سنوات و يحصل من الحراس قبل
التمام على أسماء الذين سيتم ترحيلهم فى الغد .

قلت : ويدوها لوليه ؟

قال : بيشتريها منهم بسجاير ، و يذيعها كمان بسجاير . علبة من كل
واحد يقول اسمه ، و بالفلوس دى يصرف على نفسه و عيلته برة .

أخرجت الورقة والقلم من كيسى و فجأة زعق بصوت جهورى : عنبر كله
يسمع .

هتف بطشة مهللا و هو يستنشق الأسبرين : أيوه يا شيخ عيد الله ...
ادينا .

مضى الصوت الجهورى فى رزانة فقراً البسملة معلنا عن تقديم نشرة
الأخبار الإسلامية التى استهلها بأنصار البوسنة والصومال قائلا ان الأمم المتحدة

بقيادة الصليبي بطرس غالى لم تفعل شيئاً للمسلمين . ثم تلا تقريراً خاصاً عن أوضاع الأراضي المحتلة وصور الاضطهاد التى تنزلها اسرائيل بالشعب الفلسطينى . وقال ان اتهام إيران بدعم الإرهاب فى مصر مزاعم أمريكية تمهد لضرب إيران بعد خطواتها السريعة فى مجال الأسلحة الذرية . وانتقل بعد ذلك إلى الأخبار المحلية فوصف مطاردة رجال الأمن للجماعة فى الصعيد وأعلن أن وزير الزراعة قرر إزالة محصول قصب السكر واستبداله بالبنجر بعد أن عجز الأمن عن ملاحقة أفراد الجماعة . ثم زف إلى المسجونين نبأ اغتيال عقيد شرطة فى أسبوط فتصاعدت صيحات التكبير من بعض الزنازين . وتكرر التكبير عندما أكد أن أولياء أمور الطالبات فى مدرسة إغدادية أعلنوا رفضهم لقرار وزير التعليم بنقل المدرسة التى فرضت الحجاب على الطالبات .

سألت صليحة : والشيخ عبد الله يجيب النشرة دى منين ؟

تدخل بطشة قائلاً : الشيخ ترتب حضرة النبى ؟ ده راجل عقرا متفركش دقنه . مربيها هنا . عنده تسع قضايا نصب آخرها ع السياح فى الهرم . طلعهم كارنيه إنه مخابرات وفتشهم واطش فلوسهم وكان شايل مسدس صوت . لما جه هنا لَفْ على السنية التى فى عنبر الملكية . بيعتلوه أكله وشربه وسجايره والنشرة التى يبقراها كل ليلة .

لحظت أن مجاهد ، الشاب ذا الوجه الشاحب يتأمل جانبا من ورقة جريدة فى استغراق ، ولح صنقر اتجاه نظراتى فهتف : وريهم يا مجاهد الجرنال . ناولنى الشاب الورقة بشئ من الزهو فوجدتها بالية بعض الشيء . قرأت عنواناً كبيراً نصه : " ضاعت القيم وجاء الخقد ليحصد الخير " ، وأسفله هذه السطور :

"استيقظت سيدة أحد القصور على نباح كلبها الكبير فأسرعت تستطلع الأمر فوجدت شابا متعبا يفتش الأرض ومستغرقا فى النوم . فرق قلبها لهذا المنظر المؤلم غير الإنسانى ، فهرولت إلى داخل القصر و أحضرت بطانية و بعض الطعام و عرضت عليه أن يعمل عندها لرعاية ابنها الصغير . وذات يوم وأثناء مراقبتها لابنها الصغير (٩ سنوات) وهو يلهو رأى الشاب يطعنه وفر هاربا . أسرعت بنقل ابنها إلى المستشفى و أبلغت الشرطة و بعد ٢٤ ساعة ألقى القبض على الجانى - مجاهد سليم - الذى اعترف بجريمته وبررها بأن الحقد استولى عليه عندما اكتشف أن الكلب يأكل وجبة أسرة كاملة وأن الدراجة البخارية التى يلهو بها الطفل حمادة بثمن خمسة أفدنة ."

استرد منى ورقته وطواها بعناية ثم وضعها فى كيس من البلاستيك دسسه تحت نمرته . و أخرج بطشة من جيبه ورقة مطوية من صحيفة اليوم عرضها على سامبو وصنقر وهو يضحك . شاركه الاثنان الضحك معلقين على صورة فى صدر الورقة ، وأدركت أن معرفتهما بالقراءة محدودة . تداولت الأيدي الصحيفة حتى وصلت لعم فوزى فتأمل الصورة ثم ناولنى إياها لأقرأ ما كتب أسفلها . طالعنى وجه رجل أنيق يرتدى ملابس الشرطة وتحتة اسمه مسبوqa برتبة لواء يبدو من علية القوم وفوق الصورة عنوان خاص بالقبض على أكبر تاجر مخدرات هارب من حكم بالسجن لمدة عشر سنوات . وعندما قرأت الخبر اكتشفت أن الصورة لم تكن لتاجر المخدرات وإنما للواء الشرطة الذى قبض عليه .

لم أكد أعلن اكتشافى هذا حتى إنهاالت على التعليقات بأنى لا أفهم و صاح بطشة فى . وإنت مين اللى علمك القراءة ؟

خف صبرى إلى تأييدى عندما قرأ النبأ فتراجع بطشة وقال أن كثيرا من ضباط الشرطة يجربون حظهم في مجالات مثل المخدرات أو سرقة المنازل لكنهم على العموم يتصفون بالخيبة . وقال بلحة أنه شخصا يعرف ضابط شرطة مفصول سرق خزينة بها مجوهرات ونقود وفوجىء بعودة صاحبة الشقة وهى شقيقة صديقه فهرب إلى سطح العمارة وأمسك به الأهالى واعترف بأنه سرق المفتاح من صديقه .

قلب صنقر شفته قائلا : كان لازم يعمل حسابه .

تبينت بعد لحظات أن صنقر من لصوحن المنازل ، و أن بطشة بدأ حياته أيضا بتخصص مختلف فى نفس المهنة ؛ فكان يسرق عن طريق كسر الباب أو كسر ريشتين من مصراع النافذة الخشبي أما صنقر فيتسلق المواسير . كما أن بطشة لم يكن يسرق غير الأجهزة الكهربائية والمنقولات أما صنقر فيقتصر اهتمامه على النقود السائلة والذهب أى ما غلا ثمنه وخف حمله .

شرح لنا صنقر فى شئ من الزهوكيف يختار ضحاياه :

- الشقة المقفولة أنا مدخلهاش . لأن اصحابها مش حيسيبوا فيها مصاغ أو فلوس . ياما بيخدوا كل حاجة معاهم وهم خارجين أو يحطوها فى البنوك . أنا بحط عينى ع الشقة اللى ساكنة . اللى اصحابها بيخرجوا كل يوم الصبح لأشغالهم ويسيبوا المصاغ يتاعهم وراهم .

سأله جابر : ولو حد منهم رجع صدفة ؟

- يبقى حظى وحش

- بتشيل سلاح ؟

تدخل صلصة وهو ينظر بطرف عينه إلى زميله بلحة :

- الحرامى الشاطر عمره ما يستخدم السلاح لأن ده يعرضه للسجن المؤبد أو الإعدام فى حالة الوفاة . فى حين إنه لما يتمسك فى سرقة عادية أقصاها من ست شهور لتلات سنين أو بالكثير ستة .

علق صبرى قائلا : يعنى أربعة و ٨ شهور .

سأله عما يعنيه فشرح لى أن السجين الذى يحسن السلوك تحسب له السنة بتسعة شهور و يخرج بثلاثة أرباع المدة .

أبهجتنى هذه المعلومة وجعلت أحسب الأحكام المختلفة عندما تطبق عليها هذه القاعدة . أعطيت نفسى حكما من عشر سنوات ثم خفضته إلى سبعة ثم ثلاثة .

حصل صبرى على الكوتشينة وأقنع عم فوزى بأن يكف عن البكاء ويلاعبه وعرضا على أن أنضم إليهما فاعتذرت كما رفض فلاح كفر الشيخ وانفجر باكيا . ثم لزم الصمت محققا فى الحائط .

اقترضت نصف الموس من صنقر وقطعت به سيجارة ثلاث قطع ، وألقى لى سوزوكى بمبسمه كى أضع به الثلث الأول . شكرته وقدمته إليه ليشعله ويأخذ لنفسه نفسا لكنه رفض . أشعلت لنفسى وعدت إلى الورقة والقلم وأنا أبحث عن شئ صلب أستند إليه . لمحت عم فوزى يعبث بغطاء بلاستيك لعبية حلاوة فآخذته منه ومسحته فى بنطلونى ثم ثنيت ركبتي إلى أعلى ووضعت الغطاء فوقهما وأسندت الورقة إليه .

لم يسبق لى أن كتبت إلى أمى ولهذا واجهتنى صعوبة شديدة فى صياغة الكلمات . لم أعرف كيف أخاطبها . كتبت أولا ماما . ثم غيرتها إلى أمى .

وأضفت بعد تفكير العزيزة وعدت فشطبتها واستبدلتها بالغالية . فى البداية
وصفت لها الزنزانة وزملائى بها ونزلت دموعى و أنا أصف لها الأكل وكيف
نظفت المراحىض ، فمسحتها ثم واصلت الكتابة :

" أمى الغالية

أنت وحشتينى جداً يا أمى أنت و عايدة و أبى و الجميع . لا بد أن تتأكدى
من براعتى . فأنا لم أسرق و لم أقتل . أنا كنت أدافع عن شرفى . أنا ضحية
الأقدار المريعة لكن ربنا هو الذى يرى كل شئ و يعلم كل شئ و أنا متأكد
أنه لن يخذلنى .

أمى الحبيبة

أرجوك ألا تتأخرى فى الرد على . ليس لى الآن زيارة لكنك تستطيعين
القدوم إلى السجن و تقديم طلب بنقلى إلى الملكية بشرط أن تكونى مستعدة
لإحضار طعام لى كل يوم أو يومين و كمان تأخذى الغسيل مرة فى الأسبوع .
وعشان كده لازم تشتريلى غيار أو اثنين . ولا تنسى شيشب زنوبة من
النوع التايوانى المستورد لأنه يتحمل . أرجوك يا أمى فلن أستطيع احتمال
الحياة هنا فى هذا العنبر وسط المجرمين والمراحىض . ولا تنسى السجائر . قد
ما تقدرى . مش عشان أشربها . لا . أصل كل حاجة هنا بسجائر . و كمان
"أوبتاليدون" عشان الصداع . و على فكرة من حق أى سجين أن يودع له أهله
رصيداً من النقود فى صندوق الكانتين عن طريق الإدارة ، يسحب منه لشراء أى
كمية من السجائر و الحلاوة الطحينية . إبنك البرئ المظلوم ."

قرأت الخطاب عدة مرات وأضفت إليه حاشية أطلب فيها منها أن تتصل
بصديقى سيد وتحضره معها إلى جلسة المحاكمة .

أشعلت الثلث الثانى من السيجارة وكتبت لهدى :

"حبيبتي الغالية :

لقد تحدثت ساعة اللقاء منذ الأزل وكانت محور وجودى وسببه . إنى أتحدث عن شئ أجمل من أن يوصف بأى وصف . استردى ثقتك فى . سأخرج قريبا فأنابرى وعند خروجى قريبا سأسافر إلى الأردن أو ليبيا لإعداد كل شئ لارتباطنا ، كل شئ من كبير وصغير وسأعود قريبا لكى أتقدم إليك رسميا كى نذوق السعادة المطلقة .. انتظرى شهرا أو شهرين بالكثير وسترين منى عملا جادا خاصة أن الشقة فى طريقها أن تكون جاهزة تملك وهنا فى مصر .

حبيبة قلبى :

لا أريد أن أكون متطفلا عليك ولكننى أدرك جيدا أننا خلقنا لبعض ولا سعادة لأحدنا بعيدا عن الآخر . ومع ذلك فانت حرة لكن فكرى جيدا ولا تخشى شيئا إطلاقا . فكرى بقلبك و عقلك .

توقفت وأشعلت ثلث السيجارة الأخير وفكرت قليلا ثم استأنفت الكتابة:

" حبيبتي الغالية :

إن الحياة كون واستحالة ومأساة ، وجانب الكون يكون بارتباطنا وعدم ذلك لا يبقى لكلينا سوى الإستحالة والمأساة . أنت لى وملكى وهيهات أن يظن أى إنسان غير هذا ... انها الحقيقة والقدر ، إنه كتاب مكتوب . اهربى من نفسك ، اسمعى كلامهم ، استسلمى لهم صدقيهم واسلميه نفسك ، تزوجيه.. لكن أنت لى وأقسم لك أنك لى . مردك لى ومردنا إلى الله . روح قلبى وسر وجودى

لا تقلقى ولا تحزنى افعلى ما ترينه و اعلمى أننى لا ولن أسبب لك أى إشكال إطلاقا وعلى العكس أتحمل لأجلك و لأجل حبنا " .

انتهيت من الكتابة وأغلقت الرسالتين ثم كتبت عنوان بيتى على الأولى وعنوان البوتيك القريب من منزلنا على الثانية وأضفت جملة تحتها خط :
"يسلم ليد الأنسة هدى فريد " .

لحت الصحيفة ملقاة جانبا فتناولتها وقلبت صفحاتها بحثا عن اعلانات السيارات فاستوقفتنى واحد بعنوان " دليلك فى اختيار سكن العمر " . كان يحدد المعايير التى يجب أن يختار بها المرء مسكنه وأولها أن تكون فيلا و فى موقع مرتفع عن سطح البحر وجاف و بعيد عن التلوث ، و أن تسمح مساحتها الفعلية بالتنفس و الاستمتاع وألا تقل مساحة الخضرة عن ٧٠ فى المائة منها أما المساحة التى تمنح الخصوصية فيجب ألا تقل عن ثلاثة أمتار من كل جانب ، وأن تكون الفيلا مجهزة بحمام سباحة وتكييف مركزى .

لحظت أن الجميع ناموا فيما عدا بطشة الذى كان يتأملنى من نمرته وهو يدخن . ورأيته يعتدل جالسا ثم يزحف نحوى . خاطبنى هامسا :

- عارف إنك ملكش جوابات إلا بعد ما تطلع من الإيراد ؟

قلت : طب والعمل ؟

قال : قدامك طريقة واحدة عشان تبعت جواب .

سألته فى لهفة : إيه هى ؟

تطلع حوله إلى أن اطمأن إلى أن الجميع نيام .

قال : تنزل بنفسك تحطها فى صندوق البوستة اللى فى الميدان .

سألت فى دهشة : برا السجن ؟

- طبعاً يا كركى . الصبح تقول للشاويش . بس إوعى تقول للتانيين
أحسن يعملوا زيك . السجن مبينزلاش أكثر من واحد فى المرة .

لم أكذب خبراً وتوجهت إلى الحارس فى الصباح بمجرد انتهاء من الدورة
- وكان وجهها جديداً لم يظهر قبل اليوم - وطلبت منه أن يسمح لى بالنزول
إلى الميدان لوضع الخطاب فى صندوق البريد . تأملنى لحظة ثم ظهرت ابتسامة
على شفتيه سرعان ما ملأت وجهه فنادى بطشة وقال له :

- خذ مكانى لغاية لما أودى المسجون ده لسيادة الضابط على بلبل .

كان الضابط جالساً فى الفناء وأمامه مائدة صغيرة عليها كوم من أرغفة
الخبز وطبق صغير به أقراص الطعمية ، وألفيته شديد السمرة ، ضخمة الجثة
طولا وعرضا ، لا تتناسب سنه المتقدمة مع رتبته الصغيرة التى لم تزد عن
نجمتين ، يحمل وجهه تعبيرا غاضبا .

صاح فى صوت جهورى لا يقل عرضا عن جسده عندما رأنا نقترب منه :

- إيه ؟ فى إيه ؟

أدى الحارس التحية العسكرية وقال :

- النزىل عاوز ينزل الميدان .

قال الضابط بصوت أقل حدة وإن بدا متوترا مهددا :

- ينزل فىن ؟

قال الحارس مجاهدا ليغالب ابتسامته : الميدان يا باشا . عاوز يحط الجواب
بنفسه فى صندوق البوستة .

أطلق الضابط العنان لحنجرته صائحا : ميدان إيه يا سى عبد الحفيظ؟ إنت
بتهزر ؟

قال الحارس : لا يا فندم . هو قال كده . و سعادتك قلت التعليمات إن أى مسجون يطلب حاجة نجيبه لسعادتك .

توعده الضابط قائلا : طيب يا عبد الحفيظ . و تحول إلى لأول مرة وقال بصوت أقرب إلى الهمس :

- عاوز تنزل الميدان ؟ الميدان مرة واحدة ؟

شعرت أن هناك شيئا فى الأمر فقلت بحذر : بطشة قال لى كده يا سعادة البية .

قال بنفس الصوت الهامس المتوعد : بطشةالى قال لك ؟ .

دوى صوته فجأة بأعلى درجاته فقفزت من البغته : روح عنبرك يا عبد الحفيظ و سيبلى الواد ده .

أدى الحارس التحية وإنصرف . وأشارلى الضابط أن أقف إلى جوارالحائط ففعلت . إنصرف إلى طعامه دون أن يفقد وجهه تعبيره الغاضب . ولحظت أنه يتناول رغيف الخبز فيطويه مرتين و يدس فى ثناياه قرصا من الطعمية ثم يقضم منه قضمات كبيرة تقضى على الرغبة فى ثوان .

أحضر له أحد المساجين كوبا من الشاى . وما لبث أن أتى على الخبز والطعمية فتطلع إلى الإناء الفارغ برهة ثم تناول كوب الشاى وأخذ يرتشف منه بصوت مسموع ، و بدا كأنه نسانى تماما . ثم نهض من مقعده و دخل مكتبه الذى تؤدى إليه درجتان حجريتان . و لاحظت أن قدميه بالغتا الضخامة وان حذاءه بال كما أنه يعرج قليلا .

رأيت طابور الخدمات يغادر العنبر . و مضت ساعة ثم أخرى كنت أنقل خلالهما ثقل جسمى بين ساقى بالتناوب . و سمعت فجأة صوت الضابط يصرخ

مناديا من يسمى بالدهشوري . أقبل على الفور حارس متقدم فى السن جلل
الشعر الأبيض رأسه يمسك بخيرزانة رفيعة فى يده . كان هو نفسه بالغ النحافة
يشبه عصا تحمل عنقا رفيعة بتفاحة آدم بارزة . دخل المكتب و غاب بضع
لحظات ثم خرج واقترب منى و هو يضرب بعصاه كف يده اليسرى : قدامى ع
العنبر .

مشيت أمامه بينما أضاف : بقى حضرتك كنت عاوز تنزل الميدان ؟

قلت : بطشة اللى قاللى .

هوت صفة على قفاى فترنحت وكدت أقع لكنى تماسكت واستطعت أن
أحمل الصفة الثانية .

وكنا قد وصلنا إلى باب العنبر فلمحت بطشة واقفا يتطلع نحونا و هو
يضحك.

(٥)

لم يتأخر دور شرف فى مساعدة " النشرة " على إعالة نفسه و عياله .
ففى إحدى الليالى سمع اسمه فى قائمة المرحلين إلى المحكمة فى الغد .
وقضى الليلة ساهرا ، لا من التفكير فى احتمال الإفراج وإنما فى الامدادات :
من الصور الحية والسجائر . الصور لدعم نشاطه الليلى بعد أن استنزف
إمكانيات فتاة الجولف . والسجائر لأغراض متعددة : تسديد الديون
(لسوزوكى) والضرائب (لبطشة) والاشهار (للنشرة) فضلا عن الاستخدام
المباشر (فى التدخين) والخدمات الأخرى التى تضاعفت فى الصباح : حلاقة
للذقن كاملة من جميعه ، أى تتضمن النتف بالفتلة والدعك بماء الورد من زجاجة
" أكوا فيلفا أفتر شيف " مقابل علبة سجائر ، مسح الكوتشى وإعادة ألوانه
الطبيعية مقابل نصف علبة ، حمام مخصوص فى المرجاض لا تنقطع خلاله
المياه مقابل علبة ، كى فى الموقع (أى فى مبنى الإدارة ، أمام غرفة الأمانات ،
حيث يسلم البذلة البيضاء ويتسلم قميصه وينظفونه الملونين والمكرومشين)
مقابل علبة للقميص و علبتين للبنطلون .

حليقا ، نظيفا ، مكويا تسلم الكارت الأصفر الذى حرر له يوم دخوله وبدأ
العبور المضاد : جلس القرفصاء فى طاوور مزدوج مع الخارجين ، ثم سار
معه إلى فناء الإدارة الخارجى حيث تمت إجراءات التميم مرة أخرى . وأخيرا
باب السجن الرئيسى ، حيث تم تقييد المحبوسين ، اثنين اثنين ، وضم إلى
مجموعة من اثنى عشر محبوسا بينهم بعض زملاء مركز الشرطة القدامى
مثل فوزى ويلحة وصلصة ، وضعوا فى الزنازين المتحركة .

كانت الرحلة على العموم مخيبة لآمال شرف ، فبسبب القيد لم يتح له الإقتراب من إحدى الكوات المظلة على الطريق ولم ير من صنف النساء غير بضع مارات محجبات ، لكن حظه تغير فى المحكمة . وبدأ التغير فور وضعه فى القفص فقد وجد نفسه فى صحبة ثلاث نساء ، مرة واحدة ، مثلن التيارات الأساسية فى الحركة النسائية .

كانت الأولى امرأة ضامرة ، من طراز أم قويق ، فى ملابس شعبية سوداء ، انتحت ركنا لزمته دون حركة وهى تتطلع أمامها ساهمة ، تتأمل ما اقترفته يداها . وكانت الثانية سمراء ، فى مقتبل العمر ، ذات شعر بين الأحمر والأصفر ، ترتدى ثوبا ملونا يكشف نحرها وينتهى عند ركبتها وتشعل السيارة من السيارة من علبة وضعتها فى فتحة صدرها ، وتحصل على إمدادات مستمرة من الشاي والقهوة . أما الثالثة فسيدة وقور ، سميكة ، (من طراز الخنزيرة ، الحيوان لا السيارة) فى رداء حريرى سمنى اللون غطى جسدها حتى أصابع القدمين ، أحاطت وجهها بطرحة ثبتت من جانبيين بدبوسين لامعين ينتهيان بحبتي لؤلؤ ، وأخفت عينيها خلف نظارة شمسية سوداء ، مزخرفة الإطار.

جاءت وقفته إلى جوار شاب فى مثل سنه ، منكوش الشعر ، يدخن فى عصبية ، يبدو عليه الذعر ، ألصق وجهه بشبكة القفص ليقترب قدر الإمكان من أم باكية تردد دون توقف : يا عيني يابنى يا صالح . أفضى إلى شرف بانه طالب بالمعهد الفنى الصناعى ثم تبادلا اللسانيات . كان قد تلقى خطابا من مجهول يخبره أن شقيقته الصغرى وعمرها سبعة عشر عاما على علاقة بشاب وحملت منه . واجهها بالخطاب فأنكرت . تحداهما أن تذهب معه إلى المستشفى للتأكد من صدق أقوالها فوافقت . اصطحبها دون علم والديهما بعد أن أخفى سكيننا فى

ملابسه وفى الطريق وعد بمساعدتها وعدم إفشاء السر لأحد إذا قالت له الحقيقة .
اطمأنت إليه البلهاء وإعترفت بأنها كانت على علاقة بشاب وعدها بالزواج ثم
غرر بها . وهنا لم يتمالك نفسه فأخرج السكين من ملابسه وأنهال عليها طعنا فى
أجزاء متفرقة من جسدها ثم أسلم نفسه للشرطة معترفاً بفعلته فقدمته النيابة إلى
المحاكمة بتهمة القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد

أعاده ذكر التوصيف القانونى إلى الحاضر فانهار باكيا واقتعد الأرض ليكون
قريبا من رأس أمه وتختلط دموعهما . وقفز مكانه شاب آخر وسيم الملامح ،
نو شعر ناعم بالغ السواد ، فى نفس العمر ، وربما نفس المصير ، لكنه على
عكس الاثنين الآخرين بدا مستسلما لا مباليا يتطلع حوله كأنه يتفرج على
فيلم. الفيلم الحقيقى بدأ من عدة سنوات لا فى حديقة الحيوان وإنما فى
الموسكى . كان فى الصف الثانى الإعدادى ويعيش وأربعة من الأشقاء
والشقيقات والديهم فى غرفتين أسفل السلم بمنزل قديم بمنطقة جبلية
عشوائية . وبسبب صيام رمضان المرهق أرسله أبوه العليل الذى يتاجر فى إبر
الخياطة المثبتة فى بطاقات صغيرة إلى تاجر بالموسكى . هناك تقابل مع حسن
زرافة .

قدم زرافة نفسه على أنه صاحب محل بمصر القديمة يريد كمية كبيرة من
بطاقات الإبر ودعاه لعقد الإتفاق فى مقهى بالحسين (أهناك مكان أكثر
ملاءمة فى الشهر الكريم ؟) . كان السعر مغريا ، يتضمن عمولة معقولة للصبي
حجاج ، مهت ب دعوة للإفطار لاقترب وقت المغرب ، تلاها شرب الشاي والمنلجات
على مقهى برميسيس ، ومحاولة فاشلة لإقناعه بتدخين السجائر التى سببت له
سعالا حادا ، فكرس زرافة نفسه لتعليمه شرب الشيشة ولعب الورق حتى
تجاوزت الساعة منتصف الليل فأبرز ورقته الأخيرة :

- لو روجت الوقت أبوك حيضربك . تعالى معايا أحسن . أنا متجوز وعندي أولاد في سنك تنام معاهم والصبح روح . وعندي كمان شيشة .

لم ينصرف حجاج في الصباح التالي ولا الذي بعده ولم يرأسرته أو مدرسته منذ ذلك اليوم . فقد أخذه إبن الزرافة إلى عزبة اسطبل عنتر بمصر القديمة وغرفة واحدة تضم حيوانا آخر يدعى سيد غوريلا وأكثر من ١٥ طفل لا يتعدى أصغرهم سن الثمانية آثار منظرهم فزع الزبون الجديد فأراد الانصراف . لكن دخول الحمام ليس مثل الخروج منه كما سبق أن اكتشف الكعب الداير

أبرز زرافة مطواة فبكى حجاج وأخذ يصرخ فضربه بعصا كبيرة على رأسه لم يشعر بعدها بشئ . الأولاد الآخرون هم الذين أخبروه عندما أفاق بما حدث . لا شئ أكثر مما حدث لهم . فقد اعتدى زرافة على شرفه وداوم على الاعتداء عليه طوال شهر كامل ظل خلالها حبيس الغرفة إلى أن ظن أن ترويضه اكتمل فصاحبه إلى العمل . بيع بطاقات إبر الخياطة في وسائل المواصلات كغطاء للعمل الحقيقي :

هل استسلم ؟ لا . في أول يوم قرر الهرب داخل أتوبيس فغافل زرافة ونزل من الباب الآخر . فوجئ أمامه بالحيوان الآخر الذي يشترك في السكن والحريم والمهنة . النتيجة علقه بخرطوم جلد وإنذار ناجع : لو كرر المحاولة سيشوه وجهه الوسيم بماء النار ويخطف أحد أشقائه أو يعتدى على والدته ولتكن له عبرة في أحد عيال سيد غوريلا الذي حاول الهرب فقطع سيد رقبتة وشرب من دمه .

هكذا مضت السنوات انتقل خلالها حجاج مع صاحبه من اسطبل عنتر إلى دار السلام ثم مدافن اليهود ، كما انتقل من إبر الخياطة إلى الأمشاط

والمناديل الورقية ثم البانجو . وهنا تنبهت له الشرطة اليقظة فعدت من أجله
الإجتماعات المكثفة على أعلى مستوى فى لاطوغلى وباب الخلق ورسمت خطة
محكمة للإيقاع به فتنكر له خصيصا عقيد محترم اقترب منه أثناء وقوفه على
ناصية شارعين فى مصر الجديدة وقدم له عشرة جنيهات و عندما شرع حجاج
فى إخراج لفافة البانجو من جيبه أطبق عليه الكمين وعثر معه على ثمانى
لفافات أخرى اعترف بحيازتها بقصد الإتجار فاستحق العقوبة المقررة وهى
الإعدام .

ضم القفص أيضا مجموعة غريبة من عشرة رجال ، أغلبهم ضامرى
الأجسام ، شاحبى الوجوه بطريقة ملفتة ، يتنفسون بصعوبة ويصدر عنهم سعال
حاد متكرر، اكتظت القاعة من أجلهم بجمهرة نساء فى جلابيب سوداء و أطفال
فى جلابيب بلا لون وعدد من المحامين والصحفيين . وكشفت اللسائيات أنهم من
عمال حلوان الذين أضربوا عن العمل واعتصموا بمصنعهم لإحتجاجا على فصل
عدد من زملائهم لأنهم طالبوا بإحتساب أيام الجمع ضمن المرتب أسوة
بالمستشارين وهم موظفين متقاعدين من أصدقاء رئيس مجلس الإدارة عينهم
برواتب عالية لا يقل الواحد منها عن الألف جنيه فى الشهر، تكفى لحساب
أيام الجمع للعمال إلى يوم القيامة .

هل تعبيرهم عن الرأى هو الذى جاء بهم ؟ أبدا . الأهل هم السبب .
فقد تجمعوا أمام بوابة الشركة لكى يطمئنتوا على أزواجهم وأبنائهم و يزودوهم
بالطعام . لكن الشرطة منعتهم وألقت بالزاد و الزواد فى التربة و بقنابل الدخان
فى المصنع . لم يجد الأهل وسيلة للتعبير عن رأيهم سوى الحجارة . وتصورت
الشرطة أنها تواجه انتفاضة على الطريقة الفلسطينية وردت بإطلاق الرصاص

على الطريقة الإسرائيلية فقتلت ثلاثة و جرحت سبعين ثم أُلقت القبض على
الباقيين .

شكوى أخرى جانبية لا علاقة لها بالموضوع وإنما تفسر الشحوب
والضمور و السعال ، لديهم ولدى الأهل و الشرطة معا ، فضلا عن الاستعداد
للمغامرة (بالإضراب و الإعتصام) : فمداخن المصانع تنفث فى الهواء
عشرين طنا من الأسمنت كل يوم .

أخته فاطمة وأمه اللتان لم تذهبا فى حياتهما إلى حلوان ، بدت عليهما
نفس المظاهر عندما اقتربتا من القفص فى وجل ، وكل منهما تحمل فى
إحدى يديها كيسا منتفخا من البلاستيك . كانت الأم ترتدى جلبابا داكن اللون و
تغطى رأسها بطرحة سوداء ، وتنتعل صندل الخروج الأسود المعهود . وكانت
الأخت ترتدى الفستان الوحيد الذى تذهب به إلى البوتيك وتلف شعرها فى
إشارب ملون لتعطى الإنطباع بأنها محجبة . أما الأب فظل جالسا فى نهاية
القاعة ، جزعا مهتما يتمم الصلوات والدعوات ، محتفظا بالمسافة التى حرص
عليها دائما بينه وبين ابنه ، وطالما أثارت ضيق الابن وتساؤله عن حقيقة
عواطف الأب ، لكنها الآن لقيت رضاه .

تلقت شرف حوله بحرج عندما رفعت أمه منديلا تجفف به دموعها وطلب منها
فى غضب أن تكف عن البكاء ثم سألها إن كانت قد وجدت حماميا فأجابت
بالإيجاب . جففت دموعها وعندئذ شرع فى البكاء وهو يشرح لها ما يتعرض له
من مهانة وكيف أن إرسال الخطابات لا يسمح به للسجين إلا بعد مرور أسبوعين
على تشريفه ، وكيف حاول مع ذلك الكتابة إليها . المطلوب ؟ الانتقال إلى عنبر
الملكيين وما يستتبع ذلك من لوازم (ملابس و طعام و مزيد من السجائر) .

تفجرت دموع الأم من جديد وظلت تتطلع إليه وهى تبكى فى صمت فتشاغل
عنها بالفرجة . و إتجهت أنظاره مع الجميع إلى حشد من المحامين بأروابهم

السوداء ولجوا القاعة فى صحبة رجل قصير القامة فى ملابس أنيقة . تعرف شرف فى الحال على بذلة من انتاج "إيف سان لوران" ، وحذاء من طراز "بالى" ، ونظارة طبية ذات إطار من طراز "كارتيه" يحتل مساحة كبيرة من الوجه . كان شعر الرجل مصففا فى عناية وشاربه محفوفا على شكل خط رفيع فوق الشفتين ، ويتحرك بطريقة متخشبة وهو يتسم بصورة مستمرة ، كمن اعتاد الوقوف أمام كاميرات الفيديو .

تعرف شرف أيضا على شحوب من نوع مختلف . فإلى جوار الرجل المتخشب سارت امرأة أطول منه ، ذات بشرة بيضاء مودة ، ترتدى بلوذة سماوية اللون بكمين قصيرين للغاية ينتهيان تحت الكتف مباشرة فيكشفان عن ذراعين ريانيتين ، وأسفلها جوب فضفاض أزرق اللون . كانت تضع نظارة شمسية داكنة لم تتضح هويتها ولا معالم وجهها الذى أحاطت به هالة من الشعر الأسود الكثيف استقرت فوق كتفيها ، إلى أن خلعتها لتكشف عن عيني سوداوين حزينتين ، تحيط بهما تجاعيد خفيفة ، وفم صغير رقيق الشفتين . واعتبر أشرف نفسه سعيد الحظ عندما أحضر لها الحراس مقعدا وضعوه إلى جانب النافذة المواجهة له ليخففوا عليها من الحرارة فجلست محافظة على انتصاب قامتها واضعة ساقا فوق الأخرى ، كاشفة عن انسيابهما وامتلاء ربليتهما .

الدولة المتهمه بالتراخي والرخاوة أبدت درجة عالية من سرعة الأداء بواسطة ممثليها الذى تصدر القاعة ، فتتابع القضايا فى سرعة البرق ، لدرجة أن عم فوزى لم يدرك أن قضيته نظرت ، إلا عندما سمع نيا التأجيل فى نهاية الجلسة . أما شرف فقد تمكن من التقاط اسمه وهتف : أفندم . رأى شخصا يتقدم إلى المنصة ويخاطب كاتب الجلسة فى عجلة فيسجل الأخير كلماته ثم

يهمس للقاضى بشئ ما . هز القاضى رأسه موافقا وهمس بدوره للكاتب همس الكاتب للمحامى فعاد إلى مكانه بين الجالسين بينما نادى حاجب الجلسة على متهم آخر .

شرح له صلصة هامسا :

- الظاهر المحامى يتاعك مجاش وبعث واحد بداله .

سأله : و بعدين ؟

قال : ولا قبلين .حتتأجل .

التجأ القاضى إلى غرفته بعد ساعة قضائها شرف فى تأمل ساقى رفيقة الرجل المتخشب . و بعد حوالى نصف ساعة خرج الحاجب و نادى على أم قويق فأخرجوها من القفص واقتادوها إلى الغرفة . عادت بعد عشر دقائق دون أن يبدو شئ على وجهها . ثم نودى على ثابت محفوظ ، فتقدم الرجل المتخشب من الغرفة يتبعه مرافقوه من المحامين .

استغرق الإترفيو مع القاضى قرابة الساعة كان صلصة لا يكف خلالها عن الحركة فى أرجاء القفص ، ينصت للأحاديث الجارية بين المتهمين وأقاربهم ويستفسر عن القضايا المنظورة ويدلى بآرائه فى الأحكام المتوقعة ويلح على معارفه كى يحضروا له نواء توسيفان المضاد للسعال ، أخذا نفسه بين الحين والآخر خلف مؤخرة المرأة ذات الشعر الملون . عن هذا الطريق عرف شرف أن الرجل المتخشب من كبار موظفى الحكومة ويرأس الهيئة التى تتولى توزيع الأسمنت على التجار وأنه من الذين وسع عليهم فى الرزق إذ وجد معه عند القبض عليه مليونين وربع مليون جنيه نقدا . ومع ذلك خرج من غرفة المداولة عابسا . وفوجئ سكان القفص بانضمامه إليهم فأفسحوا له مكانا وتراجعوا بعيدا فى احترام . وتقدمت رفيقته من القضبان التى تعلق بها يديه الإثنتين

(كاشفا لعيني شرف اليقظتين عن ساعة ذهبية من طراز "رولكس") ووقفت تتطلع إليه (بعد أن وضعت نظارتها المعتمدة كي لا تكشف عن حقيقة مشاعرها) بينما انهمك في حديث هامس مع محاميه .

كان قاتل أخته قد إقتيد إلى غرفة المداولة وخرج بعد دقائق وقبل أن يبلغ القفص تصاعدت الزغاريد . و أحاط به أقاربه وجلهم بالملابس الريفية و نشط بينهم عامل البوفيه الذى أحضر صندوقا كاملا من الكوكاكولا وضعه قرب المنصة . قاد الحراس صالِح إلى القفص وما أن دخل حتى إتضحت التفاصيل : حكم القاضى عليه (أوله كما تبين) بسنة مع وقف التنفيذ .

أحدث النبأ تأثيرا سحرا على القتلة ، بما فيهم شرف ، لما كشف عنه من احتفاء بالغ بقيمة الشرف ، فلم يعبأوا بتأجيل قضاياهم لمدة ٤٥ يوما أخرى ، وغادروا القفص إلى قاعة الانتظار فى معنويات مرتفعة فيما عدا الدكتور ثابت الذى كان واجما . ولم يخفف من وجومه عرض الاستربتيز الذى كان فى انتظارهم عندما صعدوا إلى سيارة الشرطة والذى قدمه راكب يرتدى ملابس السجن المقيفة . فقد وقف فجأة وفك رباط بنطلونه وتركه يهبط حتى قدميه وتبعه بالكيلوت كاشفا عورته ثم أقعى القرفصاء ، معطيا مؤخرته لضيف الشرف ، ومد يده إليها بلقافة صغيرة من البلاستيك وبحركة سريعة دسها إلى آخرها فى إسته ، ثم إعتدل واقفا وأعاد ملابسه إلى وضعها دون أن يعبأ بنظرات الآخرين أو بنظرات الحارس الذى تابع كل ذلك من نافذة الباب الخلفى دون اكتراث .

لم تكن المؤخرة العارية الوحيدة التى قدر لشرف أن يراها فى يومه . فعندما بلغوا السجن وتم تفتيشهم للتأكد من أن المنوعات التى أحضروها مخبأة فى أماكن أمينة ، احتجزوهم فى قاعة الاستقبال دون ما إيضاح كي لا يعبروا الفناء الذى حجز لطقس العروسة . ومن كوة صغيرة مسورة رأى شرف

مشهدا سينمائيا : مائدة مغطاة بمفرش أحمر اللون يجلس خلفها ثلاثة ضباط مهيبو المنظر، أخفوا عيونهم بالنظارات السوداء المعهودة ، وأمامهم هيكل خشبي غريب عبارة عن قائم منفرج الساقين ينتهى من أعلى بذراعين تتوسطهما دائرة مفرغة .إلى جوار الهيكل الصليبي وقف أحد السجناء بين اثنين من الحراس شارعا في عرض ستريبتيز ، وسمع شرف سجيننا خلفه يقول :

- ده السوهاجى بتاع اللحمة

كان يشير إلى ما وقع منذ أيام فى طابق النفوس (جرائم القتل) عندما احتج أحد المساجين على قطعة الجلد التى وجدها فى اليك وقذف بها فى وجه الصول معلنا ، للعجب ، تمسكه بحقوقه التى تنص عليها لائحة مصلحة السجون وهى قطعتان من اللحم الأحمر (لا الجلد) فى الأسبوع (لا فى اليوم) .

تفرج شرف على عقوبة التمرد التى تنص عليها لائحة مصلحة السجون: تقدم شخص فى ملابس مدنية فأعطى حقيبته لحارس بعد أن أخذ منها مقياس الضغط فثبتته إلى ذراع المتمرد وقاس ضغطه ثم كشف على صدره وظهره بالسמاعة وتناول حقيبته ومضى إلى الأمور فتحدث معه قليلا ثم جلس إلى جوار على بلبل . وأشار الأمور بيده للحراس فأشاروا بدورهم للسجين الذى ارتمى فوق الصليب الخشبي بحيث إستقرت رأسه وسط الدائرة و ذراعااه فوق الذراعين الخشبيين ، و تجلت مؤخرته للناظرين فى عريها التام . وبعد أن ربطوه إلى العروسة الخشبية بسيورجلدية تبادل حارسان ضربه لمدة ربع ساعة بشومة طولها نصف متر تنتهى فى أحد طرفيها بعدة قطع من الجلد ، لا جلدة واحدة .

صعدوا أخيرا إلى زنازينهم وهم لا يكتفون إعجابهم بصلابة المجلود الذى لم يفه بأهة واحدة ، نجمان آخران نازعا بطولة اللسانيات : أم شرف (بفضل المحشى والملوخية والدجاج المحمر والبازنجان المخلل والبقلادة والعنب والكانتالوب التى وزعها على الزنزانة بأريحية بررها لنفسه بأنها تتلف لو بقيت للغد) وصلصة (بفضل جعبته التى ضمت إلى جانب زجاجة "التوسيفان" ، دواء السعال ذى المنافع الجمة ، التى تقاسمها مع بلحة ، ما جمعه من معلومات عن نجوم القفص) .

فأم قويق قطعت زوجها بالسكين إلى أجزاء صغيرة . وكان المرحوم سباكا ذهب إلى الخليج وتركها تقوم بتربية الأولاد وبعد غيبة عدة سنوات عاد ليستمتع بنتائج كنيحه فطردها هى والأولاد الثلاثة وتزوج من فتاة صغيرة . والمرأة المحجية الوقور صاحبة عمارة تتميز بالوعى الإجتماعى ، إذ عنت بالمساهمة فى حل مشكلة الإسكان ، فضاعفت طوابق عمارتها العشرين دون أن تعبأ بقواعد البناء الغبية ، مما أدى إلى سقوطها فى أول هزة للزلازل . أما السمرىء الملونة فمؤخرتها طرية أكثر مما يجب لأن (طبقا لصلصة) المؤخرة الممتازة هى الصلبة المتماسكة . وهى خبرة أكدها الزعيم بعد أن أخذ نصيبه من التوسيفان .

استمع الجميع إلى حديث المؤخرات بعيون لامعة فيما عدا واحدا انخرط باليكاء . لم يكن عم فوزى وإنما كهل أبيض شبح الرأس ، امتلا وجهه بالحفر والأخاديد ، انضم إليهم بالأمس فاحتل مكان فلاح كفر الشيخ (الذى خرج بكفالة) ، إلى جوار دلو البول ، دون أن يتأفف . وظهر السبب بعد قليل ، فالمهنة هى الصرف الصجى بالتحديد ، والإسم بالنتيجة : حسن بكبورت .

هددت دموعه بتغيير جو السهرة فهب المجربون إلى العمل . هتف به صنفق : صلى على النبي . و ناوله صبرى كوب ماء ونصف ليمونة . وأشعل له سوزوكى سيجارة كاملة . وكان عليهم أن يدفعوا الثمن .

تحولت . دموع عم حسن إلى نهنحات سمحت له بالتقاط أنفاس السيجارة والتعبير عن نفسه : فهو يمارس مهنة الخراء منذ ٢٤ سنة ومع ذلك لم يتجاوز مرتبه ٩٢ جنيه .

- عندى سبعة فى المدارس . ده حتى ما يكفيهومش عيش . طب ويعملوا إيه الوقت ؟

على العكس مما تبادر إلى أذهانهم ، فان عم حسن لم يدخل السجن بسبب محاولة تصحيح الوضع . و إنما لأن صبيها مجهولاً سقط فى بالوعة منزوعة الغطاء و مات .

- هو أنا اللى شلت الغطا ؟ ميروحو يدوروا على اللى شالها .
استخلص الحكمة : إحنا محكوم علينا بأكل الخرا من ساعة متولدنا . ولو محدش وقع فى البلاءة إحنا اللى نموت فيها . الحكومة مبتديناش معدات كفاية أوملابس وقاية . والنتيجة زى ما انت شايف السكر والضغط والهرش .

شفع حديثه بالهرش أمام الجميع . على العكس منه لم يكن شرف يجرؤ على الهرش علانية رغم أنه كان يتوق إلى ذلك بسبب ما فى جعبته . وحال القيظ بينه وبين ما فعله مرة فى الفجر ، عندما استغل انخفاض درجة الحرارة ، فبسط بطانية فوقه بحيث غطت وجهه وكل جسمه وثبتها خلف مؤخرة رأسه ثم رفع ركبتيه إلى أعلى وجذب الطرف الآخر من البطانية أسفل قدميه فصار مشدودة كالوتر وتوفرت أسفلها مساحة واسعة للتنفس والهرش دون أن يلحظ أحد .

راود نفسه على الصبر حتى ينفس الآخرون . وكان هو أول من راح
فى سبات استيقظ منه فجأة قرب الفجر على أصوات هرش حادة .

كان ينام بين صبرى وسامى عازر ، و هو عامل مصبغة فى الأربعين ،
سبق عم حسن إلى الإلتحاق بالزنزانة فصارا الآن يفصل بينه وبين شرف .
دون أن يحرك الأخير رأسه استطاع أن يتبين صبرى راقدا على ظهره ،
وذراعيه إلى جانبيه ، غارقا فى نوم عميق ، وكما كان سامى عازر بالنهار
منطويا على نفسه ، عازفا عن الكلام ، دافنا رأسه فى كتاب صغير يخرج
من كيسه ويفتحه على صفحة بعينها لا تتغير ، رقد الآن منطويا على نفسه ،
فى وضع الجنين ، دافنا رأسه بين ذراعيه .

استمر صوت الحك المتواصل ، فرفع شرف رأسه ببطأ وتطلع حوله . كان
الجميع نياما والسيمفونية المعهودة تتردد بقيادة بطشة . وبين المقاطع كانت
هناك لحظات توقف تسمح بالتقاط موسيقى من نوع آخر . وبفضل شعاع من
الضوء نفذ من كوة الزنزانة ، قادما من مصابيح السور الخارجى ، ميز يد عم
حسن وهى تتحرك بعنف بين فخذه . ألقى نظرة أخرى حوله أكدت له أن
الآخرين غارقون فى النوم . عندئذ قرر أن يستغل الغطاء الصوتى المتاح ، ففك
سروله فى حذر وهو يعد بسرعة ملفا مكثفا من صور اليوم ، تتصدره ساقا
رفيقة الدكتور ثابت .

لم يستغرق منه الأمر كثيرا على عكس عم حسن الذى بدا أنه يواجه
صعوبات جمة ، مما مكن بطشة من اكتشاف مايجرى .

كان النوبتجى بحكم تجربته الطويلة قادرا على التمييز بين أنواع الهرش .
هكذا أرغم عم حسن فى الصباح على أن يتعري ، فكشف عن عورة حمراء
ملتهبة ، وأثار دماء بين الفخذين . وعلى الفور أسرع بطشة إلى الحارس الذى

جاء برفقة تومرجى العيادة ، وهو حارس متتكر فى بالطوفقد لونه الأبيض من زمان ، أمرهم جميعا أن يحملوا نمرهم وحاجياتهم (فيما عدا المأكولات والسجاير) ويتبعونه إلى العيادة .

كعادة الرؤساء لم يتبرع بطشة بتفسير ما يجرى ورفض الإجابة على أسئلة رعاياه . صنقر هو الذى أفضى ببعض المعلومات : عم حسن بكبورت مصاب بالجرب الذى تنتقل عدواه بسرعة خاطفة ولهذا لا مفر من عزله فى المستشفى .

أسفر صنقر أيضا عن مشاعر القيادة :

- أنا خائف يكون عدائنا . أصل العلاج صعب . لازم العيان يستحمى بالليف الخشن والمية السخنة . ويدهن مرهم يشتريه على حسابه .

كانت العيادة فى الطابق الأرضى من مبنى مستقل يتألف من طابقين ، خصص الأعلى للمستشفى . وكان الممرالمؤدى إلى غرفة الطبيب مزدحما بطابور من مسجونين ينتظرون الفحص ، بالإضافة إلى أجساد ذابلة ملقاة على الأرض ، تتصاعد منها رائحة عفنة ، وتتناثر حولها قطع الشاش الملوثة بالدم .

لم يكن السبب هو كثرة الزبائن وإنما خطأ فى المصطلح . ذلك أن المستشفى الواقع فى الطابق الأعلى لم يكن مخصصا للمرضى وإنما للمعافين؛ مجموعة من أصحاب اللحى الذين حاولوا اغتيال وزير الداخلية يتعافون من أثر اعترافاتهم . حوت كبير ، متزوج حديثا ، ينتظر المحاكمة ويهرش طول الوقت ليرى زوجته فى زيارة خاصة (كى تهرش له) . واحد فقط إستثناء من القاعدة ، اتهم بسرقة سيارة وعندما رفض الاعتراف حقه ضابط الشرطة فى ساقه بمزيج من محتويات المراض ، فأصيبت بالفرغرينا .

عندما يئس الجميع من . ئ الطبيب في يومه ، التجأ التومرجى للضابط على بلبل الذى التجأ إلى . على السجن الذى تلفن للمأمور فى منزله (حيث كان ملتجئاً إلى زوجته الـ ، غيرة) . وفى تصرف فريد نادراً ما تعهده البيروقراطية ، أمر المأمور بالـ جاء الضرورى إلى أن يأتى الطبيب فى الغد .

قاد الحراس المجموعة (تاركين عم حسن فى المستشفى لا المنتجع) إلى الحمام العمومى (الذى يترددون عابه مرة فى الأسبوع من أجل المكاشفة الجماعية) . تركوا حاجياتهم فى الشمس وخلعوا ملابسهم كلها ووضعت فى كوم واحد على جانب . واندفعوا جرياً تحت الدش الساخن وهم يهللون بالأطفال . فيما عدا واحداً .

زعق الحارس فى سامى عازر الذى ظل واقفاً بكامل ملابسه فى مدخل الحمام :

- إقلى يا مستجون .

لم يتحرك سامى وإنما ظل واقفاً وكيسه فى يده ، فتولى بطشة الأمر . تقدم منه وهو يقول : معلش يا حضرة الصول ، أصله مينكشفش على رجالة .

ولسامى قال مهذهداً : إقلى ياسامى ، متخفش . محدش حيملك حاجة . حط الكيس فى الشمس واقلى .

تشبث سامى بكيسه وتلفت حوله بنظرات مجنونة كأنما يبحث عن منفذ . همس له بطشة : إن مقلعتش حيفتكروك عيان ويودوك الحجر الصحى . أنت كنت نايم جنبه .

انصاع سامى ففتح الكيس وتناول كتابه . احتفظ به فى يده اليسرى ثم أغلق الكيس وخطا إلى الخارج فوضعه إلى جانب بقية الأكياس .

قال له صنقر مهددا : دا اللى انت خايف عليه ؟ متخفش . خده معاك تحت الدش .

صاح الحارس : وبعدين بقى ؟ هات ده .

وتقدم منه مادا يده ليختطف الكتاب . أبعد سامى يده بعيدا فسقط منه . وانفجرت صفحاته عن صورة صغيرة ملونة تدرجت على الأرض .

انحنى الحارس قبل أن يتمكن سامى من منعه والتقط الكتاب و الصورة . تعرف فى الكتاب على الإنجيل الذى يعرفه لا بحكم دينه وإنما بحكم عمله . ولهذا لم يفه بكلمة كى لا يجرح المشاعر المقدسة . لكن الصورة كان لها شأن آخر . قال وهو يرفعها أمام عينيه :

- الله . دى زى القمر أهيه . امال مش عاوز تقلع ليه ؟

قال سامى بصوت واهن : ادينى الصورة .

قال الحارس : خليها معاى شوية حاديهالك لما تخلص حمام .

استسلم سامى و خلع ملابسه ودخل تحت الدش الساخن . وبعد خمس دقائق نفخ الحارس فى صفارته معلنا انتهاء الحمام . استعاد سامى كتابه وصورته وتسلم الجميع ملابس ونمر جديدة و عادوا إلى زنزانتهم ليبدأ تنفيذ الشق الثانى من اجراء التأمور وهو الحبس . فلم يغادروها إلا قبل توزيع العشاء بقليل ولدة عشر دقائق ذهبوا خلالها إلى بورة المياه التى أخلت تماما من أجلهم كى لا يختلطوا بأحد .

على العشاء كان الموقف وإحتمالاته (مدة الحبس) و نتائجه المباشرة (تخفيف الزحام) هو الموضوع السائد و الذى كشف لأشرف حقائق جديدة عن عالم ما وراء الاسوار . فالمال الذى ظن أنه تحرر من سطوته بمجرد عبور العتبة

الأولى ، يشتري هنا كل شيء تقريبا : بخمسة جنيهات يترك الحارس باب الزنزانة مفتوحا طول النهار . بخمسين يحولك طبيب السجن إلى مستشفى خارجي لتقضى عطلة نهاية الأسبوع أو الموسم . بمائة يتم تهريب أى ممنوعات ابتداء من الويسكى حتى الحشيش . بعدة آلاف تنال عفوا صحيا أو يقرر الطبيب أنك مجنون لتحال إلى مستشفى الأمراض العقلية كخطوة أولى للانتقال نهائيا إلى مجتمع العقلاء .

كسر بطشة الدائرة اللسانية بأن اومأ إلى سامى قائلا : فرجنا بأه على الصورة

رد هذا وهو يغمس لقمة فى طبقه : ما تستهلش .

قال صنقر: برضه نشوفها .

مد يده إلى كيس سامى . ونظر الأخير إلى يده لكنه لم ينبس بحرف ولم يعترض .

قال بطشة : نور فى الكتاب .

أخرج صنقر الكتاب المقدس وفرّ صفحاته حتى عثر على الصورة فأخرجها وعرضها للضوء ثم قدمها لرئيسه الذى صفر بشفتيه : يابن الهرمة . حنة مرة .

تخاطف الجميع الصورة فطالعهم سامى بوجه متجهم تعلوه نظارة طبية قاتمة ، وقامة قصيرة بالغة النحافة يطوها قميص أبيض شمريت أكمامه، وسيجارة فى اليد . لم تكن صورته هى التى أثارتهم وإنما الحسناء الممتلئة التى وقفت إلى جواره فى ثوب زفاف أبيض ذى فتحة عريضة تكشف عن منبت ثدييها .

تابع سامى انتقال زوجته من شخص لآخر دون أن يبدو على وجهه أى تعبير .

سأله سوزوكى : إنت متجوز من إمتى ؟

أجاب : من حداث سنة .

السؤال التالي جاء من سامبو بحكم تخصصه : إنت قتلتها صحيح ؟

لزم سامى الصمت و هو يحدق فى الأرض ثم قال : الشيطان شاطر .

- لازم مشيها كان وحش .

بهت سامى ورفع رأسه مواجهها سامبو . وتوقع الجميع معركة لكن سامى كان يفكر . هز رأسه وقال : كانت بتخرج كتير بعد ما أروح الشغل صحيح . أصل احنا مجبناش ولاد .

أدرك بعد لحظة انتفاء العلاقة السببية بين كثرة الخروج وعدم الانجاب فسارع بالتصحيح :

- يوم الحادثة كنت قايم من النوم فقعدت تعايرنى إنى مبصرفش عليها كويس ومبدورش على شغلانة أحسن أو أسافر وأنى مبخلفش . قمنا تخانقنا . مسكت فى رقبتها . ومديتش بنفسى إلا وأنا فى الشغل . لما روجت المغرب لقيتها ميتة فبلغت البوليس .

مد يده إلى إبطه وأخذ يهرش ، فتبادل الآخرون النظرات . هدأت هواجسهم عندما أبعد يده . وجاء نورشرف الذى شعر بقرصة فى جنبه . تجاهل الرغبة فى حك مكان القرصة كى لا يلفت الإهتمام . وإنظروهو يجز على أسنانه ويتطلع إلى الآخرين . كانت نشأته على حافة المعادى قد وسعت مداركه ، فأصبح قادرا على التمييز بين أحوال القرص و تجلياته (من قبيل القرصة الكاذبة التى يشعر فيها المرء بأعراض القرصة دون أن تحدث) . هكذا اطمأن عندما انتقلت القرصة إلى كاحله ، فهو مكان مفضل لدى البراغيث ..

استمر الحبس طيلة اليوم التالى دون أن يظهر الطبيب . وحرم سامى من زيارة القسيس الذى يأتى كل اسبوع فى سيارة مرسيدس للاطمئنان على

أرواح رعاياه . وارتفعت درجة حرارة الغرفة فتخفف النزلاء من ملابسهم حتى
أوشكوا على التعري فيما عدا شرف الذي خجل من الكشف عن الإدهون
المحيطة بثدييه . ودب الشجار بين سامبو وصنقر وبين صليصة وبلحة وبين
عم فوزى وجابر . وأوشك سوزوكى أن يمسك فى رقبة بطشة عندما لم يجد
صابونته وبدأ بطشة نفسها مهتاجا لا يستقر فى مكان لأنه لم يعرف الحبس
منذ دخل السجن . كان يهرع إلى الباب بين الفينة والأخرى فيقفز فى
الهواء ويمسك بقضبان الشراعة بأطراف أصابعه ثم يرفع جسده إلى أعلى
ثانيا ساقيه ويستدير بحيث يتكور فى الفتحة مستندا بساقيه إلى الحائط .
ويبدأ النداء على الزنازين الأخرى والحراس متسائلا عن الأخبار .

هكذا وصلهم نبأ الشجار الذى نشب فى عنبر الملكية بين واحد من السنية
وسجين مسيحى بسبب تعليق أبداه الأول على ارتداء الثانى للشورت .
وسرت إشاعة بأن السنية قربوا قتل جميع المسيحيين فتجمع هؤلاء فى فناء
العنبر وهم فى حالة فزع ورفضوا دخول الزنازين .

- شحب وجه سامى عندما سمع بالأنباء فقال له بطشة وهو يبتسم بخبث :
- انت حتلاقيها منين ولا متين يا سامى .

تدخل جابر فجأة :

- متخفش يا سامى . طول ما انت معانا محدش يقدر يقرب منك .
لم يهدأ بال سامى إذ أخذ يرتعش . وعرض عليه سوزوكى نصف
سيجارة ثم قال :

- أهو انت لازمك برشامة . تخليك فل . ولا يهمك . دواك عندي .

فتحداه بطشة : لأ عندي أنا يا سوزوكى .

رغم الصليب الصغير المدقوق فى باطن رسغ اليد اليمنى لعم فوزى ،
فانه لم يعر الأمر اهتماما ، إذ كان منصرفا بكل كيانه إلى الألعاب : قطع
شطرنج من لباب الخبز وعرائس من القماش على صورة ابنة أخته يجمع لها
كل ما تقع عليه يده من فضلات من خرق وقش وورق صحف وعلب كرتون .
انتهت الأزمة الطائفية قبل التمام ، إذ نفى أمير السنية للمأمور إشاعة
المذبحة ، فعاد المسيحيون إلى زنازينهم ، وهدأ روع سامى قليلا . ومع ذلك
نشط سوق البرشام بعد العشاء وهبطت المنافسة بين بطشة وسوزوكى بالأسعار .
عند ظهر اليوم الثالث أخذوهم إلى الطبيب الذى فحص أصابعهم ثم ألقى
نظرة عجيبي على عوراتهم وأصدر حكمه بالبراءة .
فى طريق العودة إلى الزنزانة تداولت القيادة فى الأمر وقال سنقر
مستوحيا تجاربه :

- أنا خائف نكون اتعدينا بصحيح .

صاح بطشة الذى راوده نفس الشك : أما ابن قحبة صحيح ! الراجل
قبالك مفيش حد اتعدي .

قال سنقر : ولو كان كذاب ؟

خبط بطشة كفا بكف : سبحان الله ! ويكذب عليه ؟

قال سنقر : عشان سمعة السجن .

تدبر بطشة الأمر طويلا بحثا عن ثغرة فى تجليل معاونه حتى وجدها
أخيرا فى شخص عامل الصرف الصحى :

- و يعمل ايه فى البكبورت ؟ جيقول كمان إنه مش جيان ؟

- لا ، يقول إن عنده هرش عادى ..

نوع من أنواع الهرش العديدة .

أخذنى الحارس مع عم فوزى إلى المطبخ لتحل محل مسجونين خرجا إلى محكمة الإستئناف ، كان هناك أربعة مساجين من الذين صدرت عليهم أحكام متفاوتة وحارس وأسطى بدين فى جلباب بلدى ، عهد إلينا الأسطى بتنظيف جدران المراحل وأوانى الطهى الضخمة ودلاء التوزيع ثم تنظيف الأرض . وأثناء ذلك وضع أحدهم كميات كبيرة من نبات الرجلة فى أحوض الغسيل ثم رفعها ونقلها إلى طاولة خشبية عريضة وما زال الطين يسيل منها . رأيت يقطعها بسرعة إلى أجزاء صغيرة يزيحها بالسكين إلى حافة الطاولة لتسقط فى دلو . وتولى سجين آخر رفع الدلو وأفرغ محتوياته فى مرجل كبير يتصاعد منه البخار فوق شعلة قوية تغذيها أنبوبة غاز .

انصرفنا إلى تفريغ محتويات عدة أجولة من الفول الناشف فى دلاء وضعت تحت الماء . وعكف آخران على تفريغ جوالين من الأرز فى إناء كبير ووضعاه تحت حنفية المياه وبعد أن قاما بتقليبه عدة مرات أفرغا مياهه وأضافاه إلى مرجل الرجلة دون أن يعنيا بتنقيته من الشوائب .

أعد الأسطى برادا من الشاى فوق نار صغيرة ووزع علينا أكوابه ثم انتحى جانباً هو والحارس وجلسا يشربان الشاى ويدخانان وهما يثرثران . ظهر سجينان بعد قليل يحملان عجلا كبيرا مذبوحا تتساقط منه الدماء فألقيا به فوق طاولة خشبية وانصرفا . نهض الأسطى فاستبدل ملابسه بإحدى بدل السجن وشمر كفيه ، ثم تناول سكيناً كبيرة وتقدم من الذبيحة بعد أن استدعانى وطلب منى أن أمسك بها .

خَلَصَ اللحم من عظام السيقان وانتزع الكبد و الكلوتين والقلب ووضعهم جانبا ثم أضاف إليهم قطعاً من الفخذين و الكتفين ، و كَوْنُ كوماً ثانياً من اللحم الخالص ، و سرعان ما تحول العجل إلى شبه هيكل عظمي فقطعه إلى أجزاء صغيرة إنتقى منها قطع الدهن و الجلد و ألقى بها في دلو حمله عم فوزى وألقى به في مرجل الرحلة .

وجه الأسطى اهتمامه بعد ذلك إلى الكوم الأول فانتقى أفضل أجزائه ووضعها في كيس بلاستيك و عهد إلى أحد المساجين بأن يحملها إلى نوبتجى سيادة الأمور . ثم ألقى بالباقي في حلة متوسطة الحجم و طلب منى أنا و فوزى أن نقشر له كمية كبيرة من البصل ، وسخرمنا عندما إنهمرت دموعنا . مسحت دموعى و مخاط أنفى فى كم سترتى وقلت له : أنا عمري ما قشرت بصل .

لوى شفته المتهدلة فى احتقار : و عامل راجل ؟

انتهينا من تقشير البصل فطلب منا أن نغسله جيداً و إنصرف إلى توزيع كوم اللحم الثانى فى أكياس بلاستيكية مختلفة الأحجام . ألقينا البصل فى أحد الأحواض ودعناه جيداً تحت الماء ، ثم تعاونا أنا وفوزى فى تقطيعه إلى أجزاء دقيقة وأضفنا إليه حفنة من الملح وأخرى من الفلفل الأسود وثالثة من البهار . ثم أسقطنا الخليط فى حلة الكبد وقلب الأسطى المحتويات بمغرفة كبيرة ثم وضع الحلة فوق شعلة صغيرة .

قلت له : بقى الحلة دى حتكفى المساجين ؟

أجابنى هازئاً : إنت فاكرها عشانكو ؟

تناول أحد الأكياس وأعطاهما لحارس الفرن الذى حمل إليه كوماً من أرغفة الخبز الطازجة المعتنى بها والتي تختلف تماماً عن كتل العجين التى توزع علينا

تحت هذا الاسم . وبعد قليل جاء حارس المستشفى وأخرج من جيوبه كوما من البيض المسلوق أعطاه للأسطى الذى أعطاه كيسا من اللحم مقابله . وتلاه أمين المخازن الذى أحضر كيسا من العجوة وآخر من الحلاوة الطحينية . وكان حارس المطبخ يتابع من مقعده باهتمام هذه العمليات .

تتابع مجيئ حراس السجن المختلفين . وكان حراس العنابر والعاملون فى المكاتب يقدمون للأسطى السجائر بينما كان البعض لا يقدم شيئا مثل حراس المغسلة وورشتى النجارة والسجاد . ولم يكن من الصعب على أن أتصور الخدمات التى سيقدمونها لأسطى المطبخ وحارسه مقابل ما يأخذونه من لحم . واكتشفت أنه جنب أيضا قدرا من الفول نظفه بعناية ثم وضعه فى قدرة تدميس كبيرة أقامها فوق شعلة خافتة .

أذن المؤذن لصلاة العصر فمضى الأسطى إلى المسجد وعند عودته عكف على إلتقاط قطع اللحم والعظم من حساء الرجل ووضعا جانبا . أزلت آثار الدماء من فوق الطاولة والأرض ثم مسحتهما جيدا . وانضم إلى عم فوزى ووقفنا إلى جوار الأسطى وعيوننا على كوم اللحم المسلوق . ناداه الحارس فمضى إلى باب المطبخ واشتبك معه فى الحديث هو وحارس آخر ، ثم طلب من عم فوزى أن يناوله أحد الأكياس . وبقيت بمفردى إلى جوار كوم اللحم .

تلفت حولى فى حذر . كان المساجين الأربعة منهمكين فى تعبئة الدلاء بالحساء ، مددت يدي فى خفة والتقطت أقرب قطعة إلى ودسستها فى صدرى وحركتها حتى إستقرت فوق دكة السرورال .

عاد الأسطى ليستأنف تقسيم اللحم إلى أكوام متباينة الحجم . وأعطى لكل مناقطة فى رغيف خبز رششنا فوقها الملح والفلفل . تذكرت أمى عندما تطهى دجاجة وتخصنى وحدى نوناعن أختى بالكبد والقلب وبقية الأحشاء بعد أن ترشها بالملح والفلفل .

أتيت على الرغيف بسرعة ، كانت أول مرة أذوق فيها اللحم منذ يوم
الحكمة . وكنت ما أزال جائعا . وانتظرت أن يعطينا الأسطى شيئا لكنه لم
يفعل . لم يفارق طاولة اللحم ولهذا لم أتمكن من اختلاس قطعة ثانية ولا
من التهام القطعة التي خبأتها في ملابسى .

عدنا إلى العنبر قبل موعد التمام بقليل . كنت جوعانا لكن نفسى عافت حساء
الرجلة . ولم أتمكن من التهام قطعة اللحم . فلو أبرزتها سيدركون كيف
حصلت عليها ولا يستبعد أن يبلغ بطشة عنى . و قررت أن أنتظر حتى
ينام الجميع لأكلها .

لاحظت أن بطشة فى حالة إنسجام . وكان يرمى بنظرات غامضة بين
الحين والآخر . وروى لنا وهويستنشق مسحوقه الأبيض نكتة فحواها ان
اثنين من إياهم رغبا فى الشفاء فذهبا إلى الطبيب . وبعد شهر التقيا فوجد
أحدهما الآخر يقلّم عودا من القصب ويقشره ثم يقطعه قطعاً صغيرة
متساوية فى حجم الأصبع .

خبط صنقر على فخذه منفجرا فى الضحك واستعد الآخرون لأن يحذوا
حنوه لكن بطشة

صرخ فى معاونه :

— لسه يابن . القحبة . النكتة مخلصتش .

كف صنقر عن الضحك وانتظر .

دعك أعلى صدره باصبعه الوسطى من اليمين إلى اليسار فى بطاء
مستخرجا قتلة سوداء طويلة تأملها يامعان قبل أن يلقى بها جانبا ويستأنف
الحكاية : لقاها بيقشر القصب ويعمله عيدان صغيرة فرعق فيه : الله ، مش

قلنا حنبطل؟ رد عليه الثانى : أصل أنا ما استريحتش على علاج الدكتور
وعاوز أجرب العلاج بالأعشاب . .

ارتجت الزنزانة من الضحك وتطلع إلينا بطشة فى زهو .

تتابع النكات وشارك الجميع ماعداى . كنت عاجزا عن التركيز من
الجوع أفكر فى قطعة اللحم و أنتظر الفرصة لالتهامها . وروى سوزوكى نكتة
عن أبناء المنوفية أدركت أنها موجهة ضد بطشة الذى ولد ونشأ فى شبين
الكوم : واحد منوفى دراعه مقطوع أبوه مات . الناس جم يعزوه . تفتكروا
أخذ العزا إزاي ؟

تطلعنا إليه متسائلين فقال وهو يرمق بطشة بركن عيته : خده على
قفاه .

كانت نكتته التالية ضد سامبو : واحد أسود غطيس عنده عشر أولاد
سود وفجأة مراته خلفت واحد أبيض . قعد مستغرب . وكان متأكد أنها
متعرفش حد . استشار واحد صاحبه . صاحبه سأل إزاي بينام معاها .
قاله زى الناس . قاله : يعنى بقك على بقها ؟ قاله أيوه . فضل يسأله عن
كل حقة فى جسمه . الراجل زهق وزعق فيه : أنا مش بعارف إنت عاوز
توصل لايه ؟ الثانى قاله عاوز أعرف المحنة اللى خدت منها نور .

شاركنا سامبو الضحك وقال مجاهد الذى لقبناه بضاعت القيم :

- لو خرجت من هنا حازور بأسبور وأطلع على بلد عربى .

كنا قد ألفنا تدخلاته المفاجئة التى لا تربطها علاقة ما بالحديث الجارى .

- معدش الوقت غير الأردن . العراق خلصت و الخليج ميخدش وليبيا مش

مضمونة . مرة واحدة يروحوا مرحلينك من غير متاخذ فلوسك .

روى صلصة قصص المصريين فى العراق و فهلوتهم و تحايلهم على الرزق .
فعندما يفشل الواحد منهم فى إيجاد عمل يقف أمام إدارة الجوازات والبصمة
حاملًا منشفة ودلو به مياه وصابون ليغسل أيدي الخارجين مقابل دينار
للشخص . وأخيرا زهقت منهم الحكومة فصارت المخابرات تتصيدهم وتشحنهم
إلى القاهرة فى توابيت .

التفت بلحة إلى مجاهد قائلا :

- متروح اسرائيل ؟ فيه ناس راحت وبتشتغل هناك حلو . بيدوا
الواحد حقه على داير المليم ..

قال ضاعت القيم : ياريت .

تدخل سوزوكى فى الحديث : اسمعوا دى .. واحد عايز يتجوز واحدة
خام متعرفش حاجة خالص . الناس دلوه على واحدة منقبة . اتجوزها . وفى
أول ليلة مرضتش تخليه يقرب منها . يهديك يرضيك تقوله عيب وحرام . الليلة
التانية نفس الحكاية . بعد أسبوع زهق . راح لشيخ الجامع وحكاه الحكاية .
قاله طب هاتها الجامع وقت الصلاة فى الأودة اللى ورا . جابها . شيخ الجامع
قال خطبة حولين إزاي المرة لازم تطيع جوزها وتسمع كلامه ومنتأخرش عن
طلباته وقال ان الجامعة لها مقام كبير جدا وثواب عظيم زى ميكون الواحد قتل
يهودى . الإثنين رجعوا بيتهم . وبالليل الراجل قال لمراته يالله نقتل واحد
يهودى . وافقته . عجبته الحكاية فقالتله بعد شوية متيجى نقتل واحد تانى .
التانى جاب ثالث لغاية ما الراجل فرهد . الولية دى كانت مكارة . بعد شوية
قالتله : بقولك إيه .. متيجى نحرر القدس بالمرة .

ضحكت وأنا ألتعاب . ولم يلبث النعاس أن استولى على . إستيقظت
خلال الليل لأتبول و رأيت بطشة يتبادل حديثا هامسا مع صئقر وسامبو .

استأنفت النوم بعد لحظات ثم انتبهت فجأة على تأوهات وحشرات بالقرب منى . رأيت الشاب الفلسطيني الذى انضم لنا أخيرا ، واحتل مكان حسن بكبورت ، يحرك رأسه يمينا ويسارا وقد تجمع الزيت على شفتيه . هززته حتى استيقظ ونهض جالسا وهو يلهث .

زحفت إلى جردل الماء وملأت له الكوب المعدنى فتناول منه رشفتين ثم استأنفنا النوم . وإستيقظت مرة أخرى لأرى مشهدا غريبا : بطشة واقفا فى منتصف الحجرة ، رافعا ذراعه إلى أعلى وقد أطبقت يده على المصباح الكهربائى . كنت أشبه بالمخدر ولم يجلب هذا المشهد أى معنى لمخى فإستأنفت النوم وإذا بى أستيقظ فجأة مفزوعا لأجد شخصا جاثما فوقى وملمس حاد فى عنقى بينما غرقت الغرفة فى ظلام حالك . جاعتنى رائحة فم عفنة وسمعت صوت بطشة يهمس فى أذنى : إذا فتحت بك بكلمة حادبك ، وضغط بشئ حاد على عنقى شعرت أنه حافة مشرط . وإمتدت يده إلى ملابسى .

خطرلى أنه يسعى وراء قطعة اللحم التى خبأها فى صدرى ففتحت فمى لأعرض استعدادى للتنازل عنها دون قتال لكننى فوجئت به يحاول نزع سروالى . تجمد علقى من الرعب وتابعت محاولاته كئنى أتفرج على مشهد بعيد عنى . وفجأة سطع النور مرة واحدة فطالعنى وجه بطشة القبيح فوقى ويده المستقرة على عنقى بنصف موسى . إبتعدت يده فى تردد وإعتدل واقفا فرأيت سوزوكى واقفا أسفل المصباح الكهربائى يديره بيده المرفوعة إلى أعلى . تدفق سيل من السباب من فم بطشة وإندفع نحوه وهو يرفع المشرط فى الهواء لكنه تعثر فى أحد النائمى الذى هب صارخا لاعنا .

استيقظ آخرون وتصاعدت صيحات تطلب الهدوء . لم يعبأ بطشة وهجم من جديد على سوزوكى لكن بلحة وآخرين حالوا بينهما وأمسكوا بطشة

بقوة . ولم يلبث هذا أن أذعن وجلس فوق فرشاة بلحة والشتائم والتهديدات تتدفق من فمه .

تقدم سوزوكى من فرشتى وسألنى :

- الكلب دا عورك و الا حاجة ؟

تحسست عنقى بأصابعى و قلت : ملحقش .

قال : الحمد لله أنى شفته بيفك اللمة فقلت ناوى على شر .

قلت : إنت أنقذت حياتى و شرفى كمان . الصبح حبلغ الإدارة .

قال : إوعى . دى حاجات منتتقالش . مش حيحصل كويس . إسمع يا

شرف . السجن ميحبش اللى يروح يشتكى . لا الإدارة ولا المساجين .

وافقته ووعدته بأن ألزم الصمت . وتجاهلنى بطشة تماما فى الصباح كما

تجنب الحديث إلى سوزوكى .

انضم إلينا حجاج فى طابور النظافة ووجدته قد سمع بما حدث .

سألنى عن التفاصيل وقال لى أن لبطشة سوابق كثيرة من هذا النوع .

سأله عما إذا كان من الأفضل أن أشتكى للإدارة فنصحنى بآلا أفعل وأن

أعتبر الموضوع منتهيا .

تصورت فعلا أن الموضوع انتهى عند هذا الحد لكنى فوجئت بعد

يومين أثناء تنظيف الفناء الخارجى بأحد الحراس يندفع جريا إلى داخل

العنبر . اقتربت من بابه فرأيت سيادة الضابط على بلبل واقفا فى الفناء وهو

يصيح بصوته الجهورى متوعدا و منذرا كل من يخرق النظام . وسمعته يقول إنه

لاتخفى عنه خافية و أنه قادر على الرؤية من كل أجزاء جسمه ، بما فى ذلك

خرم ظهره .

عرفت ما حدث عندما ولجت الزنزانة قرب التمام : فتح بطشة رأس سوزوكى . وقال لى عم فوزى أن الشجار دب بين الإثنين قبل صلاة الظهر مباشرة . وأنه شاهد سوزوكى واقفا ممسكا بوجهه وبطشة يضربه بماسورة حديدية فى بطنه و صدره ، فقلت له أنه يجب أن يذكر هذا للإدارة .

فتح علينا الحارس بعد ساعة وسأل إذا كان أحد منا قد شهد ما حدث . فقلت له : عم فوزى . طلب منه أن يتبعه فتردد . و عندئذ شجعته قائلا أن الواجب يدعوه للذهاب والإدلاء بشهادته .

أذعن عم فوزى و غادر الزنزانة خلف الحارس . و بعد ساعة أخرى ظهر حارس جديد أجرى التمام للعنبر فيما عدا زنزانتنا . سألناه عن الحارس الأول فقال أنه فى التحقيق . و فوجئت به يعود بعد قليل ويسأل عنى قائلا أنى مطلوب عند سيادة المأمور .

دسست قدمائى فى الكوتشى وتبعته إلى صالة العنبر . بدأ لى منظره غريبا والأبواب مغلقة تتصاعد من خلفها الهمهمات . أغلق الحارس باب العنبر وخرجنا إلى الفناء الخارجى . كان الضوء يأتى من المصابيح الكهربائية المعلقة فوق مداخل العناير والمبانى الإدارية وأبراج الحراسة . سرنا فى صمت وسط هدوء شامل لا يقطعه غير صوت احتكاك أقدامنا بالرمل . ولم يكن هناك مخلوق سوى ثلاثة حراس أمام مكتب سيادة المأمور وصلت إلينا أصواتهم واضحة فى هدأة الليل . اتجهنا إليه و صعدنا أربع درجات . كان الباب مفتوحا إلى نهايته لكن سياترا خشبيا أخفى من بالداخل .

وقفنا فى مدخل الغرفة ومد الحارس ذراعه اليمنى و طرق مصراع الباب الذى استند إلى الحائط فى رفق . و أتانا صوت حازم : أدخل .

أمسك الحارس بذراعى وولجنا الغرفة سويا ، طالعننى صورة رئيس الجمهورية وأسفلها جلس خلف مكتب خشبى كبير ، رجل قصير أشيب يرتدى قميصا حريريا أسود اللون لعله من طراز "سلفيانو" ويمسك بغليون سميك فى يده اليمنى . و لم أتمكن من تحديد طراز الساعة التى كانت تدور بمعصمه . وفى زاوية المكتب جلس أحد المساجين الذين يعملون فى مكاتب الإدارة فى احترام أمام مجموعة من الأوراق و هو يمسك بقلم "رينولدز" جاف إستقر طرفه على ورقة بيضاء .

أدى الحارس التحية العسكرية وقال : النزيل أشرف سليمان يا باشا .
وجه إلى الباشا نظرة فاحصة ثم سألنى : إيه اللى حصل يا أشرف ؟
أجبت : مفيش يا سعادة الباشا . بطشة ضرب سوزوكى .

- إنت شفته بيضريه ؟

- لا يا أفندم . أنا كنت فى الشغل .

- أمال عرفت إزاي ؟

- المساجين قالوا .

- تعرف سوزوكى من إمتى ؟

- أنا تعرفت عليه هنا فى الزنزانة .

- تفتكر ضربه ليه ؟

- معرفش .

أضفت بعد لحظة : بطشة أخلاقه وحشة ودايما يتخانق .

- هو سوزوكى كان بيع برشام ؟

- معرفش يا باشا .

سكت لحظة ثم سألتني بطريقة مفاجئة :

- أنت بتقام جنب سوزوكى ؟

- لا ياباشا ، بعيد عنه .

تدخل الحارس و شرح لسيادة المأمور ترتيب النمر فى الزنزانة .

استأنف سؤالى :

-ألم يتحرش بك المسجون بطشة ؟

ترددت ثم قلت : حصل . و رويت له محاولة الإعتداء على .

تصفح المأمور بضع أوراق أمامه ثم أخذ يملأ الكاتب السجين : ويسؤال المسجون تحت التحقيق أشرف عبد العزيز سليمان سن واحد وعشرين سنة وتهمة القتل قرأه لم يشهد الواقعة وأنه تعرف على المسجونين فى الزنزانة ولا يعرف سبب العدوان و علله بأن المسجون سالم عويضة و شهرته بطشة سيئ الأخلاق و دائم الإحتكاك بالمساجين .

أشار إلينا المأمور بالانصراف فسحبنى الحارس من ذراعى إلى الخارج وعدنا إلى العنبر . ألفت عم فوزى قد سبقنى وتجمع حوله المساجين وهو يحكى لهم ما جرى فى التحقيق . فهمت أن بطشة ادعى أن سوزوكى استغفزه وحاول الإعتداء عليه بمشط حلاقة وماسورة . ثم اعترف تحت الضرب بأنه هو البادئ بالعدوان وأنه أحضر ماسورة كان قد وضعها منذ أسبوع تحت بلاطة مكسورة فى الصالة و ضرب بها سوزوكى .

سألته عنه فقال أنه رآه وضمادة تحيط برأسه لكنه يعتقد أن إصابته ليست خطيرة .

- طب ليه مجاش معاك ؟

قال أنهم أخذوه إلى المستشفى .

- وبطشة ؟

- في التأديب .

ظلت نمرتا سوزوكى وبطشة خاليتين وإن كنت لاحظت أن الأعين تستقر عليهما بين الحين والآخر . كنا جميعا نفكر فيما سيطرأ من تغيير على ترتيب النمر فى حالة عدم عودة الإثنين .

روى نوو المخبرة الأحداث المماثلة التي شهدوها أو كانوا طرفا فيها . وقلت
لصبرى :

.. أنا مش فاهم إيه اللي بين الإنتين . زى ميكون طار بايت .

هز رأسه بهيئة العليم وهمس : التجارة .

تطلعت إليه متسائلا : تجارة إيه ؟

قال وهو يرمق صنقر بركن عينه : البرشام .

انتقل الحديث إلى سيادة الأمور . وذكر صبرى أنه تعرف فى الفسحة على سجين يعمل فى حديقة منزله الواقع فى أرض السجن . وأن هناك مساجين آخرين يعملون فى حظيرة مواشى يملكها بها خرفان ويط و دجاج . وأن المفروض أن يتقاضى الواحد منهم ثلاثة جنيهات من الأمور نفسه طبقا للوائح لكنهم لا يحصلون على شئ . وقال إن زوجة سيادة الأمور ، حسب كلام السجين ، فتاة صغيرة ترتدى البنطلونات المحرقة وتقضى الوقت كله فى تسريح شعرها ولا يوجد لديها أطفال وتعامل المساجين بقسوة .

أضاف : الظاهر إنها مراته الثانية وبيموت فيها

حكى بلحة قصة زوجة ضابط كبير كانت زوجته تتصيد المجندين الذين أخذهم للعمل عنده فى المنزل . كانت تنادى الواحد منهم وهى فى قميص النوم وتطلب منه إصلاح حنفية الحمام و تقف خلفه وهو منحنى فوق الحنفية فيحتك جسمه به عندما يتحرك ثم توجه إليه حديثاً موحياً فتسأله مثلاً إذا كان لا بد من إستبدال الماسورة بواحدة جديدة وكيف يمكن إدخالها فى الحوض إلخ . وحكى آخر قصة ضابط وجد زوجته فى حضن جندي مراسلة فقتلها .

عندما هجعنا أخذت معى زوجة المأمور وتصورتنى أمسح لها بلاط مسكنها وهى تروح و تجيئ أمامى بينطلون محزق و بلوزة تكشف عن صدرها . ثم أبدلت لها ملابسها و جعلتها فى قميص النوم وخارجة فجأة من مخدعها فتتعثر فى طرف السجادة وتقع على الأرض وأهب لنجدتها فأرفعها بين ساعدى أدخل بها غرفتها وأمددها على الفراش وأدرك لها كاحلها الذى التوى ثم أزيح الرداء عن ساقيهما وأتحسسهما حتى فخذيهما .

تذكرت سالى وكيف تعرفت بها عن طريق شلة المعادى إذ كانت تقف معهم وكيف كنا ندبر لها كل ليلة مكانا تبيت فيه لأنها هربت من منزل أهلها وليس معها بطاقة أو نقود أو حتى حقيبة ملابس وكيف نامت مرة فى بلكونة عمرو حتى الصباح و مرة أخرى فى سيارة هشام وذهبنا مرة إلى منزل عجيب عبارة عن فيلا فاخرة من طابقين يعيش فيها شقيقان ، كل منهما فى طابق لأن الأب والأم يعملان فى الخليج . كانت البنت مرهقة فتمددت على كنية وراحت فى النوم لكن الأخوين رفضا فكرة بياتها عندهما . فأخذناهما إلى شقة أخرى اشتراها والد عمرو له وكانت على البلاط فإقترضنا من الأخوين بطاطين و مخدات وانطلقنا بالسيارة . وفى الطريق قرر عمرو وهشام الإنصراف فبقيت مع الفتاة . فرشبت البطاطين على الأرض فاستلقت فورا وراحت فى

النوم . و احتوت فيما أفعل فتمت إلى جوارها والتصقت بها فلم تستيقظ .
كان الحر شديدا ففككت أزرار بلوزتها و مددت يدي وتحسست ثدييها فلم
تتحرك، أيقظتها قائلا أن هناك فئران فقالت : مش مهم أنا متعودة عليهم
ورجعت نامت . وظللنا هكذا حتى الصباح .

يبدو أنى رحت فى النوم وسط ذكرياتى إذ وجدت سالى تحتضنتى ثم
ألفيتنى أحدى فى وجه هدى و يدي تتحسس صدرها العارى وتهبط على
بطنها وفوجئت بأن جسدها ينتهى عند السرة وأنها بلا حوض وساقين وان
شخصا ما يصرخ فى رعب من المنظر . استيقظت على صوت حشرة
مرعبة قريبة منى . ورأيت عم جابر منحنيا على الفلسطينى يهزه بعنف ليفيق.
أفاق الفلسطينى وساعده عم جابر على الجلوس وناولته سامبو كوز مياه .
وجلس عم جابر قبالة وأخذ رأسه فى صدره وجعل يربت عليها وهو يقرأ
سورة «يس» . وبعد قليل لاحظت أن حالة من الاسترخاء استولت على
الفلسطينى وعاوده الناس فمددناه فوق نمرته .

لم نخرج إلى الخدمة فى الغد وظلت زنزانتنا مغلقة إلى قبل الظهر وفحص ندق
الباب وننادى على الحارس كى نذهب إلى دورة المياه . وكان وجهها جديدا لم نره
من قبل، يدعى صبحى ، له بشرة صفراء وصوت مبخوخ . وسمعناه يمر فى
الطريقة وينادى أمام كل زنزانة : اسحب الفجل . كان يمت الكلمات كما يفعل
الباعة عندما ينادون على بضائعهم . ثم ظهرت فى فتحة شراعتنا بضع
عيدان من الفجل إصفرت أوراقها وكرر ندائه : اسحب الفجل ، فسحبناها
من يده .

كرر عم جابر رقى الفلسطينى . وكان هذا فى سنى تقريبا ومتدينا للغاية
حريصا على أداء الصلوات الخمس خلف جابر. سألته عما إذا كان تعرض

لكابوس بالليل فرمقنى فى حذر ولم يجب . وبعد قليل نجح جابر فى إقناعه بأن يحكى لنا قصته .

قال إن مباحث أمن الدولة اعتقلته وخيرته بين سحب جواز سفره وبين التجسس على الجماعات الإسلامية التى كان يعرف بعض أفرادها . وعندما رفض التجسس أُلْقِيَ به فى السجن . وبعد أربعين يوما اقتادوه إلى مكتب المأمور حيث أُجروا له محاكمة سريعة وفوجئ بالحكم يصدر بإعدامه شنقا . نقلوه إلى زنزانة انفرادية ضيقة امتلأت بالمواسير والخوابير الحديدية بحيث يضطر للجلوس والرقاد فوقها . وفى الصباح دخلوا عليه وألبسوه طاقية حتى الرقبة غطت عينيه وقيدوا يديه إلى الخلف ثم أخذوه إلى غرفة وأوقفوه فوق مستوى مرتفع عن الأرض ووضعوا أنشودة فى عنقه . وفى هذه اللحظة جاء من يستدعى الضابط فأمر بتأجيل الشنق إلى أن يعود بعد دقائق .

أبدى بلحة استنكاره : هو الشنق لعبة ؟ مقالش إيه السبب ؟

- قال ان عنده محضر مفتوح . ووقفت أستنى متغمي وأنا بترعش . بعد شوية لقيتهم بي فكوا الرباط وقالوا لى أن الضابط استدعى إلى منطقة أخرى ولا يمكن إتمام الإعدام فى غير وجوده . كل ده محدش مد إيده على ولا حتى قلم . بعد الظهر إيدونى سجائر وقعدوا المخبرين يتكلموا معايا بكل ود . ويعدين قبالوا أن الضابط مش راجع والتنفيذ اتأجل ليكره ، وودونى الزنزانة .

تكرر هذا السيناريو خمس مرات : فى الصباح ينادون عليه ويغطون رأسه حتى الرقبة وقيدون يديه إلى الخلف ثم يأخذونه إلى غرفة الإعدام حيث يعتلى درجة خشبية ويضعون أنشودة حول عنقه وبعد فترة يحدث ما يعطل التنفيذ إذ يتم استدعاء الضابط لأمر ما فينزعون غطاء رأسه وقيوده

وينتظرون عودة الضابط ثم يتأجل التنفيذ إلى اليوم التالي وهكذا . وفى آخر يوم وضعوه فى سيارة وقالوا سننقلك إلى سجن آخر وسمع أحدهم يقول أنهم سيغيرون طريقة الإعدام وتصور أنهم سيطلقونه فى الصحراء ثم يقتلونه لكنه وجد نفسه معنا .

أجهش بالبكاء فربت جابر على ظهره . ولحظت أن بلحية وصنقر وصلصة يتطلعون إليه فى شئ من العداة . اعتقدت أنهم لم يصدقوا قصته . أما أنا فكنت أميل إلى تصديقها بعد ما حدث لى مع المباحث .

ارتفعت درجة الحرارة حتى صار العرق يتصبب من وجوهنا . ورش البعض المياه فوق نمرهم لتبريدها . وفتحوا لنا أخيرا عند الظهر لنذهب إلى المراحىض . لم نلبث أن علمنا بنتائج التحقيق : أسفر عن مجازاة رقيب الدور بالحجز فى الثكنة ثلاثة أيام لعدم قيامه بواجبه فى الحيلولة دون وقوع الإعتداء وجوزى الضابط على بلبل بالإنذار لعدم قيامه بتفتيش عنبرنا بنفسه وبدقة الأمر الذى ترتب عليه وجود ممنوعات مثل المشرط ومفصلة الباب . ونال سوزوكى عشرة أيام فى الحجز الانفرادى . أما بطشة فقد جوزى بثمانى عشرة جلدة والحبس الانفرادى فى التأديب لمدة أسبوعين والحرمان من الزيارة والفسح لمدة شهر .

الخطوات القليلة المؤدية إلى عنبر الملكية التي قطعها أشرف برفقة حارسه، حاملاً متاعه المؤلف من كيس و نمره ، كانت مصحوبة بموسيقى من النوع الذي رافق جنرالات اسرائيل وهم يجتاحون الأراضي العربية أو الدكتور ثابت محفوظ عندما انتقل إلى قصره المشيد على ترعة المنصورية . مع الموسيقى مشاعر مختلطة لا بد أن عرفها كل من صعد من القاع بطريقة مفاجئة ، خاصة وأن الانتقال لم يكن سلسا على الإطلاق ، إذ شابته السلبيات في خطوط الإمداد .

فالطلب الذي قدمته الأم المتفانية وكان مصحوبا بعامود أكل ، تأجل النظر فيه بسبب قيام الأمور بمأمورية تستغرق عدة أيام ، وأعيد إليها عامود الأكل وقيل لها أن تأتي بعد أسبوع . وفي اليوم التالي عاد المأمور من مأموريته بعد أن أنجزها بسرعة البرق لينضم إلى زوجته الصغيرة . وكان مازال تحت قوة الدفع التي أعادته فأنجز الأوراق المتراكمة . هكذا اقتيد أشرف إلى المكاتب في الصباح حيث قرفص بجوار الحائط إلى أن إنتهت الإجراءات الدفترية . وانتظر ساعتين آخرين إلى أن جاء أمين المخزن بعد صلاة العصر، فخلع ملابس السجن واستبدلها بالقميص والبنطلون المودعين في أماناته . وهنا عبر الفناء إلى العنبر الملكي دون لقمة واحدة .

لم يكن ثمة شك في أنه حقق تقدما مهما على الصعيد الاجتماعي . صحيح أنه لم يرتفع عن الطابق الأرضي ، وأن رائحة الزنزانة الجديدة لم تكن أقل عفونة من تلك التي تركها وراءه ، وأن مكانه تحدد إلى جوار دلو البول .

لكن الديكورات كانت مختلفة إبتداء من الجماهير التي راقبت الموكب والتي تبدت في ملابس متنوعة ليس بينها الزى الأبيض المعهود ، إلى الزنزانة نفسها التي تدلت الحبال على جذراتها محملة بالسلال والأكياس وحل فيها برميل كبير من البلاستيك محل دلو الماء ، وسخان كهربائي صغير من الفخار محل الخرق المبللة بالزيت . كما كانت هناك صناديق من الكرتون إلى جوار الحائط إستقرت فوقها علب النيدو وعدة ترامس وزجاجات كولا في أحجام سويسر وزجاجات مياه وصحف ومجلات وكتب . ذلك بالإضافة إلى نوبتجى فى إجلابية يدعى توكّل، أربعيني صغير الحجم عصبى الحركات ذى ندبة عميقة فى جانب وجهه ، وجفون منتفخة وأنف متورمة فى رأس ملفوفة بشال أبيض حال لونه ، لوح بمبسم سيجارة تزيينه حلقة معدنية ، لتدل على أنه مسيتورد (من خارج السجن) ، معينا له مكانه إلى جوار دلو البول المعهود .

ولج الزنزانة شاب أسمر طويل القامة شديد النحافة ، يعلو رأسه شعر كثيف مجعد ، ويهز فى يده حزمة من الجرجير لينقيض عنها المياه ، خاطبه النوبتجى باسم ماكس ، وبدا وجهه مألوفا رغم هزاله الغريب . ومالبت أن تعرف فيه على عداء شهير احتكر بطولة الجمهورية و عناوين الصحف عدة سنوات حتى آخر بطولة وخبر: قام بتقليد مفتاح الشقة الخاص بأحد أصدقائه وسرق جهاز فيديو . بسط شرف ثمرته إلى جوار الدلو فى استسلام ، فهل يتركه النوبتجى فى سلام ؟ كلا و ألف كلا .

خاطبه متفكها :

- مش إنت الواد اللى سخمطه بطشة ؟

أوشك الواد أن يومئ برأسه مومنا ثم تذكر أن بطشة لم ينجز مهمته وألقى نفسه مرة أخرى فى منزلة بين المنزلتين .

واصل النوبتجى : القروانة هنا بعلبة سجائر .

أعرب المسكين عن دهشته : مش السجن بيصرف لكل واحد قروانته؟

حسم النوبتجى الجدل : هو ده اللى ماشى هنا . و أنا مبخدش

لنفسى حاجة . شاويش العنبر هو اللى بيأجر القروان والبطاطين الزيادة .

تتابع وصول النزلاء ، بعضهم قادم من فسحة بعد الظهر والبعض الآخر

كان يقف فى الخارج أوفى زنزانة بالطابق الأعلى . والقليل منهم سبق أن

لمحهم أثناء قيامه بتنظيف العنبر . وبرز بينهم النزىل الجديد / القديم محاطا

ببقية النزلاء يوزع عليهم السجائر و مازال فى ملابس الحرية الكاملة . وكان

قصير القامة نحيفها يرتدى عوينات طبية . ولم يلبث حامل المفتاح أن

حضر وحصل من الإثنين على ضريبة الإيواء .

أحضر الخدم دلاء العشاء وإفطار اليوم التالى وتركوها وسط الطابق ،

بجوار مكتب الحارس ، وأمام باب دورة المياه . فرقم أن عنبر الملكية يحصل

على طعامه من خارج السجن فان اللوائح تنص على تقديم الطعام إلى

سكانه ليتولوا بأنفسهم إلقائه فى دلاء البول ، ولتسهيل هذه المهمة وضعت

الدلاء على مسافة خطوتين من المراحىض الرئيسية .

وَنِسْواء كان النوبتجى عليما بخلفية شرف بحكم منصبه ، أو كان

الأمرداجعا لنظرته الثاقبة بحكم المنصب أيضا ، فإنه أدرك على الفور أنه

أمام حديث نعمة لا يرتقى إلى مرتبة الملكيين الأصلاء ، ويدافع من

إحساسه بالمسئولية عن رعاياه قال له :

روح هاتلك تعيين .

حمل شرف قروانته ومضى إلى البوقيه المفتوح . ملأ القروانة باليملك

وأشار له الحارس أن يأخذ قطعتين من الجبن القريش وثلاثة أرغفة . عاد إلى

الزنزانة فاستقر فوق نمرته المطوية والقروانة بين ساقيه بعد أن غطاها برغيف ليحميها من الذباب ، وضع فوقه قطعتي الجبن وغطاهما بالرغيفين الآخرين ليؤجل الكشف عن حقيقته الإجتماعية إلى آخر لحظة .

أجرى حارس الدور التمام و أغلق الباب فأخلى الساحة للنوبيتجى كي يؤكد حقوقه على الشبكة الكهربائية . فأخر دفعة من الشيوعيين - الذين تتيح لهم أفكارهم استشراف المستقبل - زودت المراحيض ، على نفقتها ، بسخانات كهربائية للمياه ، أتيح استخدامها لجميع المساجين نون مقابل . وعندما أفرج عن أفراد الدفعة تركوها كما هي ، لا عن أريحية وإنما لأنهم كانوا واثقين من عودتهم . وظلت السخانات فى أماكنها إلى أن سمع توكل بإنهيار الأيديولوجيات فأتلفها واحتكر تسخين المياه لمن يريد الاستحمام ، مقابل سجائر بالطبع . ولم يعد مصادر أخرى للجباية .

فك إفافة رأسه كاشفا عن صلعة جرداء ، واتجه إلى فرشته فى الركن العميق (فى مواجهة شرف) ثم صفق بيديه موجهها الحديث لأهم الضيفين :-
- سائلة يا سلامة . رحنا وجينا بالسلامة .

كان المعنى قد استقر إلى جوار شرف مباشرة وبسط نمرته فى حركات متئدة رزينة ثم طوى بطانيته بعناية شديدة بحيث تطابقت خوافهما . ضحك برزانة و هو يرتب حاجياته ويستخرج منها المطلوب : ثلاث علب " كنت " قدمها إلى الزعيم . و تطلعت إليه الأنظار ، مارة فوق شرف وتحتة ، شاملة النمرة وكيس حاجياته المتواضع والقروانة المنقبة .

هتف به توكل : بقوا كام دلوقت يا ابو السباع ؟

رفع أبو السباع رأسه وقال فى وقار : ثلاثة وخمسين فى وش العدو . صفق البعض مهللين . وهتف نزيل يحتل النمرة المواجهة للباب مباشرة ،

وهو رجل خمسينى ، لا تكف أطرافه عن الحركة ، أبيض شعر الرأس ، يضع نظارة طبية مذهبة الإطار ، تطل من ورائها عينان تشويهما حمرة ويتجمع العماص فى ركنيهما : يا كريم ابعت .

رد عليه أبو السباع معاتبا : لا يا عزت بيه . كفاية كده .

سأله شرف فى حيرة : ثلاثة وخمسين إيه ؟

التفت إليه أبو السباع وتأمله من فوق عويناته ثم أجاب وهو يستأنف ترتيب محتويات كيسه : حتكون إيه يعنى ؟ قضية .

- فى إيه ؟

تبرع بالإجابة جار أبو السباع الذى سمع السؤال وهو خمسينى أيضا ، مائل إلى السمرة ، حريص على تصفيف شعر رأسه الخفيف ، يرتدى شورتا كاكيا ، كثير الشرود والتمتمة لنفسه .

قال وهو يمر بيده فوق ما تبقى من شعر فوق رأسه ويبتسم : أبو السباع أكبر مزور فى البلد .

أحنى أبو السباع رأسه فى تواضع مصطنع :

- أشكرك يا دكتور . أنا مجرد بأدى خدمة قومية . البلد دى مش مأخرها غير البيروقراطية .

عقب الدكتور : الواحد فينا يا دوك عنده قضية واحدة عمال يتخبط فيها ، بتاعت إيه القضية الجديدة ؟

قال أبو السباع فى زهو وهو يسوى طرف نمرته الذى لا يحتاج إلى تسوية : دفاتر توفير البريد .

أذن للصلاة صوت جهورى صادر من طابق المتحيز فنهض الشيخ فتحى الذى احتل الركن الثانى . كان شابا بلحية مهيبة تصل إلى منتصف صدره ،

يرتدى جلباباً حريراً سمى اللون تزيينه زخرفة ذهبية حول فتحة الصدر .
تقدم من برميل الماء فى وقار وتوضاً على مهل وهو يردد : الله أكبر . الله
أكبر . حى على الصلاة . حى ع الفلاح ، ثم اتخذ موقعه نحو القبلة واضعاً
يديه على الجانب الأيسر من بطنه . واصطف خلفه الملاكين : الذى إلى يمينه .
(وهو شاب بدين تكاد عيناه الضيقتان تختفيان وسط بشرة وجهه المدهنة ،
يدعى رمضان) ، والذى إلى يساره (وهو رجل متقدم فى السن ، ضخمة
الجبته ، مهيب الهيئة ، تكشف فائلته عن ثدين كبيرين بينهما كتلة من
الشعر الأسود يمتد حتى يغطى كتفيه وذراعيه ، له وجه نئب ، خاطبه الشيخ
بسعادة السفير) ، بالإضافة إلى عزت بيه .

قال توكل لأبو السباع مداعباً : هو إئت بطلت صلاوالا إيه ؟

رد ضاحكاً : أصله منفعش .

واحد آخر لم يقلع عن الصلاة و إنما شاء أن يحتفظ باستقلاليتة . كان
جرماً بلحية خفيفة ، يضع نظارة مقعرة العدستين فتبدو عيناه واسعتين
غامضتين ، يلى الدكتور فى ترتيب النمر .

لم يكن قد تحدث مع أحد أوقام بأى حركة منذ دخل الزنزانة ، إنما تربع
فى ركنه ودفن رأسه بين دفتى مصحف كبير الحجم . انتظر حتى بدأ
الآخرون الصلاة فقام إلى جردل المياه وتوضاً ثم عاد إلى فرشته ووقف فوقها
متجهاً إلى القبلة ، متولياً إمامة نفسه .

انتهت الصلاة فبدأوا يحتشون للأكل . لم يكن ماكس قد بسط ثمرته ، على
عكس جاريه ، فتكون مربع خالى من الأسفلت العارى بين النمر الثلاث صف
فيه طبق سلاطة وسلطانية ملوخية وطبق أرز وآخر بيضاوى كبير الحجم من

البطاطس والدجاج . ونبات غريب أخضر اللون يشبه الأرنبيط على شكل كرات صغيرة . أضاف جارماكس طبقا ورقيا من أرغفة الكايزر ، وكان شابا طويل القامة ، أبيض البشرة ، فى الثلاثين أو يزيد ، يرتدى شورتا أبيض كشف عن ساقين ممتلئتين يغطيهما شعر قصير ملفوف ، وجورب أبيض وكوتشى . بعد نظرة واحدة لمحتويات الطبق البيضاء أعرب النوبتجى عن رضائه :

– الله ينور عليك يا مستر تامر . اسمه إيه ده ؟

قال مستر تامر برقة أبناء الذوات : بروكى بالمانيونيز والفراخ .

هتف توكل : يا عينى . وإستدار متربعا على حافة نمرة وفعل مستر تامر المثل فتواجهها عبر البروكلى . مد توكل يده إلى إناء زجاجى كبير وضعه بجوار رأسه فاستخرج منه بضع حبات من الفلفل المخل أضافها إلى المائدة وأعطى الإشارة : بسم الله . اتفضلوا يا جماعة .

كان الشيخ فتحى قد كون مجموعة طعام من الملاكين الذين صليا خلفه . واحتفظ الملتحى ذو النظارة المقعرة بموقفه المستقل فأكل بمفرده من محتويات عامود معدنى ، من طراز قديم للغاية ، يحمل ثلاث أوان صغيرة . وتكونت مجموعة من عزت بيه وجاريه من ناحية اليسار ، (أحدهما قصير القامة أبيض شعر الرأس ، والثانى فى مقتبل الشباب ، ذو بشرة سمراء داكنة ، تيدو عليه السماحة ، مذكرة باسمه : سامح) .

قرب شرف قروانة اليمك متحاشيا النظر إلى محتوياتها . وطوى أبو السباع فرشته إلى الخلف ليخلى مكانا للمائدة وصف لفافات المغلفة بـ "الفويل" فوقها . تصاعدت رائحة الطعام الساخن عندما شرع فى نزع الورق المفضض كاشفا عن صينية مكرونة بالفرن احمر سطحها والتمع . وكشفت اللقافة الثانية عن صينية مسقعة والثالثة عن بطة ضخمة محمرة .

مد أبو السباع يده فتناول قروانة اليمك من أمام شرف وصبها في
جرذل البول ثم جذبه من ذراعه ليستدير بحيث يشغل أحد أضلاع مربع
المائدة مواجهها الدكتور على الضلع المقابل وهو يقول :

- الخير كثير زى ما انت شايف . مش حنقدر ناكل كل ده . ولو سبناه
لبكرة يحمض .

ولهذا خاطب الجميع قائلاً : اتفضلوا معانا . لم تكن عزومة مراكبية إذ
مد يده وأمسك بالبطّة و فصل أحد أوراكيها ورفع يده بالورك إلى أعلى ،
مشهدا الكافة ، ثم انحنى ووضع أمام النويتجى الذى أبدى تمنا
مصطنعا .

فصل أبو السباع الورك الثانى فى اللحظة المناسبة . إذ جاء حارس
الليل على الرائحة .

أقبل شرف على الطعام بشهية بالغة لأنه لم يذق شيئا منذ الصباح . وربما
كان هذا هو السبب فيما وقع من تطورات تحتل تفسيرات أخرى : التلوث
(ويمكن إستيعاده طالما أن أحدا غيره لم يشك) ، الحساسية المرهفة (بعد
شهرين و نصف من تناول السوس والحجر الجيرى بصورة مستمرة) ، ضياع
القيم (ذلك الداء المستشرى) ، التعبير عن الرأى (بالالتفاف حول قوانين
الطوارئ) . المهم أن امعاءه تحركت فجأة فى مخص حاد ولم يتمكن من
المقاومة فأسرع إلى دلو البول وفك سرواله وأنزله ثم أنزل الكيلوت وإستدار
مواجهها الأكلين (بالرغم منه لا عن عمد) ثم إستقر فوق فتحته . ومن موقعه
الجديد المرتفع أمكنه أن يطل بصورة أفضل على الموائد المنصوية ويعقد
المقارنات الضرورية .

تنوعت ربود الفعل لسلوكه من زمجرة صادرة من سعادة السفير (الذى كان يأكل من صندوق تيك أوى ضخّم إنفرد به تماما رغم انضمامه الشكلى للكمونة) إلى نظرة غامضة من المعتزل (لعلها نظرة تشفى) إلى تكشيرة استنكار من مستر تامر (بحكم موقعه القريب) إلى إيماءة متفهمة من أبو السباع وابتسامة تفكه من الزعيم . الوحيد الذى لم يلحظ ما حدث هو الدكتور الذى أفاق من شروده عندما رأى الكيس الأسود .

فعندما أراد أبو السباع وضع ما تبقى من البطة فى كيس بلاستيكي أسود اللون اعترض الدكتور : ماقلنا الشنط دى بتجيب بلاوى ..

إستفسر شرف عن الأمر من عليائه فأوضح الدكتور :

- يعملوها من الزبالة واكياس المبيدات الفاضية ، الأكل يتلوث أول ما يلمس الكيس وخصوصا الأسود ده اللى بيحطوله فحم عشان يخبوا ريحته الزنخة .
اعترض جار عزت بيه قائلا بصوت أخنف : محنا بنسخن الأكل يا دكتور .

لم يهتز الدكتور : ولو ، لا الحرارة ولا التبريد يموتوا الميكروبات ، عشان كده البول المتقدمة رجعت للإكياس الورق .

تدخل عزت بيه بدوى : يا دكتور رمزى ، سييك من الكلام ده . إحنا بناكل منها بين زمان و مجرئناش حاجة ..

رد الدكتور غاضبا من الجهل : إنت فاكّر السرطان ببيجى الواحد فى يوم ولا يومين ؟

أُتيحت له فرصتان أخريان للتعبير: الأولى عندما لمح شرف يتطلع فى لوعة إلى " كوتشى " مستر تامر ، فقال له : عارف سعره كام ؟

كان شرف يحفظ كل الأسعار فوجدما فرصة للاستعراض معلوماته وصبر عليه الدكتور حتى انتهى فاستعرض معلوماته هو :

- فى أى حنة فى الدنيا مش حيقول عن ثمانين دولار . تعرف انتاجه بيتكلف كام ؟ ده بيتعمل فى مصنع فى أندونيسيا بيشغل نسوان بس .
الواحدة منهم يتاخذ على كل جوز ١٢ سنت . حوالى تمن دولار .

لم يفهم شرف المقصود : يعنى إيه ؟

تطلع إليه الدكتور برهة ثم قال : ولا حاجة .

حانت الفرصة الثانية للدكتور عندما قضم توكل خوخة كبيرة الحجم فتفتت نواتها بين أسنانه . صاح به : بس . إرميها .
تطلع إليه النوبتجى فى ذهول أوضح الدكتور : دى فيها مبيدات كثيرة .

مر توكل بلحظات صعبة كان ينقل فيها البصر من وجه الدكتور الغاضب إلى الخوخة الشهية المفشوخة بين أصابعه . وأخيرا حسم أمره ونظفها من بقايا النواة ثم إلتهمها مرة واحدة و هو يقول : قول يا باسط .
خليها على الله .

جاءه الدعم على الفور من الصوت الجمهورى الذى تلى الأذان : غنبر كله يسمع . بسم الله الرحمن الرحيم . الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والأرزاق على الله وحيث الفقر لا يأتى إلا لغياب الإيمان . أيها المسلمون ، نقدم إليكم نشرتنا لأخبار المساء .

لم يكن فيها جديد سوى القليل من الإضافات النوعية (دعوة للتبرع من أجل غرضين ساميين : مساندة المسلمين اليوغوسلاف وترميم دورة المياه) .

وبالمثل كانت الألعاب التي بدأت بمجرد انتهاء الأكلين من التهام طعامهم وشرف من التخلص منه . فبعد الشاي ، دار أبو السباع بعلبة سجائر "كنت" على الجميع ثم أخرج زجاجة دواء قدمها إلى توكل الذي قفز واقفا وهو يهتف :

- كودافين !

قال أبو السباع : بأربعة و ثلاثين جنيه وحياتك .. من أجزاخانة في عين شمس .. تصور .. سعرها الأصلي ميزيدش عن ثلاثة جنيه .. إنما تلاقيها فين ..

صاح توكل : دي ليلتنا قل .. يالله يماكس .. دمغنا ..

دب النشاط في ماكس فاستخرج من أحد الأكياس المعلقة فوق رأسه علبة صغيرة من الصفيح فتحها وأخذ منها قرصين وهو يردد على وزن "الليلة الكبيرة" : دمغنا ... دمغنا .

قال توكل في عظمة : تفضل عندنا يا أبو السباع .

نهض أبو السباع وأخذ علبة سجائره وانتقل إلى نمرة. توكل الذي أفسح له مكانا بجواره بحيث استند بظهره إلى الحائط .

تصاعدت ضجة من مجموعة عزت بيه التي كانت تلعب الورق . وصاح عزت بيه في جاره القصير : هوكل حاجة عندك دويل ؟ تاخذ ورقتين ليه ؟ قال هذا بصوته الأخنف : مخدمش حاجة .

مد عزت بيه يده وبسط الأوراق التي أمام جاره وتناول منها واحدة : يا راجل يا ضلالي .. إنت فناكرنا هنا زى الغلابة اللي ضحكت عليهم وبعثلهم شقق عمارتك مرتين ؟

قال صاحب العمارة وهو يتطلع ببرود إلى الورقة التي في يد عزت بيه :
عمارتى وأنا حر فيها .

لم يواصل عزت بيه جدلاً عقيماً ووجه إهتمامه إلى الحديث الدائر بين
رمضان وسعادة السفير حول قانونية التسجيلات التليفونية التي تقوم بها
الشرطة . كان الأخير يقول : التسجيلات دائماً ضعيفة لو كانت هي الدليل
الوحيد .

علق رمضان بلهفة : يعنى المحكمة متخدش بيها ؟

تدخل الدكتور الذى كان قد شرع يلعب الشطرنج مع الشاب الهادئ سامح
فوق رقعة صغيرة ويقطع دقيقة الحجم من البلاستيك صنعت فى الصين :
- لازم كل شريط يكون فيه رقم التليفون اللى بيسجل والتاريخ ..
أراد رمضان الإستزادة : متأكد ؟

قال الدكتور : أيوه . أنا كمان على تسجيلات . هم مسجلين لك حاجة؟ ...
أطرق رمضان برأسه ثم قال : أيوه . مقابلة مع مدير مدرسة عاوز
تصريح تعلية .

سأله صاحب العمارة : طلبت منه كام ؟

أسرع رمضان ينفى : مطلبتش منه حاجة . الرسوم وبس .
- طب وإيه المشكلة ؟

أطرق الداهية الحريص بعينه وقال : التسجيل اللى قدمته النيابة بيقول
إنى طلبت منه حداشر ألف .

انتزع الرقم صاحب العمارة من طموحاته الكوتشينية وصاح : يا
مفترى.. حداشر ألف عشان يعلى دور ؟

دافع المفتري عن نفسه : ده كان عاوز يطلع ست ادوار ، ومدينة
نصر ممنوع فيها أكثر من أربعة . .

وجه صاحب العمارة الحديث للبكوين الذين على يمينه :

- يا سعادة البيه أنا مش فاهم المنع ليه ؟ قال وعندنا مشكلة إسكان !
طب سيبونا نبني ونعلّى . يا سعادة البيه البلد عاوزة مدارس . أنا موجه
فى وزارة التربية وعارف بتكلم على إيه .

عارضه رمضان مثبتا إنه لا يوجد منع : مدينة نصر كلها أدوار مخالفة .
فيها أبراج خمستاشر دور . وأضاف مدافعا عن المظلومين : يعملوا إيه
إذا كان سعر المتر بقى ثلاث آلاف جنيه . لازم يعوضوا فلوسهم . .

تذكر الشاب سامح الذى تابع الأرقام باهتمام شديد ، أنه قرأ فى
الصحف قصة مهندس بلدية رفض رشوة مقدارها ١٥ ألف جنيه تعادل مرتبه فى
خمس سنوات وهو ٢٥٠ جنيه بعد خدمة ٢٢ سنة والأغرب من هذا أن سيارته
من طراز سيات وموديل قديم وتحتاج عمرة .

بدت علامات عدم الفهم على الوجوه فخف الشاب لمحاولة الإيضاح : قال
للجرايد إن أبوه رياه على القيم وإنه اشترك فى حرب أكتوبر .

رمضان المعادى للرومانسيات كان له رأى آخر : لازم كان عاوز أكثر .

كان سعادة السفير قد ابتلع حبتين من دواء الضغط وأشعل سيجارا
وتمدد على فرشته واضعا ساقا فوق ساق ، مستندا برأسه إلى صندوق من
زجاجات المياه " بركة " تعلوه صورة عالية ملونة ، ثم تناول صحيفة وأخذ
يتصفحها . وإذا به يهتف : والله جدع ! ومضى يقرأ مقالا يندد بصحيفة

معارضة تنتقد إمتلاك عدد من الأثرياء للمرسيدس الشبيح التى يصل ثمن الواحدة منها إلى ١,٣ مليون جنيه .

قرأ : " إن مثل هذا الانتقاد يؤدى إلى تغذية التناقض الطبقي فى المجتمع وإثارة الأحقاد بين القادرين و غير القادرين و يعيد مناخ عهد سابق من مصادرة الثروات و التأميم " .

توقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم واصل القراءة بتأن :

- اسمعوا دى .. "إن البحث و التنقيب عن كل صاحب ثورة يمثل تهديدا لمناخ الأمان الذى وفرتة الدولة فى عهد مبارك لكل راغب فى الإستثمار" .

عقب الدكتورالذى لم يمنعه الانشغال بنقل الفيل الصغير عن الإستماع إلى تعليقات أخيه الكبير :

- طب اقرا الخبر اللى فى الصفحة اللى بعدها .. عن حجم التهرب من الضرائب .. ألفين مليون جنيه فى ست شهور منها ٤٢ مليون جنيه للسيارات الفاخرة بس .

أنزل السفير ساقه واعتدل جالسا : و الضرائب لزمته إيه ؟ يقولوا عاوزين إصلاح اقتصادى ويعملوا زى أوروبا وأمريكا لكن تبص تلاقىهم نازلين فينا ضرائب .

رد الدكتور : ما هى أوروبا وأمريكا فيها ضرائب برضه .. إنت فاكرها سايبه .

قال السفير منفعلا : مخريش البلد إلا الناس اللى بيتكلموا زيك .

صاح توكل : صلوا ع النبى يا جماعة .. النهارده عندنا عيد .

انصاع الإثنان فانصرف الدكتور إلى أفياله الصغيرة و السفير إلى صحيفته دون أن يستسلم لليأس . فقد هتف بعد لحظات : أسمع كلامك أصدقك . أشوف أمورك أتعجب .

استفسر رمضان : ليه .. فى إيه ؟

- يقول إحنا بنشجع الإستثمار ويروحوا مطلعين قانون ضد الغش التجارى .

- طب وفيها إيه ؟

- ما هو لو طبقوه بصحيح كل الشركات حتقفل .

- إزاي ؟

- أهو بقولك .. مصانع اللبان والشكولاته والحلويات و الألبان ، الآيس كريم والشيبسى و الحلاوة الطحينية والسمن والزيوت وجمعيات المستثمرين والأطعمة المحفوظة والثروة الحيوانية .. لو اطبق على كل دول مش حيستنوا لتانى يوم .

إشكالية معقدة لم يعبأ السفير بإيضاحها لأن إهتمامه انتقل إلى موضوع آخر : خير فى صفحة أنباء المجمع قرأه مستنكرا لا بدافع الاعتراض وإنما من باب الحسد :

و كانت العروس تلبس تاجا مرصعا بالزمرد كما كان فستانها مرصعا بالؤلؤ والجواهر . وحملت على هودج مطلى بماء الذهب . وكانت التورته تتحرك بالريموت كنترول . ويقول العارفون أن ضفاف النيل لم تشهد شيئا مماثلا من قبل إذ تكلف الفرح مليون جنيه . وضم العشاء كل ما لذ وطاب بما فى ذلك الفواكه المستوردة من الخارج ، وأحيته فرقة حضرت خصيصا من البرازيل

قوامها ٢٥ راقصا وراقصة . ووزعت عشرات الألوف من الجنيهات كبقشيشات على خدم الفندق و سياس الجاراج والسائقين .

لم يثر النبأ دهشة كبيرة بين الغالبية وإن أثار الرغبة في المعرفة : من هو؟ وتتوعد الإجابات وإن أجمع الكل على أنه ، أيا كنت شخصيته ، سبق ولهف . عندما وصلوا إلى هذا الاستنتاج رفع توكل زجاجة الكودافين إلى فمه ، معلنا عن فقرة جديدة في السهرة بقوله :

- في صحة أبو السباع .

قال أبو السباع بصوت مبجوح من تأثير الدواء : الحلو ميكملش .. لو واحدة بانجو كمان كنا عملنا دماغ هائلة .

ألقي عزت بيه بأوراق الكوتشينة جانبا وزحف إلى حافة فرشته . ناوله ماكس دلوا صغيرا من البلاستيك وضعه مائلا في حجره . وتناول علبتين فارغتين من اللعب المحفوظة فأعطى واحدة لرمضان والأخرى لسامح . ثم زودهما بشوكتين معدنيتين . ونقر عزت بيه على قعر الجردل بأصابعه عدة مرات ثم تنحنج وانطلق .

كانت مناخة امتدت من أم كلثوم متمردة (متصبرنيش مخلص أنا فاض بي ومليت) ، ثم مستسلمة (على بلد المحبوب وديني ، زاد وجدى والبعد كاويني) ، إلى عبد الوهاب متسائلا (يا وابور قولى رايح على فين) ، وعبد الحليم حافظ متفلسفا (مشانى زمانى سواح) ، ومن شادية متدلة (سلامات سلامات يا غايب عنى) ، و ليلى مراد متأللة (من بعيد يا حبيبى بسلم) ، إلى أسمهان مستنجدة (يا حبيبى تعالى الحقنى شوف إالى جرائى) .

أثار الشكل (صوت مشروخ أنهتكه السجاير) والمضمون (مناخ عهد سابق) استنكار سعادة السفير : بكره يرجعوا الراديوهات ونترحم .

أوضح أبو السباع لشرف : كان هناك راديوهات ومسجلات فى كل زنزانة تقريبا ، قطاع خاص وليس ملكية دولة ، وأربع تليفزيونات فى كل عنبر ، لكن الأخوة الملتحين اشتكوا من وصول الصوت إليهم لأنهم لا يرغبون فى سماع الأغانى . وأعلنوا أن التليفزيون ينشر الفسق . وخضع لهم المأمور فبيعت بضابطة ومعه عدة صناديق من الكرتون جمع فيها كافة الأجهزة الصوتية . وهو إجراء لم يستفد منه سوى أمثال عزت بيه الذى عاد الآن إلى اللحن الأساسى : الشاطر اللي سبق ولهف . وأكل النبق .

انتظرت طويلا فى دورة المياه إلى أن يخلو مرحاض . وظهر الدكتور
 ثابت محفوظ عند المدخل . كان يرتدى روبا من الحرير المشجر وخف جلدى
 فاخر يحمل صابونته فى يده ومنشفة ملونة فوق كتفه . وأحدث دخوله
 نشاطا غير عادى بين المساجين المتجمعين فافسحوا له الطريق إلى المرحاض
 الاخير وأسرع إليه أحد السجناء بدلو من المياه ليستعين به فى حالة
 انقطاعها .

عدت إلى الزنزانة فألفيت أبو السباع ما زال نائما والباقيين انتهوا من
 إقطارهم ، ما عدا سعادة السفير ومجموعته الذين تحلقوا حول طبق كبير توزعت
 فى أنحاء الدوائر الصفراء للبيض المقلى . كان رمضان والشيخ مجدى يأكلان
 بتمهل و يلتقطان نتفا صغيرة من البيض فوق لقمات كبيرة من الخبز على عكس
 السفير الذى كان يلتقط قطعاً كبيرة من البيض و يمضغها بسرعة وهو يلهث دون
 أن يرفع عينيه عن محتويات الطبق إلى أن اختفت تماما . استدار إلى صندوق
 زجاجات المياه خلفه واستخرج منه علبة من البلاستيك رفع غطاها والتقط
 منها قطعة من الجبن الرومى ألقى بها فى فمه ثم أعاد العلبة مكانها دون أن
 يعبأ بزميله .

طويت فرشتى وحملت بطانيتى إلى الفناء الخارجى . وفى الطريق التقيت
 بأفراد طابور الخدمات الذين يأتون كل صباح من عنبر الميرى لرفع البول
 والمخلفات و مسح الزنازين وكنس الفناء . لمحت بينهم صبرى وفوزى
 فتجاهلتهم ولم تفتنى نظرة الحسد التى ألقياها على .

خرجت إلى الفناء فشعرت كأنى خرجت إلى الطريق العام . كان مزدحما بالرائحين والغادين من النزلاء فى ملابس متنوعة الأشكال والألوان ، منها جلابيب أو قمصان وبنطلونات نظيفة مكوية وأحذية لامعة ، بانص أو كوتشى ، ونظارات شمسية . ومنها ملابس مهدلة ، أو فانات على اللحم تغير لونها من عدم الغسيل، وصندل جلدى أو شبشب من البلاستيك ، سار أصحابها برعوس مدلاة، يتأملون الرمال كأنما يبحثون عن شئ ضائع ، وكان هناك أيضا بعض السجناء فى ملابسهم الخضراء المميزة وكثير من الملتحين فى ملابس ناصعة البياض تتألف من قمصان طويلة حتى الركبة فوق سراويل . ولاحظت أنهم لا يختلطون بالآخرين .

فرشت البطانيتين فى الشمس وقرفصت إلى جوار الحائط . رأيت الدكتور رمزي منهما فى تمارين رياضية شاقة جعلت عضلاته تنفر والعرق يتصبب على جسده الذى عراه حتى الوسط وانضم إليه مستر تامر بعد قليل فى بلوزة بيضاء وشورت ضيق ، بألوان العلم الأمريكى ، أظهر تفاصيل مؤخرته . ولحظت نظرات الاستياء توجه إليه من معسكر الملتحين . ثم ظهر السفير وقد غطى عينيه بنظارة شمسية من طراز كارتية وارتدى قميصا مشجرا بنصف كم وخلفه رمضان يحمل كمية من البطاطين ألقى بها فوق الرمل . انتظر السفير حتى بسط رمضان إحداهما فاقتعدا مستندا بظهره إلى حائط العنبر ، ممددا ساقيه أمامه .

لحظت سجيننا آخر انتحى جانبا ووضع أمامه صندوق مسح الأحذية المعهود . وتقدم إليه واحد وأعطاه بعض السجائر ووقف يمسح حذاه . كان إلى جواره سجين ثالث يرتدى فائلة حمراء أمامه دلو ماء وعلبة صابون "تايد" . وأعطاه أحدهم ملابسهم وعلبة سجائر فعكف على غسلها بنشاط .

ترامى إلى سمعى ضوت السفير يحكى لرمضان عن ابنته :

- ... كان عندها سنتين ومتنامش إلا وصباها فى بقها . كنا وقتها فى النمسا . الدكتورة الله يمسيها بالخير قعدت تلاغيها . سألتها : اسمك إيه ؟ قالتها إسمها بالكامل ومسكتتش .. أخويا إسمه يوسف وبابا إسمه قاسم وماما لىلى ومعانا كمان نبيلة . دى واحدة قريبتنا عايشة معانا . الدكتورة قعدت تقولها انت حلوة . وبعدين خليتها تبص فى مراية وقالتها : شوفى إنتى حلوة إزاي . وراحت مورياها صور أطفال شفائهم وأسنانهم مشوهة . وسألتها : إيه رأيك . وحشين ؟ قالت : قوى . قالت لها : تعرفى إيه ؟ عشان بيحطوا صوابهم فى بقهم . وأنت كمان حتبقى زيهم لوفضلت تعملى كده . البنت سألتها : طيب وأعمل إيه ؟ قالتها : بطللى حالا . قالت : حاضر . الدكتورة إيدتها . شكولاتة . وإحنا مروحين كانت سرحانة بتفكر . بالليل رقدت أنا وأمها على الأرض جنب سريرها نراقبها . مسكت صباها بإيدها الثانية وراحت فى النوم . بعد شوية لقيناها بتفك إيدها . وبعد شوية مدت إيدها ناحية بقها وقبل متمسه اتنبهت وبعدت إيدها وكملت نوم . من ساعتها محطتش إيدها فى بقها تانى .

سمعت ضحكة أنثوية بالقرب منى فالتفت نحو مصدر الصوت . رأيت شابا فى ملابس السجن جالسا قرب الحائط مع عدد من السجناء وكان يحكى شيئا وهو يشير بأصابعه أمام فمه كما تفعل نساء الأحياء الشعبية . ولحظت أن أصابعه ازدانت بالخواتم الذهبية .

ظهر أحد السجناء قادما من الإدارة يحمل فى يده بضع أوراق ويسير بخطوات سريعة تعكس أهميته . اتجه إلى عنبرنا وولجه . و قدرت أنه يحمل قوائم الأكل الخاص بسكان عنبر الملكى . نهضت مسرعا على أمل

واقتربت من باب العنبر حيث وقف السجين و نادى الأسماء ولم يكن اسمى من بينها .

عدت إلى مكاني بجوار الحائط بخطوات متثاقلة .كنت قد شرحت للدكتور أنى أنتظر طعاما من أهلى فطمأننى قائلا أن أغلب النزلاء لا يحضرون الطعام بصفة يومية وإنما يرتبون مع بعضهم البعض بحيث يتناوبون ذلك و يتشاركون فى الأكل ، وأن بوسعى أن أتفق مع أهلى على إحضار الطعام مرتين فقط فى الأسبوع و يتولى هو وأبو السباع بقية الأيام .

راقبت شابا لبنانيا ممتلىء الجسم عرى بساعديه وكتفيه و شمرشورتا رياضيا أسود اللون عن فخذين ممتلئين غطاهما زغب أصفر . كان لبشرته تلك اللفحة التى يحدثها التعرض طويلا لأشعة الشمس . ويبدو أنه كان معجبا بها فلم يكف عن تأملها باستغراق وهو مستلق إلى جوار الحائط .

أصبحت الشمس عمودية وأذن الظهر فالتجأت إلى المسجد . خلعت حذائى ووضعتة فى المدخل و عبرت الحاجز الخشبي . توضأت وانضممت إلى المصلين . عندما انتهت دعوت الله أن يظهر براعتى وبقيت جالسا وقد إستولى على شعور جارف بالكآبة والوحدة .

اقترب منى أحد المصلين وسألنى وهو يتطلع ناحية المدخل : مش إنت اللى كنت فى زنزانة بطشة ؟

أومأت بالإيجاب .

قال أنه يريدنى فى كلمة وطلب أن ننتحى جانبا بعيدا عن المدخل . تبعته إلى ركن .

خاطبني بصوت منخفض : أنا عاوزك تكتبلى جواب .

أعطاني ورقة وقلمًا صغيرًا وطلب مني أن أكتب ما يمليه علي . أسندت الورقة على ركبتي و كتبت :

" السيد اللواء مدير مصلحة السجون .

تحية طيبة وبعد :

مقدمه لعدالة سيادتكم المسجون عبد الهادي فرج وهو ترزي أفرنجي وأصبح الترزي الخاص لمأمورالسجن والسادة الضباط وأصدقائهم من كبارتجار المخدرات وأصحاب الأعمال الكبرى مقابل باكو شاي . أوالسماح له بسرير دون أن يدفع ثمنه لبلطجية الأدوار أوالذين يتاجرون في الأسرة وقد وصل ثمن السرير إلى ٢٠٠ جنيه و ذلك لحساب مأمورالسجن كما أن الضباط يقومون بصرف حصص الخبز للمسجونين خلاف الواقع ويتم بيع الباقي لحسابهم " .

إنتبهت فجأة إلى خطورة ما كتبتة وشعرهوبرد فعلى فقال وهويتناول منى الورقة :

- متخفش . محدش جيعرف انك اللى كتبتها .

أعطاني علبة سجائر وأضاف وهو يتفحص ملابسي : لو عزت أى حاجة أنا تحت أمرك . سألته عن مكانه فقال أنه فى الطابق العلوى المخصص للمخدرات وجرائم النفس .

غادرت المسجد و انتظرت حتى مر من أمامي كهلان فى القميص والبنطلون انهمكا فى حديث بصوت عال عن احتمالات الافراج . كان أحدهما يضع عدسات داكنة فوق نظارته الطبية التى شبكها بسلسلة تدلت فوق صدره وهو وضع طالما أثار أعجابه .

اتجهت إلى مساحة من الظل فى الناحية الأخرى من الفناء قرفص فيها الشيخ فتحى فقرفصت إلى جواره وأخذت أعبت بأصابعى فى الرمل

وأرسم مربعات و دوائر . كان الزحام قد خف بسبب الشمس . ومد ذو
الفائلة الحمراء حبلًا من حائط العنبر إلى سور من السلك يفصلنا عن فناء
العنبر الآخر، ونشر فوقه الملابس التي انتهى من غسلها .

لمحت ملتحيا يطوف بالفناء ورأسه مدلاة يتأمل الأرض . وكان ينحنى بين
الحين والآخر ليلتقط قصاصات الورق فيتصفحها ويضعها في جيب سرواله .
كانت ملابسه بيضاء مثل زملائه لكنها كانت أقل بهاء ويبدو عليها القدم وضعة
الحال . إستفسرت من الشيخ فتحى عن الأمر فقال لى أنه مكلف من زملائه
السنية بجمع كل القصاصات التي تحمل إسم الله أو الرسول عليه الصلاة
والسلام كى لا يدهسها أحد بدون وعى وبعد ذلك تحرق . سألتى عن
قضيتى فرويت له قصتى . وسألته عن جريمة الدكتور فقال : افكر رشوة .

- وسعادة السفير ؟

ضحك : ده بتاع الفراخ والكبد .

تشجعت وسألته عن قضيته .

قال : موضوع كيدى .

قلت : متهمنيك بايه ؟

قال : العلاج الروحانى .

- ودى تهمة ؟

هز كتفه ولم يعلق .

أضاف بعد لحظة : أنا أصلا موظف . و يوم كنت راجع من الشغل وطلبت
من مراتى تحضير الأكل . وقعدت أقرا فى المصحف . وفجأة لقيت نفسى

فى عالم آخر غير عالمنا .بعديها قالت لى زوجتى و أهلى .أنى فضلت فى الحالة
دى ست ساعات .

قاطعته : مكنتش واعى بحاجة خالص ؟

قال : أبدا . كنت فى حالة هدوء غريب و سكىنة . وبعدين جانى هاتف
طلب منى التسول فى الشوارع . مرضيتش . قاموا شكلوا محكمة روحانية من
خمسة أعضاء شففتهم زى ما أنا شايفك كده . المحكمة بعد مدة فى المداولة
والمشاوره أصدرت ضدى حكم بالسجن المؤبد . ثم ظهرت لى الملكة سالى رئيسة
الملكة الطبية الروحانية و اتفقت معى انها تسكن جسمى . والناس فوجئت
بصوتها يخرج منى مؤكدا أنها الملكة سالى . وأنها من قوم صالحين من الجن
يعالجون كل الأمراض ماعدا الشلل و العمى فى دقيقتين .

قلت مندهشا : وهى مين سالى دى .. إنس ولا جان ؟

ضحك : جن طبعا . ملكة كبيرة عندهم . و تحت إيدها اتنين مليار جن
سخرتهم لعلاج العيانيين من بنى الإنسان . .

كان الدكتور رمزى قد انضم إلينا وهو يمسح عرقه واستمع إلى العبارات
الأخيرة و على شفتيه ابتسامة ساخرة . سأله : و الجن بتعمل معاهم إيه ؟

قال : أنا بقدر أشم ريحة الجن فى أى حطة وأحرقه فى الحال . الوزرا
نفسهم اعترفوا بقدرتى . أيوه أنا عارف انك مش مصدقنى . أخر حالة
خففتها قبل مايتقبض على كانت واحدة ست مرات وزير مات من سنتين .
حطيت إيدى على إيدها وبدأ العلاج . ساعتها مبدراش بنفسى . الست
جالها تشنج وخرج منها صوت راجل يقول : أنا الشيخ عبد الله وقد تلبست جسد
هذه السيدة لأنى أحببتها بعد وفاة زوجها وأريد أن أتزوجها . قلت له أنت

مسلم فلماذا تتلبس أختاك في الإسلام . أخرج من جسدها وإلا أحرقتك
بآيات الله .

توقف لحظة ووجه إلى الحديث متجاهلا الدكتور رمزي :

- الجن لازم الواحد يكون حازم معاه ويوريه إنه أقوى منه . يعنى
يفرض إرادته عليه . أصريرت أنه يخرج من جسمها و حددتله المكان اللى
يخرج منه وهو قدمها اليسرى . وفعلنا مافاتش خمس دقائق إلا ورجعت
الست لحالتها العادية والناس هلت وكبرت . سألتها إنت حاسة بإيه ؟
قالت زى ما أكون اتولدت أول مرة .

سأله الدكتور : وهى كانت بتشتكى من إيه ؟

- بعد موت جوزها على طول بدأت تشعر بحاجات غريبة أول ما
الساعة تبقى تناشر بالليل تلاقى حاجة تشدها تخليها تقف قدام المراية وتحط
مكياج وبعدين تمدد على السرير . وبعد شوية تحس بالسريير بيتهز وحد
بيضغط عليها . قتلها المسألة واضحة . الشيطان كان عاوز يجامعها .

قال الدكتور : وأنا صغير كان ساكن جنبنا واحد زيك كده . بقال
إسمه بولس . الناس كانت تجيله عشان تطلع الجن اللى لبسها . كان يحط
العيان فى أودة ضلمة وهو شايل الصليب ويطلب منه انه يقوله على الحت
اللى بيتنقل فيها الجن فى جسمه عشان يحاصره فى مكان ويطلعه .

لوى الشيخ فتحى شفته فى استياء ثم لزم الصمت . ونادانا الحارس
لنصعد فنهضنا متثاقلين ودخلنا العنبر . وأمام زنزانتى استوقفنى شاب
صعيدى أسمر البشرة يرتدى جلبابا نظيفا تبدو من فتحة صدره صديرة
موشاة بالقصب .

مد إلى يده قائلا : خدامك عبد الفتاح .

صافحته وعندئذ طلب مني أن أكتب له خطابا .

أبدت موافقتي فعرض أن نذهب إلى زنزانته . رافقته إليها وكانت في نهاية الطابق . ولم تكن تختلف عن زنزانتنا سوى في غلبة أبناء الصعيد على نزلائها .

بسط نمرته وجلسنا فوقها . أخرج سيجارة ومبسم خشبيا ، وقطع السيجارة نصفين ثبت أحدهما في المبسم وقدمه لى . أشعلت السيجارة وجذبت نفسين عميقين أصاباني بالدوار ثمناولته المبسم .

لاحظت أن يديه كبيرتين و أظافره واسعة ومفلطحة . وعندما تربع أمامي رأيت نفس الظاهرة في قدميه . وكانت له عينان عسليتان واسعتان وشعر أسود ناعم .

قال : أنا شفئك بتكتب جواب لواحد في المسجد .

أملاني رسالة طويلة إمتلأت بالسلامات للأهل و الأقارب و كل من يسأل عنه وتضمنت أنه في أحسن حال و لا يشكو من شئ ولا يحتاج إلى شئ و أن موعد ترحيله لم يتحدد بعد .

سأله : ترحيلك لفين ؟

قال إنه أضلا من سوهاج لكن قبض عليه في القاهرة ولا بد أن يرسلوه إلى بلدته لتتم محاكمته هناك ، وإنه ينتظر هذا الترحيل منذ أربعة شهور .

تعجبت من أن لهجته لا تدل على أميته فأوضح لى أنه قادر على فك الخط لكن خطه ردى للغاية كما أنه ترك المدرسة خلال المرحلة الابتدائية و أوشك أن ينسى الأبجدية كلية .

اقترب منا أحد نزلاء الزنزانة الصاعدة وصافحني مرحبا ثم قدم إلى سيجارة فقسمها عبد الفتاح و قدم لي نصفاً لأشعله ثم حكى لي قصته . فى قريته مسجد عتيق يقوم على خدمته عمه الذى يستيقظ فى الفجر ليصلى بالناس ثم يتجه إلى حقله ولا يعود منه إلا لصلاة الظهر . وفى أحد الأيام عاد من القاهرة أحد أبناء القرية بعد أن أتم دراسته بكلية الآداب وكانت هيئته غريبة : أطلق لحية وشاربه وإرتدى جلباباً قصيراً وسروالاً طويلاً وأخذ يتحدث عن ضرورة تطبيق الأحكام الشرعية وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح على شكل الخلافة ويأمربطقوس خاصة فى الصلاة وينهى عن إقامة المآتم والأفراح وبناء المقابر . حتى الآن لا بأس . لكنه بدأ يعتلى منبر المسجد قبل وصول الشيخ فيدعو للجهاد ضد الحكام ابتداء من الخفراء إلى تحريم التعامل مع النصارى ومع الجمعية الزراعية ويهاجم خروج الفتيات للدراسة وينادى بالامتناع عن أكل الخیار والباذنجان .

أبدت دهشتى لمسألة الخیار و الباذنجان و سألته عن السبب فاحمر وجهه وتحاشى النظر إلى وهو يقول : لأنها بتجيب أفكار وحشة .

استأنف عبد الفتاح قصته وكيف أخذ الجانبان يتبادلان الاتهامات : الشيخ يتهم الشاب بالتطرف فى فهم الشريعة بينما الشاب يعتبره متواطئاً مع الحكام . وبالتدريج اكتسب الشاب أنصاراً من الشبان والعاطلين الذين أغلقت أبواب الهجرة فى وجوههم بعد حرب الخليج . وخلص عليه الأنصار لقب الأمير . وفى أحد الأيام عقد مجلس شورى قرراعتبار الشيخ مرتداً لأنه يتقاضى راتباً من الدولة أى أموالاً حراماً هى حصيلة الربا ولأنه ينكر فضيلة الجهاد وهى أحد أركان الإسلام . و على هذا الأساس أباحوا دمه .

— قتلوه ؟

- ربنا نجده . لبدوا له فى الدرة و هجموا عليه بعد المغرب و نزلوا فيه ضرب بالعصى و الجنازير . وكان حيخلص منهم لولا جماعة كانوا فايئين .

لزم الشيخ الفراش شهرا دون أن يجرؤ على إبلاغ السلطات حتى لا يتهم بالاستعانة بالشرطة أعداء الله . وخلال ذلك كانوا قد أفتوا بعدم جواز الصلاة فى المسجد لأنه مسجد ضرار أقيم لأغراض الدنيا واصطدموا بعبد الفتاح ومجموعة من اصدقائه . و أصيب أحدهم بضربة طائشة من عبد الفتاح توفى على أثرها .

رويت له قصتى بالمثل و أجمعنا على أننا - نحن الاثنان - ضحيتان بريئتان . وأكد لى أننى لا بد سأحصل على البراءة قائلا فى حزم : كله إلا الشرف . حكيت له عن معاناتى فى عنبر الميرى وما جرى لى مع بطشة وقصة الميدان . ضحك وقال :

- حظك كان كويس إنك وقعت فى إيد على بلبل . ده راجل طيب وغلبان . متأخر فى الترقية و عنده سبع عيال مش ملاحق على أكلهم .

حل موعد التمام فودعته وأصر على إعطائى علة سجائر مقابل كتابة الخطاب . تمنعت فى البداية ثم اكتفيت بنصفها ، ومضيت إلى زنزانتى وأنا أفكر فيما وقع لى من أحداث وما كسبت من سجائر وما جرى بينى وبين عبد الفتاح من حديث . شعرت فجأة بصداع عنيف لازمنى طول المساء وصعد نفسى عن الطعام ، فأعطانى الدكتور رمزى قرص أسبيرين ونمت .

استيقظت فى الفجر شاعرا بالبرد رغم حرارة الجو فبسطت فوقى بطانية وأحطت جسمى بها فى عناية . لكن إحساسى بالبرد استمر وبدأت تنتابنى رعشات خفيفة . فقممت واقفا ونزعت البطانية الأخرى من تحتى وبسطتها فوق زميلتها ، دون جدوى . ظلت أرتعش من البرد حتى أقبل الصباح . وما أن

فتحت الزنزانة حتى تدافع الجميع إلى دورة المياه فأخذت أئن بصوت عالى .
لم ينتبه إلى أحد فرفعت صوتى بالأنين وأنا أطلع حولى لأرى إذا كان أحد
قد سمعنى . كانت الزنزانة خالية ، فانتظرت حتى عاد الدكتور رمزى وعادت
التأوه بصوت أعلى .

خف إلى جوارى ووضع يده على جبينى ثم أعطانى حبتين أسبيرين
تناولتهما مع رشقة ماء . لم تتحسن حالتى إذ انتشرت الالام المبرحة فى عظام
ساقى وذراعى والتهب حلقى . ولم أقدر على إبتلاع أى طعام كما استمرت
حرارتى فى الإرتفاع فأعطانى قرص "باراسيتامول" . وعندما لم تهبط الحرارة
صب فى قروانة ماء مثلجا يحتفظ به فى ترموس . تناول من حقيبته منديلا
نظيفا فبلله بالمياه المتلجة ووضع على جبهتى إلى أن فقد برودته . كرر هذه
العملية إلى فرغت المياه الباردة فى ترموسه فاقترض ترموس قاسم بيه .

ظهر عبد الفتاح على باب الزنزانة قائلا إنه عرف بمرضى فأحضرلى
ثلاث ليمونات عصرهم لى فى كوب به قليل من الماء و أصرعلى أن أجرعه .
وظل إلى جانبى مضحيا بطابورالعصر حتى بدأت الحرارة فى الهبوط
واستسلمت لنوم متقطع تخللته الأحلام والتخيلات . كنت أتخيل لنفسى
مصائر متنوعة : طالبا فى كلية الطب ثم طبيبا متخصصا فى أمراض
النساء . أوطالبا فى الجامعة الأمريكية ثم سفيرا فى السويد . وقضيت وقتا
طويلا فى محاولة إنفاق عدة آلاف من الدولارات عثرت عليها صدفة :
حسبت الإقامة فى الشيراتون عدة ليال وسيارة بى إم دابيو ثم شقة فى
المهندسين أو على النيل وعندما لم تنته النقود صرفت عدة الاف على الملابس
واكسسواراتها وفى النوادى الليلية وأخيرا ضقت بالأمر عندما لم أتمكن من
تخيل أوجه جديدة للإنفاق . ففكرت فى هدى وكيف أن غيابى سيكشف لها

حقيقة مشاعرها وعند خروجي سترسل لى موعدا للقاء فى كازينو على النيل
وتعترف لى بحبها .

عدت بعد ذلك إلى مغامرة مفضلة لدى تبدأ فى مترو الأنفاق عندما يصل
إلى محطة المعادى . تخيلت نفسى واقفا إلى جوار الباب وكانت هناك فتاة جميلة
للغاية ذات جسم مثير وصدرنا فرتستعد للنزول . وعندما توقف المترو فقدت
توازنها فسقطت فى حضنى وشعرت بثدييها على صدرى . احمر وجهها وتبادلنا
الاعتذارات وغادرنا القطار معا فتعرفت بها ودعوتها إلى شقتى حيث قدمت لها
الكباب والكفتة والتفاح والبرقوق وحكت لى حكايتها . كانت يتيمة اختطفت
من أهلها فى الصغر واستقرت عند أسرة مبسطة تولت تعليمها . دمعت عيناها
فاحتويتها بين ذراعى وأخذت أربت عليها فقبلتنى وإنتهزت الفرصة فتحسست
صدرها وفخذيها . وصرنا نلتقى كل يوم فى شقتى وعملت معها كل شئ دون أن
أمس بكارتها . وفى نفس الوقت بدأت أبحث عن أهلها . وقادتنى الصدف إلى
أبيها فإذا به أمير سعودي . هنا فضضت بكارتها وأخذتها إليه فكافأنى
بتزويجى منها وجعلنى وكىلا لأعماله فى مصر .

تحسنت صحتى بعد يومين لازمنى فيهما عبد الفتاح . ونودى على فى
اليوم الرابع للزيارة . أقرضنى ماكينة حلاقته وشفرة " ناسيت " جديدة فأزلت
شعر ذقتى . وصحبنى إلى دورة المياه حيث استحمت . وعندما عدنا إلى
الزنزانة لم يكن بها أحد إذ خرج الجميع إلى الطابور . ناولنى قميص
مكوى واكتشفت أنه قام بكىه بنفسه . قلت له وأنا أرتدى القميص :

- أنا مش عارف كنت جاعمل إيه من غيرك .

احمر وجهه وتشاغل بتسوية فتحة القميص . تطلعت إليه فى حنان ثم
ضممته إلى صدرى .

صحبني الحارس مع عدد آخر من النزلاء إلى قاعة الزيارة . ومررنا بصالة كبيرة ملحقة بمكاتب الضباط ، مخصصة للزيارات الخاصة ، ظهرت من بابها دك خشبية وبطاطين مفروشة على الأرض وإزدحمت بالأهالي . مضينا إلى صالة أخرى واسعة تعترضها في المنتصف شبكتان متوازيتان من السلك يفصل بينهما حوالي متر يقف فيه الحراس . وقفنا خلف الشبكة وقد بلغ عددنا حوالي ستين سجينا . ولحت أُمى بين الأهالي الذين تراحموا على الشبكة الأخرى . كانت الضجة هائلة إذ كان الجميع يتكلمون في وقت واحد وبأعلى أصواتهم ليتمكن ذووهم من سماعهم .

صحت بها بأعلى صوتي : فين الأكل ؟

قالت شيئا وهي تهز رأسها . أشرت بيدي إلى فمي وحركت أسناني في مضغ وهمي . فصاحت بشئ لم أسمع وأخيرا فهمت أنها أحضرت الطعام وسلمته للإدارة .

حاولت أن أشرح لها الإتفاق الذي وصلت إليه مع الدكتور رمزي بشأن إحضار الطعام مرتين فقط في الأسبوع لكنها لم تسمع صوتي كما لم تفهم إشارات أصابعي .

صحت بها: المرة الجاية اطلبي زيارة خاصة عشان نعرف نكلم مع بعض . لم تسمع وتطلعت إلى مستفهمة . ويئست أخيرا من المحاولة فانصرفت إلى تأمل الزوار الآخرين إلى أن إنتهت الزيارة .

أعطوني كيس الطعام وصندوق السجائر اللذين تركتهما أُمى . كان الصندوق مفتوحا وناقصا علبتين . ومع ذلك حملته سعيدا إلى العنبر لأهدى عبد الفتاح علبه كاملة منه .

إذا كان شرف موجودا بجسده بين جدران الزنزانة الأربعة ، فإن روحه كانت ترفرف في الخارج طول الوقت ، ليلا ونهارا ، فهو من سلالة شعب عظيم فضل دائما أن يكون مستعبدا كي لا يحرم من عشق الحرية والتطلع إليها .

حقا إن رحلات الليل كانت مختلفة عن رحلات النهار بحكم تغير موقع الأرض من الشمس من ناحية واختلاف موقعه هو من الأرض من ناحية أخرى ، فالمعلوم أن الوضع الأفقى الليلي بتجلياته الرحمية والبطنية والظهرية يجلب صوراً مختلفة عن تلك التى يجلبها الوضع العمودى النهارى فى تنوعاته من انتصاب وقرفصة وتربع وركوع . لم تكن لديه مشكلة بالنسبة للأول ، وأمدته الزنزانة الملكية بوقود للثانى تمثل فى إمكانية التخطيط للمستقبل وفقا لأويشتز متعددة لم تتوفر فى زنزانة الميرى .

فلم يكن هناك ما يغري فى تسلق مواسير عمارة (بطشة أو صنقر) ، الاعتداء على راكب مسالم (صلصة وبلحة) ، الاستسلام للغضب (سامى عازر وعم فوزى) ، قضاء الليل فى ميدان العتبة (فلاح كفر الشيخ) ، حراسة الأبنية و المخازن (سامبو وصبرى) ، النزول إلى باطن الأرض (حسن بكبورت) ، قيادة ياقيات لا تتوقف (عيم جابر) ، التمسك بجنسية خاسرة (الولد الفلسطينى) ، أو حتى الدفاع عن الشرف (أشرف نفسه) .

أما مع الملكيين فقد كانت هناك مثلاً فرصة للجمع بين رحلات الليل والنهار يقدمها الشيخ فتحي (بحكم قدرته على شفاء الأمراض من ناحية

وبراعته فى إخراج الجان من أجساد السيدات ، من ناحية أخرى) ، وقد أمدته بوقود لنشاطه اللئلى إلى أن ضربته الشمس فتبين أنه لا يملك شيئا من العدة الضرورية . فهو لا يحفظ من القرآن إلا ثلاث سور قصيرة لزوم الصلاة . الفاتحة وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس . وكان الشيخ ضنينا بعلمه ، يرى فى شرف ما رآه أغلب رفاق الزنانة : عيل مشكوك فى رجولته . كما أن هذا سريعا ما اكتشف أن دروب العلم غويطة ، وأن الأرواح أنواع كما طرق إخراجها أيضا .

فقد تعجب مرة من أمر السجين المنعزل ذى العوينات المقعرة الذى يدفن نفسه فى الركن والمصحف ، فاستفسر من جاره ، الشاب الهادئ سامح (الذى يثور مع ذلك إذا لمس أحد حاجياته أوحتى صابونته) قائلا : راجل غريب . هو أخرس ؟

قال سامح : أبدا . دا مهندس محترم فى شركة الألومنيوم .

- و إيه اللى جابه ؟

ليس لأنه متزوج من مهندسة محترمة مثله ، زميلته فى نفس الشركة ، ولا لأنه مرة واحدة أطلق لحيته ونقّب زوجته ثم تركا العمل ولزما البيت ، وإنما بسبب الأرواح الشريرة .

- عندهم بنت سنّها اتناشر سنة . حبوا ينقّبوها مرضيتش . قاموا حجزوها فى البيت ومنعوها من الخروج والمدرسة . فضل حبسها مدة والبنت راسها وألف سنيف انها متتنقبش . واحد صاحبه قاله ان عليها أرواح من نوع ميخرجش إلا بالضرب . نزل ضرب فيها هو وأمها بخرطوم بلاستيك .

سأله شرف : و طلعت الأرواح ؟

أجاب : لأ . روحها هى اللى طلعت .

لم يقلها بسخرية أوحزن وإنما بلهجة تقريرية أثارت فضول شرف . وتكشف الشاب رغم واقعيته عن حالم كبير بفضل شهادته الجامعية (بكالوريوس تجارة)، ووظيفته (أمين خزانة فى عمر أفندى) (مما يفسر أيضا إحتياجه الدائم إلى تنظيف يديه) . أما الحلم فهو أسطول من سيارات نقل السائحين ، يقترب ثمن الواحدة من رقم واحد وأمامه ستة أصفار. سجل الرقم على ورقة مذكرا نفسه بأنه لا يملك صفرا واحدا . وتجلت له على الفور الإمكانيات التى تتفتح عندما يتغير موقع العلامة العشرية . فبوسعه أن يقترض خمسة الاف من إحدى قريباته ويحصل على خمسة الاف أخرى من جمعية يؤلفها مع زملائه فى عمر أفندى ثم يدفع الالف العشرة لمعرض يبيع بالتقسيط و يحصل منه على سيارة فان تتسع لـ ١٦ راكبا . ثم يسدد ثمن السيارة من سلفة أخرى مؤجلة بالإضافة إلى عائد تشغيلها فى نقل أطفال بعض معارفه إلى مدارسهم . وبعد ذلك يسدد السلفة المؤجلة ويؤجل قريبتة إلى أن يأتى الله أمرا كان مفعولا . وما أن ينتهى من سداد ثمن السيارة يكرر العملية ، وينتقل إلى سيارات أكبر حجما وهكذا إلى أن يتكون أسطول الأحلام .

- متصورش كنت عايش إزاي . كان لازم أكون فى الشغل الساعة تسعة إلا ربع وقبلها بساعة قدام مدرستين وقبل كده بساعة تانية قدام بيوت التلامذة . مكنتش بنام وطول الوقت على أعصابى . حاطط منبهين جنبى عشان أضمن أصحى الساعة خمسة الصبح . وياويلي لو تلميذ منزلش لأنه عبي أوراحت عليه نومة أو لو اتحرقت بوجيهاات السيارة أو انفجرا الكاوتش أو البطارية عطلت . المهم قدرت أسدد شوية أقساط لغاية ما العربية طارت .

حادثة ؟ تقريبا . فقد صادرتها الشرطة بعد أن تبين أنها مسروقة من الأساس وضاعت عليه الآلاف العشرة وما تلاها من أقساط وانضم إلى ثلاثين

حالما آخر قدموا بلاغات ضد صاحب المعرض الذى كانت كل جريمته هي
العبث ، مثلهم ، بالعلامة العشرية .

هل يستسلم لليأس ؟ ويظل قابعا خلف خزانة عمر أفندى حتى يبلغ
سن التقاعد ؟

أجاب شرف على الفور : طبعاً لا .

التجأ سامح مرة أخرى إلى تحريك العلامة العشرية . و اختار مكان عمله
مجالاً للمحاولة . فالتنم المقيد بقسيمة البيع إذا كان مثلاً ٢٣ جنيهاً و ١٢ من
مائة يسجله على شريط ماكينة الخزينة جنيهاً و ٣١٢ من ألف . نجحت الطريقة
نجاحاً باهراً ولم يعبها سوى أمرين : الأول اضطراره لاقتسام الدخل مع
زميل له . والثانى هو ما حدث فى يوم موعود ، فبدلاً من أن تتحرك العلامة
العشرية ، تحرك ضمير الزميل .

اكتشف شرف بالتدريج أن محاولة تحريك العلامة العشرية هي القاسم
المشترك الأعظم بين زملائه فى الزنزانة . لكن الحساب ، بكل تجلياته من جمع
وطرح وقسمة وضرب ، كان أضعف نقاطه فى المدرسة ، ولهذا استبعده من
مخططاته وخاصة بعد أن علم ببعض مضاعفات الأرقام كما فى حالة
توكل الذى يحتل أهم نمرة فى الزنزانة ولا تنتظره أى نمرة فى الخارج .
فعندما خرج من أول سجن على الحديد ، التجأ إلى أبيه الذى جمع ثروة
كبيرة من التسول وتقاعد بعد أن بلغ السبعين . طلب منه قرضاً بسيطاً ،
ستمائة ألف من الجنيهاً ، ليستأنف بها تجارة المخدرات لكن الأب البخيل
رفض . عندئذ إنهال عليه بالشاكوش حتى مات وحفر له مقبرة داخل غرفته دفنه
بها وقام بتبليط الغرفة ، لكن الرائحة فضحته ورافقتة حتى الزنزانة . ويسبب
هذه الرائحة انجذب شرف إلى مسترتامر .

فبهدف مكافحتها جلب الأخير اسطوانة معدنية أنيقة ، نقش عليها شعار غامض : " حل خاص لمشكلة عامة من جونسون " ، ووعد براق : " يقضى على رائحة الدخان فوراً وينشر رائحة عطرية هادئة تعطر الجوفى الصباح " .

ضاعف هذا التصرف الشيك من جاذبية مستر تامر فى نظره ، إلى جانب ملابسه الكاجوال ورقته المنحدرة من ملوك وممالك أحسن الخدم تربيتهم ، وبيجامته الحريرية الـ "بيزيك ثينكنج" التى يصر على ارتدائها قبل النوم ، وهالة العطور التى تحيط به دوماً (من دهان الشعر " كازوريل " إلى مضاد العرق " بروت " مرورا بأفتر شيف " سبورت ") ، والكلمات الإنجليزية التى تقفز إلى شفتيه عن غير قصد ، وأنواع الأطعمة التى تأتية يوميا . معجنات وفطائر ، كرواسون وسابليهات ، ألبان طازجة ، شرائح أناناس لزوم الإستعمال مع "كلوجز" الذى اصطف خلفه بتجلياته المتنوعة ("هونى سماكس" ، "رايس كريسمبيز" ، "فروستيز" ، "كوردن فلاكس" ، "كوردن بويس") ، مربيات وأجبان فرنسية كريهة الرائحة ، قلوب النخل بالدريسنج ، كشك الدجاج والتوست ، دجاج مخلى بالزيتون ، دجاج شركسية ، دجاج بالكارى ، سمك باللبن ، سمك بالجمبرى ، جمبرى بالشامبينيون ، جمبرى بالجمبرى ، ومن الحلويات الممازية الشكولاتة وطورطة "بلاك فورست" وتارت جلاسيه دون أن ننسى شاي الساعة الخامسة مع الكوكيز .

كانت كل هذه الخيرات تأتى فى صناديق تحمل اسم فندق مشهور من فنادق الخمسة نجوم سرعان ما تبين أن مستر تامر ليس غير مديره الإقليمى . وارتفع قدر مستر تامر أكثر عندما عرف شرف أنه يدير ، بالإضافة إلى الفندق ، شبكة دعارة من ممثلات الإعلانات التليفزيونية . ثم هوى بسبب الألعاب المحلية .

لم تكن كوتشينة أو دومينو أو سيجة (سيتعلمها أشرف بعد ذلك على يد عبد الفتاح) ولا حتى شطرنج ، وإنما "سكرابل" ، أخرج رقعتها من أحد صناديقه ليلاعب من يستطيع تكوين كلمات بالإنجليزية إنطلاقاً من أحد حروف كلمة قاعدية يصفها بنفسه بحروف جاهزة .

كان مستر تامر ذو فراصة فاختار لمنازلته اثنين فقط لمس إجادتهما للإنجليزية هما الدكتور والسفير ، ورفض أن يسمح لأشرف بملاعبته رغم تأكيدات الشاب أنه يجيد اللغة " فى الحقيقة "

لم تمض اللعبة فى سلاسة . فلم يكن هناك قاموس مشترك . وكان كل واحد يختار مفرداته من قاموس خاص يجهله الآخران ، فيثور الجدل لكن اختلاف القواميس لم يكن السبب الوحيد فى تخريب سكرابل . فعلى عكس مستر تامر الرقيق المهدب ، كان سعادة السفير، فى الفائلة التى كشفت عن شعر كتفيه و ثدييه ، والكليسون البلدى الفضفاض الذى يبلغ ركبتيه ، وبصوته الجهورى ، فخورا بتاريخه الذى امتد من العسكرية إلى الخارجية ثم الفراخ والكبد فأتاح له مكانة مرموقة ومعرفة شاملة ، مما جعل الإصطدام بالدكتور رمزى أمراً محتوماً .

فالدكتور رمزى (رغم شروده المتواتر) ، كان مغرماً بإيضاح الأمور ، والتعليق على القضايا المثارة ، مستعيناً بكوم من الجرائد والمجلات العربية والأجنبية تصله بانتظام (المحلية عن طريق الكانتين والأجنبية تحضرها سكرتيرة مخلصة مع الطعام والملابس المغسولة) فضلاً عن الكتب التى يستعيرها من مكتبة السجن . كما كان عاجزاً عن السيطرة على انفعالاته جاهزاً للانفجار عند أدنى معارضة ، على عكس السفير البارد الأعصاب ،

غير المستعد (بحكم تاريخه العسكرى الحافل بالانتصارات) لقبول الهزيمة.
لهذا أثارت نتيجة موقعة " إيزالو " حفيظته .

فقد شاء السفير أن يكافح الناموس الهائج بالقرص الساحر وتصدى له
الدكتور مؤكدا أن القرص يؤدي للإصابة بالسرطان وعلى الأقل تضخم
الرئتين وإحتقان الطحال .

قال له سعادة السفير فى بروده القاتل : وانت إيش عرفك ؟

لم يكن الدكتور رمزى طبيبا وإنما صيدليا و لهذا كانت مصداقيته أكبر
(بسبب الجرائم التى لم يتمكن الصيادلة بعد من إرتكابها) . ولم يكن السفير
يتمتع بشعبية ، كما أن توكل رأى ببعد نظره أن تشغيل الجهاز سيفتح بابا
لتبديد التيار الكهربائى الذى يتولى مسئوليته . لهذا كله انتصر الدكتور فى
معركة إيزالو، واستعوض السفير هزيمته فى معارك سكرابل .

ففى إحدى المرات تشكلت على الرقعة عبارة " سيتى بنك " و بينما كان
الدكتور رمزى يفكر فى كلمة تنطلق من إحدى حروفها ، وجد سعادة
السفير الفرصة لتعليق اقتصادى : فهذا البنك الذى سيبدأ نشاطه فى
مصر بطرح سندات قيمتها ٢٠٠ مليون جنيه هو دليل على صحة الاقتصاد
المصرى وعلى نجاحه فى اجتذاب الخواجات . وما كان الدكتور رمزى ليترك تعليقا
كهذا يمرق بساطة فقال للسفير إنه يتذكر أن هذا البنك كان موجودا من عشر
سنوات واستفاد من الاعفاءات التى قررتها الدولة بهدف جذب الاستثمارات
الأجنبية ثم أوقف نشاطه بعد إنتهاء مدة الاعفاء وحول أرباحه للخارج ومضى .

— طب وفيها إيه ؟

ولا حاجة . سوى أن البنك ، فى رأى الدكتور، يعود الآن ليكرما فعله
من قبل فيستفيد من الإعفاءات دون أن يجلب إستثمارات ولا يحزنون وإنما

يستعين بقرض من جمهور المصريين على تمويل نشاطه فى امتصاص استثماراتهم .

كفر وتجديف بالطبع فى نظر السفير لأن مجلس إدارة البنك مكون من ناس محترمين هم رؤساء "بيبسى كولا" ، و "بوينج" و "بيكتل" للمقاولات ، التى كان يرأسها "شولتز" وزير الخارجية الأمريكية ، فأكره ؟ أما أكبر مساهم فهو أمير سعودي وهذا وحده أكبر دليل على سلامة البنك .

من وجهة نظر الدكتور رمزى كان هذا دليلا دامغا وإنما على العكس ؛ فأنفجر السفير موجها شتى الاتهامات للدكتور ، وكاد الاثنان يتماسكان بالأيدى لولا توكل الذى تدخل مكررا نداءاته بضبط النفس .

شيئا فشيئا كان اللون الأبيض يزحف إلى شعر سعادة السفير لا نتيجة زوال الصبغة وإنما بسبب معارك سكرابل . وفقد مستر تامر حماسه للعبة فقد السيطرة على تجلياتها وكان هناك ضغط غير ملحوظ من رأى العام الذى كان مستبعدا من معاركها . هكذا تراجعت سكرابل لصالح لعبة أخرى أكثر شعبية ، تدعى "عروستى" .

كانت بسيطة للغاية : يختار الواحد كلمة لا يفصح عنها للآخرين . ثم يقدم معلومات مبهمة عن مضمونها مبتدئا بالتصنيفات الرئيسية لأنواع الموجودات : انسان ، حيوان ، جماد . ويتبارى اللاعبون فى التخمين متقدمين على طريق المعرفة .

سبق لأشرف أن جرب هذه اللعبة مع أخته وأمه وأولاد خالته فى دمنهور . وكان الرصيد من الأغاني والأفلام المصرية أساسا ومسلسلات التليفزيون وبرامجه ثم بضاعته الخاصة التى أفحمهم بها والمؤلفة من نينا

ريتشى كريستيان ديورشانيل كارفن جيفنتشى لاروش لانفان تيد لابينوس
باكورا بان ،

كارتية بوشرون دويون ايف سان لوران بيير كاردان هرمس ،

وستنجهانس يونيون اير فيلكوساس ميركو كاريير ،

سونى بوش سامسونج جنرال الكتريك اريستون فيليس ،

شارب كريازى سيتيزين كلفينيتور ناشيونال ،

يورك هوفر هيتاشى طومسون اكاي ،

شيراتون هيلتون سوفيتل موفينيك اوپروى هيلنان ،

انتركونتينتال سويس اوتيل سونستا ،

فولكس فاجن سكودا فيليشيا ،

فيات اونو بونتو دوجان الفاروميو ،

اوبل كورسا فيكترا بيجو ،

هيونداى لادا داتشيا نيسان كيا بيتسا كيا سيفيا نوشا ،

ميتسوبيشى لانسر سوزوكى ماروكى مازدا تويوتا كرولا ستارليت ،

فالكون كريست فوتس لاندنج دالاس بولد آند بيوتيفول ،

لانس ابي ريتشارد جير ريدج ،

لكن ملكي السجن غير مثقفى دمنهور . وكما يحدث فى التحولات الثورية ،

سرعان ما وقعت اللعبة التى استوعبت جميع الطبقات والاتجاهات فى البداية ،

فى قبضة مراكز القوى وأصبحت مجالا للتنافس بين الأقطاب الثلاثة . فارتفعت

إلى مستويات عالية بعيدة عن مدارك أمثال شرف . صحيح أنه سجل نقطتين

ساحقتين ، فهو الوحيد الذى عرف أن "كورونا" تؤكل وتركب (الأولى شكولاتة والثانية طراز لتويوتا) وأن سيارة "نوجان" من فيات مثل مواطنى الكويت ، نوعان : واحد بمحرك "تمبرا" بالباور والثانى بدون . لكن معلوماته كانت مليئة بثغرات واسعة مثل الثقوب الكونية السوداء . فمن أين له أن يعرف فضيات "ريجالى" ، جلود "بوزانو" ، حقائب سيدات "أوريالى" ، أو "جاكوزى" التى ثبتها السفير فى حمامه ، أو ملوك ملابس الرجال مثل "ماريان بيك" ، "غولدستين" ، "سرج غيور" ، "تيدى كنوف" ، الذين يعرفهم مستر تامر معرفة شخصية أو الشخصيات الأخرى التى لا يعرفها الدكتور رمزى شخصيا مثل "دورينمات" و"إيسن" ، "مصطفى النحاس" و"عبد المنعم رياض" ، "نور الهدى" ، و"مارلين ديتريش" ، ابن رشد و"باسكال" الفيلسوف لا المجوهراتى ، فضلا عن طراز "مويستنج" فى السيارات ، و"عاصمتى باراجواى وأوروغواى ويضع عشرات من الأمراض والأوبئة والأدوية ؟ وفى النهاية تكفلت قضية الشرق الأوسط بنسف اللعبة نسفا تاما .

والذى حدث أن سعادة السفير اختار كلمة وأعطى الإشارات الضرورية التى حددتها كاسم دولة فى الشرق الأوسط ، وأضاف مجموعة من الإشارات توجت بحاصل جمع الفلّس والطين ، فانفجرت ثائرة الدكتور رمزى .

لم يكن السبب سياسيا أو أيديولوجيا وإنما تقنيا بحتا : فلسطين ليست بعد دولة رغم كل الاتفاقيات التى عقدت بشأنها . فند السفير هذا الزعم من واقع نصوص مدريد وأوسلو ، عارجا على دوره فى حرب أكتوبر مقاتلا فى قيادة اللواء الثالث ، وفى مباحثات السلام سفيراً فى كامب ديفيد ، متفجعاً إلى نتائج الصلح مع إسرائيل (الأموال ستتكدس لدينا ويتم حل مشاكلنا) الأمر الذى عارضه الدكتور مستشهدا بنتائج الخبرة الإسرائيلية فى الزراعة :

خيار بطعم البلاستيك وفراولة بطعم اللفت و تفاح بطعم قشر البطيخ و خوخ
مفعوله أقوى من الحقنة الشرجية ، وبيض بلا طعم ونحل بلا غسل .

التفرعات تطرقت إلى مخطات متوقعة : جمال عيد الناصر ، الاتحاد
السوفييتي ، وأخرى غير متوقعة .

ففي غمرة إنفعاله تخطى السفير عن نقطة البداية في عروستي معلنا أن
فلسطين هي أرض اليهود طبقا للقرآن : عاشوا فيها من قديم ثم تشبثوا وأن
لهم أن يعوبوا .

- يبقى لهم حق في مصر كمان .. مش عاشوا فيها ؟

- مصر حاجة ثانية .

- إزاي ؟

لا إجابة وإنما تفرعة جديدة : التقدم العلمي والتكنولوجي .

عدد الدكتور (مستشهدا بمجلة أمريكية إلى جواره) المساعدات التي
حصلت عليها إسرائيل من الغرب والتي تفوق مائة مرة ما حصل عليه جميع
سكان العالم الثالث مجتمعين . وقال ملوحا بالمجلة : أمريكا نفسها تقدم ألف
دولار سنويا لكل فرد اسرائيلي . ووجد السفير في هذه الأدلة تأكيدا لوجهة
نظره : شاطرين .

كان شرف من الجيل الذي شكله سعادة السفير ورفاقه باسم "جيل
السلام" و "مصر أولا" واشتهر بالاسم الكودي " جيل أكتوير" . وكانت
للدكتور رمزي آراء غير حداثية من قبيل معارضته لشامبو الشعر على أساس
أنه مجرد صابون تضاف إليه مواد تضر بجلد الرأس . هكذا وجد شرف
نفسه ميالا إلى وجهة نظر السفير ومنحازا ، إليه بكل عواطفه وبفكره

الاستراتيجى ، خاصة وأنه وجده يحوز مجموعة " ستينج " الكاملة : النظارة وجرابها وسلسلتها ، فشرع يتقرب إليه منافسا فى ذلك رمضان بلدية . لكن طموحات شرف تحطمت على صخرة صغيرة للغاية لا من الحجر الرملى أو الجيرى وإنما من الحلاوة الطحينية .

رغم المساحة الكبيرة التى إحتلها قاسم بيه فى كل من الزنزانة والمجتمع إلا أنه كان تقليديا محافظا متمسكا بالتراث . اللوخية والبامية والقلقاس والخبيزة والأرز المفلفل العادى والفول المدمس والبصارة والكنافة والبقلابة والبسبوسة (يتخللها أحيانا البودنج بالمكسرات من ذكريات أيام السفارة) مرددا بمناسبة وغير مناسبة : " إحنا شعب يهضم الزلط " ، كما ألف أن يفعل زميله بائع المكرونة . لكن متعته الرئيسية ، للعجب ، كانت الحلاوة الطحينية ، بالفستق بطبيعة الحال .

وتصادف أن هذا النوع المتخلف من الحلوى كان عشق شرف من الصغر . وأجمل ذكريات طفولته هى المصحوبة بساندوتش منها (من الخبز الفينو) وأروعها هى المرات المعدودة التى وسدت فيها فوق طبقة من الزبد . وقد تداعت هذه الذكريات فى كل مرة يلتهم فيها السفير قطعة منها .

وتصادف أيضا أن النمل هاجم نمرة سعادة السفير ونجح فى التسلل إلى علبة الحلاوة . التجأ إلى علبة "بيروسول" رش منها حول نمرته فذكر له الدكتور رمزى أن المبيد لا يحل المشكلة وأن النظافة التامة هى التى تمنع توالد الحشرات . لم يحفل السفير بالرد عليه وإنما قال فى سخرية : " وإيه كمان يا دكتور؟ " . قال الدكتور إن البيروسول بالذات يؤثر على العصب البصرى ويمكن أن يؤدى إلى تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وتضخم الكبد كما أنه يضر بالقدرة الجنسية .

كانت الحجة الأخيرة هي التي أقنعت السفير . فكف عن الرش في صمت . و تنافس شرف ورمضان على إخراج نمرته إلى الفناء وصناديقه إلى الطريقة، واستدعى واحد من الخدم لمسح الزنزانة جيدا ورشها بالجار. إختفى النمل يوما واحدا ثم ظهر من جديد . فتفتق ذهن السفير عن حل من التراث . وضع علبه الحلاوة في قروانة مليئة بالماء ووضع القروانة في منطقة البلل أي عند المدخل ، إلى جوار الدلوين و الأحذية ورأس شرف .

كان الإغراء أكثر مما يحتمل الشاب المسكين ، فانتظر إلى أن نام الجميع ، و مد يده إلى العلبه فرفعها من المياه في خفة و أزال غطاءها ، وجانبا من محتوياتها .

لم يكن البيروسول قد أثر بعد على نظر السفير فاكتشف العدوان في الصباح التالي مباشرة ووقف وسط الزنزانة ممسكا بالعلبة في يده وهو يزأر :

- مين الكلب اللى أكل من الحلاوة دي ؟

لم يفه أحد بكلمة و تحاشت الأنظار الاتجاه إلى توكل وربيبه ماكس (وهما مرشحان للاتهام بسبب موقعهما الاجتماعي و الدلوى) و تركزت على شرف (أضعف الحلقات) .

كرر السفير : حد قام بالليل وأكل منها .

بدافع الكيد للسفير أو إشفاقا على الشاب المسكين تدخل الدكتور :

- محدش . أنا معرفتش أناام طول الليل ومشفتش حد قرب منها .

وجه إليه السفير نظرات الاتهام ثم نقل البصر بين شرف و قروانة الماء والعلبة مستعيدا القواعد الرئيسية للتحصينات الدفاعية كما درسها في كلية أركان

الحرب ثم رفع العلبة إلى فمه ويصق فيها . ووسط زهول الموجودين إنطلق يوزع بصقاته على أركانها قائلاً وهو يبتسم في خبث ، مخاطباً شرف :
- كده محدش حيقرب منها غيرى .

دفعت الحادثة شرف في اتجاه الدكتور الذى لم تكن تفصله عنه غير نمرة واحدة . وكان الدكتور بعد انهيار سكرابل قد انصرف إلى مجلاته وكتبه ولم ييخل على شرف بالمعرفة فأقرضه ما شاء منها ، الأمر الذى أصابه بالاحباط .

فالمجلات كانت خالية تماماً من "الصور" . ذلك أن الملتحين ألحقوا بإدارة السجن نوباتجيا من بينهم ، من المعجبين بالرقية على المصنفات الفنية : لا بجمالها وإنما بمهنتها ، فمارسها على مايصل السجن من مجلات ، مستخدماً قيعان البطاريات القلمية فى مسح صور النساء والرجال أيضاً ، تجتنباً لكل صور الانحراف . أما الكتب فكانت نوعين : اقتصادية و علمية فوق مدارك أشرف ، أو روايات مسرحية لا طاقة له على قراءتها .

أبدى شرف تعجبه من اهتمامات الدكتور فاعترف هذا بأنه كان عضواً فى جماعة المسرح بالمدرسة وأضاف : المسرح حلوا .

وافقه شرف قائلاً أنه يحب المسرحيات التى يشهدها فى التليفزيون ويتولى بطولتها "فؤاد المهندس" و "عادل إمام" و "محمد صبحى" و "أحمد بدير" ، لكنه يفضل أفلام "فان دام" و "شوارزينجر" . لم يعلق الدكتور وإنما استعار له من مكتبة السجن مسرحية توفيق الحكيم "رصاصة فى القلب" التى أعجبت شرف (فلم يكن قد نسى هدى بعد) ، أو تظاهر بأنها أعجبتة كي يحظى بتقدير صديقه الجديد ، حتى أنه إقترح عليه محاولة تمثيلها .

التمعت عينا الدكتور وقال وهو يتحسس شعر رأسه بأصابع طويلة رشيقة ليتأكد من وجود كل شعرة متبقية فى مكانها : ياريت . أنا قلت للمأمور نألف فرقة مسرحية من المساجين . مرضاش .

أن يتبادل سجين الحديث مع الباشا المأمور نبأ مثير . الأكثر إثارة تفاصيل الحديث الذى تناول موضوعات عديدة طلب الباشا خلاله من الدكتور أن يصف له بعض الأدوية المنشطة استفسر الشاب الغر : منشطة لإيه ؟

ضحك الدكتور : تفتكر لإيه ؟

تأخر شرف فى الإدراك لأنه شخصيا لم يكن يحتاج إلى تنشيط . ولهذا السبب انتهز الفرصة ليستفسر عن الموضوع الذى يؤرقه . وأتحفه الدكتور بعرض علمى رصين : ليست هناك أضرار وعلى العكس ، أى عضو فى الجسم لا يستخدم يتعرض للضمور ، لكن المشكلة فى وتيرة هذا الاستخدام .

- تصور أنك بتشوف كل يوم فيلم لفان دام بتاعك أو جيمس بوند وتعيش فى عالم السوبرمان ؟ إزاي تكون علاقتك بالواقع ؟ (لم يفهم شرف المقصود) الأهم من كده الإحساس اللى بتسيبه جواك . إن فيه حاجة نقصاك . لأنك بتحضن صورة فى الهواء . مفيش أجمل ولا ألد من حضن الجسم الحى

لم تكن تجربة شرف فى الحياة تتيح له فهم الجانب الحسى فضلا عن الفلسفى من حديث الدكتور الذى لم ينتبه للأمر وانتقل بسرعة إلى حديث الذكريات قبل أن يفقد مستمعه :

- لما بلغت عملت المناولة . رحت الكنيسة مع أبويا يوم حد . و بعد الوعظ القسيس قرا أجزاء من الإنجيل . ويعدين صلى على القربان . القربان ده حنة عيش ناشفة . كسرهما فوق فوطه بيضة وقرب الفوطه من بقى فتناولت الكسر .

كانت هذه هى الفاتحة . فبعد شهر استمنى الدكتور لأول مرة . انتابه الرعب وذهب للاعتراف . طلب منه القسيس أن يقرأ " السلام عليك يا مريم " عشرين مرة و يصوم يومين ، و أن يمتنع عن العادة الخبيثة . وعده بذلك وانصرف مشيعا بالمطلوب : " اذهب مغفورة لك خطاياك " . بعد يومين ضعف . ذهب إليه مرة أخرى . وتكرر المشهد . يعترف ويتوب فينال الغفران ويعود إلى البيت مصمما على الامتناع وفى مساء نفس اليوم يضعف فيذهب إلى القسيس فى اليوم التالى . وهكذا . وبعد عدة مرات خطر له أنه طالما يحصل على الغفران دائما فلا بأس أن يذهب إليه مرة واحدة فى الأسبوع . ثم جعلها مرة فى الشهر . وأخيرا إنقطع عن الذهاب نهائيا .

لم يكن شرف هو الوحيد الذى لجأ إلى الدكتور فى شئون الجسد . فقد حرص كل واحد منهم على أن ينفرد بالدكتور ويقود الحديث بمهارة إلى بيت القصيد ، مع تنويعات . فاذا كان شرف يشكو من كثرة القذف فان رمضان شكى من سرعته وسامح عمر أفندى شكى من بطئه ، وأبو السباع من إنعدامه . وأسرع عزت بيه وهو يمسح العماص من طرفى عينيه لا بحقيقة التهمة الموجهة إليه وهى اختلاس أموال جمعية إسكان ، وإنما بأن زوجته تتهرب دائما من ممارسة الواجب الشرعى . وأدار مستر تامر معه حديثا علنيا بالإنجليزية حول الأفروديسيات المساعدة ، انضم إليه السفير بأسئلة محددة عن الرويال جيلى والجينيسنج والمخدرات (فاضحا نفسه دون أن يدري) ثم

تظاهرا بالموافقة مع الدكتور على أنه لا يمكن إحياء العظام وهي رميم (مؤكدًا بذلك ما فضحه) . اثنان لم يحفلا باستشارة الدكتور لأن مشاكلهما كانت محلولة بفضل الأرواح ، هما بالطبع المهندس والشيخ فتحي . اثنان أخران النجاة للدكتور وإنما في مشكلة من نوع آخر .

كان ماكس دائم الشرود مثل الدكتور ، لكن شروده على العكس من الأخير ، كان مصحوبا بالتدخين المتواصل وبإبتسامة سعيدة . وفي أحد الأيام قامت مباحث مصلحة السجون بحملة تفتيشية واسعة بحثا عن الممنوعات . في اليوم التالي تغير ماكس وأصبح شديد العصبية وأخذ العرق يتفصد من جبينه وامتنع تقريبا عن الأكل مكتفيا بالشاي والقهوة . وأعلن توكل لمن سأل أنه يعرف ما يحتاج إليه ماكس ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة . وأخيرا لجأ للدكتور . قال توكل أن الدكتور يملك مساعدة ماكس ومساعدة نفسه في آن واحد .

كيف ؟

الولد سيجن إن لم يحصل عل حاجته .

- طب وأنا أقدر أعمله إيه ؟

- مش حضرتك برضه أجزجى ؟ إحنا عاوزين الأوزان ويس .

فالتركيبة و المواد متوفرة : ماء يود ، فوسفور أحمر ، إفدرين ، كحول ، جليسرين ، إكرار فيلافين ، بيكربونات صوديوم . لكن النسب لا يعرفها غير المعلمين الكبار و لا يكشفون عنها لأحد إلا مقابل مبالغ ضخمة تصل إلى ربع مليون جنيه .

أكد توكل إن إقتراحه نو طابع إستثماري :

- الميه النضيقة غالية . الحقنة ب ٦٠ جنيه والوسخة الحقنة ب ٢٠ جنيه .
ده بره السجن فما بالك جوة ؟ إذا كان على الغلابة كيفهم برضه موجود .
العشرة سنتى بخمستاشر جنيه وفيه سنتى واحد بتنين ، نعملنا مطرح .
مسمعتش عن مطرح ؟

تولى ماكس الشرح و على وجهه نظرة حاملة : الواحد يروح مع مجموعة
من خمسة لتسعة ويمر عليهم واحد بالوسكاية : قرابة فيها ثلاث أربع لتر
ورخيصة جدا . تمنا ميت جنيه أومية وخمسين . كل واحد يتحقق سنتى
سنتى على المهل لغاية ما تنتهى الوسكاية بعد ست ساعات .

ثم انتهز الفرصة ليوضح أنه لم يسرق إلا بسبب المخدر ولهذا فهو على ثقة
من الإفراج لأنه من نجوم المجتمع ويجب أن يعامل مثل ممثلى السينما
الذين يفرج عنهم فى قضايا المخدرات .

أبدى الدكتور تفهمه للإيضاح الإجتماعى واعتذاره عن السؤال الاقتصادى
متحججا بقسم أبقراط الذى لم يسمع به توكل ولا ماكس بالطبع . اعتقدا أنه
يسخرمنهما أو ينوى العمل لحسابه ، فأسراها فى نفسيهما وانضما إلى
السفير فى حلف معاد بعد حادثة الهامبورجر .

فى إحدى المرات أرسلت أم شرف إلى حبة عينها ساندوتشات
الهامبورجر التى يعشقها ووجدها الدكتور فرصة لمحاضرة عن أضرار اللحوم
غير المطهية جيدا : طفيل اسمه التكسوبلازما يحدث تشوهات فى العصب
البصرى وخلايا المخ ويعرض المرء لأمراض الكبد والطحال .

وسواء عن قصد أو غير قصد ، ندد الدكتور بصوت لم يحرص على
خفضه ، بأولاد الحرام الذين يستوردون اللحوم الملوثة

كانت الإشارة الأخيرة كفيّلة بإثارة سعادة السفير . لكن فمه كان ممتلئاً
ساعتها . فانتظر إلى أن حانت فرصة الرد عندما تحدد يوم الاحتفال . بعيد
ميلاد الدكتور ، جريا على عادة الزنزانة في الاحتفال بأعياد ميلاد نزلائها .
ففي اليوم المحدد ، ظهر رمضان عند التمام و معه مسجلة وشريط . حصل
على المسجلة من الدكتور ثابت وعلى الشريط من الطابق الثاني .
بعد العشاء بدأ الحفل وافتتحه ماكس بإدارة المسجلة والشريط . و انطلق
صوت الشيخ عمر عبد الكافي في فضاء الزنزانة :
" و احد بيقول إحنا جيراننا و زميلنا في الشغل مسيحين .. نصارى ..
يتيجى لهم أعياد ، نروح نهنيهم ؟ .. كل سنة وانت طيب يا بطرس .. كل سنة وانت
طيب يا إسحاق .. يا وليم .. آه .. ينفع الكلام ده ؟ الإسلام يقولك ما
ينفعش .. ليه ؟ لأن إنت لما .. هو عنده عيد مثلا .. عيد القيامة . عندهم عيد
اسمه عيد القيامة اللي قام فيه السيد المسيح .. زى ما بيقولوا يعنى ...
فازن إنت لما تروح تقول له في عيد القيامة كل سنة وانت طيب .. أنت
أقريت من نفسك إن إيه ؟ إن فيه حاجة إسمها قيامة المسيح ... صح والّا
لّا؟ يبقى هذا إقرار ضمنى من جواك إن فيه للمسيح قيامة .. وإنه مات
وصحى .. وإنه بعث لكى يحكم العالم لأنه ابن الرب أو لأنه ابن الله ...
والكلام ده كله حرام .. ما ينفعش إنك تروح للمسيح وتقول له كل
سنة وانت طيب .. لكن لو شفته في السكة قوله ازيك . يقولك يا سيدى أنا
زعلان منك .. ليه ؟ زعلان منى ليه يا بطرس ؟ يقولك ما جتش تعيد على ليه؟
الله .. هو انتو كان عندكم عيد ؟ آه .. امبارح كان عيد القيامة .. يا
راجل ... هـ .. تؤه .. المهم متقولوش كل سنة وانت طيب .. العب معاه .. المهم
ما تقولش إن عنده عيد .. "

ساد الوجوم الزنزانة . ورفع مهندس الأرواح الشريرة رأسه من القرآن
وقد التمعت عيناه وارتسمت على شفثيه إبتسامة لأول مرة . وعلت وجه
السفير، الذى كان يحتسى الشاي من مج خزفى مزركش ، إبتسامة صفراء
انتقل لونها إلى وجه الدكتور رمزى .

لم يكن الدكتور رمزى مسيحا ولا كان يأمل فى أى قيامة لكن الرسالة
وصلته فلم يحتفل بعيد ميلاده فى تلك الليلة ولا فى الليالى التالية وكف عن
عرض أفكاره وتعليقاته إلى حين ، منصرفا إلى تدوينها فى أوراقه ، وانغمس
فى مجلاته وكتبه وعزف عن الاستماع لشرف أو الحديث إليه ، فدفع به ، عن
غير قصد بالطبع، إلى أحضان عبد الفتاح .

نادوا على الزيارة وأخذنى الحارس إلى المكاتب ، وجدت المحامى الذى وكلته
أمرى فى انتظارى . كان قصير القامة ، ممتلئ الجسم يرتدى ملابس كاملة رغم
حرارة الجو : سترة كاروهات رمادية اللون من صناعة المحلة فوق بنطلون
من الصوف الخفيف ، داكن اللون وقميص من قماش أبيض لامع ، يبرز
منه كرشه ، وكرافته ذات ألوان صارخة . وكان يضع فوق ركبتيه حقيبة جلدية ،
من النوع المزود بقفل يعمل بالشفرة ، تبدو عليها الجدة ، وتشبه حقائب
السامسونائيت ، لكنها لم تكن تحمل علامتها المميزة . وكان يرتدى حذاء
أسود اللون بلا رباط ، من نوع رخيص ، انبعجت جوانبه عند الأصابع وتآكل
جانب من نعله .

جلست أمامه على مقعد فتلقيت هواء مروحة قديمة من إنتاج المصانع
الحربية كئيبة الشكل ، وضعت فوق خزانة معدنية . وكانت هناك واحدة أخرى
جديدة من طراز توشيبا فوق المكتب . لكنها كانت متوقفة .

قال لى : احكىلى يا أشرف كل حاجة من طأطأ لسلامو عليكو .
حكيت له كيف تعرفت بجون ودخلنا السينما . وانتبهت إلى أنه لا ينظر
إلى و إنما يتطلع إلى النافذة المسورة بنظرة شاردة فكففت عن الكلام . ولم
يعد يتردد فى الغرفة سوى الطنين المرتفع للمروحة .

قال دون أن ينظر إلى : كمل . أنا سامعك .
أكملت قصتى وعندما انتهيت ظل صامتا دون أن يرفع عينيه عن
النافذة .

تشجعت وسألته : رأى سعادتك ؟

قال : خير إنشا الله .

تطلعت إليه مستفسرا .

قال : الجلسة الجاية تقول للقاضى ان الاعتراف بتاعك كان تحت التعذيب

وتنكر كل حاجة .

قلت : وتفتكر ياخذ بكلامى ؟

نهض واقفافى نشاط وهو يقول: رينا سهل .

أعادنى الحارس إلى العنبر . لم أدخل زنزانتى وتابعت السير حتى زنزانة

عبد الفتاح . وجدت صديقيه شحاتة وزغلول يجلسان أمامها فى الطريقة يلعبان

القمار بأغطية الكوكاكولا . كان الأول قصير القامة يعتنى بشاريه الكث وملابسه

الريفية ويكبرنى فى العمر بعدة أعوام ويتميز بالتحفظ الشديد على عكس

الثانى الحليق المهزار والودود الذى تجاوز الثلاثين . كانا من قريته ومشاركين

معه فى نفس القضية . هتفا فى نفس واحد عندما رأيانى :

– عاوز عبده ؟ شوفه جوه . يمكن نايم .

وقفت مترددا فى مدخل الزنزانة . كان أحدهم قد حاول حجب الضوء

ببطانية ثبتها فوق النافذة لكن طرفها تدلى كاشفا عن النزلاء القارقين فى

نوم القيلولة . وسقط جانب من أشعة الشمس بجوار عبده الذى رقد على

ظهره وغطى وجهه بقطعة من قماش خفيف يشبه الناموسية لكى لا يزعجه

الذباب . كان قد خلع جلبابه مكتفيا بفانلة بحمالتين من النوع المخرم وسروال

فلاحى فضفاض يصل إلى ركبتيه .

ناديته بصوت خافت فهب جالسا وهو يتلفت حوله مبهوتا . انطرحت

الناموسية عن وجهه وإستقر الضوء عليه . كان خداه متوردان من أثر

النوم . كذلك كانت شفتاه . وكان كثفاه ممتلئين مدورين يهبطان إلى ذراعين نحيلين . وظهرت حلمتى ثديه من بين خروم الفائلة .

أشحت بوجهي بعيدا وسألته إذا كان يريد مواصلة النوم فأجاب بالنفي . نهض واقفا فاستدرت و غادرت الزنزانة . انتظرت في الخارج حتى ارتدى جلبابه .

قال بمجرد خروجه . ولع لنا نص .

كان يحتفظ بسجائره معي وعندما نفترق في نهاية اليوم يأخذ لنفسه سيجارة واحدة يدخنها على عدة مرات بالإشتراك مع أصدقائه . أشعلت نصف سيجارة وانتحينا جانبا . حكيت له ما دار بيني وبين المحامي من حوار ، فبدأ عليه عدم الإرتياح .

قال : تفتكر البوليس والنيابة يسكتوك أو القاضي يصدقك ؟

— أنا قتلته كده

— وقالك إيه ؟ كان لازم تاخذ وتدى معاه .

قلت : مكنش سامعنى خالص .

كنت فعلا قادرا على تمييز من يتظاهرون بالإصغاء إلى بينما هم يفكرون في شئ آخر ، حتى وهم يواجهونى بنظراتهم . كان الدكتور رمزي واحدا منهم فعندما ينظر إلى مباشرة ألاحظ أنه يحلق في مكان آخر .

عبد الفتاح كان مختلفا . كان يصفى إلى بكل جوارحه . ويشعرنى بأن كل كلمة أقولها مهمة للغاية . وقد أدركت هذا كله يوم زيارة أمى وصرت أستريح للحديث معه .

قال : على العموم من هنا لساعتها تتحل . ع الأقل حتشوفه يوميه قبل
الجلسة .

قلت متشككا : إن جه .

كانت أمى قد وكلته قبل أكثر من شهر ونصف ومع ذلك لم أقابله أو حتى
أراه سوى اليوم .

نادى الدهشورى علينا كى نخرج إلى الفناء ولحت الدكتور ثابت
محفوظ يغادر زنزانته بمشيته المتخشبة . كان يرتدى قميصا أبيض اللون
بنصف كم، من طراز "سان ميكل"، وشورتا مخططا بالطول من طراز
"هارتفورد" ، ونظارة شمسية من طراز "ماتسودا" .

أشار عبد الفتاح إلى حذاءه وسألنى : "ميستر" والا "بالى" ؟

كنت قد اكتشفت أنه لا يعرف الكثير من الأشياء مثل بعض أنواع السيارات
والفروق بين ماركاتها وبالطبع لا يفهم فى الملابس واكسسواراتها فحدثته عن
هذه الأمور وهو يصغى مبهورا . واستغرب أن تكون للأحذية ماركات .

تفحصت النقوش التى تغطى حذاء الدكتور ثابت وقلت : لا ده ولاده .
شايف التمساح . يبقى "لاكوست" .

لمحت مستر تامر يؤدى التمرينات الرياضية فوجدتها فرصة لإبهار
عبد الفتاح . شرحت له أسماء الملابس التى يرتديها : "سويت شيرت"
وشورت "برمودا" وكاب "يا ماموتو" الجبردين .

تشابكت يدينا كالعادة وأخذنا ندور حول الفناء . انطلقت أحكى له قصة فيلم
أحبه لشوارزينجر تختطف فيه عصابة ابنته الصغيرة ويأخذونه فى طائرة إلى
أمريكا اللاتينية . لكنه يقفز من الطائرة فى اللحظة التى ارتفعت فيها عن
الأرض ويبدأ مطاردة أفراد العصابة ليعرف مكان ابنته ويقتلهم واحدا بعد

الآخر . وخلال ذلك يقتحم سوبر ماركت ببلنوزر ويهرب من الشرطة مرتين ويسرق طائرة برمائية يذهب بها إلى الجزيرة التي حبست ابنته في أحد قصورها ويتسلل إلى القصر حاملا مدفعا رشاشا وراجمة صواريخ وعدة آليات فيتصدى لجيش كامل من الحراس المسلحين ويقتلهم واحدا بعد الآخر إلى أن يواجه عدوه القديم رئيس العصابة فيدور بينهما قتال دموى ينتهى بانتصاره وتحرير الطفلة. وهنا يصل جنرال الجيش المكلف بمطاردة العصابة فيقول له هل تركت لنا شيئا فيرد عليه شوازينجر بعبارته المشهورة : بعض الجثث فقط . فيعلق الجنرال : كالعادة .

أعجب بالفيلم فحكيت له فيلما آخر "فان دام " يستأجر فيه حجرة لدى أرملة تعيش وحيدة مع طفليها . وتهدها عصابة تريد ضم المنطقة إلى مشروع مشبوه ولايتورع أفرادها عن كل وسائل التهديد والضغط بل حتى القتل . وتبدو لحظة المواجهة غير متكافئة فالشريف نفسه يقف إلى جانب الأشرار . أما الأرملة فليس إلى جوارها غير فام دام بقبضته الفولاذية وطفل صغير ذى أفكار شيطانية . ثم يخرج فان دام فى النهاية منتصرا ويفوز بقبلة من البطلة لكن القيود توضع فى يديه تمهيدا لمحاكمته فى قضية سابقة تتعلق بسرقة بنك !

روى لى هو قصة فيلم يقوم فيه "عادل إمام " بدور عامل فى السكة الحديد يلتقى ب"يسرا "التي رفضت التفريط فى شرفها عندما حاول رجل أعمال إستغلالها فى صفقاته . أعجبتنى قصة الفيلم جدا كما أعجبنى تمسك يسرا بشرفها والحب الذى نشأ بينها وبين عادل إمام .

لمح السجين الذى يتولى توزيع الخطابات فأقلت يده من يدي وجرى نحوه . اقتربت من الحائط ووقفت مستندا إليه . مرت جماعة من السجناء أمامى بينهم السجين الذى يزين أصابعه بالخواتم . كان معروفا باسم عزيزة

ويمشى بطريقة فاضحة متلويًا كالنساء . رأتى أتأمله فغمز لى بعينه وهتف :
أمال فىن الفردة بتاعتك ؟

أشحت بوجهى متجاهلا . لم يكن أول من أطلق على كل منا أنا وعبد
الفتاح لقب فردة الآخر . فقد صار تلازمنا موضع حسد الكثيرين .

عاد عبد الفتاح كسيف البال . رويت له ما حدث فعلق فى إشمئزاز . مش
عزيزة؟ سيبك منه . مفيش جوابات . لا لى ولا لك .

أشعلنا نصف سيجارة وقلت : أنا مش مستنى جوابات من حد .

لم يكن هناك ما يدعو أحدا من أهلى للكتابة إلى ، وسيد إختفى ، أما
هدى فيبدو أنها نسيته .

حرق فى بعينه العسليتين الواسعتين غير مصدق . يا راجل !

كنت قد حكيت له كل شىء بصراحة . من أول قصة الحلاوة الطحينية إلى
أبى الذى لا يكف عن نهري وإهانتى وهدى التى أغرمت بها وكيف تعارفنا
والتقينا وكيف كنا ونمشى بالساعات ويدها فى يدي . ثم كيف تغيرت فجأة
بونما سبب وأصبحت تتهرب منى .

قلت : مش قادر أفهم إزاي اتغيرت .

سألنى إذا ما كنت قد عرضت عليها الزواج .

تأملته مدهوشا : الجواز ؟ لا طبعا . إزاي أقولها ع الجواز و أنا أهلى
بيصرفوا على ؟

هز رأسه فى حكمة المجربين : البنات تحب تسمع كلمة الجواز .

شردت قليلا أحاول أن أتذكر تعبيرات وجهها وكلماتها ومراحل تغييرها . ثم
سألته إن كان قد أحب أو فكر فى الزواج . قال أنه يحب إحدى فتيات القرية

لكن أهله مصرين على تزويجه لإبنة عمه فى صفقة تبادلية تتضمن زواج أخته هو لابن العم . ورقت نظراته لذكر أخته وجعل يصفها لى بطريقة حبيبتنى فيها .

حدثته عن أختى عايذة وكيف أنها تزوجت مبكرا ولم تعرف السعادة لأنها اضطرت للسكنى قرب مصنع الكيماويات الذى يعمل فيه زوجها وأصيبت بالحساسية نتيجة الأبخرة المتصاعدة منه . وعندما فشل علاجها كان لا بد من مغادرة المنطقة والإقامة مع أمه التى دأبت على إساءة معاملتها . ثم وصفت له فاطمة التى تعمل فى البوتيك وخطبت عدة مرات دون أن تنجح واحدة منها . سألتنى عنها فوصفتها له . وأضفت أنى أتمنى أن أعرفه بها . قال أنه يود نفس الشئ بالنسبة لى وأخته .

قلت : إن شاء الله أول ما نطلع تزورنا .

قال فى وجوم : إدعى ربك .

حكيت له عن شلة المعادى : عمرو طالب الهندسة الذى يقود السيارة واقفا ، بحيث يكون جسمه خارجها وقدمه اليمنى على البنزين . وهشام طالب الشرطة الذى زود سيارته الجيب بكافة أنواع السرينات و يغوى إطلاقها متتابعة . ووصفت له الموتورسيكل الغريب الذى يشبه سيارة جيب صغيرة والذى أهداه أبوه لشقيقه الأصغر فى عيد ميلاده الثالث عشر وثمانه ١٠ آلاف جنيه . وشرحت له لعبة البولينج التى يلعبونها فى صالة مخصوصة ثم حكيت له قصة سالى فتعجب من أمرها وسألتنى عن عملها .

قلت : ماكانتش لاقية شغل . كانت بتقول أنها خريجة سياحة وفنادق

وتعرف ايطالى .

- منين هى . فين أهلها ؟

- كانت بتقول إنهم ساكنين فى الزمالك و إنها متخافنة معاهم وسايياهم.

- تبقى كانت بتستغلكم .

- لا والله . كانت كريمة جدا . لما يكون معها فلوس مرة عزمنا كلنا

فى "بيتزا هات" وصرفت علينا متين جنيه حتة واحدة . كانت أول مرة أشوفها بتاكل . دايم يا إما بتدخن أو بتشرب شاي .

قال : يبقى كانت بتاخذ أقراص .

تدبرت قوله فوجدته معقولا . ورويت له آخر مرة رأيتها فيها . كنت قد ذهبت بالليل إلى الشارع الذى نقف على ناصيته فى المعادى ووجدت وفيق معها وكان مخدرا تماما مضطجعا فوق ظهر سيارة تحت شجرة . وقفنا نتحدث فى انتظار أن يأتى أحد من الشلة ثم قالت أنها تريد سجائر وليس معها نقود وقلت لها أنه ليس معى أنا الآخر وبعد قليل قالت أنها تريد أن تقضى الليلة عند صديقة لها وأنها لا تستطيع المشى لآخر الشارع . سألتها عن السبب . أجابت بحددة : دى حاجة شخصية . قال وفيق أنه ليس معه نقود هو الآخر فقلت ننتظر حتى يأتى واحد من الشلة . فجأة لمحت عمرو خارجا من فيلته وركب سيارته و مر من أمامنا . قلت له رايح فين فقال : محطة البنزين على الكورنيش عشان بيععوا هناك المارلبورو اللى فى علبة مثل الكنت . لاحظت أنه مخدر جدا ، قلت له : سالى عايزة تروح عند صاحبيتها فوافق على توصيلها . ركبت معهما وقاد ببطء شديد وأنا أنبهه للطريق لغاية ما وصلناها ورجعنا .

أشعل عبد الفتاح نصف سيجارة وقدمه لى . قلت : تعرف يا عبده أنى حاسس زى ما نكون اتولدنا مع بعض أو نعرف بعض من زمن بعيد . قال إنه يشعر بنفس الشئ و تعاهدنا على ألا نفترق أبدا .

أضاف بعد لحظة : حظنا كويس إن عندنا نفس التهمة . فبعد شوية حيوزعوا الإيراد الحرامية فى زنازة وبتوع النفوس زينا فى واحدة غيرها . يمكن يحطونا سوا .

قلت : ولما نطلع نهاجر سوا .

قال : أنا خلاص تعبت من الهجرة . أنا عاوز أرجع بلدنا و أزرع .

قلت : آجى معاك وأزرع أنا كمان .

قال : حد يسيب مصر وييجى فى الهوالى إحنا عايشين فيه ؟

حكيت له عن منطقة سكنى وكيف أطل على ترعة أصبحت مقلبا للزبالة . وكيف نشرب من مياه الطلمبات الجوفية رغم علمنا التام بأنها مختلطة بمياه الصرف الصحى لأننا لا نقدر على شراء المياه النقية التى يحضرها بعض الأشخاص فى جراكز ويبيعون الواحد بربع جنيه . فلواعتمدنا عليها لكفتنا ٧٥ جنيه فى الشهر .

قال : يبقى تعالى شوفنا بنشرب منين .

قلت له أن المواصلات العامة عندنا تنقطع بعد الساعة الرابعة عصرا . وأن كشف الطبيب بالوحدة الصحية قيمته جنيه من غير السماعة وثلاثة إذا استخدمها . و أنه لا يوجد بالمنطقة سوى فرنين اثنين يخدمان ١٦ ألف نسمة فلا نجد الخبز إلا فى الصباح .

رمقنى بنظرة جانبية وقال : برضه أحسن من عندنا ، رغيف العيش عندكم بخمسة قروش وعندنا رسمى بسبعة . وكل حاجة عندنا ثمنها دويل . ولوحبيت أشتري حاجة حلوة ملاقيش غير ملبن مفص وحلاوة طحينية . إنتو هنا عندكو كل حاجة . البيوت عندكو طين ؟ أنا كنت عايش فى مطرح

واحد من الطين مع أمى وأخواتى . مقدرتش أبنى بيت زى الناس . عشان
كده سافرت و اتبهدلت . نمت فى شوارع عمان وبغداد .

- وبنيت البيت ؟

- لا . رجعنا كلنا بعد حرب الخليج . كان القطن نزل لخمس قناطير فى
الفدان . تصور بعد تمن شهور شغل فى الأرض . اللوز ما فتحتش ... ما
كانش فيه مية و إضطرينا نروى بمية المجارى . و دى كانت مصيبة . الدود زاد .
والمبيد مكنش موجود فى الجمعيات . مرشناش . وحتى لو كان موجود . الموتورات
خلصانة.

- محاولتش تسافر تانى ؟

- سافرت . جيت عقد للسعودية بعد ما رهننت القيراطين اللى حيلتنا .
مكملتش سنة . ربنا ما يوريك . المصرى هناك عيد تحت رحمة الكفيل السعودى .
الباسبور بتاعك معاه . متقدرش تخرج من المدينة اللى هو فيها ولا حتى للحج أو
العمرة من غير موافقته . السفارة بتاعتنا نفسها تطلب مننا موافقة الكفيل لما
نيجى نجدد تصريح العمل .

- ومشيت إزاي ؟

- أنا حظى وحش دايم . قبل ما السنة تخلص راح الكفيل للشرطة وقالهم
أنى سرقت منه بضاعة . دخلونى السجن من غير ذنب . و بعدين الشرطة
قالتلى إنهم ممكن يفرجوا عنى بشرط أنى أتنازل عن كل مستحققاتى عند الكفيل .
أعمل إيه ؟ وافقت وأول ما خرجت رحلونى على مصر فى أول طيارة من غير حتى
ما أخذ هدى .

ذاب قلبى إشفاقا عليه ووضعت ذراعى على كتفه شاعرا بالرغبة فى أن
أضمه إلى صدرى .

انضم إلينا الدكتور رمزي وسمع عبارة عبد الفتاح الأخيرة فعلق

قائلًا:

- وإيه اللي جبرك على كده ؟ مش كان أحسن تزرع فى بلدك ؟

يعنى كان لازم تليفزيون و فيديو و سهر لغاية الصبح ؟ .

رد عليه منفعلا . يعنى انتو مش بتسهرُوا فى مصر ؟ وبعدين حقوك

حاجة : إحنا بنبيع قنطار القطن بخمسمية جنيه . تعرف بيطلعلى كام فيهم ؟

مية وخمسين . تعرف الشركات اللي بتشتريه بتبيعه بكام فى أوروبا ؟

بألفين وخمسمائة ؟ ده يرضى رينا ؟

قال الدكتور : بس لما كل الفلاحين يسافروا مين حيزرع ؟

- وانتو بتسافروا ليه ؟ إحنا مش بنسافر عشان نشترى شقق تملك

وفيلات وشاليهات وعربيات أو عشان نخط كذا ميت ألف عند الريان والسعد .

بنسافر عشان نخرج من فقرنا ، عشان ناكل . ماهاجرناش عشان ثبعت

لبيوتنا الالافات كل شهر يشتري بيها الأولاد الهيرويين وإنما عشان

نجيبهم جزمة وجلابية . ليه تبقى الثلاجة والغسالة والتليفزيون الملون

والتكييف وحمامات السباحة حلال ليكم وحرام علينا ؟

ارتبك الدكتور أما م عنف الهجوم وقال : أنا مقلتش حاجة . أنا بيص

للنتيجة . إحنا مضطرين نشترى القمح من بره .

- طيب هى فين الأرض دى الللى نزرعها قمح ؟

- هو انتو خلितو أرض . ما انتو بتبنو عليها .

- سبحان الله . يعنى مش من حقنا نسكن زيكم فى بيوت زى الناس

والا عاوزينا نفضل عايشين فى عشش طين فى الوقت الللى عندكو بدل الشقة

إثنين و ثلاثة ؟ طب إدونا أرض نبني عليها . فين هي الصحرا اللي انتو
بتتكموا عليها في التليفزيون ؟

لاحظت أن الدكتور رمزي لم يغضب و إنما كان يفكر . و نادى علينا
الدهشوري لنعود إلى العنبر . فأتجها إلى باب به بخطى متثاقلة . لمحت
سامح ممسكا بالحافظة الجلدية الصغيرة التي تضم علبة الشطرنج . كان قد
شرح لي قواعد لعبها فقلت لعبد الفتاح . تحب أعلمك الشطرنج ؟
قال : يا ريت .

لحقت بسامح و سألته إذا كان يمكن أن يقرضني علبته لأعلم عبدالفتاح.
اعتذر بأنه سيلعب الآن مع الدكتور رمزي . عدت لعبد وقلت له أني
سأحصل على قطع أفضل من العنبر الآخر . كنت أقصد التي يصنعها عم
فوزي من لباب الخيز . أما الرقعة فيمكن رسمها فوق غطاء صندوق "نيدو"
أو "تائج" .

هز رأسه قائلا : منصحكش .

قلت : ليه ؟

قال مشيرا إلى أعلى : الجماعة مانعين الحكاية دي هنا . أي حاجة
معمولة من العيش حرام .

وقفنا في الطريقة لا ندري ما ذا نفعل . واقترح أن نذهب إلى زنانتته
لنلعب الورق . لعبنا البصرة مع صديقيه إلى أن حان موعد التمام . وشعرت
بالاكتئاب عندما تصورت زنانتتي .

و كأنما قرأ أفكاري إذ قال : يا ريتك تفضل معنا للصباح .

قلت : إسمع . عاوزك تروح لتوكل وتقوله ان عيد ميلادك النهاردة وإنك
عازمنى عندكم . شوف حيقول إيه .

لم أشأ أن أذهب بنفسى إذ سبق أن تحدثت معه فى شأن الانتقال كلية إلى زنزانة عبده لكنه رفض الفكرة متذرعاً بأن كشف التسكين فى المكاتب ولا يستطيع التدخل فيها .

انطلق عبده يبحث عنه . واتجهت أنا إلى زنزانتى فوقفت فى مدخلها وقلبى يدق . ترددت صيحات التمام . ورأيت عبده يقترب ووجهه طافح بالبشر .

قال لى عندما أصبح بجوارى : كله تمام . عاوز علية .
قلت وأنا أستدير داخلا الزنزانة : علية عشان ليلة واحدة المفتري ؟ زى بعضه .

- ولازم واحد من عندنا يجى مكانك . عشان كشف التمام .

- و النبطشى بتاعكم ؟

- متشيلش همه .

أحضرت السجاير وحملت نمرتى وبطانيتى وانتقلت إلى زنزانة عبده .
وحل أحد بلدياته مكانى .

كان عبده يحتل الركن الذى يشغله عزت بيه فى زنزانتى، بين صديقيه شحاتة وزغلول . ورحب الاثنان بى وأفسحا لنمرتى مكانا بجوار عبده ، بينه وبين شحاتة . كانت هناك بضع سنتيمترات من الأسفلت العارى بين كل نمرة وأخرى فلم يزد عدد النزلاء على عشرة . وكنت أعرف من عبده حكايات أغلبهم .

كانت هناك أسرة كاملة من تاجر مخدرات وابنى أخيه . واحتل الركن الذى يلى نمرة شحاتة رجل متين البنيان ، شديد الاعتناء بملابسه ومظهره، مارس الطب بدون شهادة لمدة ١٧ سنة فى المستشفيات الخاصة والحكومية

بينها مستشفى الشرطة والقصر العيني و السلام الدولى وذلك بعد أن زور جميع مسوغات تعيينه وخطابات توصية من وزير الصحة و نقيب الأطباء . وبعد الحكم عليه وارتدائه الملابس الخضراء قدم للمحاكمة من جديد . فأتثناء وجوده فى السجن زور عدة توكيلات لشقيقته لصرف مستحقاته من المستشفيات التى عمل بها .

وكان هناك اثنان لهما قصة غريبة . الأول معلم صاحب مصنع للحلوة الطحينية فى باب الشعرية يستخدم موادا فاسدة فى صناعتها . والثانى هو مفتش التموين الذى قبض عليه . فبعد ذلك بأيام ضبط ٧٠٠ صفيحة جبن فاسد لدى بقال وتحفظ عليها فى ثلاجة بباب اللوق ثم طلب من البقال عشر الاف جنيه له ولأمين الثلاجة مقابل تمكينه من سحب كميات الجبن من الصفائح وملئها بمواد أخرى . والظاهر أن شخصا ثالثا لم يحصل على نصيبه أبلغ عنه . واجتمع مفتش التموين بصانع الحلوة بالصدفة البحتة فى نفس الزنزانة .

رحب بى النوبتجى وكان صعيديا متقدما فى السن ، يقضى عقوبة مؤبدة فى قضية ثأر، وجئ به من سجن قنا إلى القاهرة ليجرى عملية جراحية فى القصر العيني . ألحف على بسيجارة وأصر أن أتعشى فوق نمرته . وتمسك عبده بأنى ضيفه ولا بد أن يتكفل هو بعشائى فدعانا نحن الإثنين . وتبين أن عبده لا يأكل بمفرده وإنما مع صديقيه . وفى النهاية تعشنا نحن الخمسة سويا . وتكونت أمامنا مائدة حافلة بها نوعين من سمك البلطى ، واحد مقلى والآخر مشوى ، و طاجن من الأرز المعمر أرسله إليه أهله من سوهاج مع أقاربه القاهريين الذين يحضرون له طعامه مرتين فى الأسبوع . وبعد العشاء قدم لى النوبتجى الشاي وسيجارة .

اشتدت حرارة الجو فخلع عبده جلبابه وبقي بالفانلة و السروال . وخجلت أن أفعل مثله . وجلست فوق نمرتى المبسوطة إلى جواره سعيدا

بالحفاوة التي قوبلت بها . كان كل من يشعل سيجارة أو نصف واحدة يصير على أن يكون لى النفس الأول . وتمنيت لو كنت أعيش معهم دائما .

طلب منى شحاتة أن أقص عليهم أحد الأفلام التي رأيتها . واكتشفت أن عبده ينقل إليهم ما يسمعه منى . حكيت لهم قصة فيلم أمريكى سمعتها من مستر تامر ، عن سكرتيرة أمينة مجتهدة وطموح رغم أنها لا تحمل شهادة عليا تطرد من عملها لأنها تمسكت بشرفها وتجد عملا كسكرتيرة لمديرة فى شركة استثمارات . تقدم السكرتيرة لمديرتها مشروعا جريئا يدرعمولة ضخمة يقوم على إقناع مليونير يتميزبالاستقامة والأمانة بشراء محطة راديو . تتظاهر المديرية بأن المشروع لم يعجبها بينما تعمل على تنفيذه فى السريالتعاون مع شركة استثمار أخرى ناسبة فكرته إلى نفسها . تكتشف السكرتيرة الأمر فتقرر الانتقام . تنتحل شخصيتها وتتصل بمدير شركة الاستثمار الأخرى الذى يقع فى غرامها ويحتالان حتى يلتقيا بالمليونير فى حفل زفاف ابنته فتقنعه أثناء الرقص معه بشراء محطة الراديو لكن المديرية تكتشف الأمر وتتهمها بالاحتيال والكذب . وتعجز السكرتيرة عن الدفاع عن نفسها فتترك الشركة وتوشك المديرية على إنجاز الاتفاق لمصلحتها لولا أن المليونير الأمين يكتشف الحقيقة فيعين الفتاة مديرة لشركاته وتتزوج مدير شركة الاستثمار الأخرى ، وتحقق كل طموحاتها .

علق قاجر المخدرات : لو مكش المليونير أمين مكش البنت كسبت . أدى الفرق بينا وبلاد برة .

قال الدكتور : إحنا معندناش أمانة خالص . شوفوا دكاترة الطب واللى بيعملوه فى الناس .

ضحك عبده فاحتد الدكتور : بتضحك ؟ أنا مفيش حد مات منى ولا
اتسرقت منه كلوة أو واحدة قتلها إن عندها ورم وهى معندهاش . أنا
الى متخرجتش من كلية الطب كل الى عاجتهم خفوا ..

سألته عن تخصصه فقال أنه باطنى وأطفال فى الأساس لكن يعالج
أيضا أمراض الصدر والقلب والحساسية والنفسية وأضاف ضاحكا : زى ما
بيعمل الدكاترة التانيين بالضبط .

أثارت شخصيته فضولى فسألته عن قصته . وعرفت أنه أصلا من
أسرة فقيرة جدا ويحلم من الصغر بأن يصبح طبيا . كان يعيش فى منطقة
الهرم وتعلم اللغة الإنجليزية فى الشارع من إحتكاكه بالسياح ثم تعرف على
ثرى عربى عرض عليه السفر معه إلى بلاده للعمل عنده فتعلم الإنجليزية فى
معهد متخصص وبعد عمل ٦ سنوات سافر إلى ألمانيا والتحق بمعهد تميز لمدة
سنة عاد بعدها ليمارس الطب .

اشتبك عبده مع زغلول فى مصارعة عنيفة . تحاشيت النظر إلى صدره
العارى وتأملت عضلات زغلول النافرة فى قلق . لم يعد لدى شك فى إنتصاره
رغم ما أبداه عبده من جرأة وعنف . وبالفعل ألقى به أرضا وبرك فوقه وأجبره
على أن يعلن هزيمته بصوت مرتفع ثم رأيتة ينحنى فوقه كأنما يريد أن
يهمس له بشئ . والتقط أذنه بشفتيه وإمتصها من أعلى إلى أسفل وعبده
يقاوم ضاحكا ويحاول دفعه عنه .

شعرت بالضيق والتقت نظراتى بعينى مفتش التموين . كان فى سن سامح
تقريبا وإن كان اللون الأبيض غزا شعر رأسه الغزير . قال لى : كان عندكم
قاسم بيه .

سألت : إنت تعرفه ؟

ضحك وقال : أعرفه كويس .

لم أكن قد رأيتهما معا كما أن السفير لم يشر إليه بالمرّة .

قال : أنا قبل ما اشتغل فى التفتيش كنت فى إدارة اللحوم ، حظه حلوائه خرج بكفالة .

تردد لحظة ثم غير الموضوع : أنا نفسى تقرا حيثيات الحكم بتاعى .
غير صوته مفخما إياه واستطرد : "هذه العقوبة رادع لكل من يسقط
عنه ضميره فجأة فيصبح لا يجد خيرا فى هذه الدنيا غير جمع المال بآية
وسيلة ولو كان هذا على حساب هذا الشعب وصحة أبنائه " .

لوى شففته ثم قال : كل ده عشان حته جينة .

كنت أستمع إليه بغير تركيز شاعرا بالاحباط ، و تمنيت لو لم أكن جئت ،
وشرع البعض بالغناء ، وجاء الدور على النويتجى فغنى بعض المواويل
الصعيدية التى لم أفهم منها كلمة واحدة أتبعها بأغنية قديمة لم أسمعها من
قبل عن أبى العيون السود و الوداد الذى ضاع ومتى يعود . كانت الأغنية
جميلة وحزينة ، وشعرت فجأة بالرغبة فى البكاء .

استولى النعاس على البعض فأعلن النوباتجى نهاية السهرة وخلق
المصباح الكهربائى ، استلقى كل واحد فوق نمرته ووقدت على ظهرى أجدق
فى السقف . بينما رقد عبده على بطنه مديرا وجهه ناحية زغلول ، وتردد
تنفسه فى عمق وانتظام . وسرعان ما انضم إليه شخير زغلول المرتفع .

رفعت رأسى بعد قليل وأمعنت النظر إليهما . كان زغلول يرقد على جانبه
الأيسر معطيا ظهره لعبده . وتفحصت المسافة الفاصلة بينهما ومن الأسفلت
العارى على ضوء مصباح الطريقة .

كان نومي متقطعاً وفي الصباح كنت في حال سيئة . أردت أن أذهب إلى زنزانتي فقال عبده : تمشي من غير فطار ؟ لا يمكن .

أعد طبقاً من المش الصعيدي إستخرجه من برطمان زجاجي كبير خلف نمرّة شحاة . وأضاف إليه قليلاً من الزيت وبضع قرون من الفلفل المخلل الحامي.

أكلت بدون حماس متحاشياً النظر إليه فسألني : مالك ؟

لم أرد .

أصر : فيه حاجة حصلت ؟

قلت : مفيش .

بدت عليه الحيرة وتشاغلت أنا بالأكل ثم سأله بعد لحظات :

- إنت تعرف زغلول من زمان ؟

قال : لا . أنا اتعرفت عليه في اللومان .

كان قد قضى به عدة أسابيع في زنزانة مجاورة لزنزانة الربان المشهور .

قال : نفسي كنت تشوف زنزانتة . متقوليش المخزن يتاعنا اللي فيه

الدكتور ثابت . حاجة تانية خالص . ولا الهيلتون . موكييت ومروحة

كهريا وتليفزيون ملون وثلاجة فيها كل حاجة تيجي على بالك من أكل أو

شرب وتلفون دولي .

سألته : وعشان إيه التليفون الدولي ؟

- بيضارب في البورصات بفلوس الغلاية اللي لها وطلعها بره ..

- وإزاي السجّن سمحله بكل ده ؟

هز كتفيه : الفلوس تعمل كل حاجة . دا حتى مراته كانت بتزوره كل خميس وجمعة .

- بتبات ؟

- كل شئ ممكن . على العموم هي خلفت وهوقى السجن .
ساد بيننا الصمت حتى انتهينا من الأكل . قلت وأنا أشعل سيجارة :
قولى يا عبده . إنت حكيتلى عن إصحابك بس مقلتش أنهم واحد فيهم كان عزيز عليك .

تأمل طبق المش الفارغ ثم قال : كثير .

ترددت قليلا ثم قلت : أكثر واحد .

- عويس . كان معايا فى المدرسة . وفضلنا على طول مع بعض بعد كده . ورحنا الأردن سوا .
- رجع معاك ؟

- لا . مرضاش . قال إزاي يرجع من غير الريكورد والفيدويون
شربنا الشاي ثم ذهبنا إلى زنزانتى وعندما حان موعد الطابور خرجنا
إلى الفناء سويا وسرنا متجاورين فى صمت . وفجأة نادى أحد الحراس
على عبده قائلا أنه مطلوب فى الإدارة . اضطربت أمعائى وعجزت عن
التفكير .

مشيت خلفهما حتى بوابة الفناء . ولحق بى شحاتة وزغلول . قال الأول :
- يمكن ترحيل .

قال زغلول : لوحدته ؟ طب وإحنا ؟

قال شحاتة : يمكن يندمولنا الوقت .

قضينا الساعة المخصصة للطاير واقفين بجوار البوابة دون أن يظهر أثر لعبده أو الحارس الذى صحبه . و نادى الدهشورى معلنا انتهاء وقت الفسحة فاتجه الجميع إلى بوابة العنبر فى ببطء وتكاسل وبقيت فى مؤخرتهم أتطلع خلفى طول الوقت . مضيت إلى زنزانته و ألقيت نظرة داخلها كأنما لأتأكد من غيابه ثم عدت إلى زنزانتي فوقفت فى بابها . وانضم لى شحاتة بعد قليل .

قلت له أنى أخشى أن يكون قد رحلوه فعلا . طمأنتنى قائلا أنه لايمكن أن يأخذوه مباشرة فلا بد من أن يأخذ حاجياته الموجودة فى الزنزانة ويتسلمون منه نمرته . وقفنا سويا حتى اقترب موعد التمام . وأحضر نوباتجية الخدمة دلاء الطعام ووضعوها أمام مدخل دورة المياه .

حاول شحاتة محادثتى لكنى كنت مضطربا عاجزا عن متابعتة . وهدف الدهشورى طالبا دخول الزنازين ليقوم بالتمام وهنا لمحت عبده يلج العنبر . ورأنى فلوح لى مبتسما . جريت نحوه واحتضنته ثم قبلته فى فمه .

أبعدته عنى وأنا أتأمل وجهه :

- كانوا عاوزينك ليه ؟

قال : ولا حاجة . يملوا شوية أوراق .

- ترحيل ؟

- مقالوش .

تعال صيحات الحراس فى الطوابق المختلفة : التمام .

شرع الدهشورى فى التتميم على الزنازين وإغلاقها مبتدئا من دورة المياه . سحبت عبده من ذراعه وأردت أن أدخل الدورة لنكسب بعض الوقت معا لكن الدهشورى رأنا فنادى علينا لندخل زنزانتينا .

مضيت معه إلى زنزانتى فى نهاية الطريقة . فى هذه الأثناء وصل
الدهشورى إلى زنزانتى فوقف أمامها ونادى على غاضبا . ثم خطا نحونا
منفعلا . جذبت عبده من ذراعه نحو زنزانتى لكن الدهشورى صاح به :
- ارجع زنزانتك .

توسلت إليه : معلش يا حضرة الصول . ربنا يخليك . حأيدله
سجاير .

قال فى حدة : لا . خلاص التمام . ابقى إيدله بكره .
توسلت إليه فقال لى : روح إنت هات السجاير وهو يفضل هنا .
طرت إلى زنزانتى فأحضرت ثلاث سجاير ناولتها لعبده فقدم واحدة
للحارس .

أخذ الدهشورى السجارة وتشاغل عنا .
قلت لعبده : اسمع . بعد أدان العشا على طول تولع سجارة وأنا أولع
واحدة ونفكر فى بعض .
أطرق برأسه ونادانى الدهشورى للمرة الثانية فمضيت إلى زنزانتى .

سواء أكان السبب هو الفراغ الروحي الذى شعر به شرف بعد رحيل عبد الفتاح ، أم الرغبة فى الإجابة والإنابة عن آثام متعددة بعضها فى مقدمة الوعى مثل النشاط الليلى والبعض الآخر فى خلفيته مثل قبلة ساعة التمام (التى أوشكت أن تدخل باب اللسانيات) ، فإن سقوطه فى شباك أصحاب اللحى كان محتوما بحكم التطور الطبيعى للأمور، و بصرف النظر عن الدور الذى لعبه الشيخ عصام فى هذا الشأن .

حقا إن وجود الملتحين وما يعدون به لم يغب عن فطنته ولا فطنة غيره . وغالبا ما كانوا يخطرون على باله قبل النوم فى خانة التمنى . لا بسبب مبادئهم وإنما لما يتمتعون به من امتيازات بسبب علاقة أحد أمرائهم بالرائد الجوهري ، المغرم بالجلوس إلى جوار الزهور . فالمل الذى كان يعاني منه هذا الضابط الوديع أوقعه هو الآخر فى الشباك . فدأب على استعارة الكتب الدينية من الأمير المذكور . وسواء أكانت هذه الكتب قد رقت قلبه الرقيق من الأصل ، أم أنه كان ينفذ تعليمات سرية من مباحث أمن الدولة ، فى إحدى مراحل لعبة القط والفأر الدائرة بين الطرفين ، فإنه أعطى لأخوة الأمير حق التحكم فى تسكين إخوانهم ، وزاد لهم الوقت المخصص لنزهة الفناء ، وسمح لهم بشراء وتخزين أجولة من الأرز والمكرونة وعلب الصلصة ، وصرح لهم باستخدام زنزانة مهجورة كمطبخ ، وبحياسة السكاككين والأكواب الزجاجية

والسخانات الكهربائية والمراتب الأسفنجية ، وساعدهم على ترويج مشغولاتهم الخشبية من لعب أطفال ومساند للمصاحف وبيعها لزوار السجن .

لم يكن شرف وحده هو الذى اهتم بتتبع هذه الظواهر ، فقد تابعها توكل أيضا باهتمام رجل الأعمال الذى يبحث عن فرصة للاستثمار ، وتضاعف اهتمامه عندما بدأت تحركات الشيخ عصام .

فلم ينقضى على انتقال شرف إلى عنبر الملكية سوى أسبوعين عندما انطلقت بعد العشاء ، والنشرتين الإسلامية والمحلية ، أصوات التهليل ، والتكبير من الطابق الثانى المخصص للملتحين . ومن الزنزانة التى تعلو شرف مباشرة ، دوى صوت جهورى ينادى كافة المسجونين طالبا منهم أن يصلوا لله شاكرين . لماذا ؟ لأن الشيخ عصام تخلص عن أفكار "الأخوان المسلمين" واعتنق أفكار "الجهاد" . وتبع ذلك آيات من القرآن عن الذين اهتدوا وآمنوا ، وأطباق صغيرة من الأرز باللبن أعدت على عجل وساهم حارس الليل فى نقلها إلى المؤمنين وحدهم .

وفى الصباح انتقل الشيخ عصام بنمرته وحاجياته ، فى موكب من الأنصار ، إلى زنزانة أفكاره الجديدة

وسرعان ما عُرِف السبب : فقد أفتى بعض الإخوان بأن الذين قتلوا جنود الأمن المركزى فى أسبوط يجب أن يتوبوا ويكفروا عن الجريمة فتثار أنصار الجهاد ودار صراع أيديولوجى مكثف بين الجانبين أسفر عن عدد من الجرحى والمنتقلين

وبعد أسبوعين بالضبط وفى نفس الموعد ، انطلق التهليل والتكبير من زنزانة جديدة فى الناحية المقابلة ودعا صوت جهورى إلى صلاة الشكر لأن الله أنار

فؤاد الشيخ عصام ، وهده فتيين ضلال الفكر الذي اتبعه واهتدى إلى الفكر الحق . وتلى ذلك الأرز باللبن . وفي الصباح شوهد الشيخ عصام حاملاً نمرة وحاجياته منتقلاً إلى موقعه الجديد . وفي هذه المرة لم يُعرف السبب . تكرر الأمر ذاته بعد أسبوعين بالتمام والكمال . وبعد أسبوعين آخرين انتقل الشيخ عصام إلى جماعة جديدة ، وأصبح انتقال الشيخ عصام من جماعة إلى أخرى طقساً مألوفاً مثل التمام اليومى وصيحات حراس السور الخارجى و أذان الصلاة ، تضبط الأحداث عليه فيقال مثلاً : الزيارة أو الجلسة القادمة ستكون قبل أو بعد يوم كذا الذى سينتقل فيه الشيخ عصام .

مرة واحدة فقط انكسرفيه هذا الانتظام وتحرك الشيخ عصام فى غير الموعد المقرر وذلك عندما إنتقل إلى صفوف جماعة "العزماوية " الذين يرفضون العمل على اعتبار أن الرزق من عند الله ومكتوب على الإنسان تماماً مثل الموت ، أى أنه قضاء وقدر . بالإضافة إلى هذا كانوا يحرمون قتل الحشرات لأنها روح خلقها الله ولا يجوز قتلها بأى حال . لم يكن لدى الشيخ عصام اعتراض على الشق الخاص بالرزق ، لكن شيئاً آخر غيره كان مكتوباً عليه هو حساسية جلده الشديدة للحشرات ، قرصاً ولمساً . وتكفلت بعوضة واحدة فعصها بكفه قبل النوم فى إلقاءه هو ونمرته إلى الطريقة بمجرد فتح الزنازين فى أول صباحية .

سعى توكل إلى التعرف بالشيخ عصام أثناء نزهة الفناء . استمع منه إلى عرض أيديولوجى مطول ، كان فيه غذاء أكيد لروحه وإن لم يفهم منه شيئاً . ولهذا السبب إستجاب عندما دعاه إلى صلاة مشتركة ، فى اليوم الوحيد الذى تتم فيه داخل العنبر : يوم الجمعة .

فى الموعد المقرر توافداً للزلاء على فناء الطابق الأرضى فى ملابس نظيفة مكوية (غسناها غير القادرين بأنفسهم على البلاط أسفل صفاير المياه بالدورة ثم طووها تحت النمر و ناموا فوقها) بينما غطى الريفيون منهم رؤسهم بعمائم بيضاء ولفوا شيلاناً من نفس اللون حول رقابهم . ويسط الجميع بطاطينهم على الأرض فى انتظار الشيخ الذى أرسلته مصلحة السجون ليعتلى منبراً خشبياً وضع فى نهاية العنبر ، ويطالبهم بإطاعة الله ورسوله وأولى الأمر (ابتداء بالدهشورى) .

استعد توكل للمناسبة فتوضأ على رءوس الأشهاد فى الدورة وخرج منها إلى الطريقة والمياه تقطر من يديه ووجهه وصاح فى ماكس ليحضر له المنشقة التى نسيها . كان ماكس فى إحدى لحظاته التعيسة فقام شرف بالمهمة . جفف وجهه و ساعديه وولج زنزانتة حيث ارتدى جلباباً نظيفاً ثم خرج إلى الطريقة حاملاً بطانيته وبدلاً من أن يتخذ لنفسه مكاناً بين الجالسين خطا فوقهم نحو الدرج وارتقاه إلى الطابق الثانى .

مر بالزننازين المفتوحة التى بدت منها صناديق الخضراوات والبفاكهة والمعلبات وكسرات الخبز الجاف . ولج زنزانة واسعة ، أسدلت على حائطها الخلفى قطعة عريضة من القماش كتب عليها بخط جميل آية من القرآن الكريم : "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" ، صدق الله العظيم ، وغطيت أرضها بالبطاطين استعداداً لإقامة صلاة الجمعة على الأصول : نفس عدد الركعات ونفس البرنامج الذى يبدأ بالقرآن الكريم ثم الخطبة وفتحة الكتاب، بل نفس الموضوع وهو الطاعة لله ورسوله وأولى الأمر (ابتداء بالأمير) .

بعد الصلاة أدار البصر فى الوجوه المحيطة به : كانت من كل لون : متوترة بنظرات نارية ، مكتئبة ساهمة ، أو حائرة تساورها الشكوك . لكنهم

أصغوا جميعا عندما تحدث الأمير . كان شابا فى 'منتصف عشرينياته ، غزير اللحية و الشارب ، يادى العصبية ، يغطى رأسه بعمامة بيضاء غريبة الشكل، تنعقد خلف رأسه ، و يتدلى طرفها فوق ظهره . قال إن درس اليوم هو تفسير آية 'إن الله يأمركم أن تؤبوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ' ، صدق الله العظيم .

وسرعان ما أثبت أن الآية ليست بالبساطة التى تبدو عليها و أن هناك أعماقا و أغوارا لا ينتبه إليها إلا صادقوا الإيمان . على وجه التحديد : إن الجاهلية ليست فترة من التاريخ وإنما الجاهلية فى كل عصر و هى موجودة الآن فى كل بلاد المسلمين دون استثناء ؛ فالحكام العرب يحكمون بالقوانين الوضعية ، وإذا أرادت الشعوب أن تحتكم إلى شرع الله ، أودع المطالبون فى السجون وقطعت رقابهم .

النتيجة ؟ ليس من حق الناس أن يسنوا قانونا ثم يلزموا الناس بالتحاكم إليه، ومن أراد أن يتحاكم إلى هذه القوانين الوضعية فليبحث له عن أرض غير أرض الله . أما الجماعة فقد حملت أمانة تطبيق الشريعة الإسلامية ولن تتورع عن تقطيع الرقاب حتى يتم ذلك .

تحسس توكل زقبتة بيده لا خوفا عليها مما قد يصيبها فى غمار النضال من أجل تطبيق الشريعة وإنما لأنه اطمأن على مصيرها . إذ تصور أن تطبيق الشريعة سيؤدى إلى الإفراج عن كل من حوكم وفقا للقانون القديم وفتح صفحة جديدة للجرائم التى سيرتكبها بعد ذلك .

كان فى حاجة الآن إلى مزيد من التحديد الدقيق كى . يتمكن من تخطيط حياته ، فرفع يده متجرئا على السؤال : متى تطبيق ؟

ولم يكد يطمئن إلى أنه ليس هناك موعد محدد وأن ذلك يمكن أن يحدث في أية لحظة حتى زعزعت الفقرة التالية في الدرس رغبته في الإبقاء على رقبته . فقد كانت عن المرأة التي حيرت الرجال منذ بدء الخليقة .

نحدث الأمير عن سلبيات عمل المرأة خارج البيت من أول الإختلاط بالرجال والتعرف بهم و التعطر لهم ، إلى الخلوة بهم وارتكاب الفاحشة ، ثم قال أن البقاء في البيت ليس سداحا مداحا ، فله آدابه وقواعده . وكان يملك في جعبته ما يناسب المقام من أقوال منسوبة إلى الرسول وصحابته من أول : <علقوا السوط حتى يراه أهل البيت فإنه أدب لهم > إلى : < لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدي حق زوجها > .

ظهر الوجوم على وجوه الحاضرين إذ تذكروا نساءهم وسياتهم . وسارع الأمير إلى علاج الأمر مستعينا بجعبته : " يكون للرجل في الجنة سبعمائة زوجة و يعطيه الله القدير من القدرة ما يمكنه من مجامعتهن جميعا كل يوم ، مرة في الصباح و مرة في المساء ، وتعود الزوجة بكرا في كل مرة " . هنا كف توكل عن تحسس رقبته فلم يعد يعبا بمصيرها .

أطلق توكل لحيته و حرص على الاشتراك في صلاة الجمعة بانتظام بعد أن يتوضأ خصيصا ويخرج من المراحيض و المياه تقطر من وجهه و يديه وينادي على ماكس ليحضر له المنشفة التي نسيها ، ثم يرتدى جلبابا نظيفا ويرتقى السلم إلى الطابق الثاني وإلى زنزانه القتال من أجل منع الفتنة ، ليجلس في وقار إلى جوار الشيخ عصام ثم يوجه سؤالا واحدا لا يتغير : متى تطبق؟

خلال ذلك كان الشيخ عصام منتظما في مسيرته بين الجماعات الممتلة في السجن من "التكفير و الهجرة " إلى " القطبيين " ، ومن "التبيين" إلى "الجماعة

الإسلامية " ، ومن "الناجين من النار" إلى " الشوقيين " ، متوقفا بين الحين والآخر فوق نمرة توكل (حيث توثقت علاقته بشرف) من أجل التقاط الأنفاس . ذلك أن الشيخ عصام ، بصفته من بنى البشر ، كانت له رذائله و على رأسها التدخين الذى تحرمه الجماعات بمختلف أسمائها واتجاهاتها .

الاسترخاء الذى مارسه الشيخ عصام فوق نمرة توكل كانت له مظاهره الأيديولوجية . ففي أحد المرات أسر لشرف فى تردد بما يساوره من شكوك ؛ إذا كان الناس فى عهد الرسول استعملوا نقودا من شقاف الحجر ، فهل نفعل مثلهم ونتخلى عن إستخدام الجنيه من أجل التمسك بالسنة وبكل ما كان الرسول يفعله ؟

كان للمرأة ، بالطبع ، مكانها فى تساؤلاته : ألم تمارس سيدتنا عائشة الحكم والفقه ، و ألم يعط الإمام أبو حنيفة المرأة حق القضاء فى غير المسائل الجنائية ؟ وهل يقصد بالاختلاط المحرم بين الرجال والنساء تواجدهم معا فى الجامعة و الأماكن العامة أم أنه لا يتحقق إلا عندما ينفرد رجل بامرأة و يلحق بهما الشيطان ؟

تساؤلات أخرى أكثر حميمية كانت تدور برأسه وقادته إلى الدكتور رمزى ، لا بصدد الأوزان والسرعات ، وإنما الهرمونات . فكيف يمكن التأثير فى لحيته التى لا تتجاوز بضع شعيرات أسفل الدقن وخط خفيف على الوجنتين ، كى ترقى إلى مصاف لحية الأميرالكثة التى تكاد تغطى صدره وتصل إلى بطنه؟

كان يلقي بكل تساؤلاته جانبا عندما يستعيد أمجاد الجماعة التى شارك فى صنعها :

- قررنا نعمل نفق فى عرض طريق صلاح سالم و نحشيه متفجرات . قعدنا نحفر شهر وحفرنا حوالى ١٢٠ متر . كنا عشرة لابسين لبس العمال . والقائد بتاعنا كان يقعد أول الطريق على كرسى لابس بدلة ضابط شرطة . لما حد يسألنا بتعملوا إيه يقوله إحنا بنحفر عشان المية و مرة يقول عشان المجارى أو التليفونات .

لكن اهتمامات الشيخ عصام كانت تتسع للكثير من أمور الدنيا ، يرويها مع سيجارة وسط حلقة متزايدة من المستمعين :

- إنتو عارفين مدير الليمان اتشال ليه ؟ أنا عرفت الحكاية النهارده من الزيارة . سنية و داد الرقاصة هى اللى شالته .
- وإيه اللى وداه عندها ؟

- هى اللى جتله . الظاهر اتمسكت فى خناقة ولا دعارة .. المهم فى يوم بص لقى وكيل مصلحة السجون بيكلمه و يقوله يخلى مدير فندق شيراتون يزورها بشكل إستثنائى . و ان الزيارة متوصى عليها من رئيس الوزراء . المأمور قال اللائحة تمنع . الوكيل قاله انت حر الراجل جايلك فى السكة . جاله فقال له أنا معنديش مانع لكن اللائحة بتشترط تصريح من المصلحة وإذن من النيابة . يهديك يرضيك . حَكَم راسه يمشى باللائحة . فمشوه هو كمان بيها : طلعهو معاش برتبة لوا .

نتيجة أخرى استخلصها وأمن عليها الجميع : الرقاصات هم اللى بيحكموا البلد .

بالإضافة إلى الأنبياء المحلية و خلفياتها ، كان الشيخ عصام يحتفظ بأرشيف شامل لكبار موظفى وزارة الداخلية من أول من تاجر فى إنتاج السجون و زميله الذى خرج من الوزارة بعشرة ملايين من الجنيهات من

وضع اليد على الأراضى والثالث الذى كون شركة أمن ضمت أربعمئة من قيادات الشرطة ولم يدفع فيها مليما واحدا مكتفيا باسمه ، إلى من أعد مشروعا وهميا لإسكان الضباط ودفع من صندوق الشرطة ٤ ملايين جنيه ونصف لمكتب استشارى واشترى متر الأرض بسعر ٣٠ قرشا وباعه ب ٤٣ جنيها للضباط و ١٥٠ جنيها للمستثمرين ، وزميله الذى شارك بعدة ملايين فى شركة صرافة وشركة تسفير عمالة للخارج وطبعا فى شركة الأمن إياها ، والثالث الذى اختلف مع زميل له على عمولة صفقة سلاح فهاجم بيته بالصواريخ .

استجاب شرف بسرعة للشيخ عصام الذى كان وسيم الطلعة ، ذا هيئة أبوية، وعينين واسعتين صافيتين ، (عسليتين أيضا) . وكان الاستلطاف متبادلا، فأقدم الشيخ عصام على خطوة غير مسبقة .

لم يكن الملتحون يعبأون بدعوة النزلاء إلى أفكارهم ومحاولة ضمهم لأنهم كانوا يعتبرون السجين شخصا مسلوب الإرادة وبالتالى لا تجوز دعوته . لكن الشيخ عصام لمس فى شرف استعدادا للهداية ، ولما كان الله تعالى يهدى من يشاء ، فقد أعطاه اختبار القبول فى التنظيم :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم . استطلاع رأى . رجاء منك أخى الحبيب أن تكتب ورقة تحتوى على المعلومات الآتية : ١ - الآفات و السلوكيات الخاطئة التى تعتقد أنها موجودة بيننا . ٢ - الموضوعات التربوية و السلوكيات التى تعتقد أنها موجودة بيننا . ٣ - الموضوعات التى تقترح أن نتناولها خلال المواعظ و النشرات والأنشطة الأخرى . ٤ - أسماء كتب الدقائق التى تملكها . ٥ - أجب على الأسئلة الآتية بلا أو نعم : هل لك قدرة على إلقاء

المواعظ ؟ هل تجيد التلاوة ؟ هل ختمت القرآن ؟ هل تحسن الخط ؟ هل لك قدرة على تجميع بعض الموضوعات التربوية من كتب الدقائق ؟

تذكير : الإجابة من السنن . التوقيع : لجنة التربية .

كان هناك الكثير، مما يدعو للإعجاب في سلوكيات الأخوة الملتحين : ذلك النظام الصارم الذي يسمح بانقضاء اليوم دون أن يشعر المرأ (تماما مثل أبى صليبة) : الاستيقاظ لصلاة الفجر ثم العودة للنوم حتى يحين موعد الخروج إلى الدورة و بعد ذلك التدريب على الكاراتيه والكونغ فو ثم المحاضرات الدينية وتحفيظ القرآن وبقية الصلوات الخمس فضلا عن الإضافات : تعاونهم وتكافلهم و تضامنهم (الذي تجلى في المطبخ المشترك العارم وصناديق الفاكهة الموسمية التي تصلهم بانتظام وتوزع فيما بينهم بالعدل والقسطاس) .

ومن ناحية أخرى لم يكن شرف ، المؤمن بالتعددية في الزى ، راضيا عن ملابسهم المتماثلة ، التي تساوى بين فقيرهم وغنيهم ، (فيما عدا تريننج لأحدهم و بنطلون وقائبة أيضا من اللون الأبيض لأخر) ، ولم يكن يملك كتابا واحدا من كتب الدقائق ولا كان يعرف المقصود بالكلمة ولم يكن قد ختم القرآن . ولا كان يجيد التلاوة أولقاء المواعظ ولا كان يعرف شيئا عن الآفات والسلوكيات الخاطئة الموجودة بينهم : مرة واحدة فقط ، أثناء الزيارة ، لمح أحدهم يلتهم دجاجة يدلا من أن يحملها إلى زملائه ليتم توزيعها بالعدل ، ومرة أخرى وجد أحدهم يحاول أن يستبق الآخرين داخل الدورة بالقوة ، ثم كان هناك الأمير الذي ظهرت عليه أعراض الجنون بعد تعرضه لتعذيب وحشي في أقبية وزارة الداخلية فقرر أتباعه اختيار أمير غيره ولم يعجبه هذا القرار فحاول قتل الأمير الجديد .

وازن أشرف طويلا بين الإيجابيات والسلبيات و بعد تدبر وتفكير عميقين اتخذ قراره . وكان على وشك كتابة المطلوب عندما استدعاه الرائد "إدكو" .

لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي و إنما اسم شهرة . وكان طويل القامة رفيع الجسد أصفر الوجه ، يتميز بمشية مستهترة ، وشراسة وقسوة بالفتين . فلا يمر يوم أو يومين إلا ويضرب سجيناً أو يوقع عليه عقوبة ما .

صرف إدكو الحارس الذي أحضر السجين الشاب و خاطبه وهو يقلب في ملف ذي غلاف وردي اللون :

- إنت بتعرف تقرا و تكتب ، مش كده ؟

رد الشاب بوجل : أنا أخذت الثانوية العامة يا سعادة الباشا .

- و دخلت الجامعة ؟ لا .. إنت فى معهد تجارى .

أخرج ورقة من الملف و ناولها لأشرف : عارف الورقة دى ؟

تعرف أشرف على خطه و الخطاب الذى كتبه للترزى . دوت القنابل فى معدته و أحس أنه على وشك أن يفعلها أمام الباشا الذى وجه إليه نظرة باردة كالثلج و أبرز ورقة أخرى ، رسمية هذه المرة ، مكتوبة على الآلة الكاتبة ومدموغة بشعار مصلحة السجون . ناولها له و طلب منه أن يقرأها بصوت مرتفع .

قرأ أشرف : " بسؤال المسجون أنكر قيامه بأى شكوى وأنه لم يقع عليه أى ضرر من مأمور أو ضباط السجن وعلل إرسال هذه الشكوى بأن يكون أحد المسجونين يريد الإضرار به وتخزينه من العمل بالورشة فأرسل هذه الشكوى» .

توقف أشرف عن القراءة فصاح به إدكو : كمل .

أكمل : "تحريرات المباحث : المسجون محكوم عليه بالحبس لمدة ٦ سنوات و٧ شهور فى جملة قضايا سرقات وقد ضبط فى ٢٥ . ١١ . ١٩٩٢ ويحوزته ٢ طرية

حشيش بعد عودته من جلسة نيابة . يعتبرهن المسجونين المنحرفين وله نشاط في الاتجار بالمنتجات داخل السجن وخاصة المواد المخدرة . وقد سبق أن أرسل شكاوى عديدة تبين عدم صحتها وتم تغريبه إلى ليان طرة بالإضافة إلى أن السيد مأمور السجن والضباط العاملين معه يتمتعون بسمعة طيبة " .

لم يجد شرف ضرورة لقراءة السطرين الأخيرين لكن الضابط وجه إليه نظرة صاعقة فواصل القراءة : " النتيجة : ثبت من الفحص عدم صحة ما جاء بالشكوى و أنه يهدف منها إلى النيل من الضباط الذين ضبطوه محرزا مادة مخدرة " .

قال الضابط: واحد زيك مستنى حكم إعدام مش يخليه فى حاله ؟

- سعادتك أنا مقصديتش . أنا أصلى ..

- و كمان رايح تنضم للإرهابيين ...

هنا وجد شرف لسانه : يا سعادة الباشا أنا ما انضميتش لحد .

- أmaal بتقعد معاهم ليه ؟

- أنا مليش دعوة بيهم .

- و الشيخ عصام ؟

- ولا حاجة . إحنا صحاب . بندخن سوا .

- بس ؟ ولا بتعملوا حاجات تانية ؟

أوضح سيادة الضابط إدكو ما يقصده بحركة من أصابعه احمر لها وجه الشاب البرئ .

- وبتقولوا إيه ؟

- مفيش . بيقول الشريعة سمحة . وكل زمان له احتياجاته . حاجات زى

كده .

نهض إدكو وأدار المروحة بعيدا عنه وهو يقول :

- سيادة الأمور كان عاوز يحطك فى التأديب .

لكن أنا إتشفعتك على أساس أنها أول مرة تخش السجن . و كمان سنك

صغير .

- الله يخليك يا سعادة الباشا .

لكن رحمة الباشا لم تكن من أجل الفوز بدعاء نابع من القلب .

- بص . إحنا عارفين كل حاجة بتحصل فى السجن . مين اللى حشش

ومين اللى بيبيع مخدرات ومين اللى اتسخط . كل حاجة .

تماما مثل على بلبل الذى يرى بخرم مؤخرته .

إذن ما هو المطلوب ؟

خدمة بسيطة تتيج لأشرف التكفير عن ذنبه لها فوائد أخرى كثيرة :

معاملة جيدة فى حالة الحكم عليه والخروج بربع المدة على أساس التقرير

الذى سيكتبه الضابط .

بالتحديد شوية معلومات .

الملتحين ؟

قال الضابط بغير إهتمام : لا . إنت خليك مع الشيخ عصام ولو عرفت

حاجة مهمة إبقى قولنا عليها .

إذن ماذا ؟

- الدكتور رمزى . . متعرفش بيكتب إيه كل ليلة ؟

- لا يا باشا . هو محرص قوى على ورقه . مبيخلش حد يشوفه .

وما يسيبوش بعيد عنه حتى لما يلعب رياضة أو يروح الحمام . يكون لفه فى

كيس بلاستيك و يلف عليه القميص بتاعه ويخليهم قدام عينيه . ولما ينام
بيحطه تحت دماغه .

- أنا عاوز أعرف اللي فى الورق ده .

ما الذى يمنعه ؟

- سعادتك تقدر تفتشه و تاخده .

وفى الحال ندم على تهوره فقد رمقه إدكو بنظرتة الباردة :

- لا فكيك يا روح أمك . ثم أوضح فى إقتضاب : أنا مش عاوزه

يحبس بحاجة .

أصر شرف على تقديم عونه :

- سيادتك تقدر تفتش الزنزانة كلها أظنك بتتور على مخدرات وتاخذ

ورقه تقراه على مهلك و بعدين ترجعهوله .

- انت متعرفوش . دا شيطان . حيفهم على طول .

وجد شرف الشيخ عصام فى انتظاره عندما عاد إلى زنزانته فروى له الجزء

الأول من لقائه مع إدكو الخاص بشكوى الترزى . وبالمقابل روى له الشيخ

عصام تاريخ الضابط المسجل فى أرشيفه . فاسمه الحقيقى هو رشدى سلامة .

وكان رئيسا لمباحث مركز إدكو برتبة نقيب عندما ذهب إليه تاجر ماشية كبير

بتوصية . وبن آية وثائق اتهم شقيقين من إحدى عائلات البلدة بأنهما استوليا

منه على ٤٢ ألف جنيه فركب النقيب سيارته ومعه زمرة من رجال المباحث وأحضر

أحد الأخوين إلى المركز . طلب منه رد النقود فأنكر أنه أخذ شيئا من المليونير

فبدأت عملية إقناعه . وقبل أن يفتنع سقط فوق مكتب النقيب بعد أن نزلت

الدماء من فمه و أذنيه فنقلوه إلى مستشفى البلدة دون جدوى . فقد كان اقتناعه حاسما لا رجعة فيه .

أثار اقتناع المسكين أهالى البلدة فتجمعوا رجالا ونساء و صبية وزحفوا على المركز يريدون الثأر من النقيب الجلاد كما وصفوه وانتزعوا الباب الخارجى للمركز فى محاولة لاقتحامه . ولم تفرقهم سوى طلقات الرصاص التى انهمرت عليهم من قوة المركز وصرعت أحدهم . هنا انفجر غضبهم فهاجموا كل الأبنية الحكومية : المخبز الآلى والسنترال ثم أشعلوا النار فى مبنى مجلس المدينة الذى يعانون من فساد رئيسه وهاجموا الفيلا الحكومية المخصصة لسكنه لكنه أفلح فى الهرب بسيارة هو وأسرتة .

طبقا للتقليد المصرى ، لم تستمر انتفاضة إدكو طويلا إذ وصلت سيارات الأمن المركزى العملاقة ، تقل مئات من الجنود المصابين بالأنيميا والضباط السمان المفتولى العضلات ، ببنادقهم ورشاشاتهم . وتحولت المدينة إلى ثكنة عسكرية تنطلق فى سمائها القنابل المسيلة للدموع لتسقط بين المنازل وعلى أسطح البيوت و تعبئ الجو بالغاز الحارق الملهب للجفون . ثم ظهر رجال مكافحة الشغب فى الشوارع المؤدية إلى قلب المدينة يمسكون بمن يضعه حظه العاثر فى طريقهم من شباب ورجال عزل فيوسعونهم ضربا ويحملونهم فى سيارات إلى المركز.

وكما يحدث فى هذه الحالات ، ما أن انتهى إقناع أهالى البلدة ، حتى بدأ توزيع الجوائز والمكافآت ، فنقل النقيب رشدى إلى مصلحة السجون . كيف يمكن أن يكون العمل فى هذا المكان الكئيب مكافأة ؟ سؤال رد عليه الشيخ عصام بسؤال آخر على طريقة أهل ملوى : وما الذى يدعو خريج كلية الشرطة لأن يطلب العمل فى مصلحة السجون ؟ بص مثلا للمسائل المالية .

المفروض إن للمسجون غيارين داخليين فى الشتاء واثنين فى الصيف ، شفت حد بيستلمهم ؟ المفروض أيضا إن له كمية معينة من اللحم العدس والفول والجبن . والعيانين لهم بيض ولبن ولحم . كميات هائلة بتشقرها المصلحة ومحدث بيثوقها . الانتفاع من فوق لتحت .

مزق شرف استطلاع الرأى ، وتفرغ لدراسة المشكلة التى استعصت على إدكو . لم يستغرق طويلا فى البحث عن حل لها ، إذ قدمه له الدكتور رمزى نفسه قبل أن ينتهى اليوم . فقبل التمام بتصف ساعة انتحى بالشاب جانبا وقال له وهو يناوله كيس البلاستيك والمفكرة : أنا داخل آخذ دوش وعاوزك تاخذ بالك من الحاجة دى . متخليش أى حد ياخذها منك أو يبص فيها . تسارعت دقات قلب شرف وهو يفكر بسرعة : دش المرحاض لا يستغرق أكثر من عشر دقائق ، وأغلب نزلاء الزنزانة لم يخرجوا بعد إلى الفسحة . أين إذن يختلى بالأوراق ليلقى عليها نظرة ؟

أثبت شرف ما يتمتع به إدكو من فراسة . فقد حمل الكيس فى يده وانطلق إلى المرحاض . تبين على الفور شبشب الدكتور رمزى أمام كابينة الإستحمام الأخيرة : ساعده الحظ فوجد الكابينة الأخيرة من الناحية الأخرى خالية فولجها واتخذ وضع قضاء الحاجة . فض محتويات الكيس وأقبل يتفحص محتوياته فى إطمئنان . فلو خرج الدكتور قبله سيقول له إنه اضطر لدخول المرحاض فأخذ الأوراق معه ، وتأخر به لأن ولادته كانت متعسرة أو مستفيضة ، حسب الحال .

طالعه المشط الذى يحرص عليه الدكتور رمزى من أجل تنظيم الشعيرات الباقية فوق رأسه ثم صورة فوتوغرافية ملونة لامرأة وطفلتين وصورة لكل طفلة على حدة . وأدرك شرف بذكائه الذى شحذته التطورات أن اهتمام إدكو موجه إلى بقية المحتويات فركز عليها : قصاصات صحف ومذكرات بخط اليد تتضمن

وقائع القضية المتهم فيها سعادة السفير ، قصاصة من صحيفة تشتمل على قائمة بممتلكات الدكتور ثابت محفوظ ، قصاصات تتضمن إعلانات عن أجهزة التكيف (طبعا. له لآ؟) والقرى السياحية (أجازة بعد انتهاء المحاكمة ؟ أو مشروع ؟) ، تصريحات لكبار المسؤولين عن الاقتصاد والأمن ، تقارير لهيئات أجنبية (له إتصالات) ، أسماء شركات أجنبية (ومصالح) ، مقالات بالفرنسية والإنجليزية عليها سطور مخططة وبجوارها تعليقات بالعربية (اهتمامات واسعة) ، إحصائيات ودراسات وأرقام (علاقة بجهات أجنبية؟ فى الغالب لأنه شخص محترم) ، فكرة بها ما يشبه مذكرات شخصية أو خطاب طويل، بضع صفحات تحمل سطورا قصيرة على هيئة أبيات الشعر أو المسرحيات. تعجب لما يمكن أن يثير إهتمام الضابط فى هذه الأشياء غير المترابطة ؟ وأخيرا فى لحظة تجلى خطر له أن الدكتور رمزى زميل له فى المهنة . احتار فى تحديد الجهة التى يعمل لحسابها ، فمن الواضح أنه لا يعمل لحساب السجن ولا لحساب إسرائيل التى يحتل جواسيسها زنازين معروفة. فلمن إذن ؟ بعد أربعة أيام نودى عليه للزيارة ، وانتظر طويلا فى الردهة المؤدية إلى قاعتها إلى أن اتضح أن لبسا قد وقع فى الإسماء وأعيد إلى زنزانته . وخلال ذلك إلتقى به إدكو (الذى رتب الأمر كله لهذا الغرض) ليستمع إلى عرضه لمحتويات الأوراق على قدر استيعابه لها .

استمع إدكو فى هتمام ثم أعرب عن رغبته فى رؤيتها بنفسه لتصويرها ثم إعادتها إلى مكانها دون أن يشعر صاحبها . كيف يمكن تدبير ذلك دون أن يتسرب الشك إلى الدكتور ؟

قضى شرف ، هو وحضرة الضابط إدكو ، لياالى عديدة يفكران معا (من مكانين متباعدين) فى المشكلة دون جدوى إلى أن تكفل الملتحون بحلها .

أقرضنى سامح إحدى قصص الألفاظ البوليسية التى يحتفظ بمجموعة كبيرة منها ويشاركه مستر تامر قراعتها ، رغم أنها باللغة العربية وموجهة للصغار. استلقيت فوق نمرتى وبدأت القراءة ، وإذا بى أسمع ضجة فى الطريقة . خرجت من الزنزانة أستطلع الأمر فوجدت توكل محاطا بعدد من النزلاء وقد بدا الانفعال على وجوه الجميع . وعرفت أن وفدا من الطابق العلوى قد قابل سيادة الضابط إدكو وطلب منه تشغيل التليفزيون ليتمكن النزلاء من مشاهدة مباراة الدورى بين الأهلى والزمالك . ووافق إدكو على وضع التليفزيون فى الطريقة وتأخير التمام ساعتين لهذا الغرض .

بحثت عن شحاتة وزغلول وأبلغتهما النبأ الذى انتشر بسرعة البرق . وخرج نزلاء الزنازين المجاورة إلى الطريقة وعلى وجوههم مظاهر الإنفعال والبهجة . وفوجئت بجارنا الطبيب يحزم وسطه يشال أحمر اللون ويرقص معلنا تأييده للأهلى فصفقت له مشجعا . ورقص زغلول أيضا رغم أنه لا ينتمى لأي ناد .

لم أتمكن من معاودة القراءة ولا من عمل أى شئ . وأخذت أدخل الزنزانة وأخرج منها بلا سبب وفى إحدى المرات رأيت اللبنانى الذى يسكن الزنزانة المقابلة قادما من الزيارة . وكالعادة التف معارفه حوله يسألونه عن الأخبار ويتلقون تعليقاته الطريفة . وسمعتة يقول أنه شهد ثلاثة من أمراء السنية يدخلون للمأمور، وفهم أنهم طلبوا مقابلته بخصوص موضوع التليفزيون .

استولى الوجوم على الجميع . وتطلعت إلى الطابق الثانى بحثا عن الشيخ عصام لكنى لم أر له أثرا . وبعد قليل عرفنا من الدهشـورى أن السنية إحتجوا على تشغيل التليفزيون وطالبوا المأمور بإلغاء قرار إدكو لكته رفض .

قبل التمام بساعة ظهر أحد السجناء فى باب العنبر يحمل جهاز تليفزيون من طراز "جولدستار" الكورى . صفقنا له جميعا وساعدناه على وضع الجهاز مكان المنبر الخشبى الذى يعتليه خطيب الجمعة . كما عاوناه فى تثبيت الإيرىال.

ظهر عدد إضافى من الحراس عند باب العنبر . وتجمع أغلب النزلاء فى الطريقة فوق بطاطينهم . لم يكن الدكتور رمزى بينهم ، فقد فضل البقاء فى الزنزانة و القراءة مما أكد لى أنه شخص غريب . لم يظهر الدكتور ثابت أيضا فلدیه تليفزيون خاص به فى زنزانته . ولزم السنية زنازينهم وارتفعت منها أصوات قراءة القرآن .

كان الجو حارا مرتفع الرطوبة . ورغم ذلك بدا منظر السماء من خلال قضبان السقف رائعا . وتمنيت لو كان عبد الفتاح بجوارى . ثم نسيت كل شئ عندما بدأت المباراة التى سارت فى البداية ببطء و ملل إلى أن بدأ فريق الأهلى يسجل انتصاراته التى توجت بفوزه .

جمّعنا بطاطيننا فى غاغة هائلة وكون نزلاء الطابق العلوى مظاهرة صعدت السلم تلوح بعلم أحمر وهم يهتفون للأهلى . والتف مؤيدوه وأنا منهم حول الطبيب الذى استأنف الرقص وهو يسخر من أنصار الزمالك .

بدأ التمام وانصرف الجميع إلى زنازينهم . كنا فى حالة غير طبيعية نضحك لأى سبب رغم الجو الخانق . إستعدنا وقائع المباراة عدة مرات وإمتد بيننا الحديث لساعة متأخرة و تطور إلى شجار بين عزت بدوى و أبو السباع الذى كشف عن تأييده للزمالك . وعجبت كيف أن رجلا فى سنه وخبرته بالحياة يعجز

عن اختيار الفريق الأفضل . وانقسمت الزنزانة إلى فريقين أيضا عدا مهندس الألومنيوم والدكتور رمزي . وتوتر الجو عندما هاجم أبو السباع حكم المباراة الأجنبية واتهمه بالتحيز للأهلي . وقال أن الزمالك يلعب جيدا - لكن كان هناك اتفاق سري على أن يخرج الفريقان متعادلين دون نقاط استعدادا لمباراة الكأس ، وأن الأهلي خرق الاتفاق . أثارنا هذا الاتهام وأوشك عزت بيه أن يمسك بخناق أبو السباع لولا تدخل توكل .

لم يتبدد التوتر الذي خلقتة المباراة في الصباح . إنتظرنا الصحف في لهفة لنقرأ التعليقات الرياضية . وكانت زنزانتنا تحصل على صحيفتين يوميتين بشكل منتظم واحدة لعزت بيه والثانية للدكتور رمزي . وفي العاشرة وصلت الصحيفتان وكانت إحداهما تحمل في صدر صفحتها الأولى عنوانا كبيرا : "ضربة أمنية كبرى" . قرأ لنا عزت بيه النبأ بصوت مرتفع : "في مطاردة داخل جبل سمالوط بمحافظة المنيا لقي اثنا عشر إرهابيا مصرعهم وكانوا قد اشتركوا في اغتيال عشرين مواطنا ورجل شرطة ، وعثر بحوزتهم على تسعة مسدسات وبنادق آلية ومائة وخمسين كيلو جراما من الديناميت ومائة من البارود الأسود وقنابل مجهزة للتفجير وكميات ضخمة من المسامير مختلفة الأحجام وعبوات فارغة معدة للنها بالمواد المتفجرة وعدد من الدراجات البخارية وخرائط ورسوم كروكية لعدد من الأهداف والمنشآت الشرطية" .

انفرد كل من عزت بيه والدكتور رمزي بصحيفته وحاولت أن آخذ من الأخير الصفحة المخصصة لأخبار الرياضة لكنه رفض . كان يحب أن يمسك بالصحيفة كاملة ويقلب صفحاتها على مهل ويتوقف طويلا عند بعض الأخبار والإعلانات . انتظرت حتى فرغ من القراءة وناولني الصحيفة . قرأت التعليقات الرياضية ولم أجد بها إشارة إلى اتفاق ما بين الناديين وإن كان أحد

المعلقين عدد بعض القرص التي أضاعها لاعبو الزمالك دون مبرر ، وكان إلى جانب التعليق نبأ عن نشاط السنية في محافظة المنيا . إذ اقتحم أربعة منهم بنك التنمية والائتمان الزراعى فى إحدى قرى مركز أبو قرقاص وأطلقوا الرصاص على أسقف وحوائط البنك لإرهاب الموظفين و العملاء الذين انبطحوا أرضاً أسفل المكاتب ، ثم انتزعوا الخزينة وفروا بها داخل سيارة كانت تنتظرهم على مقربة .

أعجبتنى جرأتهم وذكرت الخبر لتوكل الذى غمغم : ولاد الجنية . بحثت عن الشيخ عصام فى الطابور لأعرف إذا كان قد قرأ الخبر لكنى لم أراه بين السنية الذين تجمعوا فى ركن الفناء وانهمكوا فى نقاشات حادة . ومالبثنا أن عرفنا أن سجيناً بالطابق العلوى سب واحداً منهم أثناء نقاش حول تشغيل التليفزيون .

ظهر الشيخ عصام فى مدخل زنزانتنا مع أذان العصر . إنفلت داخلًا وإنزوى فى ركن توكل الذى لم يكن موجوداً . كان منفعلاً ، ورفض أن يجلس . انتقلت إلى جواره فأسر إلى أن أميرهم أصدر فتوى بإهدار دم ثلاثة من السجناء بينهم السجين الذى سب السنى فى الصباح .

تطلعت إليه غير مصدق وقلت : جد ؟

قال : طبعاً جد . كان لازم تشوف الأخوة وهم يببوسوا إيده عشان يسمح لواحد منهم بشرف التنفيذ . حيدخل الجنة لو القتل تم بخمس طعنات ورا بعض .

خطر فى بالى على الفور أن أحاول الإتصال باديكو لأنقل إليه هذا الخبر الخطير . لكن السنية كانوا أسرع منى .

كنا نستعد للخروج إلى الفسحة حين سمعنا فجأة ضجة في أحد الطوابق العليا وأصوات صياح و صفافير ثم أقدام تجرى ، وصاح فينا الحارس أبو حسين على الفور :

- إرجع زنزانتك إنت وهو . بسرعة .

رأيتہ يدفع نزلاء الزنزانة المجاورة داخلها بما فيهم النوبتجي الذي كان غطى رأسه بطاقية حمراء . وكان بينهم صاحب قرن ضخمة الجثة يمرمن فتحة الباب بصعوبة . وتابعت محاولات أبو حسين لإدخاله الزنزانة . وضحكت وأنا أراه يكاد يحمله حملا ممسكا بقلقتي مؤخرته الضخمتين ، جاء دورنا فدفعنا إلى الداخل وأحصى عددنا في هرولة ثم أغلق علينا الباب دون أن يحفل بالرد على استفساراتنا وانتقل إلى الزنزانة التالية . وكان حارس آخر يقوم بالمثل على الناحية المقابلة .

إنصرف الحارسان بعد التمام فقفز توكل إلى شراعة الباب وهو يلف جسده ويثنى ركبتيه بحيث استقر في فتحتها مستندا بظهره إلى جدار وبقدميه إلى الجدار الآخر الذي ركب فيه الباب ، نادى على الحارس فلم يعبأ بالرد عليه . وقفت تحته وأحنيت رأسي لأضع عيني على النظارة . مدت إصبعي فأزحت غطاها لكنى لم أر شيئا . كانت أصوات الصياح والشتائم تصلنا بوضوح من المطابق العلوى لكننا لم نتمكن من تمييزها وتبين ما يجرى . ومالبث مساجين العنبر كله أن شاركوا في الهيصمة بالدق على الجدران والدلاء .

نوى فجأة صوت جهورى كالرعد في مدخل العنبر غطى على الضجة :

انتباه .

أدركنا أن ضابط العنبر أو المأمور وصل . ساد الصمت لحظات ثم علت الضجة من جديد : وسمعنا صوت أقدام تجرى على السلم . لمح توكل

الدهشوري فناداه لكن هذا - لم يحفل به . ورأيناه بعد قليل يتحدث مع نوبتجى الزنزانة المقابلة الذى تعلق بنافذة بابها مثل توكل ثم انصرف بسرعة .

صاح توكل فى النوبتجى يسأله عما حدث فقال أن جماعة من السنية هاجموا زنازين الطابق العلوى وانهاالوا على سكانها ضربا بالأسلحة البيضاء والمطاوى وقطع الأخشاب وحنفيات المياه .

غمغم توكل فى إنفعال : ولاد الجنية .

نادى على ماكس ليشعل له سيجارة وعندما شرع الأخير فى قطعها نصفيين صاح به أن يعطيها له صاحبة .

ذكرت ما قاله لى الشيخ عصام و استمع لى توكل باهتمام ثم ردد :

- ولاد الجنية . يكونوا حيطبقوها .

لم أفهم ما يعنيه وأنصتنا لأصوات الصياح والضرب . ترددت صيحات الحراس وأوامرهم بوقف القتال دون جدوى . وفجأة دوى صوت بوق بطريقة معينة وعلق توكل :

- نفير الكيسة .

، أضاف أبو السباع : الحراسة من حقها الوقت تضرب فى المليون .

نوت يضع طلقات قال توكل أنها خارج العنبر . توقفت الضجة لحظة ثم اشتعلت من جديد . انطلقنا نتكلم جميعا فى وقت واحد ونحن نحاول إستخلاص حقيقة ما يجرى . وتعب توكل من تعلقه بنافذة الباب فهبط وصعدت مكانه .

سألنى توكل من مجلسه فى الركن : شايف حاجة ؟

أجبت بالنفى . كان مجال رؤيتى يمتد من قاعدة السلم المؤدى إلى الطوابق العليا على يمينى حتى الحائط الذى تنتهى عنده الطريقة على يسارى .

وكانت المطرقة خالية وقد تناثرت فوق أرضها شباشب وأحذية وأكواب معدنية ومواسير حديدية . ولم أتمكن من رؤية شئ فى طابق السنية الذى يعلننا . فلم يظهر منه سوى جانب من قضبان السور الحديدى الذى يحيط به .

سمعت توكل يقول : فاكريا أبو السباع . السنة التى فانت لما خطفوا ضابط وأخذوا سلاحه وحجزوه فى زنزانة ؟ دول ولاد جنية . قعدوا يتفاوضوا مع الإدارة طول الليل لغاية ما وافقت على كل اللى طلبوه .

قال أبو السباع : أنا حضرتهم فى اليمان لما مسكوا السجن ومحدث قدر يعمل لهم حاجة لغاية ما جت القوات الخاصة التى بتلبس أسود ورمت عليهم القنابل المسيلة للدموع . تعرف عملوا إيه ؟ ملوا جرادل مية وأول ما قنبلة تدخل الزنزانة يلقفوها على طول ويرمىها فى المية فيطفوها .

غمغم توكل : ولاد جنية .

قال أبو السباع بأسف حقيقى : وفى الآخر سلّموا .

- تفكر يحرقوا السجن ؟

قال توكل : دول يقدرنا يعملوا أى حاجة .

علق سامح : يمكن عايزين يهربوا .

قال : مفيش حاجة تعصى عليهم . لما كنت فى سجن بنى سويف الأمير بتاعهم هرب بمنتهى السهولة . تعرف عمل إيه ؟ لبس هدوم واحدة منقبة جابوها فى الزيارة وخرج مع الزوار .

جاءنا صوت غريب من خارج العنبر أخذ يعلو بالتدريج مقتربا منا . وتبينت فيه بعد لحظات صيحة جنود الأمن المركزى المعروفة : "هوه . هوه . " . وتردد نباح كلاب ثم لمحت من طرف النافذة جنديا فى ملابس سوداء متحصنا بدرع بلاستيكى .

صحت : أهم وصلوا .

انتشر الجنود فى الطريقة مكونين صفين متقابلين . ودوت إنفجارات عاصفة فوق رؤوسنا مباشرة وملاً الدخان العنبر . وتلا ذلك أصوات تكسير وتحطيم وإنهالت أكوام من الكتب والعلب المحفوظة والبطاطين والأحذية وسط الطريقة .

التهبت جفونى وتابعت بعينين دامعتين حوالى عشرة من السنية يجرون بين صفى الجنود الذين انهالوا عليهم بالهراوات الكهربائية حتى وصلوا إلى نهاية الطريقة . أجبرهم الجنود على العودة فواصلوا الجرى والهراوات تنهال على رؤوسهم وظهورهم كيفما اتفق . وقبل أن يصلوا إلى قاعدة السلم أمرهم الجنود بالجلوس على الأرض ووجوههم إلى الحائط واستأنفوا ضربهم ثم سحبوهم على الأرض والدماء تنزف منهم إلى خارج العنبر .

ظهرت مجموعة جديدة من السنية تجرى بين صفى الجنود . وتكررمعها ما جرى مع المجموعة الأولى . وأحصيت ست مجموعات مماثلة قبل أن يتوقف التأديب ويسود الهدوء . وفجأة سمعنا صوت فتح زنزانة فى طابقنا ، وصاح صوت أمر : انتباه .

جذبنى توكل إلى أسفل وصعد مكانى ثم هبط مصفر الوجه :

- تفتيش .

أخذ يقلب فى حاجياته بسرعة ويتبادل الهمس مع ماكس بينما بدا التوتر على الدكتور رمزى وشحبت وجوه الآخرين . الوحيد الذى احتفظ برباطة جأشه هو مهندس الألومنيوم الذى لزم ركنه ودفن رأسه فى المصحف كأن الأمر لا يعنيه . وضع توكل شيئاً فى فمه وإكتشفت بعد ذلك أنه نصف

موسى وضعه لصق خده . وناول ماكس أنبوبة رفيعة ملفوفة بورق السوليفان . وعلى الفور قرفص وفك الشورت الذى يرتديه وأنزل الكيلوت ودرس الأنبوبة فى مؤخرته .

راقبت الدكتور رمزى فى إهتمام . أخذ يتحسس كيسه البلاستيكي فى إرتباك ثم وضعه داخل بطانية طواها على شكل وسادة وعاد فاستخرجه ودسه فى صدره .

أرهقنا السمع للأصوات القادمة من الخارج . كانت تقترب منا إلى أن أصبحت عند الزنزانة المجاورة . وساد السكون بضع لحظات وفجأة إصطدم المفتاح بقفل بابنا وفتح فى حركة واحدة وبوت الصنيحة المعهودة :
إنتباه .

اعتدلنا واقفين فوق نمرنا . كان الذى فتح الباب هو الشاويش عبد الغفار الذى اشتهر بشاويش التأديب إذ كان له تاريخ حافل بالاعتداء على المسجونين وكان معه الشاويش بعجر وعدد آخر من الحراس لم نرهم من قبل . وخلفهم ظهر إدكو مختالا بمشيته المشهورة .

اقتحم الحراس الزنزانة فى سرعة وانتشروا فى أرجائها يقلبون النمر ويرفعون البطاطين ويهزونها ثم يلقون بها جانبا ويبعثون صناديق الطعام ثم يفتشون الأشخاص :

تطلعت ناحية إدكو لكنه تجاهلنى تماما ووقف فى مدخل الزنزانة يتابع ما يجرى ويده فى خاصرته .

ناول الحارس الذى فتش نمره توكل علبه شاى لعبد الغفار فقدمها هذا لإدكو الذى ألقى بها فى صندوق كرتون أحضره الحراس معهم . ولحت الحارس يستدير بجسده ليحجب يديه عن نظر إدكو . ورأيته يعيد لتوكل

علبة الصفيح التي يحتفظ فيها بأقراصه . ولاحظت أن هذه الحركة لم تغب
عن عبد الفغار .

انتقل الحارس بعد ذلك إلى ماكس ثم مستر تامر . وعندما أراد أن
يأخذ صندوق سكرابل احتج صاحبه .

تدخل إدكو : متخفش عليه . حنطه في أماناتك . لما تيجى تخرج
تبقى تأخده .

أشار بيده فوضع الحارس علبة سكرابل في صندوق الكرتون . و أتبعها
بالشطرنج ومروحة قاسم بيه التي تركها لمستر تامر وعلب الكبريت وصندوق
الكولمان . .

احتج مستر تامر مرة أخرى فأوضح إدكو بلهجة ساخرة :

- التعليمات اللى عندنا إننا نمشى باللايحة . ولايحة السجن لافيه
سكرابل ولا فيها كولمان .

فقدنا طاولة خشبية تلقاها عزت بيه قبل أسبوع وتبعثها الكوتشينة
وقصص الألفاز . ولم ينج سوى المصحف الذى كان يمسك به مهندس
الألومنيوم .

جاء النور على الدكتور رمزي . انحنى الحارس على نمرته وفتشها بدقة
ثم اعتدل واقفا ومر بيديه على ذراعيه وسيقانه وظهره . استخرج الكيس
البلاستيكي من صدره وناول إدكو .

قال الدكتور : دى أوراق شخصية .

تناول إدكو الكيس وألقى به في صندوق الكرتون دون أن يحفل بالرد .

قال الدكتور : دى مذكرات يكتبها عشان الدفاع بقاى . اللايحة
ممنعهاش .

رد إيدكو دون أن ينظر إليه : الى مش ضد اللايحة حنرجعه .

لم يستغرق تفتيش أبو السباع وأنا بعده غير دقائق ثم غادر الحراس الزنازة . وانهمكنا فى إعادة ترتيب نمرنا وحاجياتنا التى تبعثرت فى أنحاءها . وعندما إنتهى تفتيش الطابق واطمأنينا إلى خروج الضابط والحراس صعد توكل إلى شراعة الباب ليأتى بأخر الأخبار . عرفنا أن المعركة التى دارت بين السنية و السجناء ، و بينهم و بين الحراس أسفرت عن ثلاثة من القتلى وحوالى المائة من المصابين والجرحى .

كان نومنا قلقا غير منتظم ضاعفت منه الحرارة والرطوبة . وعندما استيقظنا سأل عزت بيه صاحب العمارة عن سر التأوهات التى كانت تصدر منه أثناء النوم فقال أنه تعرض لكابوس . سألته عن طبيعة الكابوس قال بصوته الأخف : كنت باحلم أنى نائم مع مراتى .

لم يفتحوا لتوكل كى يخرج قبلنا كالعادة . وتأخر فتح الزنازين فأخذنا نندق على الباب كى نذهب إلى المراحىض . وفتحوا علينا قبل الظهر بقليل . كان الحارس هو صبحى ذو الصوت المبحوح الذى لقبناه بأسحب الفجل فى عنبر الميرى . وعرفنا منه أن بعض المصابين نقلوا فى الفجر إلى مستشفى القصر العينى كما نقل قادة السنية إلى عنبر التأديب ووضعوا فى زنازين منزوعة البلاط أغرقت بالمياه . أما الباقون فى العنبر فقد طبقت عليهم أقصى درجات التكدير فلم تفتح زنازينهم إلا واحدة واحدة ولمدة خمس دقائق فقط وأجبروا على إخراج نمرهم ووضعها فى الطرقة والبقاء على الأرض طول اليوم حتى موعد التمام كما منعت عنهم الأطعمة والزيارات وصودرت متعلقاتهم الشخصية ولم يسمح للواحد منهم بغير حذاء و منشفة .

شملت إجراءات تطبيق اللائحة منع بيع السكر فى الكانتين حتى لا يستخدم فى عمل الشاى فى الزنازين لأن إشعال النار ممنوع . ولهذا السبب أيضا منع التدخين داخل الزنازة لئلا كما حددت كمية السجائر التى يمكن شراؤها من الكانتين بحيث لا تزيد عن ثلاث علب فى الأسبوع .

طلب عزت بيه من الحارس أن يذهب إلى الكانتين ليشتري سجائر لأن سجائره نفذت فأخبرنا أن الكانتين مغلق بسبب التكدير . وهنا وعده توكل بأن يحل له المشكلة بعد القمام . وأبرز توكل نفوذه . فلم تمض ساعتان إلا وأحضر له أبو حسين كوبا كبيرا من الشاى تناوله من نافذة الباب شربه باستمتاع دون أن يبالى بأحدمنا ولا حتى بماكس .

استدعى الدكتور رمزى لمقابلة إدكووعاد حاملا كيس أوراقه كيسه البلاستيكى . انزوى فوق نمرته وأخذ يتصفح محتويات الكيس إلى أن اطمأن على أوراقه .

سأله : كله تمام ؟

فوجئ بسؤالى وقال : آه ، تمام .

شعرت بلذة غريبة . كنت الوحيد بين النزلاء الذى يعرف ما حدث لأوراقه . وفكرت أن ذلك قد يعنى انتهاء مهمتى . ووجدتنى أسف على ذلك . انتظرت أن يستدعيني إدكو ليخطرني بما يجب عمله . لكنه لم يفعل أبدا . فبعد يومين نقل إلى سجن قنا . وسمعنا أن لجنة تحقيق من مصلحة السجون إعتبرته مسئولا عما حدث لأنه سمح بتشغيل التليفزيون . دفعنى هذا إلى التفكير فى سبب تصرفه وعما إذا كان تعمده ليتمكن من وضع يده على أوراق الدكتور رمزى بطريقة لا تثير الشك .

علق توكل على نقل إدكو قائلا : الدور ع المأمور . تلاقية الوقت بيرعش .

قال زكى عز : وهو ذنبه إيه ؟

أجاب توكل : هو المسئول عن الضبط والربط .

حل محل إدكو ضابط آخر برتبة رائد اشتهر بالقسوة وعرف باسم "خضرة" ؛ فقد كان له شعر مجعد بقصة وأظافر لامعة مصقولة منمقة ووجه يخلو من الشعر وصوت رفيع حاد . وكانت ملابسه العسكرية أنيقة والمدنية من أقمشة فاخرة وتتبعث منه دائما رائحة العطور الغالية . وعلق الدكتور رمزى على شخصيته قائلا أنه خجول و يخفى خجله بالصراخ وأوامر الضرب .

نفذ توكل وعده بعد التمام قبعت بحارس الليل إلى سجين بالطابق العلوى محكوم عليه بالإعدام فى قضية تجسس لإسرائيل يدعى مصطفى . وكان ينتظر تنفيذ الحكم منذ سبع سنوات ويتمتع بمجموعة من الإمتيازات تعطى للمحكومين بالإعدام ومنها حصة مجانية من السجائر على حساب المصلحة . لم يكن يدخن فتاجر فيها وأصبح يبيع الخمس منها بسبع ارتفعت طبعاً بسبب الظروف إلى تسع .

حرمنا من الطابور لمدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع أبلغنا الضابط خضرة أننا سنخرج لمدة ربع ساعة فقط . وعندما هبطنا إلى القناء فوجئنا بالمأمور جالساً فوق مقعد وضع فى الظل وقد مد ساقيه أمامه . كان يرتدى قميصاً كاكيا بكمين قصيرين على كتفیهما النجوم الدالة على رتبته ويغطى عينيه بنظارة شمسية من طراز " فريرى " ذى الزوايا الغريبة .

التفت المأمور ناحيتنا ثم أشار إلينا بغليونه أن نقترّب . قائدنا الحارس

إليه وأدى التحية العسكرية .

تجاهله المأمور وخاطب الدكتور رمزي :

- إزيك يا رمزي ، عاملين إيه ؟

كان لمخاطبة الدكتور رمزي باسمه الأول هكذا نون لقب الدكتور وقع غريب على أذنى . لكنه لم يهتم و سارع بالرد :

- تعبانين يا باشا . حنتخفق من قفلة الزنزانة طول النهار . الدنيا حر و عددنا كبير . ثم إحنا ملناش ذنب فى اللى حصل .

- السجن كده يا رمزي . الغلط يحط الكل .

قال الدكتور : سيادتك إحنا محرومين من كل حاجة . من لعب الرياضة ومن المكتبة ومن الكانتين . مش عارفين نشرب كباية شاي . ولا عارفين نتسلى ..

- ليه ؟ مبتحكوش حكايات ؟

- حكينا لما قلنا يابس .

- مبتلعبوش حاجة ؟

- ما انتو أخذتم منا كل حاجة فى التفتيش .. الشطرنج والطاولة .

- كان عندكوا كمان سكرابل . أنا وريتها للمدام وعجبتها خالص .

سارع مستر تامر قائلا : يا باشا اعتبرها بتاعت سيادتك . ع العموم أنا فى أول زيارة حايت أجيب واحدة جديدة لسيادتك .

قال المأمور : المدام تعرف لغات وتحب تتسلى .

سكت لحظة كأنما نسي الموضوع الذى كنا نتحدث فيه ثم قال : العبوا

استغماية . ونظر إلى فجأة ثم خاطبني قائلا : مش إنت بتاع بطشة ؟

إندفعت الدماء إلى وجهى وأجبتة : أيوه يا باشا .

سألنى : تعرف تلعب صلح ؟

لم أصدق أذننى . كنا نلعب هذه اللعبة ونحن صغار فيقف أحدهنا معطيا ظهره لنا ويغمض عينيه ويعقد ساعديه بحيث يبسط إحدى كفيه أسفل كتفه ثم ننهال على كفه بصفعاتنا ويتعين عليه أن يعرف من الذى ضربه .

قلت فى تردد : أعرف سعادتك .

انفجر ضاحكا و حرب : هل أضحك معك وعلى ماذا ؟ وخطر ببالى أنه يعرف بأمر علاقتى بأكو وانتظرت أن تبدر منه إشارة لكنه لم يفعل .

كف مرة واحدة عن الضحك وتحول للدكتور رمزى : إنت لسه عاوز تعمل مسرح ؟

قال الدكتور : ياريت .

قال المأمور : ومين اللى حيشترك معاك . كلهم هنا بهائم . وأشار بيده إشارة شملتنا جميعا بما فينا الدكتور .

فتح فمه ليورد فاستوقفه المأمور : لا . مسرح لا . وسكت لحظة ثم قال :

- على العموم أنا بفكر نعمل حفلة . عاوز أغير الجو اللى فى السجن . ستة أكتوبر داخل . والمصلحة عاوزانا نحتفل .

وفجأة فقد اهتمامه بالحديث وحدث فى حذائه . وقبل أن أحدد نوعه أشار للحارس كى يصرفنا قائلا : زود لهم الطابور نص ساعة .

إستدعى الدكتور لمقابلة المأمور بعد الظهر وغاب لديه حوالى الساعتين وعندما عاد بدا منفعلا .

قال : من بكره الطابور حيرج زى الأول .

بدا الضيق على توكل الذى يمثل حلقة الصلة بيننا وبين إدارة السجن. سألته فى لهجة عدائية : و السكر والسجاير ؟

أجاب الدكتور : الراجل وعدنى إن كل حاجة ترجع زى ما كانت لكن بالتدريج . بشرط نساعدده فى الإحتفال بستة أكتوبر .

- نعمل إيه يعنى ؟

- هو كان عاوز حد يغنى . قتلته أبو السباع صوته يجن . وكمان عاوز يعمل مسابقات فى الورش ويوزع جوائز من الترفيه . وحاجات زى كده .

قلت : نبطشى الزنزانة اللي جنبنا بيغنى صعيدى حلو .

- قتلته نعمل كمان مسرحية . الراجل مقالش لا . إنما قالى حتجيب ممثلين منين و عاوزين مخرج . قتلته أنا المخرج وحجيب الممثلين .

- إنت تعرف تخرج ؟

- شوية .

انطلقت التعليقات الساخرة . قال توكل مقلدا أغنية قديمة : مدام مخرج تنكرليه ؟

وعلق رمضان بخبث : سبع صنایع .

لزم الدكتور الصمت ولم يستجب للاستفزازات . وبعد العشاء لجأ إلى أوراقه ثم وضعها جانبا وشرد . لاحظت أنه يتأمل وجوه زملائنا فى الزنزانة واحدا واحدا . ثم سألنى عن نزلاء زنزانه عبده والزنزانه التى كنت فيها فى عنبر الميرى . حكيت له عن الولد الفلسطينى الذى أعدموه عدة مرات وعن سامى عازر والصورة التى يحتفظ بها فى الإنجيل وحسن بكبورت والهرش

الذى عانى منه وبطشة وخلافه مع سوزوكى وعم جابرالذى دخل بالأتوبيس فى المحطة وسامبو الذى قتل زوج عشيقته وعم فوزى الذى قتل ابنة أخته ويقضى الوقت فى عمل عرائس على شكلها وهيئتها . ويلحة وزميله الذى بدأ حياته بسرقة علب الصلصة ومجاهد الذى نشرت الصحف قصته تحت عنوان ضاعت القيم وجاء الحقد .

كان يستمع إلى شاردا ثم انفعل فجأة وسألنى أن أصف له العرائس التى يصنعها عم فوزى وكيف يصنعها . قلت له أنه يجمع كل ما تقع عليه يديه من فضلات أثناء عمله فى الخدمة ، من خرق قماش وقش وورق جرائد وعلب كرتون . كل شئ وأحياناً يسرق القطن من العيادة . وإذا لم يجد قطناً حشا العروسة رمل .

قال : تعرف أرشميدس الى قال وجدتها ؟

قلت : سمعت عنه .

قال : أنا كمان وجدتها .

-إيه هى ؟

- عمك فوزى . هو لسه هنا ؟

- أنا لسه شايفه من يومين . كان بينضيف الحوش . ليه ؟

- كان بياخد وقت قد إيه فى عمل العروسة ؟

حاولت أن أتذكر : ليلة أو ليلتين . على حسب .

قال : تعرف أنا فكرت فى إيه ؟ . عمك شفت مسرح عرايس ؟

قلت أننى ذهبت مع تلاميذ المدرسة مرة من عدة سنوات إلى مسرح العرائس فى العتبة .

قال : نعمل واحد .

سألته فى استغراب : هنا ؟

قال فى حماس : أهو ورشة النجارة موجودة . وعندنا ترزية كمان .
وعم فوزى . مش كان معاكم عامل صباغة ؟

قلت : أيوه . سامى عازر .

قال : المأموريجيلنا القماش وإحنا نخيطه ونصبغه فى المطبخ بالألوان اللى
تعجبنا . نقدر نلون الوشوش بأقلام الفلوماستر أو بهباب الحل والطباشير .
ويجيلنا كمان قش وكرتون . نقدر كمان نعمل حاجات كتير من الورق
المفضض . وناخد كذا بدلة من بدل العساكر والسجانة .

سكت وأمسك بورقة وقلم وكتب بضعة أسطر ثم وضع طرف القلم بين
شفتيه و حدق فى السقف . وأخذت أتأمله شاعرا أنه غير طبيعى بالمره .
التفت إلى وقال وهو يقرأ من الورقة : شوف يا سيدى . حنعوز اتنين
تلاتة جدعان زيك يعرفوا يقرأوا كويس . واتنين تلاتة تانين عشان
يحركوا العرايس . ممكن واحد بس . وساعة منعرض ناخد كرسى والا
اتنين من كراسى المعوقين اللى فى المستشفى و نركب كشافين والا تلاتة
من كشافات الحراسة .

قلت : ومين اللى يخرج ؟

نظر إلى وقال : أنا . مش مالى عينك ؟

قلت . مش قصدى . إنت تعرف ؟

قال : مش قللتك أنا كنت بأمثل فى المدرسة ؟

- هو اللى يمثل يقدر يخرج ؟

أجاب فى ضيق : أنا كمان اشتريت فى الإخراج .

تردد لحظة ثم أضاف : فى الكنيسة .

شرح لى أن كل الكنائس تحتفل بعيد القيامة قبل شم النسيم بتمثيل
قيامه المسيح . فتظلم الكنيسة وتنشد التراتيل التى يرددوها الكورس
والحاضرون ثم يسود الصمت ويدق القسيس باب الهيكل خلفه عدة مرات
يعنف قائلاً : " افتحوا الأبواب ليدخل ملك المجد " . وعلى الفور تفتح
أبواب الهيكل وتضاء الكنيسة فى نفس اللحظة فتنطلق الزغاريد وتبدأ
الأناشيد ..

قسيس الكنيسة بتاعتنا فى بورسعيد كان عجوزو مدهول . عمره ما
عرف يخرج المشهد مذبوط . ساعة ما يخبط و يزعق ويقول افتحوا الأبواب
ليدخل ملك المجد يتهيا له أنه حيدخل حقيقى . فتجيله حالة ذهول وينسى
يولع النور . أبويا الله يرحمه قاله ماتخلى رمزى يساعذك . بقيت أقف جنبه
عشان أولع النور فى اللحظة المناسبة .

- وده يعملك مخرج ؟

قطب جبينه : لا . تقدر تقول مساعد مخرج .

شعرت أنه غضب فسكت .

القسم الثانى

(١٤)

أوراق رمزي بطرس نصيف (القصصات)

★★ فقرات تتخللها خطوط بقلم أحمر من عرض كبير بإحدى الصحف اليومية لمحاكمة قاسم بيه وزميلين له ، أحدهما وكيل وزارة الصحة ، في قضية الأغذية الفاسدة المستوردة :

.. بعد أن واجه رئيس المحكمة المتهمين بالتهمة الموجهة إليهم ، طلب الدفاع الإفراج عنهم بدعوى أنهم مرضى ومن على القوم وطلب التأجيل .

رد الإدعاء بأن مبررات الدفاع واهية وعدم الإفراج من مصلحة مصر التي تفتقر حكاما رادعا ، وطلب استمرار حبسهم خشية هروبهم خاصة و المنافذ كثيرة وبالاتصالات والنفوذ قد يتمكن بعضهم من الهرب إلى خارج البلاد .

.. نودي على شهود الإثبات فتقدم ممثل الرقابة الإدارية . وبعد أن حلف اليمين سأل المدعى عن معلوماته فقرر أن المتهمين عرضوا عليه شيكا بمليون دولار مقبول الدفع يوضع باسمه في أى بنك في العالم .

سأل المدعى : وماذا كانوا يريدون منك ؟

” - لفلفة الموضوع .

- ماذا تقصد ؟

- لازم أحكى الحكاية من الأول .

- تفضل .

- فى ٣٠ يناير ١٩٩١ وصلت إلى ميناء الأسكندرية سفينة بنمية اسمها تروبيكا قادمة من أمريكا وعلى متنها ٨ رسائل من الكبدة عددها مائة ألف و ٣٨٥ كرتونة ، رسالة واحدة من الكلاوى بعدد ٤ آلاف و ٨٠٩ كرتونة . صرح لها بالدخول بعد عشرة أيام بضمان معامل وزارة الصحة بالأسكندرية ونقلت بالكامل فجر اليوم التالى إلى الثلاجات . بعد ثلاثة شهور وردت إلينا شكاوى تفيد احتواء هذه الرسائل على مادة B . C . B . السرطانية السامة . سحبت الرقابة عينات من الرسائل الباقية فى الثلاجتين وأرسلتها إلى معامل وزارة الصحة التى تعطلت فجأة . تحفظنا على الشحنة . لكنها تسربت إلى الأسواق .

سأله المدعى : وكيف تسربت ؟

هو كتفيه وضحك : سيادتكم تعرف كيف تسير الأمور .

قال المدعى فى صرامة : لا .. أنا لا أعرف شيئاً .

- إذن أنت لا تعيش فى هذه البلد .

- المتهم قرر فى التحقيقات أنه التزم بالمواصفات القياسية .

- المواصفات القياسية الخاصة بالكبدة المجمدة تنص على وجوب تخزينها فى درجة حرارة لا تزيد عن ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر فى رطوبة نسبية لا تقل عن ٩٠ بالمائة على ألا تزيد فترة التخزين على أربعة شهور منذ بدء التجميد حتى فترة الاستهلاك . لكن فى فبراير أى بعد وصول الشحنة بأيام أرسل وزير الصناعة مذكرة إلى كافة الإدارات تطلب مد فترة صلاحية الكبدة إلى ٧ شهور بدلاً من ١١٤

- نودى على الشاهد الثانى فأدلى باسمه وحلف اليمين .

سأله المدعى : أنت مدير معمل أغذية بورسعيد التابع لوزارة الصحة؟

- كنت .

- قصدك إيه ؟

- المعمل تمت تصفيته وجرى توزيع العاملين به على المستشفيات .

- لماذا ؟

- لا أعرف .

- ماذا تعرف عن نشاط المعمل قبل التصفية ؟

- ضبط فى ثلاثة شهور أغذية فاسدة قيمتها تزيد على ٢ مليون جنيه . كما تم

إعدام صفقة بن مطحون تقدر ب ٢٢٢ طنا وصلت قيمتها إلى مليونى جنيه .

- ما رأيك فى أن المعمل أفرج فى أغسطس ١٩٩٢ عن شحنة من

اللحوم المجمدة مستوردة من ألمانيا تتكون من ٢٤ طنا قيمتها ٥٠ ألف جنيه وهى

غير صالحة للاستهلاك الأدمى . وأنه أفرج عن أربعة آلاف طن من الأسماك

المجمدة قيمتها ستة ملايين من الجنيهات وتبين من العبوات أنها منتهية

الصلاحية . وأنه أفرج فى بداية ٩٢ عن خمسة أطنان شيكولاته باللوز باسم

ناتوكا ثم اتضح إنها غير صالحة للاستهلاك إذ كان التاريخ الحقيقى

للإنتاج مختلفا أسفل البطاقة المصقة عليها . كما أفرج عن رسالة لحوم

فاسدة مستوردة من أيرلندا على أنها غذاء للكلاب وعبئت فى ٥٦٨٠ كرتونة

وأخفيت بثلاجة ثم ظهرت فى الأسواق على أنها صالحة للاستهلاك الأدمى .

- لا أعرف . وفيما يتعلق بغذاء الكلاب الأيرلندى فقد تنازل المستورد عن

الكمية لوزارة التموين مقابل حفظ الموضوع و تولت الوزارة توزيعها على

المجمعات .

- بصفتها غذاء للكلاب ؟

- كلاب إيه يا سعادة البيه . دى كانت بتتباع فى الأحياء الشعبية .

.. استدعت المحكمة شاهدا من معامل وزارة الصحة وبعد حلف اليمين

سألته :

- ما هى قصة الجبن الفلمنك الهولندى " إيدام " ؟

- فى مارس ١٩٩٣ رفضت معامل وزارة الصحة كل رسائل الجبن إيدام

الهولندى التى يجلبها المتهم لتلوثها بميكروب الليستريا LISTERIA SP.

العدو الأول لمنتجات الألبان و الذى عرفه العالم ١٩٨٥ عندما أدى إلى حالات وفاة

جماعية فى الولايات المتحدة وسويسرا وفرنسا . تم استثناء رسالتين من الفحص

والإفراج عنهما بسبب انقطاع المياه عن معامل التحاليل ببورسعيد رغم بقائهما

لمدة ١٥ يوما . ثم ضبطت الكمية بعد توريدها إلى معسكر الأمن المركزى فى

بورسعيد و تسمم ١٠ آلاف جندى و تبين تواطؤ مسئول التغذية بالأمن المركزى .

وحضر وفد من هولنده يمثل الشركة المنتجة وتأكد أن وسائل الكشف هى المتبعة

عالميا . وتدخل الملحق التجارى الهولندى فاقترح أخذ عينات مكمله من الرسالة

وتحليلها فى معامل محايدة وتدخل السفير الهولندى لدى وزير الصحة لدعم هذا

الاقتراح . تم إعادة الفحص بواسطة خبيرة فرنسية من معهد باستير فأوصت

برفض إحداها مع السماح بالإفراج عن الرسائل الباقية . وللحق فان مديرية

الصحة بالأسكندرية قدمت تقريرا بأن الأغلفة الخارجية للجبن وهى ما زالت

داخل الحاويات بها بعض الفطر الأمر الذى يجعل فحصها دون جدوى بل كان

المفروض ألا يسمح بدخولها. أصلا.

وكان الشاهد التالى طبيبا متخصصا فى علوم التغذية وجه إليه الإدعاء

السؤال التالى :

- ما معلوماتك عن ميكروب الليستريا ؟

- هو أخطر ميكروب فى عائلة تضم ست سلالات لأنه يسبب إجهاض السيدات نتيجة موت الأجنة كما يؤدى إلى التهابات حادة بأغشية المخ وإلى الإلتهاب السحائى و يتحمل درجات حرارة مرتفعة مثل درجة بستره اللبن وينمو بمعدلات مرتفعة فى درجات الحرارة المنخفضة بالثلاجة و تستمر فترة حضانتة من أسبوع إلى ستة أسابيع مما يصعب عملية اكتشافه . وإحتمالات علاج المرضى عند ظهور أعراض الإصابة : شبه منعدمة لطول فترة حضانة الميكروب . ولأنه تخصص فى منتجات الألبان دون أن يغير خواصها الطبيعية فإن الأطفال وكبار السن أكثر الفئات تعرضا للإصابة به .

★★ قصاصة صحيفة تضم جانبا من كلمة الأدعاء فى قضية

قاسم بيه :

... فى نهاية الثمانينيات انخفضت أسعار اللحم البلدى بعد النجاح المذهل لمشروع إنتاج البتلو و كان آخرون منهم المتهم يستوردون لحوم التصنيع لزوم الهامبورجر واللحوم المصنعة المثلجة فانخفضت مبيعاتهم . وفجأة أصدر وزير التموين آنذاك قرارا بحظر استيراد اللحوم عدا المستخدمة فى التصنيع ثم امتنع وزير الزراعة عن تمويل مشروع البتلو فتوقف . هكذا خلا السوق للمتهم وصديقيه وارتفعت كميات المستورد من اللحوم المخصصة للتصنيع والمحظور استخدامها مباشرة إلى الاف الأطنان وتسريت إلى الأسواق بأسعار زهيدة لا تزيد عن ٤ جنيهات للكيلو بينما ارتفعت أسعار اللحوم الحية إلى ثلاثة أضعاف ذلك .

من ناحية أخرى هاجمت مافيا المستوردين المواصفات القياسية الجديدة للسلع المستوردة والتي تشترط احتفاظها بنصف مدة صلاحيتها على

الأقل عند دخولها البلاد و أثاروا ضجة بدعوى أن هذه المواصفات تمثل قيда على حرية التجارة الخارجية ونجحوا فى تعطيل تنفيذها . واستغلوا الفرصة فاستوردوا آلاف الأطنان من اللحوم و الدواجن و المواد الغذائية . وبعد ٦ شهور اكتشفت السلطات ان إعتراضات المستوردين لا تشكل سببا قويا لوقف المواصفات الجديدة كما أنها مطبقة فى دول العالم فأعادوا العمل بها!!

★★ سطور من مجلة إسبوعية بدون عنوان : ... هو الوحيد

الذى يمتلك شركة مقرها فى شمال أوروبا مهمتها شراء و تجميع الكميات المختلفة من اللحوم المجمدة وما يطرح فى مزادات قوات حلف الأطلسى قبل انتهاء صلاحيتها بأربعة شهور، فمدة صلاحية هذه اللحوم وفقا للمقاييس الأوروبية ٢٤ شهرا و بعد مرور ١٨ شهرا بدون استخدام تدخل المزار الذى يحضره عدد من السماسرة . آخر مزاد رسا عليه بسعر ألف دولار للطن وتصل للمستهلك بسعر ٥ جنيه وربع جنيه للكيلو أى يكسب فى الطن ٢٨٨٦ و بالتالى مليونين و ٨٨٦ ألف جنيه لكل ألف طن . وأقل رسالة يستوردها يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن (من أربعة آلاف شهريا) .

... حصل على فرصة احتكار سوق اللحوم المجمدة و الانفراد بها منذ ثلاثة أعوام قبل إغلاق باب الاستيراد بوقت وجيز حين حصل على الأذونات الاستيرادية المجمدة و بعد أن انتهى من تنفيذها تم إغلاق باب الاستيراد ولم يفتح من جديد إلا بعد ان انتهى من تصريف كل بضاعته .

... يمتلك اسطول شاحنات بالثلاجات قيمته أكثر من ١٠ ملايين جنيه و ثلاجة تسع ٤ آلاف طن فى دمياط ثمنها لا يقل عن ٥ مليون جنيه بخلاف شبكة موزعين تجار جملة فى مختلف أنحاء مصر . يبلغ حجم أعماله ٣٠٠ مليون جنيه .

★★ قصاصة صغيرة من صحيفة يومية بعنوان : " براءة المتهمين الثلاثة فى قضية الأغذية الفاسدة " . خط باللون الأحمر أمام السطور التالية : ... بعد أن ثبت للمحكمة بالتقارير العملية أن اللحوم ليست فاسدة أو مغشوشة بل صالحة للاستهلاك الأدمى و أن القيود الواردة بالمواصفات القياسية قد تم تخفيفها بناء على طلب القوات المسلحة و الفنادق السياحية و بعض شركات الطيران و كلها تعنى بصحة زبائننا " .

★★ عدة قصاصات من الصحف وضع خط أحمر تحت عناوينها هي كالتالى : براءة محافظ المنوفية مما نسب إليه ... براءة محافظ الجيزة الأسبق مما نسب إليه . محكمة أمن الدولة العليا تقضى براءة المهندس "نبيل خضير" نائب رئيس هيئة المواصلات الأسلكية و"رؤف غبور" وكيل شركة "إريكسون" السويدية من تهمة رشوة قدرها ربع مليون جنيه بعد أن أمضيا ٦ شهور محبوسين على ذمة القضية ... برأت محكمة أمن الدولة العليا "أحمد وفائى سعيد" و "محمود أبو الوفا" وكيل وزارة الإقتصاد و ١٢ تاجرا متهمين فى قضية رشوة ... برأت محكمة جنايات دمياط ٢٢ متهما فى قضية بنك دمياط الوطنى منهم رئيس مجلس إدارة البنك السابق و المدير العام و نائبه وجميع أعضاء مجلس الإدارة من تهمة تسهيل حصول ١٦ عميلا للبنك على قروض بدون ضمانات كافية ... برأت محكمة أمن الدولة العليا برئاسة المستشار "سعيد العشماوى" الدكتور "ممدوح فخرى" مدير عام مستشفى الخليفة السابق الذى نسبت إليه تهمة اختلاس معدات وأبوية قيمتها ١٧٠ ألف دولار من المعونة الأمريكية لمشروع العناية المركزة للعيون ... برأت المحكمة نائب وزير الصناعة وعددا من وكلاء الوزارة فى قضية الرشوة الكبرى ... برأت المحكمة ١٥ من كبار مسئولى البنوك اتهموا بتسهيل استيلاء "محن الدين ترك" على ٥٥ مليون جنيه من البنوك دون ضمانات .

★★ قصاصة من مجلة بعنوان : ممتلكات حوت الأسمنت الدكتور ثابت محفوظ رئيس المكتب الحكومي لتوزيع الأسمنت :

فدان و ١٥ قيراط بمنطقة كبريت بالسويس عليها فيلا سكنية قيمتها نصف مليون جنيه ، ٢١٨ فداناً بسرابيوم بالإسماعيلية عليها فيلا سكنية قيمتها مليون و ٢٤٧ ألف جنيه ، ٦٣ فدان بمركز كفر الدوار ، ٣٧ فدان بنفس المنطقة ، ٥٤ فدان أرض زراعية بالزقازيق ، فيلا بنفس الناحية بها تشوينات رخام ، ١٦٠٠ م بالعاشر من رمضان عليها مبان ، ٦٠٠ متر مربع بجمعية صحراء الأهرام بجوار مدينة ٦ أكتوبر ، العقار ٢٦ شارع الشهيد عبد المنعم حافظ بمصر الجديدة ، العقار رقم ٢٥ شارع عمر بن الخطاب بمصر الجديدة ، العقار رقم ٢٠ شارع ٢٣ بالمقطم ، العقار رقم ١ شارع عبد القادر المربي بمصر الجديدة ، العقار ٦٣ شارع بيروت بمصر الجديدة ، الدور الحادي عشر بعمارة لؤلؤة جليم و يضم ٨ شقق ، فيلا رقم ١ شارع بلبيس بالعجمي ، العقار رقم ٤ شارع سامي رؤوف بالأسكندرية ، شقة بالدور الرابع بالعقار رقم ١٩ بالمقطم ، شقتان بعمارة زهرة جليم ، الشقة رقم ٦٧ بلؤلؤة جليم ، شقة بالطابق الثالث عشر بعمارة رقم ٣٧٣ بشارع الجيش بالأسكندرية ، عدد من السيارات هي فولكس موديل ١٩٩٢ ، فولكس موديل ٩٠ ، مرسيدس ٢٣٠ موديل ١٩٨٠ ، هوندا سيفيك موديل ٩٠ ، شيروكي موديل ٩١ ، مرسيدس ٥٠٠ بالتليفون ، أموال سائلة نحو مليونين و ٢٠١ ألف جنيه .

إضافة بخط اليد : لغز أزمة الأسمنت ؟ الانتاج المحلي أكثر بكثير من الإستهلاك ومع ذلك نستورد . والمستوردون يحتكرون السوق و يتحكمون في الأسعار يرفعونها عن طريق التخزين و اصطناع الأزمات فتصل أحيانا إلى الضعف ، وتفوق أرباحهم أرباح المخدرات و أكثرهم لواءات شرطة سابقين

يتنازل بعضهم عن ترخيصه مقابل مائة ألف جنيه و يحصل المتنازل له على ربح لا يقل عن خمسين ألف جنيه فى الشهر .

★★ قصاصة من صحيفة مصرية : " كشفت وول ستريت جورنال فى

يوليو ١٩٩٤ أن كبير المحلفين بولاية أطلنطا اتهم شركة لوكهيد و اثنين من كبار الموظفين السابقين بارسال أموال تجاوزت المليون دولار إلى مصرية عملت كاستشارية للشركة فى مصر و كانت عضوا بمجلس الشعب وذلك مقابل مساعدة الشركة فى صفقة مبيعات لمصر شملت ثلاث طائرات شحن قدرت قيمتها ب ٧٩ مليون دولار . وقال الاتهام أن النائبة السابقة التى تقوم بنشاط نسائى واسع وتتحدث باسم مصر فى المؤتمرات الدولية الخاصة بالسكان ، أنشأت شركة مصرية وضعتها تحت الإدارة الصورية لزوجها الموظف الكبير لإخفاء الأموال التى حصلت عليها شملت عمولات ب ٦٠٠ ألف دولار أى ٢ مليون جنيه مصرى مقابل كل طائرة مباعه إلى مصر " .

★★ قصاصتان من صحيفة يومية فى تاريخين متباعدين :

الأولى عن حريق هائل فى مصانع الشركة الشرقية للدخان والسجائر (قطاع عام) التهم طابقا كاملا من مخازن الشركة وكميات ضخمة من السجائر المصرية المغلفة ومن التبغ و قدرت الخسائر بمبلغ عشرة ملايين من الجنيهات . و الثانية عن إفتتاح خطى إنتاج جديدين لسجائر "مارلبورو" بنفس الشركة وكلمة لوزير الصناعة أشاد فيها بدور رجل الأعمال مصطفى البليدى و السفير الأمريكى فى إنجاح المشروع .

★★ قصاصة من صحيفة مصرية بعنوان نهب ٢٢ مليون دولار:

... " أجبرت الجهات القانونية والرقابية رئيس شركة قابضة على رد مبالغ تتجاوز ٢٢ مليون دولار حصل عليها بالتعاون مع وكيل أول وزارة ورؤساء

عدد من الشركات الأخرى من خلال عملية خصخصة وتقييم ١٩ شركة .
وقد تبين أن ثروته تجاوزت ٦٠ مليون دولار " .

★★ إعلان كبير علي نصف صفحة من مجلة مصرية تتوسطه
صورة لشاطي ساحر تتناثر فوقه فيلات أنيقة وأسفل الصورة عنوان
بخط كبير: الحق بالصفوة .. امثلك .

★★ قصاصتان من صحيفة مطويتان سويا . الأولى إعلان نصه :
"اضمن المستقبل لطفلك ، مدرسة ليدرز للغات ، لأول مرة في مصر نظام التعليم
الأميركي بثلاث لغات : الإنجليزية و الفرنسية و الألمانية إلى جانب العربية ،
إشراف دولي ، نموذج حي لأنشطة الحياة لمختلفة لتدريب الطفل عليها ، لكل طفل
شجرة تحمل إسمه إلى الأبد ، ٥٠ ألف متر مربع حدائق بواقع ٥٠ مترا مربعا
لكل طفل " .

والثانية من صفحة الحوادث في صحيفة يومية : " توفي الطفل
عيد أحمد كامل بمؤسسة الأحداث الضالين ببولاق الدكرور بعد إصابته بحالة
صرع أودت بحياته وتبين أن الفئران إلتهمت أجزاء كبيرة من وجهه وصدره .
قرر مدير المؤسسة أمام النيابة أن نظام المؤسسة يمنع قبول الأطفال الضالين
المصابين بحالة الصرع إلا أن إدارة تصنيف الأحداث بالأزبكية لا تقوم بالكشف
الطبي الدقيق على الأطفال عند تصنيفهم و تكتفى بالكشف الظاهري فلا
يكتشف المسئولون بالمؤسسة أمراض الأطفال إلا متأخرا أما بالنسبة لوجود
القطط والفئران فهو أمر عادي لأن المؤسسة توجد في منطقة عشوائية وقريبة
من مصرف صحي و سوق خضراوات " .

★★ صفحة بالالة الكاتبة يعلوها العنوان التالي بخط اليد :

" من التقرير القومى المصرى عن البيئة لسنة ٩٢ " : . تبلغ عدد حالات الوفاة

بمصر نتيجة الأمراض المنقولة عن طريق المياه الملوثة ٩٠ ألفا فى العام وذلك طبقا لإحصائيات الرسمية المسجلة لدى منظمة الصحة العالمية . يتلقى النهر فى العام ٣١٢ مليون متر مكعب من السموم عبارة عن نفايات وكيماويات ٣٣٠ مصنعا و الصرف الزراعى المحمل بآثار المبيدات و الأسمدة الكيماوية (فى عام ٩١ ثلاثة ملايين و نصف مليون طن أسمدة و ٢٠ ألف طن مبيدات وجدت طريقها فى نهاية الأمر إلى المصارف و منها إلى النهر ثم الأراضى الزراعية مرة أخرى) و الصرف من محطات الكهرباء و القوى و محطات معالجة المجارى . هذه السموم تلقى فى النيل مباشرة و تنتقل إلى قنوات الري . وعلى سطح النهر تسبح وابورات النقل و البواخر السياحية و العوامات و الكازينوهات و الفنادق وورد النيل والقمامة والحيوانات النافقة ونفايات المستشفيات و غبار الأسمنت . و تنتقل أخطار هذه الملوثات أيضا إلى مياه الشرب فبعضها يلقي فى نقاط قريبة من مأخذ مياه الشرب ، و الطرق التقليدية فى التنقية لا تقضى على كل أنواع الملوثات ، فالعضوية منها تتفاعل أحيانا مع الكلور المستخدم فى التعقيم منتجة مواد كربوهيدراتية كربونية من مسببات السرطان .

★★ قصاصة من صحيفة يومية بها تصريح لوزير الصحة :

"مصر خالية من الأمراض المعدية؛ وحالات القى و الإسهال التى ظهرت فى بعض المناطق مجرد حالات فردية وتمت السيطرة عليها تماما . أما الحالات التى ظهرت مؤخرا فى الفيوم ووصلت إلى ٩٠ حالة فسببها يرجع إلى أن مياه الشرب تصل فى فناطيس تستغل فى نفس الوقت فى عمليات الصرف الصحى . و قد اتخذت الوزارة عدة إجراءات لمنع انتشار المرض أهمها استخدام عربات فناطيس خاصة لنقل مياه الشرب فقط وزيادة نسبة الكلور" .

★★ **سطور بخط اليد :** الأرض الزراعية تشبعت بالمبيدات و الأسمدة وأصبحت في خطر . والحل هو تشجيع استخدام المخصبات الطبيعية . يمكن بسهولة الاستغناء عن المبيدات الحشرية التي تلوث طعامنا و تصيب الالاف بالتسمم بالتعاون و تنفيذ قانون رى البرسيم بعد الأول من شهر مايو لأن ذلك يقضى على آفات القطن دون حاجة للمقاومة الكيماوية أو اليدوية مع جمع اللوز الأخضر و الجاف من أحطاب القطن بعد الإنتهاء من جنى المحصول مباشرة أو التخلص منه بالحرق ، وإستهلاك حطب القطن قبل بداية أبريل ، مما يحول دون حدوث إصابة بديدان اللوز القرنفلية . ثم التخلص من شجيرات الكركديه والتيل والباميا الخطمية و الجوت بعد انتهاء موسم زراعتها و عدم تركها بالأرض للعام القالى لأنها المصدر الرئيسى لديدان اللوز الشوكية .

ثم سطرين منفصلين تحتها خط: لا بد من إلغاء الزراعة المحمية لخطورتها على الزراعة وإلغاء إستعمال مياه الصرف الزراعي في تغذية المزارع السمكية .

★★ **نص إعلان بإحدى الصحف بعنوان ثلاثون عاما من النجاحات و التقدم و التنمية :** " تحتفل شركة أمريكانا الكويتية للأغذية بمرور ثلاثين عاما عام ٩٤ على تأسيسها ، تميزت بالنمو والتطور المتواصلين ، فقد أصبحت الأولى فى تصنيع اللحوم و الكيك و تسويقهما وفى خدمة مطاعم الوجبات السريعة فهى التى أدخلت مطاعم الويمبى البريطانية ودجاج كنتاكى التى باعت حتى الآن ثلث مليار من قطع الدجاج فى العالم العربى من مسقط إلى القاهرة فى ١٩٧٣ والبيتزا هت فى ١٩٧٩ و سبارو الإيطالية وهارديز الأمريكية للهمبورجر و دجاج تيكا بخلطتها الشهيرة و توابلها الشرقية وأيس كريم باسكن روبنز (٦٠٠ نوع ب ٢١ نكهة لذيذة مختلفة يوميا) وحلويات الصمدى اللبنانية

الشرقية وبانيا سويس المتخصصة فى صنع و بيع الخبز الأوروبى و الحلويات والشكولاتة السويسرية مساهمة بذلك فى توفير الخيارات المتنوعة أمام المستهلك، ومصنع لحوم ينتج الهامبورجر و النقانق و المرتديلا و الكفتة مضيئة بذلك بعدا جديدا إلى النمط الغذائى العربى . و مصنعا آخر لانتاج الكيك على أنواعه من السويس رول إلى الباوند كيك والمينى رول والكرواسان والكوكيز وباعت منها فى نهاية ٩٣ ما يزيد عن ١٠٨ مليون قطعة بالمنطقة العربية . وفى ١٩٩٠ أنشأت بالتعاون مع " فارم فريتز " العالمية شركة كويتية مصرية هولندية متخصصة بتصنيع البطاطس المصرية الشهيرة تهدف إلى تغطية الأسواق العربية والخليجية . فى ٨١ أنشأت شركة "بىفى" و أول مصنع ينتج اللحوم المعلبة ، ومصنع "جلفا" للمياه المعدنية ، وفى ٩١ أدخلت إلى مصر "كادبرى" أشهر اسم فى صناعة الشكولاتة ، وشركات لانتاج الدواجن و جدودها ، و سلسلة محلات " فاشن واى " لتسويق الأزياء العالمية ، و شركة " حدائق كاليفورنيا " فى دى لانتاج البقول المعلبة و خاصة الفول ، وفى ٩٢ أحضرت إلى مائدة المستهلك العربى ماركة "كتش أب هاينز" الشهيرة .

★★ **سطور بخط اليد و إشارة إلى أنها منقولة من كتاب باسم صناعة الجوع** (للبريطانيين فرانسيس مور لابى وجوزيف كولينز، ١٩٨٠ ، ترجمة أحمد حسان) : ...العالم يجوع ليشبع الغرب لحما : تعتبر شريحة اللحم الطبق المفضل الذى يشبع جوا من البهجة فى الجزء الثرى من العالم . فمنذ الحرب العالمية الثانية تضاعف استهلاك اللحوم فى الدول الغربية ثلاثة أضعاف . ولا يتخيل أحد أن ماشية أوروبا الغربية تلتهم خبز أفريقيا . كيف ؟ تسيطر احتكارات أوروبا الغربية على ٢٢ مليون هكتار من الأراضي الزراعية فى البلدان النامية لإستثمارها فى انتاج العلف لماشية الغرب . وبذلك

تحرم شعوب العالم الثالث من زراعة المحاصيل الغذائية التي تكفيها ، ويكسب الغرب كل عام ٢٥ ألف مليون دولار نظير صادراته من الغذاء لإطعام ألف مليون نسمة في العالم الثالث .

... روبرت تسفارييتوس رئيس شركة أميركان فودز شير المتعددة الجنسية ذات الأساس السويدي (التي اكتشفت أن للكلب ثلاث مراحل حياتية لكل منها أنواع مختلفة من أطعمة الكلاب "تصنعها الشركة بشكل ملائم") : "أى شخص يقول لنا أننا نذهب لأثيوبيا لكي نساعد تلك المخلوقات البائسة كاذب .. إننا نبحث عن مواقع لإمداد أوروبا بالخضراوات و لعلنا نفضل بلدانا مثل مصر".

... هناك شركات تحتكر المحاصيل الزراعية و المواد الأولية في العالم الثالث وتحصل عليها بأبخس الأثمان . خذ مثلا شركة نسلة التي تصنع الشكولاته السويسرية الفاخرة : إنها لا تملك شجرة كاكاو واحدة ، ولا بقرة حلوى واحدة ، لكنها تحتكر شراء الكاكاو واللبن والبن في عدة بلاد نامية و تدين مزارعى هذه البلدان مهما أعطوها من محاصيل ، ويبيع البن المحمص فى أسواق الدول المنتجة بعشرة دولارات للكيلو بينما سعر البن الأخضر هو دولار واحد فقط للكيلو . فأين تذهب الدولارات التسع؟

... تحارب شركات المياه الغازية العالمية الانتاج المحلى من العصائر الطبيعية والأعشاب فى الدول النامية كيما تروج هى مشروباتها الخالية من الفيتامينات والعديمة الفائدة . هل تصدق مثلا أنك لا تستطيع أن تحصل على كوب من عصير البرتقال فى البرازيل مع أنها من أكبر الدول المصدرة للبرتقال ؟ وأن كوب عصير البرتقال الطبيعى فى مصر يبلغ ثمنه ثلاثة أضعاف ثمن زجاجة من المياه الملونة بطعم البرتقال : سكر وماء ومواد غازية و مكسبات لون ورائحة مسببة للسرطان ، وكذلك الأمر بالنسبة للألبان .

....المجاعات ليست غضبا من الله و ليس سببها الجفاف أو كسل السكان و خيبتهم . البلاد الجائعة فى آسيا و أفريقيا كانت غنية فى يوم ما ثم هبطها المستعمر الأوروبى وفرض على سكانها الضرائب من أجل تغطية نفقات الإدارة والجيش الإستعماريين . وعندما عجزوا عن دفعها أجبرهم على أن يتخلوا عن المحاصيل الغذائية المحلية ليركزوا على محاصيل تصدير تخدم صناعاته مثل الكاكاو و المطاط و الفول السودانى و القطن وأعطاهم مقابلها نقودا سدّدوا منها الضرائب واشتروا بما تبقى البضائع التى أحضرها لهم أى عادت إليه نقوده !

...الخدعة الأمريكية الكبرى اسمها السوبرماركت . فهو يعطى انطبعا بالوفرة والتنوع الهائل فى السلع . فى الولايات المتحدة تسيطر خمسون شركة كبرى على صناعة الغذاء . إنهم يبيعون تحت مئات الأسماء التجارية المختلفة فلو وضعوا أسماعهم الحقيقية على السلع لأدرك الناس الحقيقة . ثمانية بالمائة فقط مما يبيعه السوبر ماركت منتجات طازجة (فواكه خضراوات بيض) الباقى مر خلال الآلات اللامعة للشركات التى تشتري ٩٠ بالمائة من الغذاء المزروع للإستخدام المحلى فى الولايات المتحدة لتقوم بتصنيعه . فلماذا تباع أوقيات من البطاطس الخام إذا كان بإمكانها أن تجففها و تعيد بلها ثم تلقى عليها بعض المواد المضافة و تقطعها إلى أجزاء متطابقة ثم تقلبها جيدا و ترش عليها بعض مكسبات الطعم و تعبئها فى علب من الصفيح أو أكياس من البلاستيك ؟ و ذلك كله بتكلفة تزيد عشرات المرات على تكلفة البطاطس الأصلى المسكين .

إن التليفزيون يستطيع إقناعك بأن تنفق أكثر مما يجب على الحلوى واللبان والبسكويت والزيت والمشروبات الغازية .

ملحوظة بخط اليد علي هامش الفقرة السابقة : سوق

المشروبات الغازية المصرى أصبح حكرا على البيبسى والكوكا بعد تصفية القطاع العام .

★★ سطور بخط اليد بعنوان من يحكم العالم ؟ : خمسمائة

شركة عالمية كبرى متعددة الجنسية حققت تريليونان دولار زيادة في أصولها عام ١٩٩٥ بالنسبة للعام السابق وارتفعت إيراداتها تريليونا وأرباحها ٢٤ مليارا . زادت الإيرادات من سنة إلى أخرى بنسبة ١١ بالمائة والأرباح بنسبة ١٤ بالمائة ولم تزد العمالة إلا بنسبة ١ ونصف بالمائة متحررة من نفقات كثيرة لأنها تستغنى عن الجيش والشرطة والقضاء بلجوتها للتحكيم . مشغولة بالدمج والاستيلاء والمضاربة أكثر من الإستثمار في الانتاج وسوف تصطدم في النهاية ببطء نمو الأسواق لانتشار البطالة والفقر واتجاه الطبقات الوسطى للحد من الاستهلاك لمواجهة احتمال فقدان الدخل أعلنت صراحة أن نسبة الربح التي تحققها في البلدان النامية ٢٤ بالمائة على رأسها خمس وعشرون شركة هي : شل (انجليزية هولندية ، بترول) فورد (أمريكية ، سيارات) جنرال موتورز (أمريكية ، سيارات) إكسون (أمريكية ، بترول) كوكاكولا ، إبي بي إم (أمريكية ، كمبيوتر) بريتش بترولיום (بريطانية ، بترول) نسلة (سويسرية، أغذية) أونيليفر (بريطانية هولندية ، أغذية) اسيا براون بوفرى (سويسرية سويدية ، كهربائيات) فيليبس (هولندية ، الكترونيات) الكاتل ألثوم (فرنسية ، اتصالات) موبيل (أمريكية ، بترول) فيات (إيطالية ، سيارات) سيمنز (ألمانية ، كهربائيات) هانسون (بريطانية ، متنوعة) فولكسفاجون (ألمانية ، سيارات) إلف أكويتان (فرنسية ، بترول) ميتسوبيشى (يابانية ، تجارة)

جنرال إلكتريك (أمريكية ، متنوعة) ميتسوبيشى الكهربائية (يابانية إلكترونيات)
نيوزكوربوريشن (استرالية ، صحف و تليفزيون) فيروزي مونتيديسون (إيطالية،
متنوعة) باير (ألمانية ، كيماويات) روش (سويسرية ، أدوية) .

★★ ملحوظتان بخط اليد علي هامش القصاصة السابقة :

٢٥ بالمئة من إجمالي التجارة العالمية هو مبادلات بين شركات تتبع شركة
كبرى واحدة ، و ٥٢ بالمئة أخرى بين الشركات متعددة الجنسية أى أن
هذه الشركات تسيطر فعليا على أكثر من نصف حجم التجارة الدولية مما
يتيح لها تحديد أسعار السلع المتبادلة بين الشركة الأم و فروعها و تحديد
أسعار المواد الخام (المثال التقليدي هو الموز المنتج فى أمريكا الوسطى حيث
يباع فى جواتيمالا مثلا بحوالى ٨ فى المائة من ثمن بيعه فى نيويورك والفارق
يذهب إلى شركات دولية النشاط عاملة فى مجالات النقل والتأمين والإعلان
والتسويق والدعاية والأعمال المصرفية وبصفة عامة لا تحصل الدول النامية
من تصديرها للمواد الأولية إلا على ١٠ بالمائة من الثمن الذى تباع به فى
الدول الصناعية المتقدمة أما المنتجات المصنعة فى الدول النامية فلا تحصل
منها هذه سوى على ١٣ بالمائة من الثمن المدفوع فيها فى الدول المتقدمة
ويذهب الفرق فى الثمن إلى الشركات الدولية .

...إذا كتبت أسماء الصناعات فى مجال السيارات الذين يرتبطون بمشروعات
مشتركة أو بإتفاقيات فى التصميم أو الأبحاث أو إنتاج المكونات أو التجميع
الكامل أو التوزيع أو التسويق لمنتج واحد أو عدد من المنتجات فى أى مكان فى
العالم ، سيتحول المربع إلى شبكة من الخطوط المتداخلة غير المفهومة ، إنها نفس
القصة فى الكمبيوتر و الطيران و الأدوية و الدفاع .

★★ قصاصة مرفقة بالقصاصة السابقة : تتنازع مجموعة تتألف من

سبعة إلى عشرة تكتلات دولية السوق العالمية للمشروبات غير الكحولية : الشاي والبن والمشروبات الغازية و تكمن قوتها فى قدرتها على التحكم فى أكبر عدد ممكن من الحلقات التى تؤلف سلسلة تسويق منتجاتها إبتداء من المزارع حتى متاجر البيع تمتص و تشتترى الشركات المنافسة ..تخرج الشركات الأصغر من المنافسة بسبب نقص السيولة و ضالة التمويل المصرفى مما يمنعها من تنظيم حملات الترويج لإيصال منتجاتها إلى رفوف المتاجر . إيرادات التبغ هى التى سمحت لشركة فيليب موريس (مارلبورو) برصد المبالغ للترويج لبيرة ميلر التى تحتل المرتبة الثانية فى السوق الأمريكية المنتجات الإستوائية الثلاثة وهى الكاكاو والبن و الشاي ، تحت سيطرة شركات تجارية عملاقة أبرزها الشركات اليابانية وشركة كارنيل ثم مجموعة الشركات عبر الوطنية : يونيليفر البريطانية الهولندية التى تعتبر منذ عدة عقود أكبر موزع عالمى للشاي (ليبتون وبروك بوند) ، ونستلة ، كوكاكولا ، فيليب موريس ، بروكتر/ جامبل .

..إحتكار الكاكاو فى يد شركات نستلة وفيليب موريس وهيرشي ومارس وكادبوري شويبس التى تمثل مجتمعة أربعة أخماس الإنتاج الدولى من الشكولاتة . إلتهمت نستلة فى ١٩٨٤ شركة كارنيلشن عملاق الحليب الأمريكى (٢٠٠ منتج) التى كانت الأولى فى سوق الكاكاو سريع الزوبان .

... الماء العادى أكبر عدو للشركات وخاصة الكوكاكولا (٩٧ بالمئة من سكان العالم يشربون ماء الحنفية) .

..مع إلغاء الضوابط على الأسواق و تحرير الإقتصاد اللذين يشقان طريقهما فى العالم فإن آفاق التسويق أصبحت وردية تماما . فقد إنهار الأعداء القدامى

وألقى مجلس التعاون الخليجي نفسه الحظر المفروض على الكوكاكولا فى ١٩٩١ عقب تحرير الكويت . ويفخر مدير الكوكاكولا بأنها ستصبح بحلول عام ٢٠٠٠ فى متناول جميع سكان هذا الكوكب البالغ عددهم ستة مليارات شخص . وهى تسيطر الآن على ٤٦ بالمئة من السوق وتبذل جهودها للسيطرة على كل سلسلة التسويق فتدخل إلى سوق المطاعم السريعة التى توسعت بشدة . فشركة مكدونالد التى بلغ رقم أعمالها ٧ مليار دولار فى ١٩٩١ لا توزع سوى كوكا وفانتا وسبرايت وتمثل مبيعاتها ٢٠ بالمئة من رقم أعمالها . بينما تملك بيبسى مراكز الطعام السريع مثل بيتزاهت ، كنتاكي فرايد شيكن حيث لا يقدم غير البيبسى . و أدى نجاح كوكا و بيبسى إلى توحيد و تطبيع الاستهلاك على المستوى العالمى و إبعاد المشروبات المحلية و القومية .

.. إرتفعت أرباح " يونيليفر " عام ١٩٩٤ إلى أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار رغم الإتهامات التى وجهت لمسحوق التنظيف " برسيل " (بسبب احتوائه على مواد كيميائية تلحق أضرارا فادحة بالإنسان) و أفشلت طرحه فى بعض الأسواق الأوروبية . وهى تسوق منتجاتها فى الشرق الأوسط عن طريق شركتى ليفر وليبتونز فى السعودية اللتين تملكهما شركة بن زقر السعودية وتملك يونيليفر أربعين بالمئة من ليفر المختصة بالمنتجات الشخصية و ٤٩ بالمئة من ليبتونز المختصة بالأغذية . تشكلت يونيليفر قبل ٦٢ عاما من اندماج شركة الصابون البريطانية ليفر وشركة الزبدة النباتية مارجرين يونيون الهولندية . وتمتلك حاليا ما يزيد عن ٥٠٠ شركة فى ٧٥ بلدا و عددا كبيرا من العلامات التجارية المشهورة مثل برسيل وليبتون واليزابيث آردن وكالفن كلاين.

★★ صفحة من مجلة تايم الأمريكية تتوسطها صورة لزحام
الاف الحجاج المسلمين أثناء طوافهم حول الكعبة التي تحولت في
الصورة إلى صندوق كبير من زجاجات الكوكاكولا .

★★ سطور بخط اليد : ديزنى إشتريت شبكة إيه بى سى
الأمريكية للتليفزيون . جنرال الكتريك إشتريت شبكة إن بى سى .
وستنجهانس إشتريت شبكة سى بى إس . ميكروسوفت إشتريت إم إس إن
بى سى . وقبل ذلك إشتريت سى إن إن متروجولدين ماير سنة ١٩٨٦ بمبلغ
مليار دولار وإشتريت مجلة تايم سنة ١٩٨٩ شركة إخوان وارنر للسينما
(إستفاد حاملى أسهم وارنر بينما إستدانت تايم ١١ مليار دولار فتخلت عن
أجزاء من الشركة الجديدة لشبكة معقدة من الشركات جلبت لها عدة مليارات
لكن قيدت أصولها ، وأخيرا إندمجت تايم / وارنر مع محطة سى إن إن
الشهيرة وأصبحت تايم / وارنر / تيرنر أضخم مؤسسة ميديا فى أمريكا
والعالم بمبيعات تصل إلى ٢١ مليار دولار. دفع جيرى ليفين رئيس تايم وارنر
فى شراء سى إن إن ١٧٨ مليون سهم من أسهم المؤسسة تساوى أكثر
من سبعة مليارات دولار . وأصبحت المؤسسة الجديدة تضم تايم / وارنر
وشركات السينما والتليفزيون التابعة لها (بما فيها وارنر بروذرز ، إتش بى أو
سينيماكس) والنشر (تايم ، كتاب الجيب وارنر ، كتاب نادى الشهر ،
وكتب ليتل براون) والموسيقى (أتلانتيك والكترا) ثم سى إن إن ، تى بى
إس ، تى ن تى ومجموعة هائلة من الأفلام وحوالى ٢٨،٥٠٠ برنامج
تليفزيونى . ماذا يريد تيرنر ؟ غالبا رفع أسعار أسهم شركته بشكل مصطنع،
عن طريق بيع أصولها وتخفيض الديون والتكاليف . فى ١٩٩٢ أدمجت تايم

وارنر شركة الكابل التابعة لها مع الأخرى التابعة لوارنر وإتش بي أو في شركة جديدة باسم وارنر إنترتينمينت ثم باعت ربع الشركة الجديدة لشركة يو إس وست مقابل مليارين ونصف مليار دولار .

يعتقد لييفين إن الإندماجات التي قام بها تتيج. منفذا لمنتجاته . ما تحقق على الفور هو فصل ألف من العاملين في سى إن إن لضغط الإنفاق .

خريطة الإمبراطورية الجديدة : (تايم) مجلات : تايم ، بيبول ، سبورتس اليستريتور ، لايف ، فورتن ، موني و ٢٠ مجلة أخرى . كتب : كتاب نادي الشهر ، ليقل براون ، وارنر ، أوكسمور هاوس ، سانسيت . (وارنر برودرز) تسجيلات : وارنر برذرز ريكوردز ، أتلانتيك جروب ، إيكتر ، وارنر شابل ميوزيك ، وارنر ميوزيك انترناشنال . تليفزيون ، شبكة ، الفيديو المنزلي ، للسلع الاستهلاكية وشركات أخرى . (إتش بي أو) : سينيماكس . تايم وارنر سبورتس وشركات أخرى : تايم وارنر كابل (حوالي ١٢ مليون مشترك) . إستثمارات أخرى : شبكة تليفزيون المحاكمات ، كوميدى سنترال ، إى ! إنترتينمنت ، قناة ساجا ، (تيرنر) : برمجة وإنتاج : كاسل روك إنترتينمنت ، أفلام تيرنر ، مكتبة فيلمية تضم أفلام مترو و وارنر ، كارتون هانا باربيرا ، نيولاين سينما ، وغيرها . هوم إنترتينمنت : فيديو تيرنر العالمى ، تيرنر للنشر ، تيرنر للتجزئة ، وغيرها . رياضة : أتلانتا بريفز ، أتلانتا هوكس ، جوهيل جيمز ، بطولة المصارعة العالمية . الأنظمة المتعددة : سى إن إن انترأكتيف ، تيرنر نيو ميديا و غيرها .

شركات الكابل : سى إن إن ، شبكة الكارتون ، هيدلاين نيوز ، ت ب س سوبر ، ت ن ت ، سى إن إن انترناشيونال ، تيرنر كلاسيك موفيز ، وسبع شركات أخرى .

إلى أى مدى يتيح تركيز هذه القوة الهائلة التلاعب بعقول ملايين البشر ؟

★★ **فقرة من مقال بالفرنسية بغير عنوان :** فى الوقت الذى

تستعين فيه ٥١ دولة أفريقية بحوالى ٨٠ ألف خبير أجنبى يحصلون على عوائد وأرباح ضخمة ، يوجد حوالى ٧٠ ألف خبير أفريقى يساهمون فى تقدم أوروبا .

..... فى ١٩٨٧ كانت حوالى ثلث قوة العمل الأفريقية المتخصصة قد هاجرت

إلى أوروبا وخسر السودان نسبة هامة من قوة عمله المتعلمة فى تلك السنة وحدها : ١٧ فى المائة من أطبائه وأطباء أسنانه ، ٢٠ بالمائة من

أعضاء هيئات تدريس جامعاته ، ٢٠ فى المائة من مهندسيه و ٤٥ بالمائة من مساحيه ، وتؤدى هذه الهجرة إلى ما هو أكثر من تجريد أفريقيا من قوة

العمل : إنها تقلل كذلك قدرتها على تدريب أجيال جديدة من الكوادر .

ومما يدعو إلى السخرية أن هذه المهمة تعود أكثر فأكثر إلى الخبراء الأجانب

الذين تُستخدمهم البلدان الأفريقية بتكاليف ضخمة و أعداد ضخمة :

فعددهم اليوم ٢٠ ألف أى أكثر بكثير من عددهم قبل أربعين سنة .

... ذكر البنك الدولى فى ٨٤ أن الولايات المتحدة وفرت ٨٨٢ مليون دولار عام

١٩٨٣ وحده نتيجة هجرة العقول والمهارات إليها بينما خسرت الدول النامية ومن

بينها مصر ٣٣٠ مليون دولار هو ما أنفقته على تعليم و تربية هؤلاء الذين هاجروا

إلى الولايات المتحدة فضلا عن خسارتها بفقد العناصر البشرية القادرة على

الإنتاج والعمل . وكسبت كندا بين ألف مليون دولار و ألفين فى الفترة من

١٩٦٧ حتى ١٩٧٣ لنفس السبب و هو مبلغ يساوى عشرة أضعاف ما أعطته كندا

من مساعدات للتعليم و التدريب فى الدول النامية و هى مساعدات تصب مرة ثانية

لديها . و كسبت ثلاث دول هي الولايات المتحدة و كندا و إنجلترا خلال الفترة من ١٩٦١ و ١٩٧٢ مايزيد على ٤٤ ألف مليون دولار للسبب نفسه .

★★ سطور متفرقة من مقال في صحيفة مغربية بعنوان :
الفرانكفونية : " ... يزعم أنصار الفرانكفونية أنها مجرد تنظيمات ثقافية
تهدف إلى ترسيخ اللغة الفرنسية . أما الحقيقة فإن أهدافها اقتصادية
وسياسية فهي تطرح الفرنسية كبديل للغة الأم في أفريقيا تعنى الفرانكفونية
السكان الناطقين بالفرنسية أي خمسين مليون فرنسي + ١٢٠ مليون في القارات
الخمس (٥٢ دولة) : . . . في سنة ١٩٦٩ قال الشاعر السنغالي سنجور أن اللغة
الفرنسية منتشرة في أفريقيا ليس فقط نتيجة استعمار فرنسا لدولها بل لتمتع
هذه اللغة بحسنات خاصة جعلت منها ظاهرة عالمية : " الفرنسية هي الأرغونات
الكبرى الأكثر عنوية ، مثل إبراقات العاصفة ، إن الكلمات الفرنسية تشع من ألف
نار ، مثل شهب تضيئ ليلنا . " ويعد ذلك بعشرين عاما كان الرئيس الفرنسي
ميتران أكثر واقعية : " الفرانكفونية ليست هي فقط اللغة الفرنسية .. إنها
انتماء سياسى و اقتصادى و ثقافى .. "

..... إذا كانت أفريقيا تعاني من التأخر و تموت من الجوع و من الأوبئة فإن
السبب في ذلك هو الفرانكفونية فقد خلقت فرنسا و تساند نخبة في الحكم
منفصلة تماما عن احتياجات السكان . هناك بلدان في القارة الأفريقية إذا لم
يدفع فيها المكفون أجور الموظفين في نهاية الشهر فإن المساعدة الفرنسية تأتي
لذلك ، بدءا من الدرك و العسكريين و رجال الجمارك بل و الوزراء أنفسهم ،
لأن أموال الخزانة حولت إلى حسابات بنكية في سويسرا . وإذا وقع أقل تحرك
فإن الجيش الفرنسى موجود و كل قواعده العسكرية على أهبة الإستعداد للتدخل .

وقد اضطر الرئيس الفرنسي ميتران للاعتراف بالوجه الآخر للحضارة الفرنسية عندما قال : " كما كان لفرنسا الفضل في الأخذ بيد دول أفريقيا ودفعها على طريق التقدم والحضارة فإن لأفريقيا أيضا دورها في إثراء فرنسا وفيما يتمتع به شعبها من رخاء ورفق ، ولهذا تقاوم فرنسا إنشاء سوق أفريقية مشتركة لأنه سيضيع عليها فرصا كثيرة . فمنتجات أفريقيا الضخمة من المحاصيل والخامات (أكبر احتياطي من اليورانيوم في النيجر و لهذا تهتم فرنسا بإبعاد القذافي عن تشاد) والأخشاب مازالت تشحن لأوروبا على سفن أوروبية حيث يعاد بيعها أو تصديرها للمشتريين حتى ولو كانوا من نفس القارة ، الطيران بين الدول الأفريقية يتم عن طريق باريس و روما ، الإعلام و مجالات الخبرة المختلفة .

ملحوظة بخط اليد : المصالح الفرنسية في أفريقيا : وجود ربع مليون فرنسي ، تحكم القارة في طرق المواصلات الهامة للنفط و المواد الأولية اللازمة للصناعة الفرنسية ، تجربة الأسلحة و المعدات الحربية ، مبيعات الأسلحة ، دفن النفايات النووية الضارة ، قواعد عسكرية في السنغال ، الكوت دافوار ، الجابون ، جيبوتي ، أفريقيا الوسطى ، جزر ريونيون ، استخدمت في التدخل العسكري الفرنسي في الجابون و زائير و تشاد و أخيرا رواندا (١٩٦٨ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٦ ، ١٩٩٠) .

★★ فقرة من مجلة عربية بعنوان صفحة من تقرير مقدم إلي كلينتون : " لقد اتخذت العديد من الدول في الشرق الأوسط و في مقدمتها مصر ، مفتاح الشرق الأوسط ، خطوات جادة في سبيل فتح أسواقها أمام الصادرات الأمريكية (بلغت ٢,٨ مليار دولار عام ١٩٩٣) بعد أن قامت بتصحيح

المسار الإقتصادي وإتباع سياسة الخصخصة و بذلك تم إزالة كافة العقبات والحواجز التي كانت موجودة فى العصور الماضية أمام حركة التجارة والإستثمارات الأمريكية فى المنطقة وأصبحت مصر أهم الأسواق للمنتجات الزراعية الأمريكية . كما أنها الدولة الوحيدة التى لم تتمسك بسياسة المقاطعة التى قادتها الجامعة العربية ضد إسرائيل . بل وأصدرت تشريعات من شأنها حماية الممتلكات الفنية والثقافية وبراءة الاختراعات . وبذلك أصبح مصر فرصة عظيمة لفتح أسواق جديدة فى منطقة الشرق الأوسط " .

★★ ملحوظة بخط اليد : قرر الشيخ جاد الحق ، شيخ الأزهر ، فى رسالة إلى مجلس الشعب ، أن أحكام قانون الإصلاح الزراعى لسنة ٥٢ غير مقبولة شرعا و عليه فهو قانون باطل يقوم على قواعد فاسدة .

★★ قصاصة صفراء قديمة ، من صحيفة مكسيكية بتاريخ أكتوبر ٨٣ : "حدثت القديسة ماريا العذراء لطفل يتيم فى شيلى قائلة أنها تكره الماركسية والاتحاد السوفييتى . وإنتشرت الرسالة فى أنحاء البلاد بسرعة و قد جاءت فى الوقت المناسب إذ يضاعف الدكتاتور بينوشيه حملاته المعادية للحزب الشيوعى المتنوع منذ سنة ٧٣ . فقد أعلن الراهب " لويس فيرنانديس " أن العذراء تحدث إلى الطفل ميغيل أنجل بوليت البالغ من العمر ١٥ سنة و الموجود تحت رعايته منذ عدة سنوات . وتكرر ظهور العذراء وكان فى انتظارها آخر مرة مائة ألف مواطن شيلى اتجهوا منذ الصباح الباكر إلى قرية " فيلا أليمانا " ، وكان الأب الناطق باسم الطفل فى انتظارهم . وعندما لم تتمكن الجماهير من رؤية العذراء طلب الأب منهم أن ينظروا إلى الشمس ، فراها بعضهم خضراء والبعض الآخر حمراء . و تمخض اللقاء عن لجنة لجمع التبرعات لصالح إنشاء

إذاعة حرق خاصة بالعذراء . و كانت العذراء قد ظهرت سنة ١٩١٧ لراعى برتغالى
و تحدثت له عن روسيا القيصرية المهددة بالشيوعيين . وتكرر ظهورها فى البرتغال
عام ١٩٤٢ فى بداية عهد الديكتاتور سالازار لتحدث مرة أخرى ضد الاتحاد
السوفييتى .

★★ قصاصة من صحيفة سودانية فى ديسمبر ٩١ : فى جلسة
مناقشة ورقة الإستراتيجية القومية تحدث الدكتور " عمر أحمد فضل الله " عن
إيمانه بإمكانية الإستعانة بالجن السودانى المؤمن فى كافة مجالات التطور
والنهضة . فطلب منه الفريق عمر البشير إعداد ورقة شاملة عن الجن .

★★ قصاصة من جريدة الشعب المصرية المتحدثة باسم التيار
الإسلامي ، تتناول الحرب الدائرة فى جنوب السودان بين حكومة
البشير و المتمردين : " وقد روى لنا أكثر من فرد من قوات الدفاع الشعبى
حكايات متعددة عن الكرامات الإلهية التى شاهدها بأنفسهم فالبعض تحدث عن
استجابة الله تعالى لدعاء المجاهدين بإنزال المطر ليرووا عطشهم ووقفه إذا كان
يعوق سيرهم والبعض تحدث عن طيور كانت تنقض على الألغام التى تركها
المتربون لتفجرها " .

★★ فقرة من صحيفة أسبانية : أعلن الأب بيير بنوا الذى يعد من
أكثر الشخصيات الدينية إحتراما وشعبية فى فرنسا ومن قادة حركات
مكافحة العنصرية و معاداة السامية ان العرب لم يرتكبوا جرائم فى حق
اليهود بل ارتكبها هتلر الأوروبى وأضاف : " عندما أردنا أن نكفر عن هذا
الذنب قدمنا أسهل الحلول وهى طرد الفلسطينيين من أراضيهم كى يستقر
فيها اليهود " .

★★ قصاصة من صحيفة فرنسية قاصرة على عنوان نيا :

بيني غاوون رئيس مجموعة شركات " كور " الإسرائيلية الضخمة يقول : " ستكون لدينا سوق تضم ٣٠٠ مليون مستهلك وستدخل عصرا جديدا " .

★★ سطور متفرقة من مقال بعنوان منطق الإنتاجية . الشيطاني

بالطبعة العربية لجريدة موند ديبلوماتيك ، يوليو ١٩٩٤ : الأزمة

التي يتخبط فيها النظام الرأسمالي الآن بعد عقدين من البذخ (١٩٥٥ -

١٩٧٥) يحاولون حلها على حساب العمال ... أن الأوان للتساؤل عما إذا كانت

البطالة مرضا يتصل بطبيعة النظام الذي أصبح يغطي جميع بلدان الأرض . إن

مثل هذا النظام المؤسس على تراكم رأس المال يعتبر عبارات " الادخار " .

و " الاستثمارات " و " الأرباح " كلمات مفاتيح ، ويقيم بنيانه على علاقات مميزة بين

أصحاب الثروات . وفي مثل هذه الظروف ينبغي أن توجد البطالة للتحكم في

ضغوط التضخم والحفاظ على سوق عمل " طيبة " . فالعرض الزائد من اليد

العاملة يمكن من جعل التخفيض في الأجور مقبولا بسهولة . ولم يحصل أبدا منذ

الانهيار الإقتصادي في الثلاثينيات أن كانت أرقام البطالة بمثل هذا الارتفاع

الرهيب في العالم الغربي . ففي كل مكان يكثر الحديث عن إعادة الهيكلة

و " استعادة القدرة على المنافسة " ولو كان الثمن عشرات الآلاف من المطرودين . ففي

ألمانيا ١٩٩٤ نسبة البطالة ١٢ في المائة وفي أسبانيا ربع القوة العاملة محرومة من

العمل وفي إيطاليا يفخر رئيس شركة " أوليفيتي " بأنه تخلص منذ ١٩٨٩ من

٢٢٠٠٠ وظيفة من جملة ٦٠٠٠٠ وهو يفكر بالإضافة إلى ذلك في مواقع إنتاج بها

أيدي عاملة رخيصة مثل بنجلاديش وفيتنام ، ويشتكى رئيس مجلس أصحاب

الأعمال الفرنسيين من أن بلاده تعيش بوسائل أكبر من إمكانياتها وهي تخسر

بذلك امتيازاتها التكنولوجية و تحرم من القدرة على مواجهة المستقبل أى المنافسة العالمية . بينما يتوقع لأوروبا عام ١٩٩٥ عشرين مليون عاطل ربيعهم بين ١٨ و ٢٥ سنة . وإجمالاً إذا كانت الرأسمالية فى أزمة فإن الخطأ هو خطأ العمال . وفى نفس الوقت زادت معاملات أكبر شركتين عالميتين بين ١٩٨٢ و ١٩٩٢ من ثلاثة مليارات دولار إلى الضعف . ومع ذلك لا تتردد هاتين الشركتين فى القيام بعمليات تسريح جماعى للعمال .

★★ سطور بخط اليد :

٥٠٠ مليون نسمة فى نول الشمال السبع الأكثر تقدماً يستهلكون المواد الأولية التى يملكها ٤ مليار نسمة يعيشون الكفاف فى الجنوب .
النيجر أفقر نول العالم مع أنها ثانى منتج لليورانيوم فى العالم .
الحد الأدنى لأجر العامل الأمريكى ٤ دولار فى الساعة أى ٣٢ دولارا فى اليوم .

فى الصومال يموت خمسة آلاف طفل يومياً من الجوع و يضطر الأفارقة لكل جذور و أوراق الشجر بينما يتكلف إطعام كلاب أمريكا سبعة مليارات نولا و تشتترى لها أربطة عنق ب ٧٥ مليون دولار و أدوية ٩٢ مليون ولعب وملابس خاصة بمليونين .

★★ مقتطف بخط اليد عن كتاب مقرضو النقود ل أنتونى سامبسون : " معدلات الفائدة المرتفعة أعطت مكاسب هائلة للبنوك من الحسابات الجارية للعملاء الصغار التى لا تدفع عنها البنوك أى فوائد "

★★ عدة صفحات من مجلة فورتن الأمريكية بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٨٧ تضم قائمة بأغنى أغنياء العالم ومصادر ثرواتهم ، تبدأ

بسلطان برونوى حسن بلقاية الذى تبلغ ثروته ٢٥ مليار دولار ويليه مباشرة الملك فهد، ملك السعودية الذى تقدر ثروته بمبلغ ٢٠ مليار دولار، ويليه بين الأغنياء العرب الشيخ جابر الصباح أمير الكويت (٥ مليار دولار)، ويأتى المصرى عثمان أحمد عثمان فى ذيل القائمة بـ١٠ مليار ونصف مليار دولار.

★★ بيانات بخط اليد عن شركات الأدوية العاملة فى مصر، صفحات منتزعة من كتاب عن صندوق النقد الدولى وأخري من مجلة تضم قائمة بشركات القطاع العام المعروضة للبيع، قائمة بالشركات التى أمت فى الستينيات، أرقام عن توزيع الدخل القومى وبيانات أخري من تقريرين للبنك الدولى عن الوضع الاقتصادى فى مصر.

★★ سطور بخط اليد : " يا رفيقى الحاضر هنا ، ما من أحد حملك على الفرار ولست مسئولا عن ذلك . لقد بنيت سلامك بكثرة ما سددت بالملاط ، كما تفعل حيوانات "السرف" ، جميع منافذ النور . لقد توقعت فى طمأنينتك البرجوازية ، فى رتابتك ، فى طقوس حياتك الريفية الخائفة، رفعت هذا السور المصطنع فى وجه الرياح والمد والنجوم . إنك لا تريد الإنشغال بالمعضلات الكبرى ، كلفت نفسك ما يكفيها عناء لكى تنسى وضعك كإنسان " . " أنطوان سانت أكسوبرى " ، "أرض البشر".

أوراق رمزي بطرس نصيف (مسودة لمذكرة الدفاع)

لو أن أحدا ذكر لي أنى سأنام ذات يوم : على أرض زلزانة كهذه لكنت ضحكت . أنا أضحك الآن عندما عندما أتأمل الأمر . فلم يكن هناك فى أى مرحلة من حياتى ما يوحى بنهاية كهذه ، إذا كانت هى حقا النهاية ! . فأنا ولدت فى أسرة مستريحة . أبى كان موظفا كبيرا فى وزارة المالية يحتفظ بعدة أطقم من الملابس خاصة بالمناسبات والفصول المختلفة . كنا نسكن فى شبرا بشقة كبيرة من خمس غرف بوحدة من العمارات المتينة ذات المداخل الرحبة التى بنيت فى الأربعينيات أو الثلاثينيات . وكانت لدينا شقة فى الإسكندرية نقضى بها شهور الصيف . وأحيانا نذهب إلى أهل جدتى لأمى فى بورسعيد الذين كانوا يعيشون فى فيلا كبيرة تابعة لشركة القناة . فقد كان جدى من كبار موظفيها .

كنت الإبن الأكبر على بنتين . واحدة منهما الآن فى كندا والثانية فى استراليا . لا بد أن طفولتى كانت عادية فأنا لا أذكر منها بوضوح سوى زيارة القسيس التى كان يقوم بها لمنزلنا مرة فى الشهر يباركنى خلالها بأن يرسم الصليب على وجهى وهو يتمم شيئا ما بالقبطية ثم يضيف بالعربية : العذرا تحميك يا بنى .

أذكر أيضا بوضوح صالة شقتنا والحائط الذى يتصدره تقويم جمعية المحبة القبطية ، بصورة ملونة للمسيح و آية كل يوم . وأسفلها محراب

صغير به أيقونة العذراء وتحتها شموع مضاءة بصفة مستمرة . كما أذكر الأعياد التي كنا نذهب فيها إلى الكنيسة ونطوف حول المذبح في موكب يحمل أيقونة قيامة المسيح . والصلوات التي نختمها بالدعاء للبابا وجمال عبدالناصر.

أحسب أن الدعاء لعبد الناصر كان من قبيل الشعائر الرسمية فقد كان الأقباط متحفظين إزاء عبد الناصر . الأسباب عديدة . منها أن كثيرين منهم كانوا منضمين إلى الأحزاب السياسية التي ألغاهما وحرمها كما أن مجلس قيادة الثورة لم يكن به قبضى واحد فيما بعد أصبح عبد الناصر بطل مراهقتى أثناء العدوان الثلاثى فى ٥٦ ، يوم اخترق القاهرة فى سيارة مكشوفة من بيته فى مصر الجديدة إلى الجامع الأزهر واعتلى منبره وقال للعالم " سنقاتل ولن نستسلم " . استولى على يومها شعور بالاعتزاز والكبرياء رغم أن أبى بدا مهموما ومتجهما ولم أعرف منحنى تفكيره ... على العموم أبى كان دائما متجهما . على الأقل فى البيت . فعندما يأخذنى فى نزهة تنبسط أساريه ويضحك .. أمى أيضا كانت متكدرة . وأظن أن الأمور بينهما لم تكن على ما يرام ..

كان أبى يصحبنى فى العصارى إلى صيدلية أو أجزخانة كما كانت تسمى قرية من منزلنا فى شبرا . كان صاحبها صديقا له يجلس بطربوشه الأحمر خلف مكتب صغير فوق قاعدة خشبية ، يحيط بسطحه سياج من القضبان الخشبية الدقيقة المتجاورة بارتفاع شبر ، وخلفه مصراع زجاجى معتم تتوسطه جمجمة وعظمتان ، ويعطينى قطع من حلوى الريبوس السوداء التى

كانت تنتج أيامها بأشكال مختلفة : على هيئة غليون صغير أو حبل أو مربعات أو دوائر متتالية فى حجم النصف ريال تتوسطها حمضة ملونة . ويجلس أبى على أحد المقاعد المصفوفة أمام المكتب ويبدأ ان النقاش حول الأحداث السياسية والمعارف المشتركين . ويتبادلان تعليقات غامضة تتخللها نظرات لها مغزى إذا ما ولجت الصيدلية امرأة جميلة خصوصا إذا كانت تغطى وجهها بالبرقع ذى الأسطوانة النحاسية فوق الأنف ، وتلف جسدها بالملاء السوداء فى إحكام طاوية طرفها تحت إبطها .

..الصيدلى هو ابن أخت صاحب الصيدلية : شاب بدين أصلع الرأس يرتدى عريشات طبية سميكة ، يعمل من خلف حاجز زجاجى دهن بطلاء أبيض لا يكشف عما يدور خلفه ، تتوسطه فتحة تسمح بتبادل الحديث مع الزبون وقراءة الروشتة قبل الاختفاء فى الداخل لتحضير الدواء .

كنا ما زلنا فى عصر تحضير الدواء قبل أن تتحول الأدوية إلى حبوب ملونة والصيدلى إلى بائع بقالة كل مهمته هو أن يتناول الدواء من الرف و يقبض النقود. أثارتنى هذه المهنة منذ الطفولة و حلمت بأن أصير مثل ذلك الصيدلى الذى يقوم بأعمال غامضة مهمة خلف الزجاج المعتم بينما زبائنه ينتظرون .

كنا نلتقى فى الصيدلية أحيانا بصديق للصيدلى : شاب فى العشرين من عمره يدعى "نسيم غبريال" . كان وسيما أنيقا ومصدرا لكل جديد مثير : يحكى لأبى وصديقه ما يقرأه فى الصحف الأجنبية عن فضائح الملك ، ويحمل معه دائما أشياء مثيرة جديدة علينا ، مستوردة من أمريكا ، يعرضها للبيع : سلاسل مفاتيح متصلة بنماذج لحيوانات تتألف من قطع منفصلة ذات ألوان خلابة يمكن فكها بسهولة لكن إعادة تركيبها تحتاج إلى

مهارة ، كرافقات فاخرة عريضة ذات ألوان باهرة ويطانة داخلية من الحرير الأبيض وأشياء من هذا القبيل . وكان هو أيضا الذى أبلغنا ذات مرة بأن مشروبنا جديدا سينزل إلى الأسواق باسم بيبسى كولا لينافس الكوكا بزوجاجة أكبر حجما بنفس الثمن وهو قرشين ونصف .

أتذكر أيضا بواب منزلنا الذى كانت له ابنة فى سننى تدعى توحيدة . كنت أحب اللعب معها فى مدخل المنزل . ولم تكن أُمى ترحب بذلك ويبدو أن البواب التحق بأحد المصانع فى شبرا الخيمة ، إذ بدأ يخرج فى الصباح حاملا رغيفا من الخبز فى منديل ولا يعود قبل المغرب . وقامت زوجته بعمله . كانت سمراء ، فارعة القوام ، ترتدى دائما ملابس نظيفة ، شديدة الاعتزاز بنفسها ، تعتنى بنظافة ملابسها ومظهرها وترفض القيام بأى عمل داخل الشقق مثل الكنس أو المسح معلنة أنها سيدة منزل مثل بقية السكان وليست خادمة . وتتهرب من تلبية طلبات السكان بحجسج مختلفة أو تغلق على نفسها باب غرفتها الكائنة أسفل السلم ولا ترد على نداءاتهم . ونشأ صراع عنيف بينها وبين أُمى التى قررت التوقف عن دفع القروش العشرة التى كان يعطيها كل ساكن للبواب . وأذكر أن شجارا نشب بينهما مرة ، وأهانتها أُمى فردت عليها بوقاحة ، وحرم على اللعب مع توحيدة فحزنت جدا .

أغرب ما فى الأمر انى لا أذكر جيدا شكل توحيدة على عكس أمها . و أتذكر يوم عدت من المدرسة واسترقت النظر إلى غرفتها فرأيتها ممددة على مرتبة فوق الأرض . وعرفت أنها مريضة . ثم رأيتها بعد أيام وهالنى منظرها . كانت شاحبة الوجه شديدة الهزال محنية القامة . وفى نفس اليوم صعدت

إلى شقتنا وشاهدتها تقبل قدمي وأمي ويعتذر لها ثم تأخذ منها بعض النقود
وأصابني هذا المشهد بحزن عميق

في المدرسة كنت متفوقا ، انضمت إلى جماعة المسرح واشتريت في إخراج
مسرحية لشكسبير أظن أنها هاملت و أخرى لموليير نسيت إسمها ، أحببت
المسرح جدا حتى أني في الجامعة ألفت مسرحية عن العنوان الثلاثي لا أذكر
منها شيئا . انتقلت من مدرسة "الفرير" إلى شبرا الثانوية ، أذكر تلميذا معي
في الفصل نسيت اسمه أعطاني مرة درسا تذكرته عندما دخلت السجن
وساعدتني الذكرى على تحمل التجربة . كان أكبر مني ربما بسنة ، ضئيل
الحجم ، مدمن قراءة ، وأظن أنه درس الفلسفة بعد ذلك ، وفي يوم كنا
وحدنا في معمل الفيزياء ، ووقع مني إناء زجاجي فانكسر ، وعلى عجل دفعت
الزجاج بقدمي لأخفيه أسفل بولاب . رأيته يبتسم في سخرية وقال لي : لن
تصبح رجلا إلا إذا تعلمت كيف تتحمل مسئولية أفعالك .

لم أفهم وقتها ما يعنيه بالضبط ؛ فقد كنت في العاشرة من عمري على
ما أظن . لا أعرف أين هو الآن . على العموم كنت مبسوطا في المدرسة .
فقط درس الدين كان يشعرنى بالحر . فقد كان الفصل ينقسم ساعتها إلى
قسمين ويثجه القسم الأصغر وأصحابه - وأنا منهم - مطأطي الزعوس
كاللصوص إلى قاعة خاصة حاملين الأناجيل ، ونحن نحاول إبعادها عن أنظار
زملائنا المسلمين ..

في السنتين الأخيرتين من المدرسة الثانوية توطدت العلاقة بيني وبين تلميذ
اسمه سمير صبحي يقطن فيلا قديمة من طابقين قريبة من منزلنا . وكانت له
أخت تدعى سارة تكبره بسنة . سمراء دقيقة الحجم جميلة العينين . كان جو

بيتهما مختلفا عن بيتى . به قدر أكبر من التحرر . وعن طريقهما تعرفت بأبن خالتهما أليوب وصديقه حلمى الذى أصبح من أعز أصدقائى .

التحقت بكلية الصيدلة . وسافر سمير للدراسة فى الخارج . ودخلت سارة وحلمى وأليوب كلية الطب . كنا نلتقى يوميا : أخرج من الكلية فى شارع القصر العينى ويخرجون هم من المستشفى و نجلس فى مقهى شعبى صغير فى " المنيرة " نشرب الشاي أو القرفة ثم نعود كل إلى كليته . وخلال ذلك كانت تدور المناقشات الحامية بيننا . . حول كل شئ . القصص والأفلام والموسيقى . . لم تكن نهتم كثيرا بالسياسة (ربما بسبب الجو البوليسى الذى ساد الجامعة والبلاد كلها) رغم المناقشات الواسعة التى دارت بين الأقباط حول التأميمات لأنها شملت أوقاف الكنيسة . لكننا تحمسنا للميثاق الوطنى عندما نص على حق كل مواطن فى الرعاية الصحية وأن العلاج والدواء يجب ألا يكونا سلعة وإنما حقا مكفولا غير مشروط بثمن مادى وفى متناول كل مواطن فى كل زكن من الوطن .

لم تكن هذه بالطبع آراء أهلنا . أبى مثلا كان ساخطا لأن التأميمات شملت الوكالة التجارية التى كونها صديقه صاحب الصيدلية بالإشتراك مع الشاب نسيم غبريال والتى احتكرت تمثيل عدد من شركات الأدوية والعطور الأمريكية . .

كانت سارة أكثرنا جرأة فى المناقشات التى تمس التقاليد . أطلقنا عليها اسم الدكتورة درية شفيق التى اشتهرت فى الخمسينيات بدفاعها عن حقوق المرأة . كانت تطرح تساؤلات من قبيل لماذا لا تكون هناك امرأة بين

القسس ؟ ثم تقول أن المرأة في نظر الكنيسة دون منزلة الرجل لأنها غير مؤتمنة على أسرار الدين وعلى رأسها سر إقامة القداس . فهي مثل أمها حواء قابلة للانجرار إلى الخطيئة ، ناقصة عقل ودين كما قال المسلمون بعد ذلك . هذا بالرغم من أن الأناجيل الأربعة لا تضم كلمة واحدة تفرق بين المرأة والرجل ، فلم تكن العلاقة بين الاثنين ضمن رسالة المسيح التي كرسها للفقراء والعييد . بعكس بولس الرسول ، المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية . فهو يقول في إحدى رسائله التي تقرأ أثناء عقد الزواج : " أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل رأس المرأة ، المسيح رأس الكنيسة " .

كنا نسألها في سخرية . وليه كده يا دكتورة ؟ فتقول أن أمراء الكنيسة طوعوا التعاليم الأصلية لظروف إجتماعية حطت من شأن المرأة وعلت من دور الرجل لأنهم وجدوا مصلحة في ذلك .

كنا نلتقى أحيانا في نهاية اليوم ونذهب إلى منزلها ونتجمع في غرفتها . نأكل أى شئ ونذاكر قليلا ونسمع الموسيقى الكلاسيكية . كنت سعيدا بهذا الجو الذي يختلف عن جو منزلى حيث أبى المتجهم وأمى المتكذبة . . شيئا فشيئا وجدت نفسى أفكر فيها طول الوقت . وقدرت أنى وقعت في غرامها . ولم يكن عندي شك في أنها تبادلنى مشاعرى . كانت تنظر إلى بعينيهما الجميلتين اللامعتين نظرات طويلة . وعندما كنا نعزف على البيان سويا كانت تترك يدها أحيانا فوق يدي . ولم يخطر ببالي مطلقا أن حلمى يحبها هو الآخر إلى أن فوجئت بهما يبلغانى بعزمهما على الزواج بعد التخرج مباشرة . أعتقد أنها أقوى صدمة تلقيتها في حياتى .

تزوج حلمى من سارة ، وأقاما فى منزلها . وتخرجت أنا فأخذت أبحث عن عمل . كان غبريال قد آفاق من صدمة التأميم واشترى صيدليتين فالتحقت بإحدهما . وكنت أخرج منها إلى منزلهما مباشرة . ونسهر الثلاثة نثرثر وندخل فى نقاشات ملتهبة أو نسمع رحمانينوف وبرامز أو أشارك أنا وسارة فى العزف على البيان . لم يخطر لى أبدا أن أسألها لماذا فضلت حلمى على . اعتبرت اختيارها لحلمى منطقيا فهو أكثرمنى وسامة وخفة دم ، وأبوه طبيب كبير وسيخلفه فى العيادة . قنعت بأن أراها كل يوم وألبى طلباتها . وأدركت هى مدى نفوذها على . كانت تمتحنى أحيانا . فتتمطى كالقطة وتقول أنها ترغب فى أكل كباب أبو شقرة . وبسرعة البرق أكون فى الطريق إلى محله فى القصر العينى لأحضر لها طلبها . وكان حلمى يذاكر للماجستير فنخرج وحدنا ونذهب إلى نادى السينما . وكثيرا ما كانت ترتدى إلى جوارى على الأريكة وتنهك فى القراءة وتستند برأسها على كتفى .

لم أتحمل الموقف ففكرت فى السفر . كانت هناك أسباب أخرى بالطبع . فقد ضبط غبريال فى محاولة تهريب مبلغ ضخم من العملات الأجنبية للخارج ودخل السجن بينما وضعت أملاكه ومنها الصيدلية تحت الحراسة . وفى ظل الإدارة الحكومية الجديدة بدأت تتداعى . فلم يهتم أحد بإمدادها بالبضاعة فضلا عما كانت تشكو منه البلاد كلها من نقص دائم فى الأدوية الأجنبية بعد التأميم . وأصبح العمل بها يبعث على الملل . وفى نفس الوقت كنت أحلم بالحياة الرغدة وأهوى جمع المعلومات عن السيارات الجديدة . وأواظب على قراءة مجلة "بلاى بوى" لما بها من صور الموديلات الجديدة من الفتيات والسيارات . وكان الجو حولى وسط الأقباط مشحونا بهاجس الهجرة . فتأميم الأوقاف أثار غضب البابا كيرلس وعداء الكنيسة . وشاعت قصة مؤداها أن البابا كيرلس

زار عبد الناصر في الحلم و توعده قائلا : ابعد يدك عن أملاك الرب .
فاستيقظ عبد الناصر مريضا . وطلب أن يأتي كيرلس لزيارته فرفض
واضطر أن يذهب هو إليه . ألبسه البابا أبيضاً في أبيض ومسح عليه بالزيت
المقدس فشفي . وبعدها تبرع عبد الناصر لبناء البطريركية الجديدة في
العباسية .

أيا كان نصيب هذه القصة من الصحة ، فإن بناء البطريركية الجديدة
لم يخفف من قلق الشعب القبطي . كان الأغنياء الذين تعرضوا للتأميم أو
يخشونه يغذون هذا القلق و يهاجرون بالملئات . وازداد المعدل بعد النكسة في
٦٧ إذ بدا المستقبل أمام الجميع غير مضمون . وخيم على البلاد جو ثقيل
من الكآبة .

عبد الناصر كان مهتما ببناء دولة عصرية . وكانت أمامه فرصة ذهبية
للقضاء على التمييز بين المسلمين والمسيحيين . لكنه لم يفعل . بناء
الكنائس مقيد بقانون يعود إلى أيام الخلافة العثمانية . مادة التاريخ في
المدارس تتجاهل الحضارة القبطية . أي مسلم الأبواب مفتوحة أمامه ليصبح
وزيرا أو سفيرا أو محافظا أو حتى مأمور مركز بينما هناك قانون غير مكتوب
يضع القيود في وجه الأقباط .. مثلا بالنسبة لدخول كليات بعينها مثل الشرطة
والكليات العسكرية ثم مدارس المعلمين .. ومع ذلك يقال أن هناك مساواة وأن
مصر بلد التسامح إلخ .

تقدمت للعمل في فرع بيروت لإحدى شركات الدواء الإنجليزية . كانت صناعة
الدواء تزدهر بسرعة وشركاتها الكبرى تدفع مرتبات أعلى من المرتبات التي

تدفعها شركات النفط قبلوني وسافرت على الفور. كانت بيروت في عزها .
مدينة أنيقة . قطعة من أوروبا أو "باريس الشرق" كما كانوا يقولون . أحدث
موديلات السيارات . مقاهى الروشة الواحد إلى جوار الآخر. كل شئ نظيف
وله لمسة فينيس . فى الصيف زحام التسواح العرب وترش الملح مينزلش
أصبحت عندى سيارة و مسكن جميل فى حي الظريف الراقى . ولم أشعر
بالغربة . و خيل إلى أنى تمكنت من القضاء على شبح سارة . وبعد علاقتين
عابرتين : واحدة بفتاة انجليزية و الأخرى بواحدة لبنانية ، تزوجت قريبة لإحدى
زميلاتى اللبانيات . فتاة مريحة واجتماعية ومن عائلة معروفة.

بعد سنتين تلقيت عرضا من شركة سويسرية منافسة اسمها "كوش" لوظيفة
إدارية أعلى . كان العرض مغريا ، فالشركات السويسرية تفضل دائما
السويسريين فى المناصب الإدارية العليا . و كان عقدى ينص على أن أقضى ثلاثة
شهور فى "بازل" لأتعرف على إمبراطورية كوش ثم أتولى إدارة أحد فروعها فى
الخارج و كان الراتب كبيرا بالنسبة لسنى . كما أن عبد الناصر كان قد مات ،
فتقطعت بشكل ما الخيوط التى بقيت بينى وبين مصر .

.. ذهبت لعمل مقابلة فى بازل BASLE بسويسرا و فوجئت بأن لديهم ملفا
كاملا عنى . بعد ذلك اكتشفت أن بازل تضم ملفات كاملة عن رجالات الدواء
فى العالم و المصريين منهم : كل شئ عنهم : هواياتهم و أمزجتهم الخاصة
وأسرارهم الحميمة و هو أمر طبيعى لأن مصر كانت تشتري كيماويات وخامات
دوائية كل سنة بمائتى مليون جنيه ، و أدوية بمائة مليون جنيه

كانت المقابلة صعبة . استقبلنى رجل بارد بعينين ضيقتين و فم مقوس مثل

رقم ٨ . قدم إلى بعض المقتطفات من المجلات وطلب منى أن أقرأها وأعلق عليها تعليقا فوريا .

الفقرة الأولى كانت للفيلسوف الألماني نيتشه NIETZSCHE يقول فيها أن أخلاق التجار ليست سوى صورة محسنة من أخلاق القراصنة . علقت على هذه الفقرة بقولى إن نيتشه فيلسوف لا يعرف شيئا عن الحياة الحقيقية فلم يكن من المعقول أن أوافق على كلامه . كما أنى لم أكن فكرت فى هذا الموضوع من قبل . أبدت تعليقا مماثلا على الفقرة الثانية وكانت لفيلسوف آخر هو أوجست بيل AUGUST BEBEL يقول فيها أن كل أشكال البيزنيس تقوم على الغش والخداع . وقبل أن يناولنى الفقرة التالية سألنى فجأة : ما هو رأيك فى النظام الرأسمالى ؟ أجبتة على الفور : له عيوبه ولكنى لم أجد بعد أفضل منه . وكنت صادقا فى ذلك القول .

ودون أن تغير ملامحه عاد يسألنى : وقال . والإشتراكي ؟ أجبتة على الفور . له محاسنه لكنى لم أجد أسوأ منه . وكنت أيضا صادقا فى القول .

كان هذا السؤال فيما يبدو توطئة لما جاء بعد ذلك . فقد كانت الفقرة التى حملتها فى يدي من مقال طويل عن مصر فى مجلة أمريكية ، بمناسبة وفاة عبد الناصر . وكانت تسخر من مصر وجمال عبد الناصر الذى ، على حد قولها ، قاد بلاده إلى الهاوية بسلسلة من القرارات الخاطئة بدأت بالتأميمات التى قام بها فى مطلع الستينات . هنا ألفت نفسى فى موقف صعب ولم أدر ماذا أقول . كنت عاجزا عن تأييد المجلة فى سخريتها ، رغم أنى كنت أوافقها لدرجة ما على انتقادها لسياسة التأميمات والدكتاتورية . وأنقذنى الرجل من حيرتى بأن قال إنه لا يطلب منى تعليقا وإنما الإجابة على السؤال التالى . لنفترض أنك أصبحت مسئولا عن فرع كبير للشركة فى

أحد البلاد ، وحدثت به اضطرابات سياسية هددت مصالحنا ، فما هو التصرف الذى تقترحه ؟

كانت لحظة صعبة لكنى تخلصت ببراعة . قلت له أنى سأقترح الالتزام بالوقوف إلى جانب الحق .

إجابة دبلوماسية . لا أعرف إذا كانت هى التى أدت إلى تعيينى . المهم أنهم أعطونى الوظيفة و عندما انتهت الشهور الثلاثة فوجئت بهم يستكملون تدريبى فى كافة الأقسام مثل الإدارة المالية والأدوية و الصناعة و التحليل والتغليف و الشحن .

استأجرت منزلا جميلا بحديقة فى ضاحية راقية من بازل وانضمت زوجتى إلى . إستمتعنا بحياتنا: تنس و حفلات و عطلات نهاية الأسبوع فى الجبال بل بدأت أتلقى دروسا فى الطيران بينما كان راتبى فى ازدياد . و كنا نقضى عطلاتنا فى لبنان إلى أن نشبت الحرب الأهلية فصرنا نقضيها فى أماكن مختلفة من العالم .

بعد ثلاث سنوات بدأت أشعر بالرغبة فى الحركة . ضقت بجوسويسرا الرمادى وبالسحابة الكثيفة من الأدخنة التى تغطى سماء بازل منبعثة من مصانع كوش و"روش" وغيرهما . طلبت منهم أن يجدوا لى عملا فى الخارج فعهدوا إلى أن أقوم بمسح شامل لسوق أمريكا الجنوبية (٢٠٠ مليون شخص يقل دخل الواحد منهم الشهرى عن ٦٠ دولارا و عشرة ملايين عاطل) استغرق منى تسع سنوات سافرت خلالها إلى كل بلدانها ومعى زوجتى . وكانت سعيدة بالسفر و مستوى الحياة كما ان لبنان كانت تفترسها الحرب الأهلية .

لقد حضرت عن قرب أهم الأحداث التي شهدتها أمريكا اللاتينية في العقدين الماضيين فلم تنقطع صلاتي بهذه القارة بعد ان انتهيت من مهمتي . بدأت بشيلي و حضرت قتل رئيسها الليندي في سبتمبر ٧٣ ، و بعد ثلاثة عشرة سنة رأيت المتظاهرين في بنما يجرون دمية من القش في ملابس عسكرية تمثل رئيسها نوريجا NORIEGA ويغزوننها في مؤخرتها بعصا خشبية . شاهدت القسس يقوبون المظاهرات التي ترفع شعارات ثورية وتهتف باسم فيدل كاسترو. لمست كيف تحارب الولايات المتحدة بارونات المخدرات لتنفرد هي بسوقها ، كنت في كراكاس عاصمة فنزويلا في ١٩٨٩ عندما فرض عليها صندوق النقد الدولي خطة تقشف رفعت أسعار الطاقة بنسبة ٨٠ بالمائة والمواصلات بنسبة ٥٠ بالمائة فثار الأهالي وخرجوا إلى الشوارع وشاهدتهم ينهبون المحلات التجارية بينما العسكريون المدربون على حرب العصابات يحصدونهم بالمدافع الرشاشة . رأيت اسرائيل تزود سوموزا سفاح نيكارا جوا بالسلاح والخبرة ، وحكام الأكوادور الدمويين بطائرات كافير ، وتدريب فرق الموت التي اغتالت ٤٠ ألف مواطن في سلفادور ، كما تدرب الكتيبة رقم ٣١٦ التي قامت بعمل مماثل في هندوراس ، ورأيتها تتولى الحراسة الخاصة لنوريجا بارون المخدرات ثم تشترك مع السعوديين في تمويل ودعم الكونترا المناهضة لحكومة نيكارا جوا الشرعية .

والأهم أنى رأيت كيف تعمل كوش والشركات الدولية .

في الماضي كانت شركات البيزنيس تقصر نشاطها على مجالات ضيقة محددة . صناع الصلب ينتجون صلبا ، تجار التجزئة للملابس يبيعون الملابس للجمهور . وعندما كانت شركة ترغب في التوسع ، كانت تفعل ذلك في مجالها ،

فابتكر صناع الصلب عمليات تصنيع جديدة ، ويزيدون طاقتهم الإنتاجية ويتوسع باعة الملابس فى الموديلات والتصميمات . أويفتتحون حوانيت جديدة . وبالطبع كان البعض يتوسعون عن طريق ابتياع المنافسين . ثم كان هناك أولئك الذين سعوا إلى بناء عمليات متكاملة بأن يمتلكوا مصادر المواد الخام لصناعاتهم ونشاطهم ، والتسهيلات الإنتاجية و منافذ التوزيع والبيع . فمثلا كان صناع الغذاء يمتلكون المزارع من ناحية وسلاسل حوانيت البقالة من ناحية أخرى أو العكس . تمتلك سلسلة لحوانيت البقالة مصانع التعليب أو مصانع الغذاء .

ثم تجمعت عوامل عديدة لوقف هذا النوع من النمو أو تقييده . وخاصة القوانين المعادية للاحتكارات التى وضعها الرئيس الأمريكى روزفلت فى الثلاثينيات لانعاش الإقتصاد . حدثت هذه القوانين من توسع الشركة فى مجالها . لكن رجال البيزىنيس لا يملون البحث عن مصدر جديد للربح بأى ثمن . ويزعم فلاسفتهم أن هذه الخاصية بالذات هى المسؤولة عن التقدم الحضارى . وسرعان ما إبتكروا مفهوما جديدا يسمح بتوسع لا حد له .

كلمة السر الجديدة كانت التنويع . فبوسع أى شركة قابضة أن تمتلك أى عدد من الشركات العاملة فى مجالات متباينة دون أن تخرق القوانين المعادية للاحتكار . فولكس فاجن مثلا دخلت مجال اللحوم ، ونستله ضمت المخللات إلى اللبن والشيكولاتة . هذا المفهوم عبق الطريق لظهور ونمو شركات عملاقة متعددة النشاط والجنسيات ذات إمكانيات هائلة . هل يتصور أحد أن جنرال موتورز مثلا دخلها أكبر من دخل سويسرا ؟ . فى الأصل كانت الفكرة سليمة ومعقولة ومفيدة للبيزىنيس والجمهور . فالإدارة المركزية غالبا ما أدت إلى تحسين الأداء وتخفيض التكاليف . كانت الشركة

الكبيرة تحصل على الشركات الأخرى مقابل أسعار جيدة ثم تديرها من أجل توفير المزيد والأفضل من السلع أو الخدمات لمزيد من الناس بأسعار أقل. لكن بالتدريج أصبحت عمليات الضم والإلحاق غاية في ذاتها. وظهر متخصصون في الدمج يصنعون الملايين... زوجوا فيات FIAT لستروين CI-TROEN و بوجلاس للطائرات DOUGHAS لمكدونل MCDONNELL وبيجو لريتو. فعن طريق ضم مزيد من الشركات، أمكن للشركة الأم أن تجعل بيانات موازنتها تعكس نموا مطردا وهائلا. والنتيجة أن ترتفع أسعار أسهمها ارتفاعا هائلا. وهنا اكتشفت الشركات التنويعية أنها تستطيع الحصول على شركات جديدة بمبادلة أسهمها بأسهم تلك الشركات. فإذا لم تتوفر لديها أسهم كافية، استعانت بإصدارات جديدة، ذات أسعار أعلى بفضل المحاسبين وسماسرة البورصة. فإذا فشل السهم وحده في الإغراء، قامت السيولة، المقترضة في غالبية الأحيان، بالدور.

بالطبع يضعب على المواطن العادي فهم ذلك. أنا نفسي لم أفهم ما يحدث حولى إلا بعد مدة. كانت عملية مثل القرصنة. يشترون الشركات الناجحة بأسهم يصدرونها خصيصا تكون قيمتها مرتفعة بتأثير الدعاية المحيطة بالعملية، ثم يجردون الشركات من السيولة النقدية والأرصدة الصلبة. هكذا اختفت المليارات. وفقد المدخرون الصغار كل ما كان لديهم. فى أمريكا بالذات، كان بوسع أى شخص أن يشتري بنكا دون أن يستثمر مليما واحد من نقوده. فهو يستطيع أن يقترض المبلغ كله من مؤسسات مالية ضخمة، مستخدما البنك الذى يريد شراءه نفسه على أنه الضامن الوحيد. وعندما يصبح مسيطرا على البنك، يقترض منه ما يكفى لسداد القرض، فضلا عن مبلغ آخر يمكن أن يبتاع به بنكا ثانيا. ويمكن تكرار العملية

إلى ما لانهاية . عدة بنوك أخرى و بعد ذلك تأييد مرشح للرئاسة ثم يصبح
وزيرا للمالية أو يأخذ مكافأته بأن يلغى الرئيس الجديد بعض الضرائب أو
يعطيه عقدا بسيطا لتزويد القوات الأمريكية المحاربة فى مكان ما ، فيتنام أو
الخليج ، بزجاجات المياه .

عرفت كل هذا بالطبع من خلال العمل مع كوش ورؤيتها وهى تلتهم
السوق و الشركات الأخرى . وبالذات عندما تعرضت كوش نفسها للالتهام
على يد شركة التليفون والتلغراف الدولية الأمريكية ITT أى تى تى . فقد
اختارتنى الإدارة عضوا فى فريق العمل الذى تولى دراسة الاندماج .

هذه الشركة هى ثامن أكبر شركة أمريكية من حيث المبيعات ، تستخدم
حوالى نصف مليون موظف ، نصفهم فى أوروبا . أخذت بعد الحرب عشرات
الملايين من الدولارات من الحكومة الأمريكية تعويضا عن تدمير المصانع والمعدات
التي كانت تملكها فى ألمانيا النازية . نكتة حقيقية . فالشركة زودت هتلر
بمصانع الأسلحة التى قتل بها الجنود الأمريكيين وخلال الحرب ضربت
الطائرات الأمريكية مصانع السلاح الألمانية . وعندما إنتهت الحرب أعطتها
الحكومة الأمريكية عشرات الملايين من الدولارات تعويضا عن هذه
المصانع !! المهم أنها تضخمت بسرعة مذهلة فى الستينيات نتيجة ازدهار سوق
البورصة فى أعقاب تسريع الحرب الفيتنامية . وبلغت ذروتها فى
١٩٧٢ عندما إبتلعت آفيس AVIS لتأجير السيارات التى كانت تملك أكثر من
مائة ألف سيارة وتعمل فى مائة بلد . . . وشركات أخرى تشترك فى أنها
تحقق أرباحا : كلية إدارة ، مدرسة سكرتارية ، شركات تأمين ، شركة
باركينج سيارات ثم موتيلات ، وشركة لإعلانات السيارات ثم شركة نشر

وبعدها شركة إذاعة . مخابز وأخشاب وأدوات كهربائية وطفائيات حريق و بناء منازل وأدوات تجميل و مصابيح ومضخات وأجزاء سيارات وأغذية . إمبراطورية تمتد من طعام الكلاب إلى الترانزيستورات ومن كريم الوجه إلى التليفونات . زبائنهم وموظفوها يمكن أن يتم التأمين عليهم من المهد إلى اللحد بواسطة شركة التأمين التابعة لآى تى تى ، ويقودون سيارات مستأجرة منها ، تقلهم من منازل بننها أى تى تى إلى فندق تملكه آى تى تى .

فقبل سنوات ، التفتت آى تى تى إلى صناعة الفنادق التى كانت تحقق مكاسب ضخمة . لم تتمكن من شراء الهوليداي إن وسبققتها شركة الطيران الأمريكية TWA إلى الهيلتون . وهنا عثرت على فندق صغير فى إحدى الولايات الأمريكية باسم شيراتون فاشتريته ووضعت خطة خمسية لإقامة شبكة فنادق فى ٢٨ بلد . نوع جديد من الفنادق وقتها لا توجد بها مشكلة لغة لأن عاملها يتحدثون الإنجليزية ولا نقد لأن كل شئ ببطاقات الإتمان (تملك الشيراتون حصة فى بطاقة DINERS CLUB) ولا مشكلة نقل لأن أفيس تنتظر فى الردهة . عادة ليست هناك ضرورة لمغادرة الفندق ، فداخله توجد الحوانيت ومكاتب الطيران والمكتبات وبواسطة قرص التليفون يمكن للنزيل أن يشاهد الفيلم الذى يريده وهو فى فراشه كما أن الفلكلور المحلى متوفر فى مشاربها مثل النارجيلة مثلاً أو قدرة الفول . لم تكن فى الواقع عملية مربحة وهى الآن تفضل أن يبنى الآخرون الفنادق بينما تتولى هى الإدارة وتضع اسمها .

ولأن آى تى تى كانت تبحث دائماً عن الشركات الربحية لتستولى على سيولتها فقد وقع بصرها على كوش . وفى نفس اللحظة بدأت متاعبها .

كانت آى تى سى قد اشترت أكبر شركة مخايز أمريكية فى ١٩٦٨ . مقابل ٢٧٩ مليون دولار. وهى شركة ضخمة حقا يتنوع انتاجها بين شيبس البطاطس والبومبونى و الكيماويات . وكانت مشهورة بدعاية تليفزيونية تقدمها عن منتج لها يدعى بالخبز الأعجوبة wonder bread : يصور أطفالا ينمون يقفزات بعد أن يأكلوا الخبز الثمين .

فى أمريكا جهاز حكومى يتولى مكافحة عمليات الاحتكار فى التجارة والصناعة وكان هذا الجهاز يجمع المعلومات عن آى تى سى فى محاولة لإثبات انطباق القانون على نشاطها ، فشرع يستقصى حقيقة المزاعم التى تروجها شركة المخايز فى إعلاناتها وفى مارس ١٩٧١ أعلنت لجنة التجارة الفيدرالية أنها مزاعم كاذبة وأن الخبز العجيب لا يحتوى على غير المواد الموجودة فى الخبز العادى فماذا كانت النتيجة ؟ هل أغلقوا الشركة أو فرضوا عليها غرامة ؟ أبدا . انتهى الموضوع بأن وقعت الشركة على تعهد بإصلاح هذا الخطأ . وفقط .

جهاز مكافحة الاحتكار يبدو مبعثا للإعجاب كنموذج للديموقراطية الأمريكية. وشاهد على أن الرأسمالية تملك القدرة على تصحيح عيوبها . لكن الأجهزة الأمريكية لم تكن أبدا عنيفة كما تبدو . والمواجهات الجريئة للحكومة مع البيزنيس دائما ما كانت تذوى بشكل غامض فالإدارة الأمريكية مدينة له دائما . كان الرئيس كينيدي KENNEDY الذى أحيط بدعاية واسعة أعطته شعبية فى العالم كله ، من أشد أنصار الاحتكارات وكذلك أخوه روبرت الذى كان يشغل منصب المدعى العام ، وكان الأخير فى صراع دائم مع LEE LOEVINGER رئيس جهاز مكافحة الاحتكار الذى أصبح هو نفسه بعد ذلك مستشارا لآى تى سى !! فلم تعجز آى تى سى أو الشركات المماثلة عن

شراء أجدع جدد . اختار جونسون بعد ذلك رئيسا جديدا للجهاز هو البروفيسور DTURNER DONAL الذي وضع كتابا مشهورا ضد الاحتكارات لكنه أصبح أيضا مستشارا لآى تى تى . ودعا وزير ماليته JOHN CONNally صراحة إلى أن تتبنى الحكومة سياسة الاندماج بدلا من مكافحته . وهى السياسة التى اتبعها نيكسون بعد ذلك ..

انتهت مشكلة شركة المخابز . واستؤنفت الإتصالات لبيع كوش . وبدأنا نستعد للحدث القادم . وفجأة فى مارس ١٩٧٢ ، نشر صحفى أميركى كبير فى الواشنطن بوست هو JACK ANDERSON مقالين أعلن فيهما عن وثائق سرية لآى تى تى تبين أنها خططت فى ١٩٧٠ لوقف انتخاب SALVADOR ALLENDE رئيس CHILE الماركسى . وأنها عملت بشكل منظم مع وكالة المخابرات الأمريكية لخلق فوضى اقتصادية فى شيلي . كيف ؟ تقوم البنوك بتأخير القروض وتتأخر الشركات فى إنفاق النقود ويجرى الضغط على بنوك الادخار ومؤسسات الائتمان لتغلق أبوابها ويتم سحب المعونة الفنية وفى نفس الوقت تتضاعف القروض الموجهة إلى المؤسسة العسكرية الشيلية . ليس هذا فقط وإنما شجعت الشركة على قيام انقلاب عسكري وعرض رئيسها الذى ساهم من قبل بمبالغ طائلة فى إنجاح الرئيس نيكسون ، عرض ، من خلال مدير الوكالة جون مكنون (الذى أصبح بعدها بسنة مديرا ل . آى تى تى !!) ، تقديم مبلغ من سبعة أرقام للبيت الأبيض لهذا الغرض .

كان المقالان كافيين لإثارة البلبلة ولأن تهبط أسعار أسهم آى تى تى وتتوقف المفاوضات من جديد . لم يكن المقالان بالطبع ناتجين عن حسن نية ولا تعبيرا عن إخلاص للمبادئ . فهذا شئ لا يعرفه الغرب . حتى ما حدث بعد

ذلك بسنة بالضبط (فى مارس ٧٢) ، عندما كون الكونجرس لجنة برئاسة سناطور اسمه CHURCH للتحقيق فى عمليات المخابرات الأمريكية ، وأحدثت ضجة كبرى أيامها عندما أذاعت قوائم بأسماء عملاء المخابرات الأمريكية فى البلدان المختلفة ومنها مصر . على ما أذكر رئيس تحرير صحيفة يومية و محرر كبير فى صحيفة أخرى . هذا غير كبار المسؤولين . وبلغت الفضيحة ذروتها عندما ظهر مكيون أمام اللجنة ليشهد بأنه انتقل من رئاسة السى آى إيه إلى أى تى تى فى ١٩٦٥ وظل يعمل فى وكالة المخابرات الأمريكية سرا فى منصب مستشار . وأنه ناقش الإنتخابات الشيلية مع خليفته فى رئاسة المخابرات الأمريكية RICHARD HELMS و فيما بعد اجتمع به وبكيسينجر KISSINGER ليعرض المساعدة فى إسقاط ألييندى .

المهم فشلت محاولة شراء كوش . وخرجت من التجربة بزاز من المعلومات الثمينة . تبينت مثلا أن هناك مجموعة من الأسماء تدور فى الحلبة الدولية مثل أوراق الكوتشينة . كأنما هناك قائمة من خمسين اسما يتم منها اختيار وزراء خارجية الدول الغربية ووزراء الدفاع وقادة حلف الأطلنطى و ممثلى الدول الأعضاء فيه ومندوبيهم فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ورؤساء الشركات الدولية العملاقة والبنوك إلخ . نفس الأسماء تتكرر دائما ويتم تغييرها على طريقة لعبة الكراسى الموسيقية . بول هنرى سباك PAUL HENRI SPAK ، النائب السابق لرئيس وزراء بلجيكا أصبح مديرا لشركة أى تى تى ومنها إلى حلف الأطلنطى أو العكس لا أذكر EUGENE BLACK الرئيس السابق للبنك الدولى ، الذى قاد معركة السد العالى ضد مصر ، أصبح رئيسا لأى تى تى ومثله المدير السابق لوكالة

المخابرات الأمريكية JOHN M CCON ، وروجرز ، ماكنمارا ، روكفلر ، والتر
مانديل شولتز وهيچ ..كلهم ..كلهم ...

...كنت قد بدأت العمل فى قسم الخامات BULK VITAMINS . لم نكن
نبيع حبوبا وكبسولات وإنما أطنانا من الفيتامينات والكيماويات لفروع الشركة
والزبائن الخارجيين الذين يصنعون الحبوب ، أو أطنانا من فيتامينات أ ، د ، و
H ، لتوضع فى الدقيق أو المارجرين ، وفيتامين ج للمشروبات الغازية والبيرة
والنبيذ أو للعلب المحفوظة واللحوم الطازجة ، أوكل الفيتامينات فى الغذاء
الحيوانى . وكانت كوش وحدها هى التى تنتج كل الفيتامينات المعروفة ، وعددها
يصل إلى عشرين فيتامينا .

إنتاج الفيتامينات يكلف كثيرا . لهذا كانت أغلب الشركات الأخرى التى تنتج
واحدا أو اثنين من هذه الفيتامينات ، تفضل أن تحصل عليها جاهزة منا
بأسعار منخفضة وتقوم بتعبئتها وبيعها تحت إسمها ، بدلا من إنتاجها بنفسها
وهذا ما كان يحدث طول الوقت . فخلال عملى مع الشركة أغلقت خمس شركات
مصانعها واشترت منا . وبذلك تمكنت كوش من احتكار السوق والتلاعب
بالأسعار كما تشاء .

كنا نجمع المنتجين الرئيسيين للفيتامينات و الكيماويات فى بازل و نناقش
معهم الأسعار ونتفق على سعر موحد . وبذلك تختفى المنافسة و تفرض على
المستهلكين أسعار تحقق للمنتجين أرباحا هائلة . فيتامين ح H مثلا يتكلف إنتاج
الكيلو منه نصف دولار لكنه يباع بعشرة دولارات ! والكيلو من فيتامين ب₂
يتكلف دولارين ويباع بـ ٢٢ دولارا ! فيتامين ج يتكلف دولارا واحدا للكيلو ويباع
بـ ستة ! ! ومن خبرتى عرفت أنه من الممكن تقدير حجم الطلب على منتج معين فى

السنوات القادمة . و عندئذ يحدد سقف للإنتاج يكون أقل قليلا من الإحتياجات العالمية بحيث تبقى الأسعار عالية حتى ولو أدى هذا إلى ألا تعمل المصانع بكافة طاقتها .

فى النهاية يجد المستهلك نفسه مجبرا على الشراء بالسعر المطروح . فإذا جرّوت شركة على تحدى هذا السعر يمكن قتلها عن طريق تخفيض الأسعار إلى مستوى يؤدي إلى إفلاسها ثم إعادة رفعها مرة ثانية . وبعد ذلك يأتي دور المنافذ . فيمكن الضغط على كيماويى الجملة الذين يحققون جانبا كبيرا من دخلهم من هذه المنتجات . وهؤلاء يملكون وسائل الضغط على الصيدليات . وهذه بدورها تتكفل بالأطباء . فإذا وصف طبيب لمريضه دواء منافسا منخفض الثمن ، أبلغته الصيدلية أن الدواء غير متوفر فيتوقف عن وصفه .

لم تكن هذه هى كل الحيل فى جعبة كوش . فلديها وسيلة أخرى تكشف أكنوبة حرية المنافسة : تتفق مع أهم المستهلكين على أن يشتروا كافة احتياجاتهم أو على الأقل تسعين بالمائة منها من كوش مقابل أن يستعيدوا - سرا - فى نهاية كل عام ٦ أو ١٠ بالمائة من حجم مشترياتهم "مكافأة على الإخلاص" بحيث لا يدرى المنافسون بهذا التخفيض وإلا نافسوا بعمل تخفيض مماثل . و أطلقت كوش على هذه الوسيلة اسم "عقود الإخلاص - FIDELITY" ، وزعمت أنها تهدف لتوفير الأمان للعملاء .

توجد بالطبع فى سويسرا قوانين تكفل حرية المنافسة لكن سويسرا ككل الدول الرأسمالية الغربية ، دولة منافقة . من يطبق هذه القوانين ضد شركة عملاقة يمتد نفوذها فى كل مكان و تنوى أبناء السياسة و واضعى القوانين و منفذوها ، ترعى الفن و الموسيقى و تنبرع للقضايا الهامة وإسرائيل؟ بازل

نفسها كانت مدينة لكوش بالكثير . فهي تستجلب الفرق الموسيقية لتعزف لمواطني بازل وهي تستخدم آلاف من سكان المدينة . كما أنها مدينة لها أيضا بسحابة الدخان التي تغطي سماء المدينة وتحمل المسئولية عن ارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان . بين سكانها .

هل توقف جشع كوش عند هذا الحد ؟ أبدا . هنا يأتي دور الفروع المنتشرة في أنحاء العالم . فهي تباع لفرعها في إنجلترا الكيلو الخام من مسحوق ليبريوم LIBRIUM بثمن ٣٧٠ جنيه استرليني بينما يمكن شراؤه في إيطاليا بتسعة جنيهات (و الفاليوم VALIUM ب ٩٢٢ جنيه سترليني مقابل عشرين في إيطاليا) ! السبب هو أن إيطاليا لم تكن بها حماية لبراءات الاختراع و بالتالي يتألف ثمن المنتج من التكلفة الحقيقية زائد ربح بسيط .

ولكى تتفادى دفع الضرائب أقامت فرعا في مونتفيدو بالأوروغواي حيث لا توجد ضرائب على أية أرباح تحققها و حيث لا يوجد لها أيضا وحدات إنتاجية . ويتم تحويل الزبائن في مختلف أنحاء العالم إلى شركة مونتفيدو : فإذا كان المنتج يتكلف مثلا ثمانية جنيهات للكيلو و السعر العالمي عشرين فإن الزبون يشتري من فرع مونتفيدو بعشرين بينما تتقاضى كوش بازل من كوش مونتفيدو ثمانية جنيهات و نصف جنيه للكيلو ، و بذلك تبدو أنها حققت نصف جنيه ربحا في الكيلو بينما تكون كوش مونتفيدو قد حصلت على الجزء الرئيسي من الربح و هو ١١ جنيه و نصف جنيه .

- كنا . نحن المديرون الصغار ، نجتمع برئيس الشركة في قاعة اجتماعات تتسع لألفين من الجالسين بناطحة سحاب عملاقة من الزجاج و الرخام الإيطالي الفاخر ترتفع ٢٨ طابقا . قاعة دائرية تتوسطها منصة مرتفعة تحيط بها صفوف

من المقاعد المغطاة بلون كوش المميز وهو الأحمر الدموي . وعندما ندخل نجد أنفسنا كأننا في قاعة رقص ملكية غارقة في الأضواء الساطعة التي ما تلبث أن تخفت بينما يأخذ الرئيس، الدكتور لاندري، مكانه على المنصة . وما أن يبدأ الحديث حتى نكون جالسين في ظلام دامس بينما هو وحده يقف في دائرة من الضوء الساطع القادم من كشافات في السقف . دائما نفس الحديث : " حققوا مزيدا من النقود لكوش " . لم نبتكر شيئا جديدا منذ وقت طويل " . نحن نحتاج إلى مزيد من المنتجات ووسائل جديدة لكسب مزيد من النقود " .

مزيد من النقود لماذا ولأي هدف؟ تزعم كوش أنها تسعى وراء الربح من أجل دعم البحث العلمي . وهو زعم منافق أيضا . فالبحث لدى كوش هو نوع من الإستثمار . سيقول البعض : وماذا في ذلك ؟ إنه استثمار مفيد للإنسانية . وهو منطق يمكن قبوله . سوى أن أبحاث كوش التي تنفق عليها الملايين لا تعبأ بتطوير عقاقير فعالة للأمراض المستعصية وإنما تركز على العقاقير الرائجة ، التي غالبا ما لا تكون لها فائدة علمية محققة .

لقد وضعت منظمة الصحة العالمية قائمة للأدوية الأساسية الضرورية وتضم ٢٠٠ دواء فقط رخيصة الثمن . لكن السوق به عشرات الآلاف من الأدوية وتنفق الشركات ٢٠ بالمائة من المبيعات لإقناع الأطباء بأفضلية منتجاتها ومن ناحية أخرى فإن ما تنفقه الهند على الدواء يكفي لد المياه النقية إلى سكان الريف أي لإجتناب أمراض الدوسنتاريا والكوليرا والتيفويد والإسهال التي تلتهم أكبر نصيب من الدواء .

لنأخذ حالة طفل أصيب بالإسهال في قرية من قرى الصعيد . غالبا ما يكون السبب هو الماء الملوث أو زجاجات الرضاعة الملوثة . ستذهب أمه إلى أقرب صيدلية فيوصي البائع عادة بالمضادات الحيوية : تتراسكلين وكهورا مفينيكول

وواحد أو أكثر من مضادات الإسهال مثل الميكسافورم MEXAFORM . لكن في بريطانيا مثلا لا يمكن وصف التتراسكلين TETRACYCLINE لحالة إسهال إلا إذا شخصت على أنها كوليرا . و لا يمكن إعطاؤه لطفل تحت ١٢ سنة بحال وإستحالة للرضع لأنه يمكن أن يعوق النمو وتكوين الأسنان . كما أن الكلورامفينيكول chloramphenicol لا يعطى إلا للتيفود والعدوى الشديدة التى فشلت المضادات الحيوية الأخرى فى علاجها لأنه يمكن أن يسبب أمراضا فى الدم . أما الميكسافورم فغير موجود فى السوق البريطانية إذ ثبت أن عنصره الأساسى الكليوكينول CLIOQUINOL يسبب دمارا لا يمكن علاجه للجهاز العصى . نفس الشئ ينطبق على مضادات مثل سترپتوميسين -STREP TOMYCINE و نيوماسين NEOMYCINE و سلفوناميد SULPHONAMIDE . مات ملايين الأطفال فى العالم قبل أن يقتنع الجميع بأن أعظم مضاد حيوى فى العالم لن ينقذ الطفل بل ربما قتله لأنه يدمر البكتيريا الطبيعية فى الأمعاء لكن الأم تستطيع إنقاذه بكوب ماء مغلى و ملعقة من السكر و ملء أصبعين من الملح .

أغلب الأدوية المتاحة لا قيمة لها . والمستوردون والصيدالة فى بلدان العالم الثالث يفضلون التعامل فى الأدوية الأجنبية الغالية و لا يحفلون بتوفير الأدوية الأساسية الرخيصة بسبب هامش الربح الضئيل . روش مثلا ، المنافس الأكبر لكوش ، تباع بنجاح ريدوكسون REDOXON فى المكسيك : الميكسيكيون يستطيعون الحصول على حاجتهم من فيتامين ج بشراء البرتقال و هو أرخص عشر مرات ! كما تباع هناك أيضا باكتريم BACTRIM بثمان مائة بيضة للعشرين قرصا و نفس العقار متوفر بإسم آخر من إنتاج شركة أخرى بأقل من نصف الثمن . لكن الناس تقبل على الأول بسبب الدعاية .

سعر كبسولة التتراسيكلين فى القليلين أعلى ٨ مرات من سعرها فى الولايات المتحدة . غريبة . مش كده ؟ المفروض العكس . لكن هذه هى الحقيقة . الفقراء يدفعون أكثر . .

تزعم النشرة المرفقة بدواء تنتجه شركة جلاكسو البريطانية، موجهة إلى المهن الطبية ، أنه . " يمكن أن يشجع عمليات النمو ، وينشط الطاقة البدنية و اليقظة والحالة الصحية العامة " . لكن الشركة لا توزعه فى بريطانيا وإنما على حد تعبير مديرها . " فى بلاد معينة عبر البحار حيث تختلف المفاهيم الطبية والعلاجية لدى الأطباء و الصيادلة و الجمهور عن مفاهيمنا " !!

اختلاف المفاهيم . أى أنه يمكن إقناع أى فلاح فى بلد متخلف مثل بلدنا بأن يشتري نواء معيناً إذا قلت له أنه يقوى "العصب" . وهى كلمة لا معنى لها طبياً .

منذ أكثر من عشر سنوات أعلنت شركة ميرك MERCK الأمريكية خطة إنتاج جاء بها : " هدفنا الوصول إلى ٧٥ بالمئة من نصيب السوق .. ويمكننا الحصول على نتائج بارزة بالتأثير فى السوق " . ما معنى التأثير فى السوق ؟ تقول الخطة أيضاً بصريح العبارة : " الخطر الرئيسى على البيع هو أن تقوم حكومة ما بحظر استيراد أحد مستحضراتنا ... لهذا يجب الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع المسؤولين فى وزارات الصحة و التجارة لضمان استيراد منتجاتنا " .

لقد رأيت فقرا شديدا فى العالم و رأيت الناس عاجزين عن شراء الفيتامينات والأدوية . ورأيت كيف أن كوش عندما سمعت نبأ انتشار وباء أنفلونزا فى الهند بدلا من أن تنتج كميات أكبر من فيتامين ج و تخفض السعر ، قلت حجم الكميات الذاهبة إلى السوق و زادت الأسعار . وفى نفس الوقت لم تطور شركة

واحدة دواء جديد للتدرن الرئوى منذ عام ١٩٦٦ بسبب اعتقادها أن هذا المرض لا يصيب البلدان المتقدمة وبالتالي لا يدر علاجه ربها !

عشرون عاما تقريبا من العمل مع كوش كشفت لى الحقيقة المرة . ليس عن كوش وحدها وإنما عن عالم الدواء العالمى أيضا . وبينت لى ما كنت أجهله ولا يخطرلى على بال : إن نفاق الغرب لا حد له ! (الم تصدر الأمم المتحدة التى يسيطرون عليها ١٩٢ قرارا ضد إسرائيل لم تنفذ منها واحدا بينما يرغموننا نحن على التنفيذ بكل احترام؟)

هل يعرف أحد ان حكومات إنجلترا وفرنسا وسويسرا تعفى صادران الأدوية من الرقابة على السلامة والنوعية والجودة وهى الرقابة المفروضة محليا على أى دواء جديد قبل الترخيص بتوزيعه؟ وأن هيئة الغذاء والدواء فى أمريكا تسمح بتصدير الأدوية التى انتهى تاريخ مفعولها أو غير مسجلة نهائيا تحت عنوان "استقصاء" . لتجربتها على الشعوب الأخرى ؟

ولا يقف الأمر عند هذا الحد . . فـدواء لوموتيل LOMOTIL مثلا المضاد للإسهال يستخدم فى أمريكا تحت تحذيرات مشددة بالنسبة للجرعة لأن تجاوزها ولو بقدر طفيف يؤدى للوفاة ، لكنهم صدروه إلى السودان فى عبوات كتب عليها "هذا الدواء استعماله رواد الفضاء فى رحلات جيمنى و أبولو " ، ويمكن إستخدامه للأطفال من عمر عام وأحد !! المضاد الحيوى كلوروميستين CHLOR OMYCTICI NE منع فى أمريكا وبيع فى المكسيك و تسبب فى وفاة ٢٠ ألف شخص . عقار ديبوفروفيرا DEPO - PROVERA لمنع الحمل منع فى أمريكا بسبب إحدائه تشوهات فى الأجنة وأمراض سرطانية لحيوانات المختبر لكنه ما زال يباع فى ٧٠ دولة من العالم الثالث .

أذكر أنى حضرت مؤتمرا للسكان فى طوكيو عام ١٩٧٧ ، ووقف مندوب
الوكالة الأمريكية للتنمية يدافع عن حبوب لمنع الحمل ثبت أنها تؤدي إلى
تضخم الثدي . قال بكل صفاقة إن هذه الحبوب ، تجعل ثدى المرأة أكثر جمالا
وتفيد الجميع بما فى ذلك صانعى الأحجام الكبيرة من السوتيانات !

لو أحصيت الأنوية الضارة التى تباع فى بلادنا أو البلاد المماثلة لنا
بينما هى محرمة فى بلدها الأصلى سأتحتاج إلى كشكول كامل ... عقار
رونيسترول الذى ثبت أنه يعيق النمو فى الأطفال يباع فى البرازيل على أنه
فاتح لشهية الأطفال . دهان فراميكرون FRAMYCORT من شركة فيزون
FISONS يحتوى على نيوميسين سلفات NEOMYCIN SULPHATE فى
بنجلاديش لكنه فى بريطانيا يحتوى على FRMYCETIN SULPHATE
فراميسين سلفات بسبب الآثار الجانبية الخطيرة للنيوميسين .. فاليوم روش
الذى توزعه فى تايلاند لا يحمل التحذيرات و الآثار الجانبية الموجودة على الدواء
الذى توزعه فى أوروبا أو أمريكا . عقار بتنيلان BETNILAN من جلاسكو
GLAXO الموزع فى بنجلاديش تؤكد نشرته أنه فعال فى علاج الروماتويد
RHEUMATOID لكنها لا تشمل التحذير الذى يوزع فى بريطانيا عن ضرورة
إستخدام أقل جرعة ممكنة وأن الجرعات يجب تخفيفها بالتدريج . الأكثر من هذا
أن الجرعة الموصوفة فى بريطانيا تتراوح بين نصف ملجم و اثنين يوميا وهى
فى بنجلاديش ثلاثة ملجم . . مبيد الفوسفيل الممنوع دوليا سمح بتصديره إلى
مصر وتسبب سنة ١٩٧١ فى نفوق ١٢٠٠ جاموسة !! .. القائمة طويلة .

هناك أكثر من عشرين ألف شخص يموتون سنويا فى العالم الثالث من
جاء استخدام المبيدات الحشرية التى لم يعد الغرب يستخدمها على نطاق واسع .

جهل السكان هو السبب كما يقال ؟ أبدا . بدليل هذه القصة التي وقعت في مصر دونا عن أى بلاد الدنيا .

في ١٩٧٨ ، و كنت وقتها في فنزويلا ، أعلنت مجلة دير شبيجيل الألمانية أن شركة سيبا جايجي CIBA GEIGY السويسرية للأدوية ، قامت بتجربة المبيد الحشري "جاليكرون GALYCRONE على أطفال وشبان مصريين بعد أن ثبت أنه يسبب أمراضا سرطانية لفئران التجارب و أن تقريرا أمريكيا سجل ظهور نزيف دموي في بول الفلاحين في نفس اليوم الذي استخدم فيه المبيد . وفي أعقاب نشر النباء أصدرت الشركة بيانا اعترفت فيه بأن " بعض الأطفال المصريين أصيبوا بالسرطان نتيجة استخدام مبيد جاليكرون عام ١٩٧٦ " . وكان رد فعل السلطات المصرية مضحكا فقد أعلنت وزارة الصحة أنها لا تسمح بإجراء تجارب على أى مواطن تعرض حياته للخطر ، وأن تجارب استخدام الجليكرون كانت على دودة القطن وليس على المواطنين ! ونفت أن تكون أية آثار ظهرت على المواطنين والأدهى من ذلك أنها دافعت عن المبيد وأكدت أن الأبحاث الجديدة عليه أكدت خلوه من الآثار الضارة على الحيوان والإنسان ولهذا أعيد تسجيله في قائمة المبيدات المسموح بتداولها في مصر . أما ممثل الشركة في القاهرة فاعترف بأن المبيد سبب "بعض المتاعب الصحية " للأطفال المصريين بسبب جريهم في الحقول وراء طائرات الرش ونفى أن تكون حدثت إصابات سرطانية . من ساعتها بدأت أتساءل : الأمراض و التشوهات الخلقية التي أصابت الأبرياء من ملايين الفقراء في أفريقيا و آسيا نتيجة التجارب الكيماوية التي تقوم بها الشركات الغربية ، كيف تعوض ؟

كنت أتردد على القاهرة عندما تسمح الظروف .أى أكون فى طريقى من بلد إلى آخر، هناك شئ مثير فى أن يفطر الواحد فى أمستردام ثم يمكنه بعد ذلك أن يتناول طعام الغداء فى فندق سميراميس وسط القاهرة . وجئت خصيصا مرتين : الأولى عندما مرض أبى وأشرف على الموت . والثانية عندما ماتت أمى بعده مباشرة . . وكانت المناظر التى تطالعنى تملأنى بالأسى والنفور ويصدمنى وسط البلد بالقبح والتراب . أذكر حانوتا كبيرا للأحذية على ناصية شارعى شريف وقصر النيل تفنن فى عمل ديكور لواجهته فأحاطها بحدوة هائلة سوداء اللون من الخشب أو الكاوتشوك لا أدرى . كانت بشعة . وعندما بدأ الإنفتاح أملت أن يؤدي إلى تنشيط الإقتصاد وتحديث البلد .

على العموم أنا كنت أعيش فى أماكن مشابهة أثناء تنقلى فى أمريكا اللاتينية . فلم أشعر بالغربة أبدا . وخصوصا عندما استقر بى الأمر فى المكسيك . كنت اقترحت على الشركة إقامة مصنع فيها للاستفادة من تخفيض العملة وضالة الأجور فعرضوا على أن أتولى المهمة . قضيت فيها تسع سنوات من ٨٢ حتى حرب الخليج . اعتبرها أهم فترة فى حياتى . .

... المكسيك أمم و لغات . . . قرابة التسعين مليونا . وعاصمتها ستصبح قريبا أكبر مدن العالم ، يسكنها الآن ١٦ مليون أو أكثر . الزحام والمواصلات والضجة والوجوه المتجهمة . كل شئ يشعرك أنك فى القاهرة . الأهرامات . نعم . عندهم أهراماتهم . . والقصور الجديدة التى يملكها أهل البيزنيس ومهربي المخدرات والمتقاعدون من السياسة وقادة الشرطة ، بينما تتكوم عائلات مكونة من خمسة أشخاص وأكثر فى غرفة واحدة . ثلث سكان العاصمة بهذا الشكل .

والتلوث . كل يوم ١١ ألف طن من العادم فى الهواء . إذا خرجت من السيارة
لبضع دقائق يسود قميصى ووجهى . الشوارع الجانبية حية ومزدحمة طول
الوقت . . . حوانيت الميكانيكية و السمكزية فى كل مكان . حوادث السيارات
كل يوم . عشش الصفيح . كأنك فى القاهرة . فارق واحد يتضح على الفور .
فعلى عكس القاهرة المؤدبة المستكينة ، المظاهرات هناك كل يوم . مظاهرات
تهتف بكاسترو أو للحمروهم السكان الأصليين ، ومظاهرات ضد الجوع
و ضد الإعتقالات .

المكسيك أيضا جنة للسائح الذى معه دولارات . فى سنة ٧٦ خفضت
الحكومة قيمة العملة إلى النصف لسداد ٢٠ مليار دولار سبق أن استدانتها من
أجل التنمية . الفكرة أن التخفيض سيؤدى إلى تخفيض قيمة الصادرات
بالنسبة للدولار وبالتالى زيادة حجمها . ومن حصيلتها يمكن تسديد الديون . هذه
هى وجهة نظر صندوق النقد وأنصار التخفيض . أما الواقع فمختلف .
المضحك هو أن الديون التى تم التخفيض بزعم تسديدها جاء أغلبها من
أمريكا و تولى رجال الحكومة والصناعة تهريبها إلى أمريكا مرة أخرى فى
صورة استثمارات خاصة لهم دون تنمية أو دياولو .

فى البداية نزلنا فى شقة فندقية كبيرة كانت تكلفنى أقل من عشر
دولارات فى اليوم . ثم ابتعت (أو على الأصح ابتاعت لى الشركة) شقة
كبيرة فى الطابق السابع عشر من مبنى حديث وأصبح لدى ثلاث غرف نوم و
صالتا استقبال وثلاث حمامات و غرفة للخادمة وحمام لها ومطبخ و مصعدان
يصلان مباشرة إلى شقتى . كان أغلب السكان الآخرين من الدبلوماسيين ورجال
الأعمال مثلى وأثننا منزلنا مثلهم من حانوت مخصص للصفوة . لا بد من أن يدق
الواحد جرسا و يتم فحصه أولا من خلال عين سحرية قبل أن يسمحوا له

بالدخول و الشراء . وكان عندنا طبّاخ و خادّات و سيارة "موسْتانج" لها سقّف من الفينيل . وقرّرنا أن الوقت قد جان لإنجاب الأطفال . . أحببت المعيشة هناك وأن يكون لدى منزل كبير و سيارة بسائقها وأن ألعب الجولف و أمارس رياضة القوارب . و تجاهلت عن عمد البون الشاسع بين حياتي و حياة الأهالي .

كانت سعادتنا مرتبطة بقبول النظام الإجتماعي الذي نعيش داخله . و في ذلك الوقت لم أهتم بالتفكير في عدالته . كان مرتبي الرسمي مثلاً في ارتفاع مستمر ومع ذلك كنت أحصل على أكثر منه بكثير . كنت أقبض راتبا مضاعفا في يونيو وثلاثة أضعاف في ديسمبر . و الهدف من ذلك هو مكافأة العاملين من خلف ظهر زملائهم . فالجميع كانوا يعرفون بشكل رسمي أن لهذه الوظيفة مثلاً راتب شهري معين لكنهم لا يعرفون كم عدد المرات التي يتقاضى فيها الموظف هذا الراتب . و هذا المبدأ هو المطبق في دفع رواتب العاملين في الخارج لكن بهدف آخر هو الإبقاء على المستوى المنخفض للأجور في البلدان النامية . فعندما اتفقت مع الشركة على مستوى راتبي كمدير في المكسيك ، قامت بتحديد المقدار الذي سيدفع لي فعلايتها والمقدار الذي سيوضع لي بحسابي السويسري في بازل . ثم أخطرت المحاسب المكسيكي بالمبلغ الذي سيدفع لي في المكسيك وحدها وهو الذي سأعلنه و أسدد عنه الضرائب . أما المبلغ الموجود في البنك السويسري فلن يعلن عنه في سويسرا ولن أسدد عنه أية ضرائب في أي مكان .

أرادت كوش أن تخفى عن العاملين المحليين لديها في البلاد الأخرى مقدار ما يحصل عليه زملاؤهم العاملون بعقود أجنبية . فالفارق بين ما كنت أتقاضاه وبين ما يتقاضاه الكيمائي المكسيكي الذي يعمل عندي يبدو في الظاهر الفارق الطبيعي بين وظيفته ووظيفة المدير . فلو أدركوا أنني في الواقع أتقاضى ضعف ذلك المبلغ وأنه يمثل قيمة السوق الغربية الحقيقية لهذه الوظيفة لحدث

ثورة لأنهم يحملون نفس مؤهلاتى بالضبط . النساء اللاتى كن يعملن فى قسم
التغليف و التعبئة كن يتقاضين مقابل العمل من الثامنة صباحا إلى الخامسة
بعد الظهر أقل مما أُعطيه لخدماتى .

نجحت . المكسيك بها كتلة رئيسية من السكان لا تملك قوة شرائية وتعيش
على حافة الفقر . ومع ذلك تمكنت خلال ثلاث سنوات من تحقيق مبيعات مقاديرها
١٥ مليون فرنك سويسرى و كان لدى مائتا موظف .

فى البداية كنت مثل السواح تماما . رحلات فى أنحاء البلاد حيث الطبيعة
الوحشية المتنوعة . ذهبت إلى ACAPULCO التى حولتها قروض البنك
الدولى من قرية صيادين إلى جنة سياحية للأثرياء حيث يمكن للواحد فى
فندق البريزيدنتى IL PRESIDENTI أن يشرب كأسا من النبيذ وهو داخل
حمام السباحة . تفرجت على مصارعة الثيران وجربت رياضة تسلق الجبال .
استمتعت بألوان الطعام والفنون . الأسماك المشوية فى ورق الموز . التورتيللا
وفاكهة البابايا والموسيقى الشعبية ولوحات ريفيرا و سيكورس العملاقة وأثار
حضارة الأزتيك الرفيعة فى وسط البلاد والمايا فى جنوبها . شعب المايا
من الشعوب المتميزة فى تاريخ البشرية . قبل الميلاد بخمسمائة سنة كان
أبنائهم يعرفون الكتابة ولديهم تقويم وكانت مدتهم تقوم على مجتمعات منظمة
على درجة عالية من التكنولوجيا والعمارة والنحت والرسم والتجارة .

شبيئا فشيئا ازدادت معرفة بالتاريخ المأساوى لهذا البلد الجميل . فى سنة
١٥٢٠ غزاه الأسبان ونجحوا خلال عقد واحد فى تدمير ثلاث حضارات
متجاورة : الأزتيك و المايا والإنكا . وتم ذلك تحت راية المسيح مثلبا تم الفتح
العربى لمصر تحت راية الإسلام . أقنعوا الأهالى بمسيح أشقر وظهرت العذراء

لأحد الهنود وطلبت أن تبنى لها كنيسة فى مكان ظهورها وطبعت صورتها على ردائه . ولم يبخل سفاح الغزو الإشباني كورتيز بالتبرعات لبناء كنيسة سانت فرانسيس لتصبح مركز نشر الكاثوليكية فى أمريكا بينما كان يقود ، بوحشية نادرة المثال ، عملية نهب الذهب المكوم فى المعابد . فلم يكن المساكين من أبناء هذه الحضارات يعرفون له فائدة عملية . . التاريخ غريب حقا . . فوق أكوام من الجثث وأنهار من الدماء ولدت الحضارة الرأسمالية . . فقد ساهم هذا الذهب فى تمويل رحلات استكشافية وحملات استعمارية وابتكارات صناعية . . ودامت السيطرة الأسبانية ثلاثة قرون وهذا وجه شبه أيضا معنا . فقد جثم الأثرak على صدورنا نفس المدة وحوالى نفس التاريخ . وقبلهم مكث الصليبيون الأوروبيون نفس المدة .

.. أوجه الشبه كثيرة كما قلت . فى العاصمة يوجد هرم CUICUILC0 المستدير الذى بنى منذ أربعة آلاف سنة . وفى مدينة CHOLULA المقدسة أكبر هرم فى العالم وهو فى حقيقته عبارة عن سبعة أهرامات فوق بعضها بنيت فوق بعضها فى عصور مختلفة . لكن التاريخ الحديث لبلدنا حافل بأوجه التماثل أيضا ، من الثورات الفاشلة حتى صندوق النقد الدولى .

• فى سنوات مراهقتى رأيت فىلما أمريكيا باسم "فيفا زاباتا" . كان EMI-LIANO ZAPATA أحد الذين تزعموا فلاحي المكسيك فى عشرينات هذا القرن . هاجموا الأغنياء وصادروا أراضيهم ثم وزعوها على المعدمين . الآن فى المطاعم الفاخرة والحفلات يأكل الميكسيكيون المحترمون على صوت موسيقى شعبية تعزفها فرقة من العواجيز يرتدى أفرادها الملابس الشهيرة التى كانت تميز زاباتا ورجاله : رداء أبيض اللون من سترة على شكل القميص وسروال يربط بخيط عند خاصرة القدم أو الكاحل وقبعة عريضة من القش لها

قمة مخروطية وشريط من الطلقات النارية فوق الصدر أو شريطين متعانقين فوق البطن وأخيرا البندقية الخشبية القديمة . هذا هو ما تبقى من الثورة . أما صندوق النقد الدولي فله قصة أخرى .

فى الولايات المجاورة للعاصمة المكسيكية رأيت مشهدا نادرا يتكرر كل شتاء: بلايين الفراشات تهاجر من الولايات المتحدة وكندا بحثا عن الدفء والطعام فتستقر وسط المكسيك . وتختفى الأشجار تحت كثافة جموعها وغالبا ما تنقص أغصانها نتيجة ذلك . وعندما يأتى الربيع تعود إلى مواطنها بعد أن تترك بيضها فوق الأشجار ليقتس ويتغذى على راحته .

هذا هو الدور الذى تقوم به المكسيك بالنسبة لجيرانها الأغنياء فى الشمال على مدار العام . لقد تحولت الزراعة من الانتاج المحلى (الذرة والقمح) إلى الانتاج من أجل التصدير (البصل والخيار والطماطم والأسبرجس والفراولة) . والنتيجة أن المكسيك تجد نفسها مضطرة للاستدانة من أجل الحصول على القمح والذرة لأن الناس لا يمكن أن تغمس الجبن بالفراولة (التى تعجز عن شرائها لارتفاع سعرها) . وتكتمل الدائرة الخبيثة إذا عرفنا أن ٥٦ بالمائة من الفواكه والخضراوات المنتجة للتصدير فى أمريكا الوسطى تلقى حرقا فى الزبالة لأنها إما تواجه سوقا متخمة فى الولايات المتحدة أو لا تستوفى المعايير الجمالية للمستهلكين هناك ! كما أن الأرض التى يحصل عليها المستثمرون بثمان رخيصة يستخدمونها بصورة رخيصة تؤدي إلى استنزافها باستخدام مدمر للرى والمبيدات . لكن الشركات الزراعية تدرك أن بإمكانها الانتقال إلى أراضى جديدة أو حتى إلى بلد آخر حيث يمكن بدأ العملية برمتها من جديد !

فى وادى ثامورا رأيت مشهدا مشيراً من نوع آخر . فى البلدة التى تحمل هذا الاسم مائة ألف من السكان وتأتى آلاف أخرى إلى الوادى بحثاً عن عمل و ينامون فى الطرقات حيث تمثل نفقات المواصلات بالنسبة للبعض ٣٠ بالمائة من الأجر اليومى إذا وجدوا عملاً . ويعيش أكثر من ثلاثة أرباع السكان فى أحياء من الكرتون تطوق البلدة بعرض نصف ميل بلا مرافق صحية ولا مياه جارية والقليل من الكهرباء . وهناك أيضاً قصور يملكها مليونيرات الفراولة .

شاهدت خمسة آلاف باحث عن العمل محتشدين من الخامسة صباحاً بجوار محطة القطار . وفى حراسة عسكريين مسلحين بالبنادق نصف الآلية كانوا ينتظرون مجئ مندوبى الشركات فى الشاحنات لينتقوا بضع مئات من العمال يتقاضون أقل من الحد الأدنى القانونى للأجر وهو ثلاثة دولارات يومياً . ويقنع النساء و الأطفال بثلثى هذا المبلغ .

رغم مظاهر الفقر الشديد المحيطة بى كانت هناك أيضاً مظاهر ازدهار اقتصادى لا ينكر لم أرها فى كوبا أو دول الكتلة السوفيتية التى مررت بهافى زيارات عابرة . فالواردات الأجنبية فى كل مكان . نجحت الخطة الأمريكية التى رعاها البنك الدولى لخلق طبقة متوسطة متلهفة على شراء الواردات . من أمريكا بالطبع . انهالت القروض من البنوك التى تجمعت فيها أموال النفط العربى بعد ٧٣ ، وصار البنك الدولى فى كل مناسبة يستشهد بالمكسيك ليدلل على نجاح مفهومه للتنمية . أما الأزمة التى ظهرت سنة ٧٦ فقد حلتها الحكومة كما ذكرت من قبل بتخفيض العملة . لهذا فإن ما حدث عام

١٩٨٢ جاء مفاجأة . . أعلنت المكسيك فجأة وبدون مقدمات عجزها عن تسديد

ديونها الخارجية لأكثر من ٥٠٠ بنك .

قضيت يوم الإعلان كله بمكتبي ، ولم أغادره إلا في ساعة مبكرة من صباح

اليوم التالي . كنا نتدارس تأثير القرار على عمليات الشركة في المكسيك .

وظل المركز الرئيسى فى بازل على اتصال بنا . كان هناك قلق عظيم بسبب

ضخامة استثماراتنا كما كنا نريد أن نعرف كيف نستفيد . وما لبث الاطمئنان

أن عاد إلينا . فقد تقدمت أمريكا بخطة تقوم على تكرار الروشتة السابقة التى

أودت باقتصاد المكسيك : تخفيض مجمل قيمة الديون مقابل التزام المكسيك

بالعودة لتسديدها عن طريقين : الأول هو الاقتراض من جديد والثانى بيع الموارد

المحلية أى الصناعات والأراضى والغابات ، بأثمان زهيدة للمستثمرين

الأجانب والمحليين .

تدفقت الإستثمارات مرة أخرى . وخرجنا من هذه العملية بنصيب

الأسد إذ اشترينا عديد من شركات الدواء الصغيرة والصيدليات بل

وبعض مؤسسات العلف الحيوانى وشركات أخرى بأثمان زهيدة للغاية . كنت

أبعث بتلكس إلى بازل ذاكرة مواصفات الشركة المعروضة للبيع . وكان الرد

دائما كلمة واحدة : اشتر .

طبعاً لم نعبأ بالمظاهرات التى عمت البلاد . اليسار تحرك ورفع شعار "لا

لبيع المؤسسات العامة" . . . وتجمعت قواه خلف مرشح واحد للرئاسة كان

معروفاً بعذائه لسياسة الخصخصة وأوشك على الإنتصار فى إنتخابات ٨٨ .

لكن النتيجة زيفت وجاء إلى الحكم منافسه سالىناس . كان معروفاً بأنه من

رجال الصندوق . وكان شديد الدهاء . لم يستخدم تعبير الخصخصة وإنما

ابتكر تعبيراً جديداً هو " فك الشركات " . . وتمت هذه العملية بهدوء شديد . . .

شهدت فترة ساليئاس ازدياد نفوذ تجار ومهربى المخدرات وأصبحت المكسيك منتجا كبيرا للماريجوانا والهيرويين ، عصابات كبرى تخصصت فى الترويج والتهرب معتمدة على رشوة رجال الشرطة والجيش والحكومة . كان التهرب يتم بواسطة مركبات عسكرية خاصة بالقوات البحرية المكسيكية تدعمها مدفعية مضادة للطائرات . وبلغت ثروة ساليئاس ٥٠٠ مليون دولار فى بنوك الخارج ، طبعا مبلغ صغير بالمقاييس المصرية . كما قلت أوجه الشبه معنا كثيرة ..

انفجرت فقاعة الازدهار فى ١٩٩٤ ، للمرة الثالثة أعلنت المكسيك عجزها عن تسديد ديونها ، وأجرت تخفيضا جديدا للعملة . وفى لحظة واحدة ارتفعت قيمة الدولارات لدى المستثمر الأجنبى إذ بدأت أسعار السلع المكسيكية بالدولار تنخفض يوما بعد يوم ، وفى نفس الوقت إرتفعت أسعار نفس السلع بالبيسو ، العملة المحلية ، نون أن تتحرك الأجور .

كنت قد عدت إلى مصر فتابعنا منها التطورات . سارعت الولايات المتحدة بترتيب صفقة إنقاذ من عدة قروض بلغت خمسين مليارا من الدولارات قدمتها هى وصندوق النقد الدولى وبنوك أخرى مقابل أن تودع المكسيك كل عائداتها من النفط و المنتجات البتروكيماوية لدى البنك الاحتياطى الفيدرالى فى نيويورك تحت السيطرة الفعلية للولايات المتحدة بحيث تصادر فوراً إذا توقفت عن سداد ديونها . فضلا عن تقرير اسبوعى مفصل عن الوضع الإقتصادى تقدمه المكسيك للدائنين . مع الإلتزام بتقليص الانفاق على الخدمات الإجتماعية والصحية وغيرها .

علقت صحيفة "الموند ديبلوماتيك" الفرنسية على هذه العملية بقولها :
خمسون مليارا من الدولارات مقابل الاستيلاء على تسعين مليون إنسان أى
على آلاف الملايين من ساعات العمل المعروضة فى سوق أقرب إلى أسواق
الرقيق .

.. حرب الخليج دراما أخرى لا تقل عن الزلازل الطبيعية والاقتصادية التى
عصفت بالمكسيك . كشفت لى عقم الوضع العربى كما أكدت لى نفاق الغرب..
ربما لا يعرف الكثير عن وحشية صدام حسين وساديته والجرائم التى ارتكبها
فى حق العراقيين ، العرب منهم والاكراد . فى سنة ٧٩ وفى إجتماع لزملائه
فى قيادة حزب البعث أمسك برأس صديقه عدنان وجعل يخطبه فى
الحائط حتى تفجر منه الدم . لقد رأيت جانبا من هذا الاجتماع فى فيلم
فيديو أذاعته سى إن إن : صدام فى بذلة بيضاء جالسا خلف منصة
مرتفعة مطلا على قاعة امتلات بالجالسين وينادى اسما وراء اسم فيصيح
الواحد منهم : "والله العظيم أنا موخاين سيدى " . لكنهم يقتادونه
للإعدام... فى السنة التى جرت فيها انتخابات الرئاسة المكسيكية ضرب ٧٠
ألف مواطن فى بلدة كردية بقذائف مدفعية محشوة بغاز سيانيد الهيدروجين
القاتل . هذه عينة فقط من جرائمه . لكن ما فعله الأمريكان بالعراق كان أشبه
بفيلم من أفلام الرعب مائة ألف طلعة جوية على بغداد والمدن الرئيسية
أعادت العراق إلى عهد ما قبل التضئيع حطموا عن عمد البنية التحتية
للاقتصاد العراقى نظام توليد الطاقة الكهربائية ومصافى النفط والمصانع
الكبرى والطرق والجسور وخطوط التليفون والتلغراف جملة الخسائر التى
أحدثوها قدرت بأكثر من ٢٠٠ مليار دولار.

عندما انتهت الحرب وعادت الكويت لأهلها قررت أنا العودة إلى مصر .
كانت الفكرة تراودنى منذ بعض الوقت . وسبق أن طلبت من كوش بحث
إمكانية نقلى إلى مصر . كان الرد وقتها سلبيا بسبب صفر حجم عملياتها هناك .
إذ كانت صناعة الدواء الوطنية توفر ٩٢ بالمائة من احتياجات الإستهلاك المحلى .
وفى سنة ١٩٩٠ وقع ما يشبه الإنقلاب فى حياة كوش الداخلية مبعثه أن
أكثر من سبعين بلدا بدأت تنفذ برامج خصخصة و تباع مؤسسات دولة بمقدار
١٨٥ مليون دولار (نتيجة أعباء ديون القطاع العام و ٢٠ سنة من الإدارة الفاشلة)
. . وبدأت كوش تخطط لتوسيع عملياتها . خلال ذلك تضاعف شعورى بالملل وعدم
الاستقرار . مللت الحديث طول الوقت بالإنجليزية والأسبانية ومع زوجتى
بالفرنسية . و لم تعد مباريات الجولف تغرينى ولا بتغيير السيارة . كنت أعيش
فى أعلى مستوى أنا وأسرتى . لا ينقصنى شئ . ومع ذلك وجدتنى أطلع
حولى فى غربة كاملة . بالرغم من " روزالينا " .

روزالينا كانت سكرتيرتى . سمراء خميرية ذات ملامح اسبانية . كانت
قصيرة القامة ممتلئة الجسم ، تبرز الجويات القصيرة جمال فخذها . وعندما
كنت أمر بها وهى جالسة خلف مكتبها كنت ألمح دائما كيلوتها الأبيض .
وربما كان ذلك هو السبب فى العلاقة التى نشأت بيننا ، وربما كان الأمر
راجعا إلى البرودة التى تسلك إلى فراشى الزوجى . لكن المؤكد أنى أغرمت
بها بعض الوقت . أعجبنى فيها حيويتها وسرعة انفعالها وتلويحها بيديها
أثناء الحديث (على العكس من زوجتى البيضاء الرصينة) . وكانت تعيش
بمفردها مع طفل من زوج سابق .

ربما كنت أمر بما يسمى بأزمة منتصف العمر أوبغم الإنجاز . أيا كان
الأمر فقد أخذت لاكتتاب يستولى على كلما تأملت فيما يجرى حولى . وجدت أن

أمريكا اللاتينية تقف على حافة الهاوية بسبب الظلم والاستغلال . . تبينت أن فقر الأغلبية الساحقة من الناس ضرورى كي تتمكن أقلية قليلة من ممارسة التبذير . فحتى يزيد البعض استهلاكهم لا بد أن يخفض الكثيرون منه . ولكي يلتزم هؤلاء بالحدود المرسومة لهم تقوم الأقلية بتكديس الأسلحة الحربية وتتصدى للفقراء .

رأيت الناس فى الأرجنتين ، وهى من أكبر الدول المنتجة للحوم فى العالم ، يعجزون عن تذوق اللحم ، ومن النادر أن يحصل الأرجنتيني العادى على كوب من اللبن أو قطعة من الجبن . السبب أن الأرجنتين فى حاجة إلى تصدير اللحوم لدفع ما عليها من ديون (لم يستفد منها هذا الأرجنتيني العادى) ولذلك يتجه مربو الماشية إلى التسمين والتصدير يذهب اللحم مباشرة إلى مصانع التجهيز العملاقة ليظهر بعد ذلك على شكل أقراص فى محلات "مكدونالد" أو علب تحمل صورة البقرة فى شبرا .

الناس الآن لا يعملون ليعيشوا بل هم يعيشون ليعملوا مثل شغالة النمل . هناك ناس يعملون أكثر لأنهم لا يستطيعون توفير احتياجاتهم . وكما هو الحال فى مصر ، يقوم غالبية سكان أمريكا اللاتينية بعملين فى وقت واحد ، وأحيانا ثلاثة ، فليست أمامهم وسيلة أخرى للخلاص من الجوع .

الوقت يتناقص وثمانه فى تزايد مستمر . أصبح يباع و يؤجر لكن من هو سيد الوقت ؟ إن السيارة والتليفزيون والفيديو والكمبيوتر والتليفون المحمول وغيرها من أدوات الرفاهية التى ابتكرت لربح الوقت أو تبديده أصبحت تتحكم فيه . فالسيارة تحتل حيزا مكانيا فى المدن وتستهلك وقت الإنسان ، إنها نظريا تفيد فى إقتصاد الوقت لكنها فى الواقع تستنفذه . ذلك أن جزءا هاما من الوقت المخصص للعمل يستخدم فى تسديد ثمن الانتقال إلى

مكان العمل وهذا الانتقال يتطلب المزيد من الوقت بسبب تعطل حركة السير.

تعلمت في باراغوانى أن الفلاح أقل قيمة من البقرة وفي البرازيل أن الذى يزرع الأرض لا يملكها والذى يملكها لا يزرعها . أدركت لماذا يهجر القرويون حقولهم وينزحون إلى المدن .

عاصمة المكسيك تشهد سنويا زيادة تقدر بنصف مليون ساكن . وبحلول نهاية القرن ستصبح مع العاصمة البرازيلية أكبر مدينتين فى العالم . المدن الكبيرة فى جنوب الكوكب صورة للمدن الكبيرة فى شماله لكنها صورة مشوهة . فعواصم أمريكا اللاتينية لاتعرف الممر الخاص بالدراجات ولا الهدوء أو الهواء النقى . الأرجنتين مثلا تنتج الوقود الخالى من الرصاص لتصديره إلى الخارج وتبقى على الوقود السام للاستهلاك الداخلى . كم عانيت فى المكسيك من عوادم السيارات ؟ كنت أحيانا أعجز فعليا عن التنفس فى الشارع لأن خمسة ملايين سيارة تغطى المدينة بسحابة من الغبار . نفس الشئ فى ساو باولو عاصمة البرازيل وسنتياجو عاصمة شيلي اللتين تنافستا عام ١٩٨٩ على لقب أكثر المدن تلوثا فى العالم .

المجتمع الإستهلاكى يبتلع الناس و يجبرهم على الاستهلاك بينما يقدم لهم التليفزيون دروسا فى العنف . هكذا يمكن أن يعيش المعدمون بعيدا عن الميسورين لكنهم يطلون عليهم يوميا من خلال الشاشة الصغيرة التى تعرض فجورا لاستهلاك الفاحش وفى نفس الوقت تلقنهم كيف يشقون طريقهم فى الحياة برصاص السلاح .

العنف الذى يشهده الشارع ليس إلا امتدادا للعنف على الشاشة . فالتجول فى شوارع أمريكا اللاتينية أصبح خطرا لكن البقاء فى البيت أخطر . المدينة

سجن فمن لم يكن سجين الفاقة فهو سجين الخوف، من يملك شيئاً مهما كانت تفاهته يشعر أنه مهدد ويخشى أن يصبح ضحية لاعتداء ما ، أما من يملك الكثير فيعيش منعزلاً في أبراج الأمان ، تلك العمارات و المجمعات السكنية الضخمة المزودة بكاميرات المراقبة و الحراس المسلحين والتي تنتشر الآن في أنحاء بلادنا .

لم تعد للإنسان أية قيمة . اختفت نعمة رعاية الأطفال بعد أن تخلت الدولة عن نور الرعاية استجابة لتعليمات صندوق النقد الدولي . أصبح التخلص من الأطفال الزائدين ، أطفال الشوارع الفقراء والعمال والمهمشين ، يتم بواسطة الجوع والرصاص : فهم ليسوا صالحين للمجتمع والتعليم حق الذين يستطيعون دفع ثمنه أما من لا يستطيعون فليس لهم الحق في الوجود . في جواتيما لا اغتالت الشرطة أكثر من أربعين طفلاً من المتسولين والذين كانوا يعبثون في صناديق القمامة وقد عثر على جثثهم مشوهة مفقودة العيون مبتورة الأذان ومدفونة مع الفضلات . وعندما انتشرت ظاهرة أطفال الشوارع في البرازيل تشكلت فرق إعدام من رجال شرطة سابقين ومهربى مخدرات طاردتهم مثل الكلاب الضالة وقتلت منهم ٤٥٧ طفلاً عام ١٩٨٩ وارتفع الرقم في ١٩٩٢ إلى أربعة أطفال يوميا .

بلدان عديدة في أمريكا اللاتينية ألغت عقوبة الإعدام . لكنه يمارس بها يوميا لحماية حق الملكية . ففي بيونس ايرس أواسط ١٩٩٠ أطلق مهندس النار على طفلين سرقا راديو سيارته ، و علق أهم صحفي أرجنتينى على الحادث فى برنامج تليفزيونى قائلا : لو كنت مكانه لفعلت الشيء نفسه .

فى فبراير ١٩٩١ حل وباء الكوليرا بمدينة ليما عاصمة بيرو ، وذهب ضحيته المئات فى أيام قليلة إذ كانت المستشفيات تفتقر إلى الأمصال والملح

لأن الإجراءات الاقتصادية الصارمة التي فرضها صندوق النقد الدولي أتت على ما تبقى من خدمة الصحة العمومية .

في بوليفيا لا يتوفر ماء للشرب بالقرى ، بينما يلمع الديش فوق أسطح المنازل . وفي شيلي تعلن الإحصائيات باعتزاز عن تضاعف الإنتاج الغذائي وتعلن في الوقت نفسه عن تضاعف أعداد ضحايا الجوع .

سقطت حقوآجر الحماية التي شيدتها دول أمريكا اللاتينية في الماضي . اليوم تتبع الدولة المؤسسات العامة مقابل لأشئ أو أقل من لا شئ . إنها تسلم المفاتيح وكل ما تبقى إلى المحتكرين الدوليين . عدة مئات من الشركات و البنوك العالمية التي تملك القدرة على التلاعب بالناس وأموالهم ، بينما تتحول هذه الدول إلى أسواق حرة . أما التكنوقراطية الدولية فتحاول إقناع الناس بأن تحرير السوق هو سر تحقيق الثروة . إذا كان الأمر كذلك فعلا فلماذا لا تطبقه البلدان الغنية التي تنصح به ؟ ذلك أن السوق ليس حرا على الإطلاق في فرنسا وألمانيا وكندا بل والولايات المتحدة نفسها .

تكررت المناقشات الحادة بيني وبين زوجتي التي تابعت في قلق انسحابي داخل نفسي في السنوات الأخيرة وتعليقاتي الساخرة والانتقادية على التطورات السياسية وخاصة كل ما له علاقة بكوش والشركات العالمية أو السياسة الغربية والأمريكية بوجه خاص . مرة قرأت عليها تقريرا موجهة من كوش إلى مساهميهـا جاء فيه أن الشركة تغلبت على كافة الأساليب التي استخدمتها الحكومات لتشجيع صناعة الدواء الوطنية وإعاقة الصناعة الأجنبية ، بما في ذلك الضرائب والتعرفة الجمركية والنسب وقيود النقد والدعم والتأمينات . تطلعت إلى في دهشة عندما أبدت سخطى . حاولت أن

أشرح لها أن كوش صارت مصدر خطر على استقلال أى بلد . فنقوذها أقوى من الحكومات وهى غير مسئولة أمام أية جهة فى أى مكان . وهى تتحكم فى أموال هائلة ويوسعها أن تنقل ما تشاء من هذه الأموال من أى بلد وإليه . الأرباح يمكن تصويرها على أنها خسائر ، والأصول تباع ، كل هذا دون أن يعرف أحد أو يتبينه بسبب السرية المضروبة على حساباتها . كيف يمكن لأى حكومة أن تتحكم أو تسيطر على كيان مثل هذا يشبه سمك الجيلي : موجود فى كل مكان وليس موجودا فى أى مكان ؟ أعدت على سمعها ما اقترحه أحد المدراء من ضرورة التفكير فى شراء أو إستئجار بعض الدول الأفريقية الغنية بالموارد الطبيعية طالما أن حكوماتها عاجزة عن حل مشاكلها . قالت لى يومها أن كل هذا لا يعنيننا فى شئ طالما أن كوش تكفل لنا حياة آمنة .

لزمت الصمت . كان هذا يحدث دائما كلما تبادلنا الحديث . أول خلاف حاد نشأ بيننا بعد سنوات قليلة من زواجنا . كنا نتحدث عن الحرب الأهلية اللبنانية . وأزعجتى الكراهية التى ظهرت فى صوتها عندما جاء ذكر المسلمين والفلسطينيين . قلت لها أن اللبنانيين بكل طوائفهم مسئولين عما حدث فى بلادهم . غضبت منى . حرصت بعد ذلك على تجنب الموضوعات التى تثيرها . لكن هذا لم يحل المشكلة . مع الزمن أدركت أنه يستحيل أن يتقاسم اثنان الحياة دون أن يتمكن كل منهما من عرض آرائه ، ودون أن يتجادلا بشأنها .

مرة كانت تريد شراء كاميرا فيديو أحدث من التى عندنا فحدثتها عن ضحايا الجوع فى بنجلاديش والصومال ورددت على سمعها أقوال القديس فرانسيس الأسيسى بأن الإنسان الذى لا يحتاج إلى شئ يملك كل شئ . وأن الخطوة الأولى فى اكتشاف الإنسان لنفسه هى أن يفك ارتباطه بالأشياء . دار بيننا

نقاش إنتهى بإن صاحبت فى : أنت لا يعجبك شئ ولا أحد ؟ ومن يومها
انقطع كل خيط بيننا ..

لا أريد أن أحمل زوجتى المسئولية الكاملة عن فشل علاقتنا . فهى فى
نهاية الأمر محكومة بظروف نشأتها . وربما يكمن الخطأ فى أنى توهمت أن
ارتباطى بها سيشفىنى من سارة . فانا لم انقطع عن التفكير فيها . كانت قد
انتقلت مع زوجها إلى انجلترا فى بداية الثمانينيات . وظللنا على اتصال بواسطة
الكروت التقليدية فى المناسبات والأعياد . لكنى لم أحاول الإلتقاء بها .

جاغى الفرج أخيرا و وافقت إدارة بازل على نقلى . كانت مصر قد وقعت
على اتفاقيات الجات ومضت خطوات واسعة فى تطبيق الخصخصة
والشراكة الأمريكية والأوروبية الأمر الذى فتح أفقا وريدة أمام شركة مثل
كوش .

فى السابق كانت الشركات الأجنبية تتمتع باحتكار براءات اختراع
الأدوية الجديدة لمدة لاتزيد عن عشر سنوات تستطيع الشركات المصرية بعدها
القيام بتصنيع هذه الأدوية لحسابها . ومدت الاتفاقية التى وقعت عليها مصر
هذه المدة إلى عشرين سنة .

فى البداية تصورت أن مصر تعرضت لضغوط أرغمتها على التوقيع .
فالأثار المترتبة عليها خطيرة للغاية وأهمها ارتفاع الأسعار إلى خمس وست
أضعاف مستواها الحالى مما يقضى على الصناعة المحلية أما الأجنبية فيمكنها
أن تخفض الأسعار لبعض الوقت وتعوض الأربع عشرات الطرق . ثم تبين لى أن
الأمر أعمق من ذلك .

فالاتفاقية تعطى مصروف فترة سماح مدتها عشرين سنوات قبل أن يبدأ تطبيق إجراءات حماية براءات الاختراع الأجنبية ، والمقصود أن تستغل هذه الفترة في الإستعداد للمستقبل بالتجديد والإحلال والأبحاث والابتكار . وإذا بي أقرأ في الصحف تصريحات لبعض المسؤولين يدعون فيها إلى التنازل عن هذه المدة الآن بحجة جذب الإستثمارات الأجنبية !

غباء أم عمالة ؟ تأكد لي أن النخبة الحاكمة في مصر لا تفكر في المستقبل على الإطلاق ، كان أمامي مثال كندا : طبقت الجات فوراً فسيطرت الشركات العالمية على تسعين بالمائة من مبيعات الدواء في كندا مقابل عشرة بالمائة فقط للشركات الكندية التي تخصصت في إنتاج الأدوية بأسمائها الكيميائية ذات النوعية العالية والتكلفة المعقولة وتلبي ٢٠ بالمائة من احتياجات المواطنين من الدواء الرخيص . أصبح لصنعي الأدوية ذات الأسماء التجارية الشهيرة ومنهم كوش الحق في تقاضي أسعار احتكارية لمدة عشرين عاماً . انتهى النظام الذي كان يوفر منافسة سعرية وارتفعت أسعار الأدوية إلى خمسة أضعاف خلال عام واحد ، وقدر الإخصائيون أن الكنديين سيتكفون نتيجة ذلك ما بين سبعة وعشرة مليارات دولار خلال فترة الـ ١٥ سنة المقبلة بينما تضخ أرباح هائلة في جيوب الشركات العالمية المملوكة للأجانب .

في بازل كان مدراء كوش يفركون أيديهم في سعادة : فمصر الآن تستهلك أدوية بمقدار مليارين ونصف مليار جنيه . ومع الجات سيرتفع هذا الرقم إلى ١٢ ملياراً . عسل بالنسبة لكوش . المضحك في الأمر أن الاختيار وقع على لأتولي إدارة فرعها في مصر . ألم أكن أسعى للانتقال إليها ؟

الباقى كان متوقعا . رفضت زوجتى العودة معي إلى مصر بحجة الإرهاب الذي يتعرض له المسيحيون . وكنت أنا قد وصلت إلى حالة لم أعد

أعبأ بها بأى شئ فى سبيل العودة . فاتفقنا على أن أذهب وحدى بينما
تنتقل هى وإبنتينا إلى لبنان ليعيشوا مع أهلها . اتفاق أشبه بالإنفصال .

كانت أختى الصغرى قد تخلصت من شقة العائلة فى شبرا . وأقمت
فى الهيلتون إلى أن وجدت لى الشركة شقة مفروشة فاخرة بمنطقة
المهندسين . وخلال ذلك كنت أتعرف على مهل على البلد الذى لم تسمح لى
زياراتى الخاطفة بتبين ما وقع به من تغيرات ..

سمعت من قبل الكثير عن نتائج الانفتاح .. ثم أنا قادم من بلد
عالم ثالث لا يختلف كثيرا عن مصر .. الطبقة الوسطى فيه ما أن تكتسب
بعض المال حتى تكتشف أنها لا تستطيع الحياة دون سيارة .. ومع ذلك
هالتنى صور الفساد والضياع .. وانتشار المخدرات .. صور شبان زى الورد فى
صفحة الوفيات كل يوم .. لفت نظرى بالذات الوضع الصحى والدوائى ..
حقن البنج التى تذهب بالمريض ، المستشفيات غير المرخصة ، الأدوية المغشوشة
وأكياس الدم الملوثة . الليزر الذى يسبب العمى والطبيب الذى يسرق الكلية ..

بحثت عبثا عن شجر البانسيانا الذى كان يغطى شوارع كثيرة فى
العباسية والظاهر وتبرا والجيزة . رأيت أكياس القمامة فى كل مكان : فوق
الأرصفة وأمام الفيلات وبين السيارات . ورجال تتدلى من صدورهم سلاسل
ذهبية يخوضون فى القمامة ليشتروا من الصيدلية سبراى ضد الذباب
والبعوض وأدوية ضد الإسهال . أدهشنى انتشار الصيدليات فى كل شارع .
رأيت سيارات من كافة الماركات والأنواع يقودها شبان صغار أو رجال
ونساء سمان فى طريقهم إلى الطبيب للعلاج من السكر أو الضغط المرتفع .
لاحظت بذاعة المبانى والدكاكين . وأختفاء اللغة العربية من أسماء الحوانيت .

الثراء الفاحش والفقر البين . اللسان المعوج فى محاولة للتشبه بالأجانب وأبناء
الذوات . الإهمال والركاكة واللككة والهلطة . الأنيميا وسوء التغذية . إنعدام
القواعد الصحية البسيطة التى تربينا على مراعاتها والتى كنا نقرأها فى
صبانا على ظهور كراسيات الدراسة . الأكاذيب فى الصحف وعلى الشاشة .
الخداع بون رقيب . انعدام الكرامة الوطنية . التعصب . الأنانية المطلقة .
بعد أسبوع طالعت فى صفحة الوفيات نعى نسيم غبريال . فوجئت
بالمربعات التى أفردت له على عدة صفحات و عدة أيام والأوصاف التى
أسبغت على تاجر الشنطة ومهرب العملة السابق وأقلها : رجل الأعمال
والصناعة ، ابن مصر ، فخر كل مصرى ، فقيد الوطن . لكن المفاجأة الكبرى
تمثلت فى حجم نشاطه والشركات والمؤسسات التى يرأسها أويتولى رئاستها
إخوته وأقاربه . شركة للفنادق يرأسها ابن أخته ، شركة تأمين ، وأخرى
للسياحة وثالثة لليموزين ، شركة أدوية ، شركة لصناعة فلاتر السيارات ،
العالمية للاستيراد والتصدير ، ملابس جاهزة يرأسها ابن عمه ، محلات
نيوكلوژث ، مكتب هندسة ، شركة للمقاولات والتنمية العقارية ، دعاية
وإعلان ، تجارة سيارات ، شحن جوى وبحرى ، أدوات صحية ، تجارة
عالمية فى المناطق الحرة . وبعد هذه الشركات جاء أفراد الجوقة المناسبة :
محاسب قانونى ، مكتب محاماة ، مهندس استشارى ، جراح ، مدير
مستشفى ، معمل تحاليل طبية ، كير سيرفيس للأمن ، مدرسة لغات ، فنادق
عائمة ، مجوهرات .

المجموعة الأخرى من إعلانات النعى بدأت بمفاجأة : المهندس عبد الحكيم
عبد الناصر . وأكدت لى البقية مدى ما وصل إليه من نفوذ . بنك القاهرة
باركليز ، بنك أميريكان اكسپريس ، البنك المصرى الأمريكى ، فنادق كونستا

العالمية (لأن المدير العام لفندق القاهرة ابن أخته) ، نيسان مصر ،
سوزوكى ايجبت و مودرن موتورز ، كيا موتورز ايجبت و آشيا موتورز ، ايجبت
كار ، توكيل رينو ، جنرال موتورز ، المصرية الكورية للخدمات والصيانة ،
منصور شيفروليه ، شركات إتكو و إتكو و إفكو و فاتكو وإيكو وإمكو وإركو
، جمعيتا مستثمرى مدينتى العاشر من رمضان والسادات ، كوكاكولا ، أكتوبر
فارما للأدوية ، سترو مصر ، أرت لاين للإعلان ، إسو ، موبيك ، ديكوراما ،
لونا للعطور والمكياج ، شركة المعارض الدولية ، شركات سياحة ، بلاستيك ،
سيراميك ، تسويق ، توكيلات أدوية وسيارات ، كرياتى .

وتلا ذلك كله نعى الأئمة والكنيسة وعلى رأسها البابا شنودة الذى رأس
صلاة الجنان، الوزراء ، المحافظون ، مراكز البحوث ، أعضاء مجلسى الشعب
والشورى ، رؤساء وأساتذة الجامعات ، رؤساء المجالس المحلية و الصحف
والمجلات والأحزاب ، مديرو الأمن ، الكتاب والصحفيون ، الهيئات
القضائية، السفراء ، الغرف التجارية ، رئيس اتحاد الصناعات ، رؤساء النقابات
المهنية والعمالية ، المهندسون ، الأطباء ، المحامون ، البنوك ، القوات المسلحة ،
الشرطة .

أدركت فعلا كم تغيرت البلد .

بحثت عن لييب .. الوحيد الذى بقى من فترة الصبا . وجدته قد استقر فى
بلدته بقنا حيث افتتح عيادة . وعلمت منه فى التليفون أن سارة فى مصر .
جاءت وحدها فى زيارة لأهلها . ذهبت لرؤيتها وقفت أمام باب الفيلا القديمة
مضطربا و قلبى يدق فى قوة . ثم دفعته ودخلت وصعدت بضع درجات إلى
باب خشبى ، فوجئت بصورة ملونة للعدراء ملصقة فوقه وإلى جوارها لوحة

خطية صغيرة. برسم الله محبة .. فتحت لى . صدمنى وجه ذو بشرة كابية ،
وجسم بدين ، وشعر أسود فاحم لكنه لا يتماشى مع التجاعيد والجيوب
المنتفخة تحت العينين اللتين فقدتا لمعانهما . صافحتنى يد سمينة مكرمشة غير
تلك الرقيقة التى كانت تعزف البيانو ..

تعمدت أن تجلسنى بحيث يسقط ضوء النافذة على وجهى وتبقى هى فى
الظل . تبادلنا حديثاً متقطعاً عن أولادنا ، حديثاً بلا حماس . تأملت الغرفة :
الأثاث القديم ، تقويم جمعية المحبة القبطية ، بصورة ملونة للمسيح وآية
اليوم . غادرتنى لتحضر القهوة فتابعتهابنظرى ؛ صارت لها مؤخرة عريضة
حاولت إخفاها أسفل جوية واسعة تصل إلى قدميها . لمحت فى ركن
الغرفة محراباً صغيراً به أيقونة العذراء وتحتها شمعة كهربائية مضاعة وكتاب
مفتوح . نهضت و تقدمت منه . كان الكتاب مفتوحاً على صفحة بها سطور من
رسالة للقديس بولس : "يزين نواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بصفائر
أو ذهب أو لآلىء أو ملابس كثيرة الثمن بل كما يليق بنساء متعاهدات بتقوى
الله ." ونحن نشرب القهوة كنت أتأمل ملابسها المتواضعة مثل ملابس
الراهبات وهى التى كانت تتفنن فى زينتها . درية شفيق انهزمت

ذهبت لزيارة لبيب ؛ أخذت الطائرة إلى الأقصر ، ثم سيارة ييجو مكدسة
بالفلاحين . بعد ساعة كنت أمام منزله . صف مرضى من المدخل وعلى الدرج
حتى غرفة الكشف . صف آخر من المقاعد عليه مرضى آخرون . نساء يحملن
أطفالهن . الجدران القذرة تزينها تقاويم لامعة من شركات الأدوية الكبرى .
عرض جذاب لعلب لبن الأطفال الصناعى فوق رف تحيت النافذة . صورة الأطفال
الأصحاء الذين يطلون من العلب نقيض الأطفال المرضى الباكين . لبيب تضاعف

حجمه . عادى . الشعر الأبيض عادى . التجاعيد أيضا عادية . لكن النظرة البليدة الميتة فى عينيه فاجأتنى . حتى فكرت أنه يتعاطى مخدرا ما . يبدو غير متأثر ومتماسك . استقبلنى بحرارة ثم تجاهلنى فجأة ليرحب بشاب أنيق أحضر له رزمة من الروشتات تحمل اسمه . فهمت من حديثهما أنه طبعها له خصيصا . ثم رأيت يعطيه نشرات خاصة بشركة أدوية ألمانية . أدركت الموقف . فالشاب كما أكد لى لبيب بعد ذلك مندوب الشركة . والروشتات "خدمة خاصة" للأطباء تقدمها الشركة بالإضافة إلى أنها وسيلة لمراقبة ما يصفه للمرضى ففيما بعد يذهب المندوب إلى الصيدلية ويفحص الروشتات .. وبعد ذلك تصل الهدايا . . من الثلاجة إلى السيارة و نفقات السفر لحضور مؤتمر علمى مزعوم لكنه دعاية للشركة . طبعاً إلى جانب عشرة بالمائة عمولة من الصيدلية .

لاحظت أنه يكتب المضادات الحيوية بسهولة شديدة ولا يهتم بفحص نتائج التحليلات التى يأتى بها المرضى . عندما علق على ذلك قال لى أن كل نتائج معامل التحليل فى المستشفيات الحكومية والمعامل الخاصة صورية . وأن الشخص لن يخسر شيئاً إذا كان سليماً وأخذ مضاداً حيوياً . قلت له أن هذا خطأ . فهذا الشخص لن يستجيب بعد ذلك للمضاد الحيوى عندما يمرض فعلاً .

لم أكن أبالغ . فالإستخدام العشوائى للمضادات الحيوية قد قضى على أثرها و أنتج أمراضاً متعددة المقاومة تقهر أقوى المضادات وبعضها ليس له علاج . والبعض الآخر تحول إلى أوبئة عابرة للحدود مثل الشركات العالمية تماماً !! الطبيب فى أمريكا اللاتينية يفعل مثل لبيب تماماً: يصف المضاد الحيوى لكل شئ من الصداع إلى انغراز الأظافر فى اللحم . إنها تبلى وتمس وتدهن بها الجروح وتطعم للدجاج والأبقار من أجل التسمين وخصوصاً فى الولايات المتحدة . لقد رأيت فى السنغال أقراص المضادات

الحيوية تباع فى الأسواق ويعتقد الناس أن حبة ملونة أو اثنتين يمكن أن تكفيا للشفاء ولا أحد يعبأ بتصحيح هذه المعلومات وإقناعهم بأن النتيجة فى هذه الحالة ستكون مضاعفة المرض وتطوره إلى شكل يستعصى على العلاج .

لم يجادلنى لبيب . وبدأ راقضا للمناقشة أو التفكير فيما قلته أوغير مبال به . قال لى : أنت تتكلم كخواجه . تسعة وتسعين فى المائة من الأمراض فى مصر سببها عدم نظافة الشارع والأكل . عند طلوع النهار فى الريف تجد الشعب المصرى نائما أمام المستشفيات . نحن هنا نشرب مخلفات الإنسان والحيوان والأسماك الميتة الطافية على وجه المياه ... لكن لا أحد يفعل شيئا لعلاج هذا . فماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟ أنا مضطر للمسايرة وفى النهاية أنا معرض للقتل على يد أصحاب الدقون . هل تذكر مجدى فام ؟ دخلوا عليه منذ شهر فى وضوح النهار وقتلوه .

طلب منى أن أنتظره نصف ساعة نصعد بعدها لرؤية زوجته وأولاده . وقفت قرب النافذة أتأمل الطريق . نساء محجبات ومنقبات يسرن فى صمت . فلاح يتحامل على نفسه حاملا كيسا من البلاستيك ملئ بالأدوية ..فيتامينات ونوفالجين لن تفيده شئيا . أبواق السيارات التى تزحف بين الناس والحيوانات أسفل عاصفة من التراب . حانوت كتب على واجهته لافتة باللون الأحمر : "فاميلى شوب" . ضحكت . جاغى صوت لبيب من خلفى .. قال أنه أعد لى غرفة بعيدة عن ضجة الشارع . أجبته بئنى لن أبيت و أنى سأعود إلى القاهرة بقطار المساء .

تسلمت عملى فى مكتب فاخر غير بعيد عن منزلى . أخصص النباتات تحف بالمدخل وفوق الدرج المؤدى إلى مكتبى مباشرة . ربما لتخفى أكوام القمامة فى الشارع . استقبلنى المدير السابق الذى أصبح الآن نائباً لى . شاب مهذب أنيق، يدعى ماجد عبود . من النوع الذى يوجد دائماً فى أروقة الشركات والبنوك الأجنبية والفنادق الكبرى فى العالم الثالث والذى وجدت منه الكثيرين فى مصر . طموح لا يقف شئ فى طريقه . تلقى تعليماً أجنبياً سطحياً . عرض علىّ عمليات الشركة وخطط الإنتاج .

كوش مصر كانت فى وضع ممتاز . وتستولى على حصة ثابتة من سوق الدواء بأسعار مجزية للغاية . و يرجع الفضل فى هذا إلى القانون رقم ٢٤ . هل يتصور أحد أن ٦٠ بالمائة من ثمن الدواء فى مصر يذهب إلى الموزع والمستورد ؟ ذلك كله بفضل القانون المذكور . كانت التأميمات الناصرية قد ألغت الوكالات الأجنبية وحثمت أن يتم استيراد الدواء والخامات عن طريق هيئة تابعة للقطاع العام وبذلك أمكن توفير الدواء بسعر رخيص رغم طبعها السلبيات المعروفة التى ترجع إلى البيروقراطية والغباء التى أدت إلى عدم توفر بعض الأدوية . القانون ٢٤ الذى صدر مع الإنفتاح ألغى هذا الوضع واشترط أن يتم استيراد الأدوية والخامات عن طريق الوكلاء أو فروع الشركات الأجنبية فى مصر وبأسعار يتفق عليها من خلال مظاريف وعطاءات وهمية . الشركات الأجنبية حققت مكاسب هائلة من هذا القانون . شركة هوكست الألمانية (التى تساهم دولة الكويت بأكثر من ٢٤ فى المائة من أسهمها) حققت فى سنة واحدة ربحاً صافياً فى صنفين فقط من الدواء مقداره مليون و ٢٠٠ ألف جنيه . شركة أجنبية خالصة هى سكويب الأمريكية كان رأسمالها المدفوع ٥,٧ مليون دولار بلغت مبيعاتها فى ٥ سنوات نحو ٥٥ مليون جنيه . كيف ؟ يكفى

أن تتولى توريد الخامات و الكيماويات للقطاع العام بأسعار تزيد أحيانا ٢٠ ضعفا عن السعر الأصلي . وتصل هذه المواد قبل انتهاء صلاحيتها بعدة شهور أو بعد انتهاء الصلاحية . وطبعاً لا يتكلم أحد فالثمن مدفوع . أو تطرح أدوية حرمت منظمة الصحة العالمية استخدامها لتتخلص من المخزون المتراكم لديها بدلاً من إعدامه . أو أدوية تحت التجربة ولا تستطيع الشركة التي أنتجتها أن تجربها في أمريكا أو أوروبا إلا على الحيوانات الراقية المكلفة مثل الشمبانزى .

هناك طبعاً هيئة للرقابة على الأدوية وظيفتها التأكد من مطابقة الدواء للمواصفات العلمية . لكن التعليمات تأتي للهيئة من أعلى بتغيير نتائج التحليل لتصبح مطابقة للمواصفات . رئيس الهيئة عضو مجلس إدارة شركة أدوية وعضو جمعية عمومية لشركة أخرى كما أنه عضو في لجنة البت لشراء المواد الخام بشركة قطاع عام . أى أنه البائع والمشتري والحكم بينهما !.. هناك أيضاً العمولات والهدايا التي تبدأ من : السيارة ، تعيين أبناء كبار المسؤولين ، عقود لكبار الموظفين بالعمل في وظائف مستشار بعد التقاعد ، والنتيجة أن كوش والشركات الأجنبية الأخرى تستطيع أن تحدد نسب الإتفاقات المشتركة ، وأسعار البيع ، وتعديل كما تشاء شروط منح الامتيازات والرخص لصالحها . عشت هذا كله من قبل في المكسيك دون أن أتورط فيه تماماً لأنى كنت بعيداً عن هذا الجانب من الإدارة . أما هنا فقد صرت مسئولاً عن كل شئ . .

عندما كان ماجد عبود يتولى الإدارة ، قامت الشركة بتصنيع شراب لعلاج متاعب الجهاز الهضمي في مصنعها بالأميرية . وأرسلته إلى هيئة الرقابة الدوائية للتحليل وبيان مدى مطابقته للمواصفات . وكشفت نتائج التحليل أن جميع العينات من ستة تشغيلات غير مطابقة للمواصفات مما يعنى عدم

صلاحيتها وضرورة إعدامها . ويبدو أن المسؤولين عن التحليل كانوا يضغطون من أجل الحصول على علاوة للرواتب الشهرية التي يتقاضونها منا ، فجاءت نتيجتهم صحيحة ! .

وقررت الشركة إجراء تغيير في تركيب الدواء لتفادي العيوب وفعلا تم حذف أربع مواد من تركيبه و أضيفت مواد أخرى ثم أرسلت عينات جديدة إلى الهيئة . واكتشفت أن ماجد أرسل العينات بنفس أرقام التشغيل السابقة . وأدركت على الفور بحكم خبرتي ما ينتويه . طرح المستحضر الأول في السوق عندما نحصل على الموافقة على المستحضر الجديد طالما أن أرقام التشغيل واحدة.

اعترضت على هذا التصرف بحجة لا أخلاقيته وتعارضه مع القواعد الملزمة لعملا فتطلع إلى في دهشة . قال لي بصراحة أن بازل لن تعترض بل على العكس . أفهمنى أن هذا هو ما تريده بازل . طبعاً كنت أعرف . أنا نفسى لم أعترض على تصرفات مماثلة في المكسيك . لكنى وجدت نفسى عاجزاً عن التصديق عليها في مصر .

أصررت على موقفى ، وأمرت بإعدام التشغيلات السابقة . وتلقيت فاكسا من بازل يقر تصرفى بلهجة جافة . وحرص الفاكس فى نهايته على أن يذكرنى بأن بعض القواعد الملزمة فى أوروبا تتعارض أحيانا مع التقاليد المحلية أو أسلوب الحياة فى بلد مثل مصر !! .

عرض على ماجد خطة الإنتاج ففوجئت بأن أغلبها أدوية سعال ومقويات . قلت له متعلما : أنت تعرف أن هذا كلام فارغ . فهذه ليست أدوية حقيقية . إنها مثل شربة الحاج محمود . لم يكن قد سمع عن هذه الشربة المعجزة

التي كانت تباع في الموالدو القرى . قلت : شركة الدواء الحقيقية ملزمة بأن تقدم للسوق علاجات فعلية لأهم الأمراض المستعصية الموجودة . البلهارسيا ، السرطان ، الالتهاب الكبدي الوبائي ، الدوسنتاريا ، التيفود . إلخ. جمع لي الشاب نشرات الشركات الأخرى واكتشفت أن السوق المصري به ١٨٠ دواء للسعال و ٢٨٠ من المقويات . وفي هذه الأثناء قرأت في الصحف أن حريقاً نشب في مديرية الشئون الصحية بأسوان والتي تحزن فيها كميات من أدوية التوسيفان والكودافين وأن التحقيق أسفر عن تلف ثلاثة آلاف زجاجة منها أما ما تبقى سليماً من الزجاجات فكان ممثلاً بشراب الكركديه !! وفهمت أخيراً السبب في اهتمام كوش والشركات الأخرى بأدوية السعال التي تحولت إلى أدوية مزاج ولم أدهش عندما جاء فاكس من بازل : لا يمكن لكوش أن تتجاهل سوقاً هامة ومجزية مثل سوق السعال والمقويات.

الجزء الباقي من خطة الإنتاج كان مخصصاً لتعبئة المبيدات التي تنتجها كوش . وعندما درست الأرقام التي عرضها على ماجد اكتشفت أن في مصر ما يقرب من استيراد المبيدات ٢٠ مليون دولار سنوياً بعد أن قامت بتهريب ١٢ مبيداً محرمة دولياً رخيصة الثمن لكن قاتلة وخاصة للأطفال . لم يكن بين منتجات كوش المصدرة إلينا واحدة من هذه المبيدات المحرمة لكن هذا لم يكن مبرراً لأن تحتل مكان الصدارة في نشاطها .

العالم كله أصبح يدرك أن استخدام المبيدات لم يؤد إلا إلى مضاعفة الحشرات والآفات ١٧ ضعفاً . النظافة التامة داخل وخارج المنزل تمنع توالد الحشرات . كنت أبتسم في ألم و أنا أرى جزارا يرش اللحم بمبيد ضد

الذباب أو بائع عصير يرش دكانه لنفس الغرض ، أو عندما أشاهد فى التليفزيون إعلانا عن المبيد ذى القوة الرباعية أو الخماسية ، وأعرف أن الناس ستهرع لشرائه لتخلص من الصراصير والذباب والناموس وتقرب المسافة بينها وبين المرض الذى ستنتفخ عليه من الجهد والمال أضعاف أضعاف ما يتطلبه تنظيف المنزل و المنور والسطح والتخلص من القمامة وإصلاح شبكات الصرف .

المشكلة أقدم فى الزراعة ، إستمعت مرة فى التليفزيون إلى دكتور ومدير لمعهد التغذية يؤكد أن بقايا الرش على المحصول تزيل بعمليات التقشير والغسيل قبل تناول وأنه بذلك يتم التخلص نهائيا من بقايا المبيدات وما تبقى يكون غير ضار بالمرة . عرفت فورا أنه يعمل مندوبا لشركة مبيدات لأنه كان يكذب .

لا الغسيل ولا الطهى ولا الغلى يقضى على بقايا المبيد التى تعسك فى لب الثمرة وتضمن لآكلها التسمم والسرطان وتشوهات المواليد والعقم . فى قضية الأغذية الفاسدة استعان المتهم الأول (وهو موجود معى فى الزنزانة الآن وأنا أكتب هذا الكلام) بوزير الصحة كشاهد نفى ، وأمام المحكمة أبدى الوزير تعجبه من القول بمسئولية الأغذية الملوثة عن أمراض عديدة متسائلا فى عهده : أين هى الإصابات التى تؤيد هذا الكلام ؟

هذا الوزير ، وهو الآخر دكتور ، يعرف الحقيقة جيدا ، فى حالة المبيدات فإن التعرض لجرعات قليلة (عن طريق الأنف والفم والجلد) لا يحدث أثرا مباشرا وإنما تتراكم الآثار فى أماكن معينة كالخ والكبد والرئة حتى تأتى جرعة مؤثرة يمكن أن تؤدى إلى الشلل والموت . نفس الشئ فى حالة

الأغذية الملوثة . على أن لطفل بهاكميات ضئيلة من عنصر السترونشيوم المشع
تعنى بالقطع إصابته بالسرطان بعد عشرين سنة .

فقط في حالة تلوث الثمار، وخاصة العصرية ، بالزئبق والرصاص ، عن
طريق مياه الري ، يمكن التخلص بسهولة من آثارهما بتناول كوب من اللبن
عقب تناول أى طعام أو فاكهة من هذا النوع حيث يقوم كالسيوم اللبن بطرد هذه
العناصر وإخراجها من الجسم . لكن من ضمن أن اللبن نفسه غير ملوث ؟
وهل يستطيع الفقراء تحمل سعره ؟

كان هناك مشروع قديم لدى كوش لإقامة مصنع لاستخلاص العطور
النباتية في مسطرد . ذهبت لزيارة المنطقة التي تغذى القاهرة بالخضراوات
وتقع بجوار ترعة الشابورة . فوجئت بالقمامة تفرش الطريق هضابا وبأن التربة
التي تروى الحقول عبارة عن مستنقع قذر كريه الرائحة ملئ بجميع أنواع القمامة
من علب الصفيح والبلاستيك إلى مخلفات الإنسان والحيوان ومصانع البوتاجاز
والبلاستيك والصباغة . رأيت المواسير تخرج من جدران مصنع وتصب في قلب
الماء . ورأيت المخلفات قد سدت المجرى المائى وارتفعت إلى مستوى الماء بما
حملته من مواد بترولية آزوتية وشموم اختلطت بالطين . كانت المياه التي تروى
حقول الطعام تتسرب بصعوبة وقد سبغ عليها زيت أسود مختلطا بألوان
الصباغة ، و ملأت الجور رائحة الصابون والبوتاسيوم .

تباع محاصيل هذه الحقول من الخضراوات في سوق مسطرد وروض
الفرج و لا يدرك الفلاحون أنهم يصدرون السم فهم يأكلون منه أيضا . وفيما بعد
تابعت تحليلات أجرتها مراكز بحثية عديدة على مجموعة من الخضراوات ،
أثبتت أن نسبة الرصاص وصلت إلى ٣٦٧٠ ضعفا في البصل الأخضر تليه

الكسبرة و الفجل ثم الملوخية و سجلت الملوخية أعلى نسبة فى الكادميوم يليها
الفجل و الجرجير . إمتصاص الرصاص لدى الأطفال يفوق كثيرا مثيله لدى
الكبار و يسبب الأنيميا و التأخر العقلى ، أما الكادميوم فيؤثر على الكلى
ويسبب الإجهاض . مأساة حقيقية لأن هذا طعام الفقراء . كنت أكتب عندما
أرى الغلابة فى ميدان رمسيس أو العتبة يتزاحمون حول العربات التى تباع
الطعمية المقلية فى زيت أسنود أو الكبدة التى تتجمع فيها كل السموم التى
تدخل الجسم . و سرعان ما انتقلت المشكلة إلى ساحتى .

اكتشفت بعد فترة أئى عمليا لا أكل شيئا . أنا من المفرمين بالأكل
الصحي : السلطة الخضراء والفواكه والأسماك . ما رأيته فى مسطرد صد
نفسى عن كل أنواع الخضراوات والفاكهة . بالإضافة إلى ذلك كنت أعلم
تأثير المبيدات التى ترش بغير حساب فى كافة مراحل الزراعة . و المواد
الكيميائية الشبيهة بالهرمونات التى تؤدى إلى زيادة حجمها وتبكير تلوينها
ونضجها . وكان بوسعى أن أتصور دورتها فى طعام الماشية وبالتالي إمتنعت
عن اللحوم الحمراء والألبان ومنتجاتها . وكنت قد عرفت من معارفى أن اللبن
المتداول غالبا ما يكون ملوثا بالميكروبات الضارة مثل ميكروب الحمى المالطية
والسل و التهاب الزور والحمى القرمزية وأن المصانع تضيف الفورمالين الذى
يستخدم فى حفظ الجثث إلى اللبن كما تستخدم ماء الأوكسجين لحفظه .
وكانت لدى شكوكى بشأن اللحوم والأجبان المستوردة (وقد تأكدت فيما
بعد أثناء وجودى فى السجن) فتجنبتها . وأتبعتها بالدواجن عندما علمت ما
يفعله مربي الدواجن من تسمينها بالهرمونات . وحل الدور أخيرا على الأسماك
عندما أطلعت على درجة التلوث التى وصلت إليها مياه النيل فضلا عن البحر

الأبيض (الصرف الصحي) و البحيرات . فى حالة مركب واحد هو
الدلين، والذي يتواجد فى المخلفات الصناعية ، فان وجبة من السمك كل
يومين تعنى خطر الإصابة بالسرطان بنسبة واحد إلى مائة . إتجهت إلى
النشويات التى كنت أتجنبها دائما ففوجئت بتلوث الدقيق وبأن أصحاب
المصانع يبيضون الأرض بتراب البلاط . تجنبت أيضا مياه الشرب لما
اكتشفته بها من كائنات دقيقة وشوائب ونسب عالية من الكلور الذى يضاف
إليها عشوائيا، و لم أطمئن للمياه المعبأة فى زجاجات والتى توصف بأنها
طبيعية أى جوفية . فمن يضمن لى أن مياه الصرف لم تتسلل إليها ؟ كما
امتنعت عن تناول المياه الغازية من كولا و غيرها لأنى أعرف أكثر من
غيرى مضارها . ولم يبق أمامى فى النهاية سوى أن أقوم كل يوم بغلى
كميات كبيرة من المياه أحملها معى أينما ذهبت .

تأكدت أن الإنسان فى مصر لم يعد يساوى أية قيمة ، وتعجبت لشعب
يدمر نفسه بنفسه أو يتفرج بلامبالاة على الدمار الذى يلحقه به الآخرون .
حمدت الرب لأن إبتنى لم ترافقانى وان كنت لا أضمن أن الحال ليس من
بعضه فى لبنان ، بل ربما كان أخطر .

بدأت متاعبى الحقيقية عندما قررت كوش بناء مصنع فى مدينة ٦
اكتوبر لمكسبات الرائحة لتستفيد من الامتيازات الممنوحة للمستثمرين
الأجانب: الأسعار الرمزية للأرض والإعفاء من الضرائب حوالى عشر
سنوات فضلا عن الأجور المنخفضة إلخ . هناك أكثر من ٣٠٠ مادة كيماوية
تضاف إلى طعامناو تجعله أكثر جاذبية من حيث اللون أو الطعم أو الرائحة دون
أن تضيف إليه أية قيمة غذائية بل تمثل خطرا على صحة الإنسان و تؤدى إلى

تشوه الأجنة . ولا يقتصر الأمر على الطعام وإنما يمتد إلى الأدوية ومستحضرات التجميل مثل أحمر الشفاه و معجون الأسنان والحلويات وخاصة الحلويات الشعبية كحلوى الموالد و غزل البنات و الشربات و المربات و الجيلي . الشكولاتة مثلا: يستخدم في صناعتها لون صناعي تناوله يمكن أن يؤدي إلى تسمم الكبد . والبيانات المسجلة على أى كيس لا رقابة عليها ولا تمثل أى معلومة محددة بالنسبة للمستهلك الجاهل . و تجنى الشركات من وراء ذلك مكاسب هائلة وإلا ما كانت إحداها ترصد لمسابقة تليفزيونية جوائز مقدارها مائة ألف جنيه .

عندما عكفت على دراسة المشروع انتابنى القلق . اكتشفت أن المصنع مخصص لإنتاج مادة التريكلوروفينول TRICHLOROPHENOL . وكنت أعرف أن ألمانيا وهولندا و انجلترا أغلقت المصانع التى تنتج هذه المادة بسبب خطورتها . فهى إذا تعرضت لحرارة عالية تنتج واحدا من أخطر السموم على الإنسان هو DIOXIN . وهو أقوى من السيانييد السام بسبعين ألف مرة . لكن الأمر لم يكن قاصرا على ذلك .

فقد تبينت أن رقم الإنتاج المستهدف هو خمسين طنا فى الأسبوع . وهو رقم كبير جدا بالنسبة لتجارة الروائح . وهنا تذكرت أن التريكلوروفينول عنصرا أساسى فى تركيب ما يسمى بالعامل البرتقالى الذى يستخدم فى صناعة الأسمدة والمبيدات وثبت ضرره على صحة الإنسان فسحب من السوق فى أغلب البلدان الأوروبية . وكان المقرر أن يتم شحن الكمية المنتجة إلى مصنع تملكه شركة تابعة لكوش فى الولايات المتحدة ومنها طبعا إلى أى مكان آخر . تذكرت الكوارث التى تحدث كل يوم فى العالم الثالث . فى مطلع الثمانينيات وقعت أسوأ كارثة صناعية عرفها التاريخ قبل حادث تشيرنوبيل .

ففى مدينة " بهوبال " الهندية مات حوالى عشرة آلاف شخص نتيجة استنشاق غاز ثانى أكسيد الميثيل السام المتسرب من أحد مصانع المبيدات الحشرية التابعة لشركة " يونيون كاربيد " الأمريكية . وتعرض ما يقرب من نصف مليون شخص آخرين لأضرار صحية جسيمة مازالوا يعانون من آثارها حتى الآن .

ويظهر كل يوم ضحايا جدد أصيبوا بأمراض فى الرئة والسرطان والعيون .
ومما يزيد من معاناة هؤلاء البطء الشديد المتعمد فى إجراءات المحاكم الهندية التى تنتظر طلبات التعويضات التى يتقدمون بها .

تابعت وقتها وصف الصحف للكارثة . كيف سقطت الطيور من السماء أو هوت ميتة من أعشاشها ، وترنحت الكلاب والقطط كالسكارى قبل أن تسقط على جانبها ميتة والدماء تتدفق من أفواهها وأذانها ومؤخراتها . وشاهدت على شاشة التليفزيون آلاف الأشخاص فى أسمال بالية يترنحون فى الشوارع بعيون حمراء كالدم يمسكون بطونهم ويتوقفون بين الحين والآخر ليفرغوا ما فى أجوافهم ثم يسقطون على الأرض .

ثبت من التحقيقات بعد ذلك أن أكثر الدول الغربية تحرم إنتاج هذا الغاز على أراضيها وأن المصنع الهندى توأم من حيث التصميم لمصنع الشركة المقام فى أمريكا . لكنه لا يحتوى على أى من أجهزة الأمن والحماية المتقدمة التى زود بها المصنع الأمريكى .

لم تجد الشركة من تبرير لما حدث سوى تصريح لرئيسها فى التليفزيون قال فيه : " إن الرأسمالية تعنى التقدم . والتقدم قد يؤدى أحيانا إلى بعض المضايقات " . وأتذكر أنى وقتها أقنعت نفسى بصحة هذا الزعم .

فى أول أسبوع بعد عودتى إلى مصر قمت بزيارة سريعة للأسكندرية عبر الطريق الصحراوى . وعندما مررت بمنطقة العامرية شاهدت مصنعا لشركة أمريكية ينتج البطاريات الجافة وترتفع فوقه سحابة سوداء من الأدخنة . وتساعلت فى أسى بينى وبين نفسى عن إجراءات الأمان المتبعة ومدى تزويد العمال بالملابس الضرورية والمعدات اللازمة .

لم يكن فى استطاعتى وقف مشروع المكسبات فى مدينة ٦ أكتوبر الذى تكلف أكثر من مائة وخمسين مليوناً من الدولارات (على فكرة ! كوش لم تتكلف شيئاً . أخذت قرضاً بالمبلغ من بنوك القطاع العام المصرية) ولا رغبت فى ذلك . كل ما فى الأمر أنى عاهدت نفسى على الاهتمام بإجراءات الأمان . واسترحت عندما تبينت أن المصنع صممه مهندس سويسرى . كما أنى تصورت أن البناء سيكون من مسئولياتى المباشرة .

بازل كان لها رأى آخر . فقد طلبت منى تشكيل إدارة خاصة يعهد برئاستها لنائبى تتولى متابعة العمل فى بناء المصنع ، كى أتمكن أنا لالتهام شركات القطاع العام المعروضة للبيع . وعندما أوشك العمل على الانتهاء جاء المهندس السويسرى فى زيارة تفقدية وأسر لى متفعلاً أن المصنع لم يشيد طبقاً لرسوماته إذ جرى التوفير فى إجراءات الأمان التى حددها والتى تتكلف عدة ملايين من الدولارات .

اتصلت ببازل على الفور وجاهنى رد فأتربوعد النظر فى الأمر . ولحظت أن ماجد عبود يتجنبنى واستمر العمل فى المرحلة الأخيرة من البناء كأنما لم يحدث شئ .

فكرت فى الإستقالة . ثم قررت القتال . حررت خطاباً إلى كل من وزارتى الصناعة والصحة المصريتين أخطرهما فيه بانتهاء العمل فى بناء المصنع

وبضرورة حضور مندوبين عنهما للتأكد من سلامة إجراءات الأمن المتبعة . لم يعبأ أحد بالرد على . فكتبت إلى الصحف خطابات غفل عن التوقيع تعرض الموضوع . ونشرت إحدى صحف المعارضة تحقيقاً عن المصنع . وهنا تحركت وزارة الصناعة وزارتنا لجنة ثلاثية من كبار موظفيها أبدت حزماً غريباً أدهشني وأسعدني . . وكان القرار بوقف ترخيص البناء ما لم تستوفى إجراءات الأمان الواردة في التصميمات الأولية .

استرخت . شعرت أن مجهودي أثمر . وهنا ظهر اللواء محسن فهمي في الصورة .

... عندما كنت أدرس ملف شركات القطاع العام المعروضة للبيع ، كان يعاونني في ذلك ضابط شرطة سابق ، في حوالى الستين من عمره ، يرأس إدارة الأمن ، هو اللواء محسن فهمي .

كانت مهامه متشعبة تمتد من حماية أسترار الشركة وتأمين مكاتبها ومبانيها ضد التخريب و العمليات الإرهابية إلى إمداد الإدارة بما تحتاج إليه من معلومات . كان يحتفظ بملفات تفصيلية عن شركات الدواء العاملة في مصر وخاصة المصرية ، وعن كبار العاملين بها . وعندما أقول تفصيلية أقصد مثلاً أدق المعلومات الشخصية : دخل الشخص واحتياجاته الفعلية وعلاقته بزوجته وأولاده وإمكانية شرائه وعاداته فيما يتعلق بالجنس أو اللهو . بل كنت أشك في أنه يحتفظ بتسجيلات صوتية لبعض كبار المسؤولين تكفي لادانتهم والضغط عليهم . لكنى لم أحاول التأكد من ذلك كأنما أردت أن أعفى نفسي من المسئولية عن الأمر كله .

لم يكن هذا الأمر بالجديد على ففى المكسيك كانت لدينا ملفات مماثلة . لكن ملفات محسن فهمى أصابتنى بصدمة . ربما كنت فى أعماقى أتمنى أن تكون الصورة مختلفة فى بلدى . وبدلا من ذلك طالعت صورة مؤسسية لقادة الاقتصاد والبلد . أبسط وصف لهم أنهم يتميزون بالدناءة و الخسة . مثلاً رئيس مجلس إدارة قد الدنيا ، حاصل على درجة الدكتوراة ، يتفنن فى إعداد قوائم بمستلزمات منزله من أرز وبيض ولحم بحيث تتوزع الرشوة المطلوبة على أشياء عديدة صغيرة القيمة . وآخر يسرق الملاعق الفضية من الطائرات وثالث مليونير من كبار الصحفيين يبعث بابنته لتصرف منا مجانا رويته أدوية لا يتجاوز ثمنها سبعين جنيهاً . ورابع من كبار رجال الدولة يفرض إبنه شريكا على المشروعات الناجحة . وخامس يعتمد تخريب مصنع ناجح ، لصالح منافس أجنبى ، مقابل رحلة استجمام فى أوروبا . كيف يكون وضعنا ونحن نعلم كل ذلك عن رؤساء الشركات المبيعة وفرصتنا فى تحديد الثمن الذى نشتري به مقابل هدية صغيرة للمسئول أو بمجرد الإشارة لمعلوماتنا عنه ؟

ما أقدمنا عليه يمكن أن يطلق عليه وصف المذبحة . بدأنا ندرس شراء مصنع أقامته إحدى شركات القطاع العام لتصنيع الأمبولات المعقمة . كان أول مصنع من نوعه فى مصر . وجاءت لجنة من بازل قررت أن المصنع غير مطابق للمواصفات من حيث مستوى العمالة والنظافة والتعقيم . و مع ذلك أمرت بازل بشرائه و تحويله من الإنتاج إلى مجرد مقر لتغليف المنتج الذى تصنعه فى سنغافورة . وفقدت مصر فرصة فى التقدم على طريق التصنيع . وكان من الممكن علاج الأمر بتطوير العمالة أو حتى استبدالها بغيرها وتجديد أجهزة التعقيم وفرض شروط صحية صارمة .

تكررت مهزلة المكسيك . وتوالى الفاكسات من بازل : اشتر . ووردت التعليمات بتسريح العمالة بأى طريقة . فبدأنا نعرض على العمال التقاعد مقابل خمسة عشر ألفاً من الجنيهات . ووافق أغلبهم لأنهم كانوا فى حاجة ماسة للمبلغ .

وتوجت جهودنا باصطياد أكبر شركة أدوية فى مصر لا تقل قيمتها فى السوق عن مائتى مليون جنيه . لكننا تمكنا ، بوسائل اللواء محسن فهمى ، من الحصول عليها بسبعين مليوناً . و على الفور طرحت الأرض الواسعة التى تشغلها مصانع الشركة و مكتبها فى الأميرية للبيع كأرض للبناء ، وقدر العائد المنتظر بعشرة أضعاف هذا المبلغ . و شرعنا فى نقل المصنع إلى مدينة العاشر من رمضان مستفيدين من الإعفاءات والتسهيلات المقدمة للمشروعات الجديدة .

عقب أن زارتنا لجنة وزارة الصناعة استمر العمل فى تشطيب البناء بمصنع المكسبات كأنما لم يحدث شئ . ولم يتخذ ما جد أى إجراء لتنفيذ الاتفاق الذى توصلنا إليه . وبدأت أشعر بشئ غريب فى تصرفات اللواء محسن فهمى معى . ضبطته أكثر من مرة يتأملنى بامعان . كما يتأمل القط الفأر . كانت لعينيه حدقتان صفراوان بعثت نظرتهما الرعدة فى أوصالى .

أكثر من مرة شعرت أن أحدا دخل شقتى فى غيابى وعبث بمحتوياتها . فى البداية شككت فى السفرجى والشغالة الفليبينية اللذين ينفردان بالشقة طول النهار . ثم اتجهت شكوكى ناحية أخرى عندما اكتشفت أيضا أن أحدا يعبث بمحتويات مكتبى فى الإدارة . وفى أحد الأيام سقطت منى سماعة التليفون

على الأرض وتحطمت وعندما رفعت الحطام تبينت جهازا صغيرا للتسجيل
مثبتا فى بوق الإرسال . أيقنت عل الفور أن محسن فهمى يسعى ورأى .
فى هذه اللحظة انفجرت قضية الرشوة : ألقت الشرطة القبض على
ماجد عبود بتهمة عرض رشوة مقدارها مليونين من الجنيهات على رئيس لجنة
وزارة الصناعة من أجل التجاوز عن إجراءات الأمان . وبعد أسبوع فوجئت
بالقبض على وتوجيه الاتهام نفسه إلى . وعرفت أن ماجد عبود زعم أنه كان
ينفذ أوامرى واستشهد بمحسن فهمى الذى قدم خطابا موجهها منى إلى رئيس
اللجنة يشير إلى ما تم الإتفاق عليه بيننا بخصوص إجراءات الأمان . كما قدم
تسجيلا تليفونيا لحوار بينى وبين رئيس اللجنة حول إطارى كاوتشوك . كان هذا
قد ذكر لى أنه يجد صعوبة فى الحصول على نوع معين من الإطارات لعربته
الفولكس فتطوعت لتزويده بهما دون مقابل . لكن النيابة أصبرت على أن
عجلتى الكاوتشوك سيم أو شفرة للمليونين .

فيما بعد استطعت أن ألم خيوط ما حدث . فالمبادرة التى قام بها ماجد
بوحى من تعليمات عامة من بازل ، اصطدمت بجشع رئيس اللجنة الذى
أراد الاستئثار بالمبلغ . واشتم زميلاه الرائحة فواجهاه طالبين نصيبهما وعندما
رفض أبلغا الشرطة نكايه فيه . وتفتقت عبقرية محسن فهمى عن طريقة
لاستغلال الموقف من أجل التخلص منى . وبالفعل أصدرت كوش قرارا
بفصلى بتهمة تجاوز حدود مسئولياتى باتخاذ إجراء - تقصد الرشوة -
يتعارض مع المبادئ الأخلاقية التى تلتزمها الشركة ، مما أساء إلى
سمعتها

طبعاً لن أتركهم فى حالهم .. وسأقاتل حتى النهاية .. لكن مصيرى الشخصى لم يعد يقلقنى كثيراً .. فترة السجن أتاحت لى فرصة للتفكير والقراءة . وتحقيق حلم قديم من أحلامى هو كتابة المسرحيات . والتمعن فى تجاربى . وفى أحوال البلد و أحوال العالم . أعرف أنى أقف على حافة هوة قد تطيح بى شخصياً .. لكنى أرى بلدى و أفريقيا كلها بل وأغلب الشعوب السيئة الحظ تقف فعلاً على حافة هاوية حقيقية .

.. أحياناً أشك فى أنى ضحية أو هامى ومشاكلى الشخصية وفشلى فى علاقتى بزوجتى .. أو ببساطة ضحية أزمة منتصف العمر. أوروباً كنت طبقاً لاتهام زوجتى مغروراً يتوهم أنه قادر على إصلاح الكون .. ربما .. . وأعرف أنى لن أتمكن من تغيير شئ . فالأمر أخطر من أن يقوم شخص واحد أوحتى جماعة أو حزب واحد بذلك .. . ومع ذلك لا أستطيع أن أتجاهل ما يحدث .

ملحوظة : سلم مأمور السجن هذه الأوراق إلى مندوب خاص من وزارة الداخلية سلمها بدوره فى اليوم التالى إلى اللواء محسن فهمى ، مدير الأمن بالفرع الإقليمى لشركة كوش العالمية .

عرض العرائس الذى أقيم بمناسبة

ذكرى الانتصار العظيم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣

أعده وأخرجه الدكتور رمزى بطرس نصيف

فناء عنبر الملكية مساء . المسجونون يفترون الأرض فوق
بطاطينهم فى ضجة وانفعال . ليس بينهم واحد من أصحاب اللحى
الذين تابع بعضهم العرض من شراعات زنازينهم المغلقة فى
الطابق الثانى . ظهور الجالسين إلى بوابة العنبر و وجوههم نحو الحائط
المقابل حيث انتصبت مائدة غطت البطاطين سطحها وقوائمها
لتخفى المساجين الذين سيتولون أمر العرائس . كشافان كهربائيان
معلقان فى السقف . ستارة من البطاطين تمتد بين الجدارين بعرض
الفناء فوق المائدة بحيث تخفى مدخلى الزنزانين الأخيرتين
المتقابلتين اللتين تكونان مع خلفية المائدة كواليس المسرح .
ميكروفون خلف المائدة .

الصف الأول من المتفرجين يتكون من مقاعد يشغلها المأمور فى
الوسط يحيط به ضباط السجن . (أثار هذا الوضع نقاشا حادا من
قبل إذ احتج رمزى بأن المسجونين لن يتمكنوا من مشاهدة المسرح
وأعلن المأمور أنه من المستحيل أن يجلس هو وضباطه فوق
الأرض إلى جوار المسجونين وفى النهاية تم الإتفاق على تعلية
المسرح بصناديق خشبية أحضرت من ورشة النجارة ، صفت متجاورة

ورفعت مائدة المنصة فوقها) . خلفهم مباشرة كبار الشخصيات من
المسجونين : بينهم الدكتور ثابت ومستتر تامر و عزت بيه والنوباتجية
البارزين . الحراس يحيطون بالقاعة وقد جلس بعضهم فوق البطاطين
بينما ظل الآخرون واقفين تحسبا للطوارئ بناء على تعليمات
المأمور .

الدكتور رمزي يتقدم إلى الميكروفون فيقع الضوء المبهر على
وجهه .. المسجونون يلزمون الهدوء .

د. رمزي : فكرة هذا العرض آتية من بورسعيد .

لا أقصد أنها مستوردة ،

فنحن نتحدث عن بورسعيد قبل أن تصبح حرة .

وفي الحقيقة قبل زمان بعيد ،

عندما قامت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزي .

فقد تصادف أن حل عيد الفصح مع عيد شم النسيم ،

في نفس اليوم ،

فشارك مسلمو بورسعيد أقباطها الاحتفال ،

ورفعوا جميعا شعار الهلال و الصليب ،

ثم أعدوا تمثالا من الخشب للجنرال الإنجليزي الشهير

النبى ،

وأحرقوه .

ومن يومها ،

في كل عيد لشم النسيم ،

يفطر البورسعيديون بكعكة من الخبز تتوسطها بيضة

مشوية ملونة ،

و يتغدون بالفسيح و البصل الأخضر ،
و يحلّون باليوسفى و البرتقال ،
ثم يصنعون تماثيل من الكرتون و القش ،
تحمل جميعها اسم الجنرال الانجليزى ،
لكنها تمثل شخصيات مختلفة ،
من الباشا والمرابى والخواجا ،
إلى إيدن ودى موليه و بن جوريون ،
موشيه دايان وجونسون وجونسون ،
من السمسار و صاحب الدشداشة ،
إلى المواطنين الجشعين ،
من تجار و أطباء و ملاك مساكن و مهربين .
وفى المساء يقيمون مسرحا كهذا
يتصبون فوقه التماثيل ،
ثم يقومون بعملية تشهير .

يتراجع رمزي و يختفي خلف الستائر . تنفّرج الستارة التي إلى
اليمن عن صف من القبور الكرتونية . ينهض من خلفها ثلاثة
أشخاص فى ملابس عسكرية يتقدمون إلى المنصة . الثلاثة هم
أشرف ، و سامح ، و صبري .

أصحاب القبور

فى صوت واحد

هذا هو ما جاء بنا ...

نحن أربعين ألف قتيل ،

سقطنا فى حروب ٤٨ و٥٦ و٦٧ و٧٣ .

تاركين آباء وأمهات وزوجات وأطفال ،

وخططا طموحة للمستقبل .

واحد منهم : أنا الجندى إبراهيم زيدان ،

أصبت فى بطنى ،

وخرجت أحشائى أمام عيني .

لكنى تحاملت على نفسى ،

وظللت أقاتل حتى استشهدت .

واحد آخر : أنا النقيب إبراهيم الدسوقي .

فى يوم ٢٢ أكتوبر ظهرت لنا ثلاث دبابات فى طريق

سراييوم ،

وخلفها سبعون دبابة أخرى .

كان لا بد من تدمير الدبابات الثلاث لمنع تقدم السبعين .

وكنا شعلة من الحماس .

فقممت بتلقيم جسدى ،

وهجمت على دبابة المقدمة .

احتضنتها بجسدى ،

وانفجرنا نحن الاثنين .

ثالث : اسمى لاقيمة له ،

فلم يعن أحد بإحصاء عددنا

أو تسجيل أسمائنا .
نحن عدة مئات من الأسرى .
فى ٥٦ و ٦٧ ،
أجبرنا الإسرائيليون على حفر قبورنا
ثم أوقفونا على حوافها ،
وأمطرونا بالرصاص .
أما أنتم ،
فتجاهلتمونا كلية ،
عندما عقدتم اتفاقيات السلام ،
وتبادلتم الزيارات و الأنخاب .
رغم أن الصحف الإسرائيلية لم تخف الجريمة ،
التي تتنافى مع كل المواثيق الدولية .
ينسحب العسكريون الثلاثة و يخنقون خلف شواهد القبور ثم
يعودون فوق مقاعد متحركة .
معوق ١ : أنا المقدم حسين الشاذلى .
كلفتم بمهمة تعطيل الدبابات الإسرائيلية عند الثغرة .
نجحت فى إيقاف رتل منها ،
ومنع تقدمها .
وكان أن أصابتنى قذيفة من طائرة ،
إصابة مباشرة .
ونتج عن الإصابة شلل نصفى فى الجانب الأيمن ،

ولم أعد قادرا على الحركة .

معوق ٢ : أنا الجندي عيد طه ،

من قرية بتمة ، قليوبية

اشتركت في العبور يوم ٦ أكتوبر .

وفي يوم ٧ كلفوني بزرع ألغام على بعد عشرة أمتار

من شرق القناة

وقبل فجر يوم ٨ نجحنا في تحويل المنطقة إلى قطعة من

جهنم .

وفي يوم ١١ أصبت .

وكانت النتيجة شلل نصفي في العمود الفقري .

و.أصبحت. وأنا في الواحدة والعشرين ،

أعيش فوق كرسي متحرك .

و كانت مكافأة الدولة لي ٨٠٠ جنيه وعشرون قرشا ،

أنفقتها على علاج أمي من الضمة .

معوق ٣ : اسمي خلف قدس،

من قرية شطورة بطهطا ، سوهاج .

أصبت عند العبور بشلل نصفي أقعدني،

وحرمني من الزواج والحياة الطبيعية .

وبعد علاج سبع سنوات ،

وصلت إلى جمعية "الوفاء والأمل" ،

إحدى الجمعيات التي تعهدت برعاية ٦١ ألف معاق،

هو عددنا الإجمالي .

وكنا قد سمعنا عن التبرعات التي جمعتها باسمنا ولصالحنا،

ومنها مليونين من الجنيهاً تبرع بها ثرى عربى ،

من أجل شراء سيارات مجهزة لنا .

وعماره قدمها مقال طيب القلب ، ،

لتوزع شققها علينا .

لكن المسئولين عن الجمعية أنكروا معرفتهم بالأمر .

وعندما أثرنا الموضوع فى اجتماع مع السيدة الرئيسة ،

استشاطت غضبا .

و بعد أيام طربوا أربعة منا فى الفجر .

ذهبنا إلى رئاسة الجمهورية و شكونا لطوب الأرض ،

فوضعونا فى مركز تأهيل تابع للجيش .

وبعد سنة ونصف قرر المركز طردنا ،

بحجة إخلاء أماكن لمصابى العراق فى الحرب الإيرانية .

الجميع : عندما أصبنا ،

لم نشعر بأى ندم .

كنا نؤمن بأننا نؤدى واجبنا .

لكننا الآن نتساءل :

من أجل أى شئ كانت تضحياتنا ؟

ينسحبون ثم يعودون بعد أن استبدلوا ملابسهم بأفرولات عمالية
يتقدمون من المنصة .

جماعة العمال : كالعادة أخطأتم فى أرقام الضحايا ،

ونسيتمونا كشأنكم فى كل مرة .

نحن أيضا سقطنا فى المعركة ،

رغم أننا لم نكن خلف المدافع أو فوق الدبابات .

نحن ستة آلاف عامل ،

استشهدنا أثناء بناء حائط الصواريخ ،

الذى انطلقت منه قوارب العبور .

من حقنا أيضا أن نتسائل :

من أجل أى شئ كانت تضحياتنا ؟

يتراجع العمال ويختفون وراء الستارة . تنفرج الستارة التي إلى
اليسار عن مجموعة من العرائس صفراء اللون تمثل صورا كاريكاتيرية
لشخصيات مصرية مختلفة : رجالية ونسائية . تنضم إليها مجموعة
جديدة صغيرة العدد يتميز بعضها بألوان الأعلام الأمريكية
والإسرائيلية ، بينما اكتسى البعض الآخر بالملابس العربية الخليجية .
يتعرف المسجونون على بعض العرائس التي تمثل شخصيات مصرية .

أصوات من القاعة : رئيس الوزراء !

وزير الداخلية !

وزير الإعلام !

الشيخ قرداوى !

الدكتور !

الحوث !

لهلوية !

جماعة العرائس : سؤال مشروع وإن كان غريبا بعض الشيء ،

والإجابة عليه ليس هناك أبسط منها .

إنكم ضحيتم بأنفسكم من أجل الوطن بالطبع ،

وحياة حرة كريمة لأولادكم وأحفادكم .

ينهض ثلاثة من المتفرجين ، من نزلاء العنبر ، من أماكن

مختلفة بالقاعة ، ويخاطبون العرائس . .

جماعة المتفرجين : نحن لم نذهب إلى الحرب ،

ولم نتعرض لشيء من أهوالها .

لم يمت منا أحد ،

ولم نفقد عينا أو ساقا أو يدا .

ولا حتى شربنا من منازلنا ،

أو هجرنا إلى أماكن بعيدة عن القنال .

لكننا دفعنا ثمن الأسلحة :

ثمن الهزيمة والنصر ،

ولم نعرف بعد الحياة الحرة الكريمة التي

تتحدثون عنها . .

الأسعار ترتفع كل يوم ،

وكل من لديه يزداد حتى يصبح لديه وفرا .
ويؤخذ ممن يفتقرون حتى الذى بين أيديهم .
والآن يقال لنا ، أن كل واحد منا مدين بألف
دولار ،

لبلاد أجنبية لا نعرفها
وكل طفل سننجه ،
سيخرج إلى الدنيا موسوما بالرقم المخيف
والعلامة المقدسة .
وهناك خطة وضعها صندوق البنك الدولي ،
لتحصيل هذا الدين ،
تقولون لنا أنها مضبوطة وسليمة ،
لأن الذى وضعها هو مواطننا المشكور ،
عبد الشكور .

جماعة العرائس الصفراء : نحن الذين اقترضنا ،
بضع عشرات من المليارات ،
٦٢ مليارا بالتحديد انخفضت إلى ٤٦ مليارا
(مكافأة لنا على الخدمة فى حرب الخليج) ،
ليست بالكثيرة عليكم ،
وعلى بلد خرجت من حربين مدمرة ،
وعانت من الاشتراكية .
لم نقترض بلا سبب وإنما من أجلكم ،

ومن أجل غد مشرق لنا جميعا ،
كما قال رئيس الوزراء فى إحدى خطبه .

متفرج ١ : من أجلنا ؟

الكل يعرف أن عشرة بالمائة من حجم القروض الأجنبية ،
تدخل جيوبكم ،
بطريقة مشروعة تماما ،
فى صورة عمولة و أتعاب مهنية .
وتعود ستون بالمائة من القروض مرة أخرى إلى البلد المقرض ،
بطريقة مشروعة تماما ،
فى صورة دراسات جدوى و خبراء .

بينما نتحمل نحن سداد كامل القرض وفوائده .

متفرج ٢ : البنك الدولى نفسه الذى تتمسحون دائما بذكراه ،

أعلن أن أرصدتكم من عمولات القروض ،
المودعة فى بنوك سويسرا و الولايات المتحدة ،
لا تقل عن ستة مليارات من الدولارات .

متفرج ٣ : وفقا لبيانات الأمم المتحدة ،

بلغ دخل مصر فى الثمانينيات ١٤٠ مليار دولار ،
بينها قرابة خمسين مليارا من تحويلات المصريين فى الخارج ،
و ٢٥ مليارا من المساعدات الأمريكية وغيرها ،
و ٢٢ مليارا مساعدات عربية معظمها لا يرد .

ثروة ضخمة لم تتوفر لأى بلد فى العالم النامى ،
كان يمكنها أن تحدث معجزة .
على الأقل تعفيكم من الاقتراض ،
وتعفينا من السداد .

عروسة صفراء ١ : مهلامها يا إخواننا .
الأرقام والإحصائيات هى لعبتنا ،
ولا أحد يعرف مثلنا كم هى مضللة .
إنكم تجاهلتم أن البنية الأساسية كانت مدمرة .
كما تجاهلتم ارتفاع الأسعار العالمية ،
والنفقات العسكرية اللازمة للدفاع عن شرف الوطن.

متفـرج ١ : ضد من ؟

عروسة صفراء ٢ : يمكننى أن أجيب على هذا السؤال .
فأنا قائد عسكري ،
أى رجل استراتيجى ،
مثلما كان المرحوم السادات .
الأمر واضح كالشمس ،
وتجاهله يكون إما بسبب الغباء ،
أو عدم الانتماء .

فسلامنا مع إسرائيل لا يعنى أن الأخطار انتهت .
إستقرار منطقة الخليج مثلاً أمر حيوى للعالم كله .

لأن الغرب يحصل منها على ٩٠ بالمئة من
احتياجاته البترولية .

هنا يكمن دور مضرو ومسئوليتها .

هكذا قال المشير أبو غزالة

وهو استراتيجي مثنا :

عروسة صفراء ٢ : ثم إن إسرائيل لا يوثق بها .

ويجب أن نكون دائما على استعداد للمفاجئات.

عروسة بألوان

العلم الإسرائيلي : أنت تجعلنى أضحك !

أى مفاجآت تتحدث عنها !

الجميع يدركون الآن ان المستقبل لنا .

أما أنتم فقد ضيعتم الفرص التى سنحت لكم
فى ٧٢ ،

حققتم لحظة من الأداء العسكرى و التضامن ،

لم تحدث من قبل وإن تتكرر من بعد .

كان بوسعكم أيامها أن تجبرونا على قبول أشياء
كثيرة .

لكن رب إسرائيل الذى لا يتخلى عنها ،

بعث إلينا بأنور السادات ،

رئيسكم ورب عائلتكم ،

القروى بحق و حقيق :

وفى ٨٢ ،

نجح الفلسطينيون فى احتجازنا عدة أشهر فى
لبنان .

وكانت فرصتكم لو عملتم على الجبهات المختلفة .
لكنكم أضعتبوها .

ليس هذا فقط ..

دول عربية عديدة منها مصر ،

كان لديها صورة كاملة عن مخطط الغزو ،

بعد أن وافقت واشنطون على العملية .

وعندما قدم المندوب السوفيتى فى مجلس الأمن
مشروع قرار ضدنا ،

كان مندوب لبنان هو الذى عارضه ،

مؤكدًا أن الغزو الإسرائيلى شأن لبنانى داخلى !

فى يوم واحد ألقينا على بيروت كمية من القنابل
العنقودية والفوسفورية ،

تعادل مرة ونصف قنبلة هيروشيما الذرية .

وأسفرت العملية كلها عن ٧٠ ألف قتيل و ١٦ ألف
جريح ،

من الفلسطينيين و اللبنانيين بالطبع .

لكن الأسهل لديكم من التصدى لنا ،

هو أن تحاربوا بعضكم بعضا ،
أو أن تقاتلوا إخوانكم في الدين .
وبينما الفتن و الخلافات تمزقكم ،
والديون تستنزفكم ،

يتوافد علينا المهاجرون ،
وتلوح إسرائيل الكبرى في الأفق .

عروسة صفراء ٢ : الله جل شانه كان معنا دائما .

فلا تنسوا أن مصر ورد ذكرها بالقرآن الكريم .
لقد مر علينا كثير من الغزاة .
وكانوا يبقون مئات السنين ،
ثم يحملون عضيتهم و يرحلون ،
بعد أن يصيبهم الضرر .

متفرج ٢ : ما ذكره المحترم لا يؤكد غير شيء واحد ،

هو أننا شعب من فاقدي الهمة متبلدى الإحساس .
أفضل مثلا آخر ،

إذا كنت تريد حقا التدايل على أننا نخرج دائما
كالشعرة من العجين .

في سنة ١٩٥٦ ، أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة
السويس ،

فعدت إلى أصحابها ،

الذين فقدوا ١٢٠ ألف رجل في حفرها ،
لصالح الأوروبيين المتطلعين إلى الشرق ،
الذين سرعان ما تحالفوا ،
وبالاتفاق مع صنيعتهم إسرائيل ،
انقضوا على بورسعيد ،
وظلوا يقصفونها سبعة أيام من البر والبحر و الجو،
ثم اقتحموها بالخدعة ،
وحصدوا أهلها حصدا .
سبعة آلاف قتيل سقطوا في يوم واحد .
ولم يتوقف القتل ،
إلى أن وجه السوفييت إنذارهم الشهير ،
وتحت ضغط الرأي العام العالمى ،
اضطر المعتدون للإنسحاب .
وظلت القناة مصرية .

عروسة صفراء ٣ : إنه مثال على الحمق والتهور وقصر النظر ،
و على الغوغائية و الشعبوية .
لماذا تتجاهل المرة التى تلتها ؟
عندما أغلق مضيق تيران ،
وجاء الإسرائيليون وحدهم ، مسنودين بالأمريكان ،
بخطة أجيد إعدادها ،
واستغلت نقاط الضعف عندنا ؟

عروسة إسرائيلية ٢ : أشتَم هنا روائح العداء للسلام،

الذى عملنا من أجله دائما،

ووضعتنا أسسه فى كامب ديفيد وأوسلو ومديرد،

وهو ما قدره المجتمع الدولى عاليا ،

فقدّم جائزته لبيجين ،

ورابين وبيريز .

متفـرج ٣ : الجائزة تذهب للسفاحين والقتلة

و مخطمى أذرع الأطفال ،

الذين يعلنون بأعلى صوت ،

ومن فوق منابرهم الديموقراطية :

" أفضل عربى هو الميت " .

عروسة إسرائيلية ١ : ليس هناك ما يدعو للإنكار ،

فرب إسرائيل لا يعرف الرحمة .

الأعداء مصيرهم واحد ،

كبارا كانوا أم صغارا ،

عسكريين أم مدنيين .

عروسة إسرائيلية ٢ : كانت الشاحنة تقل مصريين فى جلايب بيضاء،

وعندما أطلقت رشاشى عليهم حدث أمر غريب .

فقد ظلّوا واقفين كأن الرصاص يدخل من

جانب،

ويخرج من الجانب الآخر ،
دون أن يثقب بطونهم ،
بينما كانت الدماء تتدفق من جوانب الشاحنة
بكميات كبيرة جدا .
كان ذلك لغزا كبيرا في نظري ،
إلى أن فهمت السبب .
فلأن الشاحنة كانت مكدسة لأقصى حد ،
لم يكن هناك مكان للسقوط على الأرض .
كل من مات ،
مات واقفا .

متفـرج ١ : أى سلام هذا الذى يتحدثون عنه ؟

وهم مازالوا يحتلون الأراضي العربية .
وإذا تركوا بعضا منها ،
فبشروط المنتصر المتفطرس ،
المؤيد من المجتمع الدولى :

متفـرج ٢ : مناطق منزوعة السلاح ،

فى أراضى المعتدى عليه ،

فوقها محطات إنذار يديرها الأمريكيون

متفـرج ٣ : حرمان الفلسطينيين من حقهم فى دولة مستقلة ،

ومن حق مهاجريهم فى العودة إلى وطنهم .

متفرج ١ : إجبار الأردنيين على تأجير أراضيهم لإسرائيل ،
و على الالتزام بعدم استقبال قوات عربية دون موافقتها ،
أو السماح بنشاط سياسى قد تعتبره خطرا عليها .

متفرج ٢ : أى سلام هذا الذى يتحدثون عنه ؟
وهم يحتفظون بمائتى رأس نووى ،
موجهة إلى العواصم العربية ،
تحت سمع المجتمع الدولى وبصره ،
ويطورون الصواريخ ،
و يعقنون الإتفاقيات العسكرية والأحلاف ،
مع عتالة الغرب و الشرق .

متفرج ٣ : ويلقنون تلاميذ المدارس أن أرضهم
تمتد من النيل إلى الفرات ،
بما فى ذلك منطقة خير السعودية .
عروسة اسرائيلية ١ : أمركم والله عجب .
فأنتم تريدون أن تحرمونا من حقنا التاريخى فى أرضنا ،
أرض التوراة ،
الذى التزمت به الولايات المتحدة الأمريكية ،
والبنوك العالمية .

متفرج ١ : حديث التاريخ والبنوك شائق للغاية ،
ولا بأس من فتح بعض صفحاته .
فى ٤ يوليو ١٩٠٢ تناول الزعيم الصهيونى هرتزل طعام

الغداء فى لندن ،
على مائدة اليهودى روتشيلد ،
- الذى مول مصرفه قبل ربع قرن ،
شراء الحكومة البريطانية لنصف أسهم قناة السويس -
وعرض عليه مشروعا لتوطين اليهود فى أوغندة ،
التي كانت توصف بلؤلؤة الإمبراطورية البريطانية .
وفى حدود علمى فإن اسم أوغندة لم يرد فى التوراة .
وعندما رفض الإنجليز التنازل عن لؤلؤتهم ، اتجه
الصهيونى ناحية أخرى .
حضر إلى مصر فى ٢٣ مارس ١٩٠٢ ،
يحمل مشروعا لتوطينهم فى سيناء ،
عرضه على بطرس باشا غالى رئيس الوزراء (وجد
الأمين العام للأمم المتحدة) .
وطبقا للتقاليد العريقة ،
رحب الباشا بالمشروع الصهيونى .
لكن سيده الإنجليزى كرومر لم يوافق (فأسرته كانت تملك
بنك بارينج منافس روتشيلد) .
هكذا كان حظ الفلسطينيين السئ .
متفرج ٢ : قالوا أن فلسطين أرض بلا شعب ،
وأن الرب منح أرضها لليهود ،
وتجاهل الجميع أن فلسطين كان بها عام ١٩٤٧ ،

أى قبل إنشاء دولة اسرائيل مباشرة ،
مليون وربع مليون من السكان (بينهم ٦٠٠ ألف يهودى
فقط) ،

وان اسرائيل قامت بتفريغ الأرض من العرب ،
بالطرد والترويع والمذابح
(فى ١٩٤٨ دمرت ٢٨٥ قرية من مجموع ٤٧٥ قرية عربية) ،
و بينما تجلب المستوطنين من كافة أنحاء العالم ،
ترفض عودة السكان الأصليين ،
طبقا لقرارات الأمم المتحدة .
هكذا كان حظ الفلسطينيين السيئ .

متفرج ٣ : حظ الصهاينة كان رائعا ،

بفضل رعاية ربهم ،
ليس أبانا الذى فى السماوات ،
وإنما ذلك الساكن فى أقبية البنوك ،
ببلاد الشيت SHIT .

عروسة أمريكية ١ : الغمز واللمز ضار للغاية ،

وبالمثل الإهانة .

الحقائق معروفة لا تداريها أو نخفيها .

وقد أوضحها الرئيس السابق نيكسون فى
أخر كتبه:

،التزاماتنا نحو إسرائيل عميقة جدا

أخلاقية في الأساس .

حقا إن الإسرائيليين هم الذين اعتدوا وضموا أراضي ،

لكن العودة إلى الحدود السابقة مستحيلة .

يمثل ما يستحيل عودة الفلسطينيين الذين غادروا البلاد في ٤٨

(فهم وأبناؤهم يبلغون ٣ مليون نسمة ،

وهو رقم كفيل بتغيير الوضع الديموغرافي)

أما اليهود الذين استوطنوا الأرض المحتلة ،

فيجب أن يعودوا إلى إسرائيل ،

مع منحهم تعويضات مناسبة بالطبع !

يمكن الضغط على السعودية ودول الخليج واليابان لتقديمها ،

هكذا تحدث نيكسون قبل أن يموت .

متفـرج ١ :صاحب الأرض الذي أرغم على تركها ،

لا يحق له العودة إليها .

أما اليهودى الروسى الذى ولد هو وأبوه فى سيبيريا ،

قله كل الحق فيها !!

إنها عدالة بلاد الشيت .

العروسة الأمريكية

السابقة : الحق أنى لم أشهد مثل هذا الجحود من قبل ،

خاصة وأن الشعب المصرى يعيش على المعونة

الأمريكية .

متفرج ٢ : فضلا عن قلة الأدب و الوقاحة ، فان ما ذكرته يجافى الحقيقة .

الشعب الأمريكى هو الذى يعيش على المعونة المصرية ،
لندع جانباً أن حكومتنا الأمينة الذكية ،

تودع فى بنكم الفيدرالى ،

كافة إحتياطياتنا من الدولارات ،

وهى تزيد على ١٢ مليارا منها ،

و تستثمر فائدة هذا المبلغ التى تتجاوز ٥٠٠ مليون دولار ،

فى سندات خزانةكم ،

أى تدعم الاقتصاد الأمريكى

بأن تحبس لديكم مبلغا ضخما ،

هو ثمرة عمل وكدح ملايين المصريين ،

بدلاً من أن تستخدمه فى شراء الديون ،

أو المشروعات التى تستوعب الغاطلين .

سندع ذلك جانباً و نناقشك بلغة الأرقام :

فى العشرين سنة الأخيرة (من ٧٤ إلى ٩٤) ،

قدمت أمريكا لمصر مساعدات إقتصادية وصلت إلى حوالى ٢٠
مليار دولار ،

و يعود ٦٠ بالمئة من هذه المعونة إليكم فى شكل صادرات سلعية
و خبراء ونقل .

و بلغت قيمة الصادرات الأمريكية لمصر ٢٩٢٠ مليون دولار عام
١٩٩٢ ،

وهناك ٢٠٠ شركة أمريكية لها مكاتب بمصر ،
بخلاف ١٨٠٠ شركة لها وكلاء مصريون ،
و ٥٠ شركة مشتركة تنتج سلعا متنوعة :
من بطاريات السيارات ، والجرارات ، إلى احتياجات المكاتب ،
توجه إنتاجها للسوق المحلية والخارج .
وأغلب هذه الشركات ، حسب كلامكم ، تحقق أرباحا ملائمة .
متفرج ٣ : أغلب هذه السلع لم نكن نستخدمها ولسنا فى حاجة
حقيقية إليها ،

لكننا سرعان ما نألفها ولا نستطيع الاستغناء عنها ،
رغم أنها قد تكون مميتة لنا .
يحضرنى الآن ما نشرته "الواشنطن بوست " فى ديسمبر
١٩٧٦ .

فبدلا من إعدام المبيدات المحظور استخدامها عندكم ،
تشتريها حكومتكم من منتجها ،
ثم تشحنها إلى بلاد العالم الثالث ،
فأنتم رغم كل حديث عن التقدم والتحضر و الغنى ،
لا تتورعون عن بيع أمهاتكم ، إذا كان ثمة ربح .

العروسة الأمريكية

السابقة : المحترم نسى شيئا هاما .

فعلى رأس هذه السلع التى وصفها بأنها زائدة عن الحاجة ،
القمح الذى يصنع منه الخبز .

متفرج ١ : أبدا لم أنس .

لقد كنا فى عام ١٩٩٦٠ ننتج ثلاثة أرغفة من كل أربعة ،
ونستورد الرابع .

ومنذ عشر سنوات أصبحنا نستورد ثلاثة أرغفة ،
وننتج الرابع .

بالطبع هناك عوامل كثيرة أوصلتنا إلى هذا الوضع ،
لكن لا يمكنكم أن تدعوا البراءة الخالصة فى الأمر .
فأنتم تحققون دائما فائضا من القمح .
وليس أمامكم سوى أن تحرقوه أو تفرقون به السوق ،
فتنخفض الأسعار .

لكن عبقريتكم فى الابتكار أوصلتكم إلى طريق ثالث .
فالتكلفة الإنتاجية فى بلادنا منخفضة ،
ولهذا تشجعوننا ، أنتم والبنك - اللى يساعد ويدى - ،
والصندوق المفتوح للأحباب ،

ورجالاتهما المخلصين ، من أمثال عيد الشكور ،
على الانصراف عن زراعة الحبوب ،
إلى الفراولة والخيار الشيك ،

وبقية المحاصيل التى يحتاج إليها مواطنوكم المرفهين ،
كى تصلكم بسعر معقول : أرخص مما لو زرعتموه
بأنفسكم ،

س أن نأخذ منكم حاجتنا من القمح ،
ملات محلية توجه لتمويل مشروعات محلية .
مبارة أخرى لدعم القطاع الخاص ،
تى يتمكن من استيراد سلع أمريكية .
هكذا تعود الدولارات فى النهاية إليكم
متفرج ٢ : نحن نستورد سنويا ما قيمته ١٥٠ مليون دولار من القمح .
ويتولى إنجاز هذه العملية الذهبية ،
مكتب خاص فى باريس تأسس سنة ١٩٧٦ ،
وكان أول رئيس له هو الدكتور القيسونى ،
مهندس البناء الإشتراكي ، ثم مقال الانفتاح .
وخلفه الدكتور السايح ثم مصطفى خليل الشهير .
ويأخذ المكتب عمولة قدرها ٤ بالمائة على واردات القمح ،
أى ٦٠ مليون دولارا كل سنة !
ويرتفع هذا المبلغ بالطبع كلما ارتفع ما ندفعه لأرب القمح
المستورد ،
هكذا يمكننا أن نفهم سر "الأسعار العالمية" التى لا تكف
عن الارتفاع ،
بالنسبة لنا وحدنا !!
وبينما لا تبخل حكومتنا الكريمة على الفلاح الأمريكى
بخمسين جنيها فى الأرب ،
تصر على ألا يحصل الفلاح المصرى على أكثر من ١٨ جنية

والسبب واضح لكل عين بصيرة ،
ويد طويلة .

عروسة أمريكية ٢ : لا شأن لى بالماضى البعيد ،
ولا بالتفاصيل .

فأنا رجل استراتيجى ،

الصديق هنرى ،

كما وصفنى المرحوم رئيسكم .

رغم أن ملعبى يمتد بين أطراف المعمورة ،

فإن منطقكم هى التى صنعت مجدى .

كما أمدتنى بأمتع اللحظات فى حياتى .

لحظات من الضحك !

لقد بدأت علاقتى بها منذ سنوات طويلة ،

عندما كنت مستشارا لبنك "تشيزمانهاتن"

البنك العتيد الذى يملكه روكفلر ،

بابا البنوك الأمريكية وولى نعمتى .

وكان هذا البنك هو الذى يتحكم فى البترول العربى ،

ويسيطر تماما على الموقف ، بعد أن طُرح عبد

الناصر أرضا ،

بالضربة القاضية .

لكن لم تمض سنة على وفاة ناصر ،

حتى بدا النظام الرأسمالى كله على وشك الانهيار.
تخلت الولايات المتحدة عن تعهدها بتحويل الدولار إلى
ذهب ،

ولم يعد الدولار مستودعا باحتياطى من الذهب ،
فانهار سعره بشدة .

لكن النجدة جاءت على الفور .
من أين ؟

من بلد الحرم الشريف ، مهد النبى العظيم ،
عليه ألف صلاة وسلام .

فقد اندفع السعوديون إلى بنوكنا ،
يضعون فيها الودائع باسم الحكومة ،
ويشترون سنداتنا غير القابلة للتسويق ،
ويقدمون القروض لبلاذ مثل الفليبين ،
كى تشتري منتجاتنا .

لكن الأزمة لم تنفرج تماما ،
وجاء عام ١٩٧٣ بعجز فى ميزان المدفوعات الأمريكية ،
لأول مرة منذ مائة سنة .
وتدنى سعر الدولار .

كنت وقتها مستشارا للرئيس الأمريكى ،
وغارقا لأذنى فى مشكلة اسرائيل .
وفى إحدى اللحظات النادرة التى تتجلى فيها أعقد

الأمور فى جلاء ناصع ،

تبينت طريقى بوضوح ،

فيما يشبه الوحي الذى كان ينزل على نبيكم الكريم :

ضربة القرن الكفيلة بحل كل المشاكل :

ذهبت إلى السادات (الذى نعرفه جيدا من زمان) ،

و أبدت له يأسى من أى حل ما لم يقم بتسخين
الموقف .

لست أزعم أنى المسئول عن قيام حرب أكتوبر ،

فهذا يكون منى منتهى الغباء .

عبقرية أى استراتيجى ليست فى تدبير الأحداث ،

وإنما فى التأثير فيها واحتوائها عند وقوعها .

وهو ما فعلته بالضبط .

فلم نسمح للقوات المصرية بغير عبور قناة السويس ،

وهو ما كان ضروريا من أجل فتحها ، إعادة تشغيلها .

وشجعنا صديقنا الملك فيصل ، طيب الله ثراه ،

على فرض حظر البترول ورفع سعره ،

فتضاعف فى أسابيع قليلة سبع مرات ،

وسعد العرب البلهاء ،

الذين يضعون فوق رؤوسهم ،

موانع الذكاء .

فقد امتلأت جيوبهم بالدولارات .

لكنها لم تستقر فيها سوى ثوان .
فبفضل جشع البدو و تخلفهم ،
سرعان ما انتقلت إلينا على يد الساحر روكفلر ،
الذى تولى توظيفها على الفور .
وخلال ذلك كنت أمارس سيامتى الموسومة ،
بالخطوة خطوة
(وهو على فكرة اسم رقصة أمريكية) ،
وهدفها كان ملاعبة السادات .
وكان اللعب لذيذا للغاية ،
فقبل أن يجلس فى حجرٍ كارتر ،
كان قد عرف حجر العبد لله .
تنازل عن شروطه فى التسوية الشاملة ،
و انسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل سبعة وستين .
وفى أسوان ، التزم أمامى بإمداد إسرائيل بالبتروöl ،
و إبرام الصلح معها ،
وإخراج السوفييت من معادلة الشرق الأوسط ،
و الأهم إلغاء سيطرة الدولة على التجارة الخارجية ،
و السماح للمصريين بتكوين وكالات تجارية .
لكن الحق يعرف لأهله ،

فلولا سذاجة المصريين وبلاهتهم ، ما حققت شيئاً .
وكان السادات يفهمهم جيداً (أليس واحداً منهم ؟)
و يعرف كيف يخاطبهم و يضحك على ذقونهم
و بخبرة تجارية عريقة منذ كان نائباً لرئيس الجمهورية،
(عندما كان يتولى إدارة مصالح أمير الكويت) ،
يبيع لهم أى شئ .
مرة يقول أن السوفييت امتنعوا عن تعويض السلاح ،
كما لو كانت الحرب نيابة عنهم أولحسابهم ،
ورغم أنهم زودوا الطيران المصرى بسرب ميج ٢٣ ،
قبل أن تحصل عليه دول حلف وارسو(فأتيج لنا التعرف
على هذه الطائرة الخارقة)
ومرة يقول إن السلاح السوفييتى ، الذى حقق لهم النصر،
متخلف و يجب استبداله بأخر من الغرب ،
الذى يدفع العمولة .
وبدلاً من ثلاثة أرباع مليون جنيه مصرى للميج ٢١،
دفع الهبل بين ٦ و ٨ مليون دولار للفانتوم الأمريكية ،
ومئات الألوف من الدولارات لخبراء عسكريين ،
مكان الخبراء السوفييت ،
الذين كانت موسكو تتحمل رواتبهم بالكامل .

ومرة ثالثة يجعلهم يستقبلون نيكسون استقبـال
الفاـتـحـين ،

بعد أن رفضه العالم كله بما فى ذلك الشعب
الأمريكى نفسه ،

متناسين الجسر الجوى الذى قتل الآلاف منهم قبل
سنة واحدة فقط .

ثم جعلهم يقبلون أن يكون هناك راع واحد للخصمين .
وصدق الهبل أننا يمكن أن نكون حكما عادلا بينهم وبين
إسرائيل ،

وأننا يمكن أن نمدهم بسلاح لمحاربتها فى يوم من الأيام .
والنتيجة بالطبع هى محادثات السلام التى أخرجتكم من
الصراع ،

وقضت إلى الأبد على حلمكم بالوحدة ،
ومكنت لنا الأقدام .

عروسة أمريكية ٣ : أنا البابا ،

ليس بابا الفاتيكان ، ولا الأسكندرية ،

بل أخطر : دافيد روكفلر ،

أو الصديق دافيد ،

بابا البنوك الأمريكية كلها ،

وملك نيويورك .

دخل جدى السجن متهما باغتصاب شابة صغيرة .
و كُون أبى ملايينه من قطعة أرض اغتصبتهها شركة صغيرة
من الهنود الحمر ،
ثم اكتشف بها بترولاً اغتصبه لنفسه .
واحد من محاميه تولى ترتيب أوضاع ألمانيا بعد الحرب
الثانية،
وأخروضع سياسة أمريكا البترولية ،
وثالث وضع مشروع البنك الدولى و الصندوق .
تميزت فى هارفارد HARVARD بشئ واحد هو جمع
الخنafs ،
وما زالت هوايتى إلى اليوم
(أحياناً أتساءل عما إذا كانت هذه الهواية تعود إلى أن
الجعران المصرى قد استخدم علامة على أقدم شكل للنقود
، لأنه كما يرى تلامذة فرويد ، ارتبط بعملية الإخراج، أى
الشبث) .
تعلمت منذ الصغر أن الدولة الأمريكية بكل أجهزتها ،
قد وجدت لخدمتى ،
فنحن الذين ندفع قبل انتخابات ساكن البيت الأبيض،
ونحن الذين نقبض بعدها .
عندما أمت إيران البترول فى عهد مُصدق ،

كانت المخابرات الأمريكية هي التي أسقطته .
وبالنتيجة وضعت كل عوائد النفط الإيراني في بنك تشيز
مانهاتن ،
وأصبحت المستشار السياسي والاقتصادي للشاه .
وعندما أوشك مويوتو على السقوط في أوائل السبعينيات ،
سخر كيسينجر قوات مصرية و مغربية لإنقاذه،
فارتفعت أسهم البنك و أسهم شركة الموارد المعدنية في
الكونجو(التي تقدر نسبة أرباحها السنوية بـ ٤٠٠ في المائة و
تملك أسرتنا نصيبا كبيرا منها) .
ترددت على مصر بعد تولية السادات ١٣ مرة .
رجل دمه خفيف ،
يشاركني حب الفخخة و كراهية الشيوعية .
وقبل حرب أكتوبر بأسبوعين فتح لي قلبه على مصراعيه .
(بعد أن فتح لي بلاده كلها على مصراعيها و أمر كل
الجهات بأن تضع تحت يدي أي بيانات أطلبها فأطلعت
خلال اسبوعين على كل شاردة و واردة من أمور الاقتصاد
المصري تصورا ١)
قال لي بالحرف أن كيسينجر لا تهمة المشاكل و هي باردة ،
عاوزها سخنة و مستوية للحل !
كائننى لم أكن أعلم !

وقال لي بالحرف أن مصر وضّعت نفسها مع المفلسين،

و أن لها أن تكون مع الأغنياء .

ثم تطرقنا للخطوات العملية ،

للقروض والعمولات والحسابات ،

و قررنا فتح فرع في مصر للبنك .

عروسة أمريكية ١ : ضربة القرن الحقيقية هي ما حدث في الخليج .

حقا إن ثمان سنوات من الحرب الإيرانية العراقية ،

قد أنهكت البلدين ،

(عبقري العراق شنها ولديه فوائض مالية مقدارها ٣٥ مليار

دولار وخرج منها بعد ثمانى سنوات بديون خارجية ٤٢ مليار

دولار وإجمالا كلفته الحرب ٢٠٠ مليار دولار)

واستنزفت قدرا كبيرا من أموال العرب ،

لكننا كنا محتاجين المسة تشطيط أخيرة ،

تلم الشرق الأوسط كله في جيبنا .

أبلغت سفيرتنا صدام أننا لن نعارض إذا أخذ الكويت .

وصدقها ،

فاجتاحتها قواته في ٢ أغسطس ١٩٩٠ .

في اليوم التالي اتصلنا بمبارك،

ونذكرناه بالمعونة والديون ، و بالبنك الدولي وصندوق

النقد ،

وفى اليوم الذى بعده أدانت الحكومة المصرية الغزو .
وكانت النتيجة أن رقص صدام حضور مؤتمر جدة ،
الذى كان مقصدا له بحث النزاع والوصول إلى حل
سلمى .

ثم جاءت الخطوة الثانية .

أوصلنا للملك بوسائلنا الخاصة صورا للقمر الصناعى ،
أثبتت أن الجيش العراقى يتحرك نحو حدود بلاده .
لم يكتشف المسكين أن الصور ملعوب بها .
فالقوات التى ظهرت فى الصورة لم تكن تتحرك ،
إنما كانت تحفر لنفسها خنادق دفاعية .
وكنا قد أزلنا من الصورة أثر البلدوزرات التى تقوم بالحفر.
هكذا فى ٦ أغسطس طلب منا رسميا ،
أن تدخل قواتنا بلاده للدفاع عنها .
وكانت الطائرات جاهزة .

فى نفس اليوم غادرت هناجرها ، لتستقر بعد ١٥ ساعة
طيران فى الظهران ،

ومنها إلى قاعدة تومريت فى سلطنة عُمان .

هكذا بدأت عملية درع الصحراء وهدفها المعلن هو ردع
العراقيين .

أما هدفها الخفى فهو التحضير للعاصفة .

فى ١٦ اكتوبر كان أمام جيمس بيكر وزير الخارجية تقدير موقف حاسم :

"تحرير الكويت لم يعد. بذى أهمية وليس سوى مجرد ذريعة .

المطلوب هو تدمير البنية الأساسية للعراق ،

وإخراجه من معادلة الشرق الأوسط ،

أو بالأصح إدخاله إليها ..

لكن هذا الهدف سيحبط لو انسحب العراق من الكويت ،
من تلقاء نفسه .

لهذا يجب أن تتوخى السياسة الأمريكية ثلاثة أهداف :

استفزاز صدام بطرق مختلفة تجعله يرفض الانسحاب ،

رفض أى مساومة قديعرضها ،

وإحباط أى خطة للسلام قد تساعد على الخروج سليما
من مأزقه " .

وفى ٢٩ نوفمبر أعطت الأمم المتحدة الضوء الأخضر لإجلاء

العراق من الكويت

ما لم ينسحب حتى ١٥ يناير .

و بينما كان الوسطاء يهرولون بين عواصم العالم للحيلولة

دون المذبحة،

وعلى رأسهم السوفييت الساكنين ،

الذين كانوا يحاولون انقاذ هيبتهم الضائعة ،
وبولتهم المحتضرة ،
كنا قد حشدنا آلة حرب جهنمية :
غطت الأساطيل الحربية مياه الخليج و البحر الأحمر ،
وازدهمت مطارات الخليج بالمقاتلات والقاذفات والناقلات ،
سكاي هوك و تورنادو و ميراج و بوما و سويفر بوما ،
وفوقها أقمار التجسس والأوكس والأورورا ،
أعاجيب تكنولوجية أنفقنا عليها مليارات المليارات ،
تسجل كل حرف وكلمة وحركة يقوم بها صدام بالليل أو
بالنهار
وعلى طريق التابلاين الشهير ،
تقدمت أكبر أرمادا برية في التاريخ :
أكثر من نصف مليون جندي ،
على رأسهم بضع آلاف سعودي و مصري و سوري لزوم
التقوية .
وبعد ساعتين من منتصف ليلة ١٥ يناير ،
انطلقت عاصفة الصحراء .
وخلال الشهر التالي دمرنا العراق وأعدناه إلى عصر
ماقبل الثورة الصناعية ،
ولم يستغرق الغزو البري غير أربعة أيام ،

تم خلالها إبادة القوات العراقية في الكويت .
ودفع العرب البلاء كلفة هذا كله .
عام من الانتصارات ، توجت بإنهيار الاتحاد السوفييتي
بعد شهور ،
دون حرب أودياولو ،
ثم مؤتمر مدريد الذي وضع الخطط ،
لجنى الثمار .

متفرج ٣ : عملية رائعة دون شك .

قبل عشرين سنة لم يكن في استطاعتكم إرسال جندي
واحد ،

إلى أى مكان في المنطقة .

فشبح عبد الناصر كان ما يزال حيا .

وقبل خمس سنوات لم تكن لديكم قوات أمامية في منطقة
الخليج .

أما اليوم فهناك أكثر من ٢٠٠ طائرة مقاتلة ،

تجثم في مجموعة من القواعد الجوية في عدد من البلدان ،
على رأسها مصر ،

ووجود بحري قوى طوال الوقت و مقر قيادته في البحرين ،
ولواء كامل مقيم في الكويت ،

عتاد مخزون فى قطر،

والفاتورة يسدها العرب .

متفرج ١ : الكويت المسكينة ،

التي كانت ترفض دائما أى تحالف أجنبى ،

أصبحت تحت الحماية الأمريكية الدائمة ،

وملتزمة بانجاح سياستكم فى المنطقة ودعمها .

وبتوقيع عقود تجارية مع شركاتكم بعشرة مليارات من
الدولارات .

وبعد أن أضاعت ١١ مليار دولار ، خصصتها للتسلح بين
٧٣ و ٩٠ ،

عادت اليوم تخصص مبلغا أكبر للسنوات العشر القادمة .

متفرج ٢ : وخفض الأردن الرسوم الجمركية على السيارات الأمريكية ،

لتشجيع استيرادها وتمكينها من منافسة أخواتها
اليابانية والروسية ،

لكن نسبة التخفيض لم تعجب الولايات المتحدة ،

واضطر الأردن لأن يجرى تخفيضا آخر بمقدار النصف،

فكافأته الحكومة الأمريكية بمساعدات عينية قيمتها
٤٠٠ مليون دولار ،

آلات مصانع و موتورات ، أو حتى أغذية و أدوية ؟

أبدا ! لا أكثر من ٥٠ ألف سيارة فورد (سعر الواحدة

٩٠٠٠ دولار) ،

تبيعها الحكومة الأردنية لموظفيها مقابل أقساط تسدد على عشر سنوات .

متفـرج ٣ : والإمارات المتحدة ،

فرض عليها أن تشتري أسلحة لا تحتاجها ،

بثمانية عشر ألف مليون دولار .

متفـرج ١ : أكثر من سبعين مليار دولار أهدرت في حرب الخليج .

كم مصنع وجامعة ومزرعة ومستشفى يمكن إنشاؤها بهذا المبلغ؟

إن تحصين جميع أطفال العالم ضد المرض لن يتكلف سوى مليارين ونصف مليار دولار في السنة .

ملياران ونصف مليار دولار سنويا لإنقاذ حياة ثمانية ملايين طفل في السنة .

عروسة أمريكية ١ : أنت تضحكني .

لقد بددتم ثروة من أكبر الثورات التي أتاحت في التاريخ لأمة من الأمم ،

كما قال هيكل ، أحد كتابكم الكبار.

في عشر سنوات فقط ،

أضعتم ألف وخمسمائة مليار دولار ،

ثلثها تجمد في مشروعات ضخمة ، مدنية و عسكرية ،

تولاها مقاولون من عندنا ،
ليس هناك احتياج ملح لها .
والثلث الثاني في مشتريات سلاح ،
لم تستخدموه ولا تعرفون كيف تفعلون .
والباقي ما زال يدور بمعرفة البنوك الأمريكية والغربية ،
عروسة أمريكية ٢ : في سنة واحدة هي ١٩٨٥ كانت الاستثمارات
العربية الفردية ،
في مجال الخيول فقط ،
ببريطانيا فقط ،
مليار دولار .

عروسة إسرائيلية ١ : البنوك العالمية تدور فيها الآن :
١١٢ مليار من أموال مصريين ،
٧٤ مليار دولار من أموال جزائريين ،
٦٥ مليار من أموال سوريين ،
٤٣٠ مليار دولار من أموال سعودييين ،

عروسة في

ثياب خليجية : حقا إن اسمي على رأس قائمة أغنياء العالم ،
أو كان قبل حرب الخليج .
ومع ذلك يقولون أن رقم ثروتى غير معروف ،

لأنه لا فرق بينها وبين الخزانة العامة للمملكة .

وهو تعليل مضحك للغاية ،

طالما أنه ليس هناك وجه للفرقة بين الاثنين .

متفـرج ٢ : لست أجده مضحكا على الإطلاق ،

فما يعلمه الجميع أن بلادكم الصحراوية لم تنتج حتى الآن غير النفط،

و في حقول النفط يعمل ٢٥ ألف عامل ،

كل واحد منهم ينتج ما قيمته ٢,٦ مليون دولار في السنة.

هكذا يمكننا معرفة حجم الثروة بالضبط ،

وأصحابها الحقيقيين .

العروسة الخليجية

السابقة : لم أكن أتصور أن الأفكار الشيوعية ما تزال تعيش في أدمغة البعض ،

بعد السقوط المئوي لقلاعها .

على أي حال ، فليس هذا موضوعي .

ما أردت قوله هو مقابلة صديقي كيسينجر ،

على لهجته الجارحة .

وأنت تشهد بصديق آخر، هو المرحوم فيلي برانت

الأماني، الذي قال بالحرف :

"أن الأموال التي أودعها السعوديون في البنوك الغربية والأمريكية ،

تساوى إيجاد فرص عمل لحوالى مليون شخص فى البلدان الصناعية سنويا على مدى السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧ ."

لقد كنا نحن الذين رفعنا سعر النفط وكدسنا هذه الأموال، كما اعترف صديقى كيسينجر .

وعندما لم يعد الغرب قادرا على مجاراة الارتفاع فى أسعار النفط ،

اتفقنا مع ريجان على إغراق السوق العالمى به ، مما أدى إلى تدهور أسعاره ،

وانهيار احتياطي الاتحاد السوفييتي من العملات الأجنبية .

وخسر العرب نتيجة ذلك ستين مليار دولار سنة ١٩٨٦ ، بينما وفرت الدول الصناعية مائة مليار .

وقد تحملنا هذه الخسائر راضين ،

لا عن بلاهة كما يقول الصديق كيسينجر ،

وإنما عن إقتناع وإيمان كاملين ،

بالعالم الحر ورسالته .

اشترينا معدات عسكرية بخمسمائة مليار فى عشر سنوات،

دون أن يكون لدينا من يستطيع استخدامها ،

لا عن بلاهة وجهل كما يقول الصديق كيسينجر ،
وإنما عن فهم وإدراك عميقين ،
بأن التسليح يحتاج إلى تجديد يومي يتطلب تفقات باهظة ،
وأن الاتحاد السوفييتي لا يملك من ورائه بلدا مثل بلدنا،
بكعبتها وآبارها ،
وليس أمامه سوى أن يضغط حزام التقشف ،
أو يخرج من ميدان التنافس نهائيا ،
و هو ما حدث بالفعل .
أو تسمون هذا بلاهة ؟
و عندما أسفر مجنون العراق عن عدواتيه ،
وضعنا أرضنا وأموالنا رهن الصديق الأمريكى ،
حتى يسحق العسكرية العراقية ،
دون أن يتكلف شيئا ،
وخلال ذلك حصلنا على أحدث تكنولوجيا بمجهود بسيط ،
وزمن قياسى .
لم نكن فى سذاجة الحاليين ،
الذين تصوروا أن الحصول على التكنولوجيا ،
يبدأ من الصفر ،
ويتدرج حتى إنتاج الصاروخ .

ولهذا جمعوا أموال الناس ،
وحرموهم من لذائذ الحياة ،
فى سبيل مستقبل فى علم الله .
فلماذا العذاب إذا كان يوسعنا أن نشترى الصاروخ
نفسه جاهزا ؟
ولماذا نعرض أنفسنا لأخطار القتال ،
إذا كان يمكن استئجار من يفعل ذلك نيابة عنا ؟
نفس الرأى كان يعتنقه زعيمكم المحبوب ،
أنور السادات ،
عليه ألف رحمة ،
الذى أراد أن يعطى لكل مصرى الكترونة فى يده ،
ومات قبل أن يحقق هذا الهدف النبيل .
أما نحن ، فقد وفرنا لشعبنا الرفاهية ،
بأركانها الشرعية الثلاثة :
المسكن و الركوبة والخادم ،
دون أن ننسى نبينا الكريم
فأنفقنا على توسيع حرمه و تجميل المنطقة المحيطة به ،
٢ مليار دولار فى السنوات القليلة الماضية .
متفرج ٣ : أرض جرداء ينتصب فوقها خيال مائة ،
يحمل العين الالكترونية للفيديو ،

هذه هي الآن بلاد النفط الصحراوية .
المجتمع المتقدم ليس إنساناً زائداً أجهزة ،
و إنما إنسان مضروب في أجهزة .
ها هو في خيمة مكيفة الهواء ،
و حوله " حبات " من الثلاجات و الفيديوها و السيارات ،
و أجهزة لا حصر لها ،
ليس بينها واحد من صنع بلده ؛
ولديه أيضا كمبيوتر يعمل باللغة العربية ،
متصل مباشرة بقاعات البورصة في نيويورك و لندن و
طوكيو ،
حيث يتحدد سعر البرميل واسم المشتري ،
و يستقر الثمن في خزائن البنوك الأوروبية و الأمريكية ،
بينما يذهب العائد إلى الجالس في البداء ،
وعلى رأسه مانعة الذكاء .
رزق حلال بون مجهود ،
أو وجع دماغ .
ويمكن تجنب شبهة الربا بالحديث عن مشاركة أو
مرايحة ،
ويمكن مضاعفة العائد بسهولة ،
بشراء الذهب وتكديسه ، ثم المضاربة عليه ،

ولا يحتاج الأمر إلا لقليل من الحظ ،

وشئ من الشطارة ،

والحاسة الموهبة لاتجاه الريح .

لكن هذا كله لن ينفع ببصلة ،

أمام وحش اسمه التضخم .

سنة بعد سنة ،

يجد الجالس في البيداء ،

أنه لم يعد قادرا على شراء كل ما يريد .

وتكون التلجعات و الفيديوها و السيارات ،

قد استهلكت ،

والجزية المدفوعة للكاوبوى ،

تضاعفت

(اقترضت السعودية غداة حرب الخليج أربعة آلاف و

خمسمائة مليون دولار) .

سنة بعد سنة ،

سيجد نفسه مضطرا لأن يقطع من أصل الوديعة ،

التي لا تسند لها منشئات من أى نوع . ،

يمكن أن تولد مالا ،

كالمصانع والمعامل والمزارع .

إلى أن يأتى اليوم المنظور ،

الذى يحلم به جميع العساء والمحرومين ،
وعابري السبيل :

عندما تختفى العين الالكترونية للفيديو ،
ولا يبق غير خيال المآة !

متفرج ١ : إنه خط واحد ،

الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب ،
مارا بدوخة الصحراء .

ليس بخط طول أو عرض ،
ولا حتى نسب .

فما يجمع بين الملوك المجالين ،
السلاطين والأمراء المسخطين ،
هو نشوتان :

واحدة للدم والثانية لماء الحياة .

فبعد ذبح الشاة ، وقتل الأب والأم ،
يسلمون مؤخراتهم للأسبياد .

ويعد أن جربوا السيد الإنجليزي وابن عمه الأمريكى ،
يهربون الآن إلى الإسرائيلى ،
الطالع فى المقدّر .

عروسة خليجية ٢ : الصور الأصبية لا تعجبني .

أفضل حديث الأرقام .

فهو لغة واضحة ومفهومة من الكافة ..

عندما يسألني أحد عما أنجزت ..

أرد عليه في إيجاز : ..

أنا أنفق يوميا ربع مليون دولار،

لأني أكسب ٥٠٠ دولار في الدقيقة؛

الفضل يرجع لظروف نشأتى .

فأبى هو أول من أدخل جهاز الفحص بالأشعة إلى
المملكة ،

و بسبب ذلك أصبح الطبيب الخاص بالملك ،

وصار أخوه - عمى - القواد الخاص لصاحب الجلالة .

وبفضلهما خالطت أبناء الأمراء ، و تعلمت معهم .

درست في كلية فيكتوريا الإنجليزية بالإسكندرية مع الملك
حسين ،

وكنا نتعرض للضرب بالعصى إذا نطق أحدهنا بكلمة عربية.

وفي جامعة كاليفورنيا أنجزت أولى صفقاتى .

كان الأمر سهلا للغاية .

مجرد عقد صلة بين أبوى اثنتين من زملائى ،

أحدهما مصرى و الآخر لبنانى .

و مقابل ذلك حصلت على مائتى جنيه أسترلينى ، ..

أول عمولة فى حياتى ..

لكن البداية الحقيقية جاءت بعد ذلك ،
عندما استدعاني الأمير فيصل قبل أن يصبح ملكا ،
وسلمني شيكا بمليون جنيه استرليني ،
وكان المطلوب هو تزويد الملكيين في اليمن بالسلاح
الذي يقتل المصريين ،
وبعد ذلك انتهت عقود السلاح من نورثروب ولوكهيد .
وعسولة السلاح كما يعلم الجميع لا تقل عن خمسين بالمائة ،
وصنعت الكثيرين ثروات طائلة .
و منهم مصريون محترمون ،
كانت العلاقة مع السوفييت تقف في طريقهم ،
لأن الكفار لم يكونوا ينفقون العسولة .
لكن نشاطي لم يقتصر على الأسلحة .
فأنا أتعامل في كل شيء تقريبا ،
بما في ذلك اللحم ،
الأيض والأحمر .
وقد كان لي شرف ترتيب القرض اللازم لتجديد شبكة
التليفونات المصرية ،
بالتعاون مع صديقي الدكتور مصطفى خليل .
ففي علاقات وظيفة بنكر البنوك والشركات الصناعية ،
التي تحقق دائما نسبة ربح لا تقل عن ٢٤ بالمائة ،

وتحول من بلاد العالم الثالث ،

نولارين وريغ دولار مقابل كل دولار تستثمره .

لكن صديقي كيسينجر هنا ،

يعرف عن هذه الأمور أكثر مني ،

بحكم شركته المعروفة .

عروسة كيسينجر : لست أنكر أن شركتي لها علاقة وثيقة بأهم هذه المؤسسات ،

وقد كونتها سنة ١٩٨٢ من شخصيات بارزة معروفة لديكم جيداً .

أحدهم وليام روجرز ، وكيل الخارجية الأمريكية السابق ،

وصاحب المشروع الشهير .

والثاني لورد كارينجتون ، وزير الخارجية البريطانية السابق ،

وسكرتير حلف الأطلسي سابقاً ،

و الثالث هو الجنرال سكوكروفت ، مستشار الأمن القومي للرئيس بوش ،

و أول من كان يقابل عندما يغادر فراشه كل صباح .

أما ماذا نبيع ، فالإجابة بسيطة للغاية :

تقييم الشؤون الدولية قائم على معلومات دقيقة بالطبع .

أرقام وبيانات ، و إتصالات شخصية مهمة .

لدينا الآن ٣٠ زبون : من فولفو السويدية ،
إلى مونت أديسون الإيطالية ،
بالإضافة إلى كوكاكولا و يونيون كاربيد الأمريكيتين .
الزبون منهم يدفع ما بين مائة ألف دولار وأربعمائة ألف
فى السنة ،
مقابل بيانات شفاهية عن طريق التليفون ،
وأربعة أحاديث سنوية ،
مع شخصى المتواضع .
يجرى خلالها تحليل مخاطر الاستثمارات ،
ودراسة طرق حمايتها .
فهؤلاء العمالقة لم ينسوا أبدا درس السويس .
و شيخ جمال عبد الناصر هو الكابوس الذى يؤرق منامهم ،
كل ليل .

متفرج ٢ : نحن أيضا لم ننس ،

رغم ما بذلوا من محاولات .
لم نعد من السانجيين ،
و لا نعتبره من الأنبياء المعصومين .
لكنه ابن مخلص شعبنا ،
و كل الشعوب سيئة الحظ .
أراد لنفسه المجد ،

فوهب نفسه لأمته ،
و نذر حياته لخدمتها ،
فى الظروف المتاحة ،
و على قدر ما استطاع .
كان حلمه عظيما ،
لكن الأشرار كمنوا له فى الطريق .
كانوا مصحمين على إيقافه يأتى ثمن ،
و أخطأ هو فى الاعتداد بالنفس ،
وفى الحسابات ، كما قال .
ودفعنا معه ثمنا فادحا ،
للتخلف و الشر .

وما زلنا ندفع كل يوم و كل ساعة .
لكن صوته و صورته لن ينمحيا من قلوبنا .

متفرج ٣ : أسمع الآن ،

و هو يعلن باسم الشعب ،
تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ،
ويوسعى أن استحضّر النشوة ،
التي شعر بها كل مصرية و عربى و أفريقى ،
بل وأبناء الشعوب البعيدة فى آسيا وأمريكا اللاتينية

وكل المستعبدين المستذلين ،

وهم يسمعون بعودة القناة إلى أصحابها .

متفسر ج ١ : ما أقدم عليه جمال عبد الناصر ،

لم يكن إجراء عاطفيا .

كان يرى لمصر أحد مستقبلين :

إمّا أن تصبح سوقا للمصنوعات الأجنبية ،

فتظل بلدا تابعا و متخلفا ،

نهباً للأهواء والمصالح ،

يتسول أبنائه الخفاة .

فتات الأعمال ،

أو تتكفل بإنتاج احتياجاتها ،

واحتياجات سوق عريضة تمتد من المحيط للخليج ،

فتلحق بركب التقدم ، وتحقق لأبنائها

المعيشة الكريمة الآمنة .

لكن الخيار الأخير لم يكن سهلا على الإطلاق ،

فهو يتطلب قاعدة متينة من الكهرباء ، وأموالا طائلة ، و
صبرا .

جرب في البداية تشجيع أصحاب الأموال ،

لكن أبناء طلعت حرب قنعوا بالوكالات التجارية ،

باستيراد الشكولاتة والسجاير ،

وتعبئة الكوكاكولا .

ورأى عبد الناصر في مشروع السد العالي فرصة العمر ،

لتوليد الكهرباء الضرورية .

وعندما سحب البنك الدولي عرض التمويل ،

التفت إلى القناة التي كانت قدر أرباحها ضخمة ،

تذهب إلى أحفاد نابليون والنبى و كيتشنر ،

تكفى لتمويل بناء السد .

فضلا عن كونها قناتا .

عروسة صفراء ١ : كنت بين المسئولين الذين تحدث إليهم لأول مرة عن تأميم
القناة .

وقد صنفنا له جميعا .

وأحلف على المصحف ،

أننا بكينا من التأثر .

متفرج ٢ : أصدقك .

وإن لم تخنى الذاكرة ،

فأنت و أمثالك ، كتبت أول المصفيين في ٥٢ و ٥٦ ،

و ٥٨ ، ٥٩ و ٦٢ ،

وأول الباكين سنة ٦٧ ،

وعندما مات في ٧٠ .

فأنتم سريعو التأثر .

وَيُتَمَيِّزُونَ بِالْإِخْلَاصِ الْقَامِ ،
لِلسَيِّدِ الَّذِي تَخْدُمُونَهُ ،
وَأَنْتُمْ نَجُومُ كُلِّ عَصُورٍ ،
تَسْطَعُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْعَمَلَةِ ،
وَعِنْدَمَا تُقَلِّبُ عَلَى وَجْهِهَا الْآخَرَ ،
تَلْمَعُونَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ .
رَأَيْنَاكُمْ مَدَافِعِينَ أَشَاوِسَ عَنِ الْوَطَنِ ،
وَمَنْظَرِينَ لِإِشْتِرَاكِتِنَا الْفَرِيدَةِ ،
عَلَى رَأْسِ الشَّرِكَاتِ الْمُؤَمَّةِ ،
مَجْسُكِينَ بِمِفَاتِيحِ السِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ وَالْإِعْلَامِ ،
قَاطِفِينَ الثَّمَارَ وَمُسْتَبْئِرِينَ بِالْخَيْرَاتِ
(أَفْضَلَ الْمَسَاكِينِ وَحُجُوزَاتِ السِّيَارَاتِ ،
وَأَعْلَى الْأَقْمِشَةِ وَالْأَجْهَظَةِ ،
وَأَجْمَلَ النِّسَاءِ ،
وَأَحْسَنَ الْفُرُصِ لِلْأَبْنَاءِ) .
وَفِي الْحِظَّةِ الْمُنَاسِبَةِ ،
كُنْتُمْ عَلَى رَأْسِ الشَّرِكَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ ،
وَعَمَلَاءَ لَشَّرِكَاتِ الْغَرْبِ الْعَمَلَاةِ ،
وَوَسْطَاءَ فِي الصَّفَقَاتِ إِيَّاهَا ،
ضَامِنِينَ لِأَنْفُسِكُمْ مَسْتَبْرِيَاتِ خَيَالِيَةٍ مِنَ الْمَعِيشَةِ ،

فى بلد يعيش أكثر من ثلث أبنائه تحت خط الفقر ،

نصف مليون منهم يسكنون المقابر .

عروسة صفراء ٢ : لم تتصور أبدا أننا هنا اليوم ،

لتسمع هجوما حاقدا ،

على طليعة هذا البلد ،

من قادة ورجال أعمال .

متفـسـرج ٣ : أية أعمال تحدثون عنها ؟

أنتم مجرد موزعين للمنتجات الأجنبية بالعمولة ،

بعد أن أقنعتم المصريين السذج

أنهم فى حاجة إلى مياه ملونة بطعم الأناناس ،

فوط صحية تنتشر البلب من قبل أن يحدث ،

مزبل عرق و شامبو شعر يقاوم الصلح ،

معجون أسنان يمنع التسوس ،

موكيت يخنق الأنفاس ،

منظفات فعالة ،

فى القضاء عليهم .

لاكتويل I IKE IT

متفـسـرج ١ : رجال أعمال ؟

بل عملاء agents ،

زودتم سائتكم بالمعلومات الدقيقة ،

عن خبايا السوق ،
ثغرات القوانين ،
وأناق المصريين ،
حصلتم منهم على الرخصة ،
حق الإنتاج و التصنيع المحلي ،
للطور و البخاخات و أحمر الشفاه ،
فوفرتهم عليهم نفقات الانتقال و مخاطره ،
وحولتم إليهم الأرباح .
متفرج ٢ : لو كنتم حقا من رجال الأعمال ،
لأنشأتم صناعة ،
عمرت أراضى ،
درستم عمالا ،
مولتم أبحاثا ،
كما فعل أسيانكم ،
فى مستقبل نهضتهم .
لكنكم تتبعون تقليد الآباء و الأجداد ،
الذين كانوا دائما من التابعين ،
خدما للفرس و اليونان و الرومان ،
ثم العرب و الترك و الكرد ،
الطليان و الأرمن ،

الفرنسيين و الإنجليز ،

وأخيرا الأمريكان و بني اسرائيل .

متفرج ٣ : مازلت عاجزا عن الفهم .

لماذا تقترضون ، و تتحمل عبء السداد ،

ولدينا كل هذه الثروات ؟

طبقا لبيانات البنك الدولي في عام ٩٢ ،

فإن الأموال المصرية المهاجرة إلى الخارج ،

بما في ذلك ما تم تهريبه ،

تصل إلى ١١٠ مليار دولار أي ٢٧٥ مليار جنيه مصري .

ويؤكد الخبراء المصريون أن الرقم الحقيقي هو ١٢٠ مليار دولار،

أي ٤٠٠ مليار جنيه .

وهم يستشهدون بثروة اثنين فقط من رجال الأعمال الفارين ،

لا تقل حجم استثماراتها في الخارج عن ٥٦ مليار دولار !

عروسة صفراء ٣ : هذه والله أخبار طيبة !

فمعناها أن بلادنا أصبحت غنية و متقدمة !

نمرة بين النمر الجديدة !

متفرج ٣ : معك حق ،

فقد جعلتم من بلادنا " نمرة " .

في خلال عشرين سنة فقط ،

أصبح لدينا خمسون فردا فقط ،
تبلغ ثروة كل واحد منهم بين مائة و ٢٠٠ مليون دولار،
وإجمالا مليون شخص ،
جمعوا ثروات هائلة ،
بينهم عشرة آلاف مليونير ،
ولا أقل من عشرين ملياردير ،
يملك كل منهم ألف أرنب .

كيف ؟

بالتأكيد ليس من العمل الشريف ،
والا كان جميع العاملين قد اغتنوا .
متفرج ١ : من تقسيم و بيع الاراضى ،
من الرشاوى و العمولات ،
المقاولات والتوكيلات ،
المتاجرة بتسعير منتجات القطاع العام ،
ونهب القروض الأجنبية ،
من الحديد والاسمنت والسكر ،
اللحوم والأغذية الفاسدة ،
عمولات السلاح ،
و من تجارة العملة والمخدرات .
مال حرام و أصحابه أكلة مال حرام و أولاد حرام !

متفـرج ٢ : مليون فرد تستورد لهم الخنزيرة والتمساحة ،

ويدفعون عشرين جنيهها في لحظة أيس كريم أو زيادي ،
مستوردة لهم بالذات .

يقيمون الأفراح البانخة ،

ويدفعون ملايين الجنيهات في شراء الشقق .

يملكون القصور في كان وكاليفورنيا ،

والبحوت في مونت كارلو وسان مارينو .

هم زبائن المطاعم الجديدة (يدفعون في الوجبة الواحدة ٥٠٠
جنيه) ،

والكباريات والأندية ،

والفنادق الكبرى (تكسب سبعة منها ثلاثين مليون جنيه
شهريا من الحفلات) ،

و مكاتب الديكور ومعارض الأثاث و السيارات ،

و المخدرات (في عام ٩٢ استهلكت البلاد ٢ طن هيروين
قيمتها ٦٠٠ مليون جنيه) .

متفـرج ٣ : راقصة واحدة تمتلك سيارة مصفحة ،

ثمناها ٢ مليون جنيه ..

عروسة لهلوبة : لم لسانك يا خويا ،

واحترم نفسك .

أنا لا بأسرق وأسمس ،

ولا يتمسخط .

كل مليون عتدي ،

عملته من عرق بطنى .

تحبوا أوريكو ؟

ياللا ياجدع ،

وقصنى ،

على واحدة ونفس .

العرائس الصفراء

تهتز كالدراويش : مصريتنا ... مصريتنا ..

حماها الله . .

الله ... الله ..

متفـرج ٣ : مليون ثرى ،

٢ مليون متعطل ،

و ٢ مليون شقة مخلقة .

متفـرج ١ : مليون بنى آدم فى القاهرة وحدها يعيشون داخل عشش ،

جدرانها من ألواح الصفيح ،

و أسقفها من الكرتون والملابس القديمة ،

المجموعة من القمامة ،

و يدفعون ضرائب مثل بقية سكان المدينة .

عروسة صفراء

على هيئة

إمرأة بنظارة

تملاً وجهها : الحقيقة هذه المشكلة كما صرحت في التلفزيون ،

أوجدت أنماطا من البشر غير عادية ،

على قدر كبير من السلبية .

لا يشعرون بالانتماء ،

ولا يشاركون في التنمية .

عروسة صفراء بلحية

قصيرة مدببة : من دراستي لحالاتهم النفسية ،

وجدتها سيئة ،

فهم يحققون على ساكنى العمارات الفاخرة ،

وعلى المجتمع .

ومنهم تتوالد عناصر الإرهاب .

متفـرج ٢ : ثمن الشقة الواحدة في هذه العمارات

يمثل مرتب الوزير في نحو ٢٠٠ سنة ،

والمدير العام في نحو ٤٥٠ سنة ،

المرتب لا الدخل الحقيقي !

و الشاب حديث التخرج في نحو ألف و خمسمائة سنة

متفـسـرج ٣ : أقل من ٢ فى المائة من مجموع السكان ،

ويستهلكون ٢٠ بالمائة من الكهرباء المخصصة للمنازل .

متفـسـرج ١ : ٣ مليون طفل خارج المدارس ،

نراهم فى الورش ،

يغيون غائرة ، و أجسام هزيلة ،

تلتطمحهم الشحوم السوداء ،

يعجزون عن الفهم من الإعياء ونقص الإدراك ،

ينطقون لغة جديدة بكلمات مبتورة الأحرف ،

طليلة جيش من ١٥ مليون أمى ،

نستقبل بهم القرن الجديد .

متفـسـرج ٢ : أطفال مقرمون ، مصابون بالأنيميا ،

وتضخم الكبد والتخلف العقلى .

وثلاثة أجيال قادمة ،

مضروبة فى حيواناتها المنوية ،

ستلد أطفالا مشوهين .

متفـسـرج ٣ : أكباد مريضة لنصف المصريين ،

منهم خمسة ملايين فلاح فى خطر داهم

بعد أن لوثتم الطعام والماء والهواء .

متفـسـرج ١ : شباب ضائع على النواصي ،

تفقرسه المخدرات البيضاء .

هذا هو ما صنعتوه .

عروسة صفراء ٢ : فهمت الآن عم تتحدث بيادتك ،

فأنت تقصد العدل . .

لكن العدل صفة من صفات الله لا يمكن لأحد أن يحققه

ربنا هو الذى يرتب الكون ،

و رزق ناس على ناس .

عروسة صفراء ٣ : أنت تتناسى يا محترم ما تحقق من إيجابيات :

التليفونات والمجارى والمدن ،

المزارع والمصانع الجديدة ،

الديموقراطية الرشيدة ،

وقنوات التليفزيون العديدة .

الرئيس نفسه أشاد أكثر من مرة ،

بالسواعد التى عملت فى إخلاص ،

وسهرت على مصالح البلد .

متفـرج ١ : نعم ، لقد رأيناكم ،

عندما وقعت الزلازل والسيول ،

و غرقت القرى والبيوت ،

عندما احترقت المصانع ،

واصطدمت القطارات و غرقت البواخر ،

عندما إنهار محصول القطن ،
واختلطت مياه الشواطئ بالخراء ،
تهولون متخبطين ،
وتوشكون ، من التأثر ، على البكاء أمام الكاميرات ،
بينما تقبضون من تحت المائدة .

متفـرج ٢ : ٩٠٠ حالة تعذيب سنويا ،

تشمل الاعتداء الجنسي في المعتقلات وأقسام الشرطة ،
انتخابات مطبوخة ،
هذه هي ديموقراطيتكم .

متفـرج ٣ : فيلات فاخرة من أموال الشعب لحقنة مليونيرات ،

بدلا من خمسمائة مصنع ،
يتكلف الواحد عشرين مليون جنيه ،
تكفى للقضاء على البطالة .

عروسة صفراء ١ : كل فيلا من هذه الفيلات تحتاج لمن يحرسها و يخدم بها .

أليس هذا أفضل من المصانع التي تتكلف الملايين ؟

وتحتاج إلى التكنولوجيا ؟

يجب أن نتخلص من هذه النظرة الضيقة الموروثة من أيام
الاشتراكية .

ياريت كان فيه مليون حوت في مصر كانوا شغلوا ال ٢٠
مليون شاب ،

أم تفضل أن ينفق هؤلاء المليونيرات أموالهم في أوروبا و
أمريكا

بعيدا عن القرّ ؟

عروسة صفراء ٢ : لو كانت الظروف تسمح ،

كنا دعوناكم لزيارة مارينا ،

لؤلؤة الساحل الشمالي ،

التي بناها القطاع العام .

متفـرج ١ : لنرى كيف تروى الحداثق بعياء الشرب النقية ،

بكلفة ثلاثة ملايين جنيه في السنة ،

هي أموال الشعب ،

صاحب القطاع العام .

عروسة صفراء ٣ : من العبث إنكار حجم المشاكل التي نعانيها .

فمازلنا في عنق الزجاجاة .

لعنة الله على من أدخلنا فيها .

عروسة صفراء ٤ : كلما سمعت اسمه ،

أصبت بالإرتكاريا ،

رغم أنى جمعت المليون الأول ،

من تحت أنفه الغليظ ،

وفي ظل اشتراكيته المزعومة .

صحيح أن البذرة تكونت في معسكرات الجيش الإنجليزي ،

و أبنعت فى أرض الحرمين الشريفين ،
لكن الصعود الحقيقى جاء بعد عدوان ٥٦ ،
عندما تمت إعادة تعمير بورسعيد ،
ثم توسيع قناة السويس ،
الذى كسبت فيه مع شريك أمريكى مليونين .
ثم جاء السد العالى .
و كان دورى فيه هو نقل الصخور و ردمها .
لكنى أجبت الدعاية لنفسى ،
و الإعلاميون الحاضرون هنا يشهدون على ذلك ،
فقد أطعمتهم بما فيه الكفاية .
و كانت النتيجة أن تصور الناس أننى أنا من بنى السد ،
و بفضل هذا كله استطعت أن أعبر محنة التأميمات ،
التي وقعت البلاد كلها ضحية لها ،
بسبب جنونه و حقه .

متفلسف ٧ : التأميمات لم تكن اعتداء بل إنصاف .

الأراضى التى اغتصبها الممالك ،
أعاد محمد على توزيعها على الألبان و الأتراك ،
و من رضى عنهم من المصريين .
وهى التى ولدت مبانى و شركات و بنوك ،
أغلبها كان حكرا على الأجانب و المتعصرين ،

وَحَدَّمَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ .

وَقَدْ رَفَضُوا كُلَّ الْعُرُوضِ وَالتَّسْهِيلَاتِ ،

الَّتِي قَدِمَتْ لَهُمْ لِلْمُسَاهَمَةِ فِي تَصْنِيعِ الْبِلَادِ .

التَّأْمِيمَاتِ إِذِنْ أُعَادِتِ الْحَقُوقَ إِلَى أَصْحَابِهَا .

العروسة السابقة : ما زلت مقتنعا بأن الجنون و الجقد ،

أعمياه عن كل شيء عدا ذاته ،

بِعَكْسِ السَّادَاتِ الَّذِي كَانَ زُعِيمًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ،

أَضْنَاهُ الْبَحْثُ عَنْ الذَّاتِ ،

وَيَعْرِفُ رِيهَ فِي الْخَفَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي الْعَلَنِ .

رَأَيْتَهُ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ كَعَادَةِ الْفَلَاحِينَ ،

يَأْكُلُ هُوَ وَأَفْرَادُ أُسْرَتِهِ مِنْ طَبَقٍ وَاحِدٍ فَوْقَ الطَّبْلِيةِ ،

(صَحِيحٌ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِسُونَ فَوْقَ مَوَكَيْتِ بَلْجِيكِي قَاخِرِ ،

وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ كَانَ لِلتَّصْوِيرِ ،

وَأَنَّ الْمَدَامَ رَفَضَتْ الْإِشْتِرَاكَ فِي هَذَا التَّهْرِيجِ ،

إِلَّا أَنَّ الْمَوْقِفَ يَكْشِفُ لَكُمْ حَقِيقَةَ مَيُولِهِ وَتَوَجُّهَاتِهِ) .

كَانَ هُوَ الَّذِي سَاعَدَنِي عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ أخطَرِ مَحَنَةٍ وَاجِهَتِ

عِنْدَمَا اشْتَرَكْتُ فِي مَقَاوِلَةِ إِقَامَةِ قَوَاعِدِ الصَّوَارِيخِ ،

أَثْنَاءَ حَرْبِ الْإِسْتِزَافِ ،

وَقَضَيْتُ الطَّائِرَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ عِدَّةَ مَوَاقِعَ فِي أَنْ وَاحِدٍ ،

فَقَتَلْتُ خَمْسِينَ عَامِلَ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ،

ثم تبين أن الإسرائيليين حصلوا على خرائط هذه المواقع ،

من مكنتي ،

وعن طريق أحد أقاربي .

لكن الله ستر ،

ولولاه ما كنت أقلت بـرقتي .

وفيما بعد ،

بعد أن نجح العبور في ٧٣ ،

وأحدث شارون ثغرتة المشهورة ،

استدعاني السادات للقائه ،

وتصورت أنني سأجده منهارا أمام ذلك التطور المفاجئ .

لكنه كان في قمة الإنتشاء ،

وهو يحدثني عن التعمير

(كانت اسرائيل تشترط البدء فورا في تعمير مدن القناة

لتكون حازما إذا ما تجدد القتال) ،

وعن تحويل بورسعيد إلى مدينة حرة ،

تزدھر فيها المصانع الأجنبية بون قيود ،

عاهدا إلى بالمقاولة كلها .

وكانت المعونة الأمريكية جاهزة للتمويل

(تحية لزعيمة العالم التي وقفت إلى جانبنا في وقت الشدة) ،

وسرعان ما امتلأت أسواق البلاد العطشي ،

بالسلع التي حرمت منها طويلا :
السفن أب وصابون كاسي و شكولاتة نستلة ،
والجين الفرنسي ذي الرائحة النتنة .
كان نجاحي كاسحا ،
فأعطاني وزارة التعمير ،
ثم ضم لي وزارة الإسكان ،
يعني أخذت مقابلة البلد كلها .
كنا نستقل الهليكوبتر ،
نحلق في السماء ومعنا الخرائط .
وكان بوسعي أن أضع إصبعي على أي مكان ،
وأفعل به ما أشاء .
وكانت تأتينا أفكار أخاذة حقا ،
مثل الأمن الغذائي ،
ومنع أكل اللحم لمدة شهر كامل !
أنشئت خلاله أكبر جسر جوي عرفه العالم ،
من الدواجن المجمدة .
وبعد الدواجن جاءت الأسماك .
ولاحظت أن الشركات الأجنبية في المناطق الحرة ،
التي تنتج أحمر شفاء ، حاضنات أطفال ،
مناديل ورقية وكافيه ،

تعتمد على البنوك المصرية في التمويل ،
وتتمتع بإعفاءات من الضرائب و الجمارك ،
وتستغل أيدي عاملة رخيصة ،
وتصدر للخارج أرباحا بالملايين .
ورأيت أنى أولى منها بالخير ،
فأصبحت إقامة الشركات لعبتى .
وتريع اسمى على رأس ٢٠٠ شركة ،
للمقاولات و الأحذية و السياحة ،
المياه الغازية والتوكيلات التجارية .
شركات خفيفة سريعة الربح ،
أقامتها بالتعاون مع النابيين ،
الذين يدينون بالفضل للقطاع العام ،
للتوريدات و السوق السوداء و شغل الباطن ،
والتحايل على قوانين النقد و الجمارك ،
للهزيمة و التعمير ،
وحضرات الضباط الأحرار ،
الثوار ،
و أهل الفن ،
أقصد التكنوقراط ،
الذين كونوا الثروات من البدلات و المخصصات و الامتيازات.

لم أضع فيها مليما واحداً من جيبى ،
إنما مولتها من بنوك القطاع العام وشركاته ،
وصناديق النقابات ،
وتأمينات العاملين ومعاشاتهم ،
وحق الاستيلاء على أية أملاك عامة من أراضي وخلافه ،
يعنى باختصار : عسل !
لكن حلقة واحدة كانت ناقصة .
عرفت أن بنكاً أجنبياً حقق ربحاً بمليون جنيه فى أول سنة
من نشاطه ،
حوّله كاملاً إلى الخارج .
فى حين أن الشركات تحقق أرباحها بعد عدة سنوات وقد
محبوسة داخل البلاد ،
محرومة من فرصة التوالد فى البورصات .
هكذا انتقلت إلى إقامة البنوك
بنفس الطريقة ،
أى من أموال البنوك الأخرى ،
بعبارة أخرى : من دقنه واقتله .
وفى شهور معدودة كان لى بنك فى كل محافظة :
٢٢ بنك .

وخلال سنوات قليلة كانت أموال البلاد فى يدي ،

كما كان الأمر معه ،

و مع محمد علي من قبله .

علي أنى لم أكن في غباء الاثنين :

الذين حاولوا حبسها في مشروعات ضخمة ،

يحبوها طموح أجوف ،

وتحتاج إلى سنوات طويلة قبل أن تؤتى أكلها ،

وهو ما يتنافى مع طبيعة البشر و أوامر الدين .

عروسة صفراء

بلحية كثيفة : ٢٠٠ شركة و ٢٣ بنك لجمع بضعة مليارات !

ياله من مجهود ،

لم أكن في حاجة إليه !

الجميع يعرفون الآن قصة جحا و الحلة .

ولابس من أن أروبيها من جديد ،

فالتكرار لا يؤثر في الجمان .

ذات يوم اقترض جحا حلة من إحدى جاراته .

بعد أيام ذهب إليها حاملا الحلة و طاسة صغيرة .

سأله الجارة : ما هذا يا جحا ؟

قال جحا: الحلة ولدت عندي ،

وبما أنك صاحبيتها فأنت أحق الناس بخلقتها .

بالطبع أخذت الجارة الطاسة ،

و ألحفت على جحا أن يحتفظ بالحلة ، لعل وعسى .

ثم روت القصة لجيرانها .

و ذاعت معجزة جحا و أمانته بين الجيران ،

فتسابقوا يعرضون عليه حللهم ،

متوسلين أن يضعها لديه بعض الوقت ،

لعل شيئاً من بركته يمسها ،

و تلد كسابقتها .

انتظروا بضعة أيام ثم بدأوا يترددون عليه سائلين عن حللهم .

واكتشف أحدهم اختفاء حلته ،

فقال له جحا أنها ماتت أثناء الوضع .

لم يكن صاحب الحلة من البلاهة ليصدق هذا الزعم .

صاح في جحا : ' هو معقول أن الحلة تموت ؟

وكان رد جحا المفحم : هو معقول أنها تلد ؟

تنكرت هذه القصة في شهورى الأولى بالسعودية ،

و أنا أعود منها بعد ساعات طويلة من الوقوف بائعاً فى

”حانوت“ ،

لأستغرق فى النوم بعد نوزين كتشينة ،

مع زملائى فى الشقة ،

يجرى خلالهما الحديث حول موضوع واحد لا يتغير :

ماسيشترونه بعد خراتهم عند العودة النهائية إلى مصر .

كل منهم كان يحلم بأن يعيش بقية حياته كصاحب النفط
بالضبط :

شقة مجهزة من كلة ، سيارة ،

ووديعة محترمة في البنك ،

يعفيه عائدها من غناء العمل .

وعندما أباح السادات ، رحمة الله عليه ،

الاستيراد بالعملة الأجنبية مباشرة ،

أصبح هناك طلب كبير على الدولار .

هنا وانتنى الفكرة .

بدأت أجمع الدولارات من المصريين في السعودية ،

و أبيعها لمن يحتاج إليها من المستوردين في مصر .

كنت أشتري الدولارات بجنيهاً مصرية

تدفع في مصر من خلال حسابات لي بالبنوك .

مضت الأمور على هذا المتوال ينجح إلى أن وانتنى فكرة
جديدة.

واحدة من الأفكار التي تغير مصائر الأمم والشعوب . و
الأفراد :

أن أكون أنا نفسي بنكا !

ليس هذا فقط ...

و إنما أيضا : بنك يأخذ ولا يعطي !

يعنى أخذ الدولارات دون أن أدفع شيئاً مقابلها .
بدأت باللحبة فأطلقتها ،
وحفظت عن ظهر قلب عدة آيات قرآنية .
وأصبحت من أنصار الاقتصاد الإسلامى ،
أبشر بالقضاء على الربا .
وإخترت حديثاً شريفاً يساوى من أخذ الربا بمن زنا بأمه
فى الكعبة .
عرضت على أصحاب الأموال فائدة لا تقل عن ٢٤ بالمائة ،
فهرعوا إلى بأموالهم زرافات ووحدانا ،
دون أن يساورهم الشك ،
ووجدت بين أصحاب الفضيلة من أعلنوا أن هذه الفائدة ،
ليست فائدة و بذلك لا تعد من الربا ،
فاطمأنت قلوب المودعين المؤمنين .
وبدأت الملايين تتجمع لدى دون أن أدفع شيئاً .
كيف ؟
الامر جد بسيط ، كما سبق أن تبين جفا .
كنت أعطى الفائدة للمودع من وديعة المودع الذى بعده .
ثم واتتني فكرة ذهبية أخرى :
أن أسترد هذه الفائدة من المودع دون أن يشعر!
كيف ؟

قامت بحملة إعلانية واسعة عن مشروعات ضخمة جديدة
للمنتجات الغذائية،

والسلع الكهربائية المستوردة ،

هى فى الحقيقة مشروعات قائمة بالفعل ،

اشتريتها بما لدى من إيداعات ،

و أعدت بيع منتجاتها بزيادة فى السعر .

لن فيما تعتقدون ؟

للمودعين أنفسهم ،

لأنهم عمليا الطبقة القادرة على شراء السلع الغالية ،

والذين اشتروها - أى مبلغهم - بالفعل ، للمرة الثانية !

وبذلك ضربت عدة مصافير بحجر واحد :

فقد أوهمت الجميع أن الأموال المودعة لدى تعمل بنشاط فى
الإنتاج ،

وجذبت بذلك مودعين جدد .

ثم انى استعادت الفائدة التى أخذها المودعون من خلال
السلع التى اشتروها .

بل و أجبرتهم أحيانا - عن طريق الإعلانات - على أن يشتروا
سلعا ليسوا

فى حاجة إليها ،

على أن يخسروا ثمنها - الذى أخدده على هواى - من
ودائعهم ذاتها .

يعنى ، باختصار ، سخمطتهم !

عروسة صفراء ٥ : ياللعار!

ألا تخجل !

العروسة الملتحية : أنا لم أخدع أحدا ولم أرغم أحدا ،

كل ما فعلته كان فى الضوء .

بشهادة أصحاب الفضيلة و السيادة و السعادة ،

الذين نالهم من الحب جانب .

وإلا ما كانت الدولة كافئتنى ،

بأن حوارتنى إلى شركة مساهمة ،

أملك أكثر من نصف أسهمها

(هى فى الحقيقة أموال المودعين) .

مقابل أن أدفع لهم نقودهم على مدى عدة سنوات ،

ياخذون أغلبها سلعا مستوردة بأسعار مضاعفة .

متفـرج ٣ : الحق كله معك .

لم يكن بإمكانك أن تجمع مدخرات الناس ،

لو لم يتواطأ الدكاترة المحترمون معك .

فبدلا من وضع الخطط لاستثمارها فى إقامة الصناعات

والتنمية ،

تعمدوا توفيرها للسماسرة والمغامرين والنصابين ،

من أبنائهم و أقاربهم و أنسابهم ،

بينما راحوا يقترضون من البنوك العالمية ،

التي دفعت الرشاوى بسخاء .

متفـرج ١ : جملة القروض التي قدمتها بنوك القطاع العام الأربعة ،

للمحظوظين من رجال الأعمال عام ١٩٩٥ ،

بلغت ١٢ مليار جنيه ،

استخدمت في المضاربات العقارية ،

و تمويل صفقات تجارية استهلاكية كالسيارات .

تصوروا لو كانت قدمتها للصناعة .

عروسة أمريكية : اسمى مكنامارا .

لا أحد يذكرنى الآن ،

رغم أنى كنت ذات يوم ملء السمع و البصر ،

مشهورا بنظرى الحاد ، عويناتى المعدنية ،

وشعرى الفضى .

كان شعارى أن كل مشكلة لها حل ،

أيا كانت إنسانيتي ، أو أخلاقيتي .

خرجت من جامعات الصفوة إلى شركة فورد ،

حيث بنيت سمعتى كرجل إدارة منقطع النظير،

لهذا اختارنى كندى وزيرا للدفاع ، لأسيرالعرب الفيتنامية .

لكنها تعسرت على ،

فانتقلت فى ١٩٦٨ إلى إدارة البنك الدولى ،

حيث حققت نجاحاتى .

كانت مهمتى الرئيسية هى التعامل مع نموذج التنمية ،

الذى اعتمدته بلداً فى العالم الثالث ،

ففضلاً عن سذاجته ورومانسيته ،

لم يكن يواكب التطور العالمى ،

وبالتالى يتعارض مع مصالح الغرب .

فماذا يحدث لو تمكنت مصر و الهند و المكسيك ،

و غيرها من نول العالم الثالث ،

من بناء صناعتها الخاصة ؟

إذا أكلت و شربت و لبست من إنتاجها ؟

عكفت على دراسة الملف المصرى ،

فرأيت بثاقب نظرى ،

الهاوية التى كان يسير إليها المرحوم ناصر .

كانت سياسة التنمية التى أعتمدها تقوم على إحلال الواردات

الاستهلاكية .

(ثلاجة و بوقاجاز و ستخان لكل مواطن فضلاً عن سيارة

لأبناء الصفوة) ،

أى على استيراد السلع الوسيطة و الآلات .

ولأن الادخار المحلى كان غير كاف لتمويل تلك الاحتياجات ،

ظهر العجز فى ميزان المدفوعات .

« وعندهما تورط في اليمن ، »

« واصطاده السعوديون على أرضها ،

« إنهارت خطة التنمية . . . »

« ثم إنهارت تماما عندما أوقعت الإسرائيليون ،

« وبدأ الاقتراض من البنوك العالمية .

« لكنه تم في أضيق الحدود .

« وتفاقم الوضع بعد حرب أكتوبر ٧٣ ،

« بينما تجمعت في البنوك العالمية أرصدة ضخمة

« تبحث عن استثمار .

« هنا جاء فوزي . »

« قمت بواجب الزيارة لمصر في ١٩٧٤ ،

« بعد أن مهد زوكفلر وكيسينجر الطريق .

« وتحدثت مع حجازي عن سياسة الانفتاح .

« وعندما أبدت مصر مرونة في محادثات فصل القوات ،

« أبديت استعدادي لزيادة حجم الإقراض لها ،

« من ٣٠ مليون دولار إلى ٣٠٠ مليون دولار .

« ورحب السذج ! »

« وفي ١٩٧٧ ظهرت مشكلة سداد القروض ،

« وأبدى صندوق النقد صرامة وحزما بالغين .

« اجتمعت بالقيسوني ، »

(الذى كان هو نفسه ممثلا سابقا للصندوق فى الشرق الأوسط)

و عرضت عليه طلبات الصندوق فقبلها .
لكن الإتفاق باط بسبب انتفاضة الحرامية .
ولم تمض شهور إلا وذهب السادات إلى كامب ديفيد ،
ثم وقع الصلح مع إسرائيل .
وكان لا بد من مكافاته .
فعقدنا اتفاقا ثانيا ، تدفقت القروض على أثره .

متفرج ٢ : أنت حقا نجحت .

فقد أصبح البنك الآن وصيا على اقتصاد البلدان البائسة ،
لصالح الشركات العالمية العملاقة ،
يراقب المصروفات العامة و يتولى توزيع موارد الانفاق ،
أى يرأس مجالس الوزراء .
فعندما عجزت البلدان الفقيرة عن سداد ديونها للبنوك العالمية،
(التي فرضت فائدة أعلى بكثير من إجمالى المساعدات و القروض)

حل صندوقكم محل البنوك ،
و بدأ فى تحصيل فوائد الديون كوكيل عن الدائنين ،
عن طريق منح قروض جديدة ،
لإجراء ما سمي بالإصلاح الاقتصادى ،

و التكيف الهيكلى .

متفـرج ٣ : طلبتم فى البداية تخفيض الإنفاق الحكومى .

و إطلاق حرية الأسعار أى ربطها بالأسعار العالمية ،

(أسعار عالمكم أنتم)

بعد إلغاء دعم الاستهلاك و المسكن ،

و المواصلات و المياه و الكهرباء .

أمر تقبلها لو أطلقتم أيضا حرية الأجور ،

أى ربطتموها بالأجور العالمية .

عروسة صفراء ١ : الكلام هنا يلقي على عواهنه ،

وإلا فليقل لى الجهابذة :

كيف يمكن أن تحل مثلا ندرة مشكلة المياه ،

إذا لم تُسعر على نحو ملائم ،

يحفز المستهلكين إلى استخدامها بفاعلية أكثر؟

متفـرج ١ : غريبة !

أول مرة أسمع عن ندرة المياه .

فما أعرفه أن المرحوم أنور ،

من كثرة الفائض ،

عرض تزويد إسرائيل بما تحتاجه منها .

متفـرج ٢ : ثم طلبتم تخفيض قيمة الجنيه المصرى ،

بحجة إنقاص الواردات الأجنبية .

متفرج ٢ : صفقة رائعة لحساب الأجانب و عملائهم المحليين ،
الذين يكسبون سعرا أفضل لعملاتهم الأجنبية بزيادة التمثيل
بينما ندفع نحن زيادة في أعباء الديون بمقدار التمثيل ،
وزيادة في ثمن ما كنا نستورده بمقدار التمثيل
(أى مسبح المدخرات التى شقينا فى جمعها) .

متفرج ١ : إلغاء الرسوم الجمركية على المستورد ،
للقضاء على ما تبقى من مصنوعات محلية .

متفرج ٢ : هيكل الإنتاج لصالح التصدير ،
أى توجيه الإنتاج لهدف التصدير لا لتلبية
احتياجات الشعب (فهذه سيتم تلبيتها بالمستورد) ،
من أجل توفير النقد الأجنبى لسداد الديون وفوائدها ،
ولتزويد الحكام بالسيارات والمكيفات والفيديوهات ،
عن طريقين لا ثالث لهما :
إما التخصيص فى المشغولات الحرفية ،
مثل منتجات خان الخليلي ،
والمحاصيل الزراعية مثل الفراولة والخيار الشيك .
وإما من خلال مصانع أجنبية (بالكامل أو بالمشاركة) ،
فى العاشر من رمضان أو السادس من أكتوبر ،
تنتج السلع الوسيطة
أدوات كهربائية بطاريات منتجات ألومنيوم ،

أثاث ملابس جاهزة أدوات زينة سيراميك

مياه غازية لبنان ألبان فوائه بناء سجاد ،

تجميع سيارات تصنيع لحوم فاسدة ،

مناديل ورق منظفات ،

معفاة من الضرائب و الرسوم ،

ومن تكاليف النقل والتأمين .

عروسة صفراء ٢ : قيمة أى بولة الآن تقاس بمقدار ما تصدره ،

و يسرنى أن أبلغكم بأننا طالبنا الأمريكان ،

فى اجتماع لمجلس الوزراء المشترك ،

بفتح أسواقهم أمام الصادرات المصرية .

متفرج ٣ : أى صادرات تتحدثون عنها ؟

إلا إذا كنتم تقصدون المنتجات

التي سيصنعونها بثمن رخيص لدينا !!!

متفرج ١ : تصفية القطاع العام (الذى نهبوه و خربوه) ،

و بيعه فى المزاد ،

أى الخصخصة والمصمصة

متفرج ٢ : ٢١ شركة للصناعات الهندسية ١٤ للصناعات الكيماوية ،

١٧ للصناعات المعدنية ٢٢ للصناعات الغذائية ٧ للغزل

والنسج ،

١٤ لتصنيع المنسوجات ٩ للأبوية ، ١٢ للنقل البحرى ،

- ١٣ للتعمدين والحراريات ١٧ للمضارب والمطاحن ،
٢٢ للقطن والتجارة الدولية ١٦ لتوزيع الكهرباء ،
٢٣ للتشييد والتعمير ١٢ للأشغال واستصلاح الأراضي ،
١٤ للتنمية الزراعية ، ٢١ للإسكان والسياحة والسينما ،
وعشرات أخرى غيرها .

متفـسـرج ٣ : ٣١٤ شركة قيمتها -عند إنشائها- مائة مليار جنيه ،

أى مائة ألف مليون جنيه ،

وبسعر السوق الآن ،

لا أقل من أربعة أضعاف أو خمسة ،

أى خمسمائة ألف مليون جنيه ،

أو خمسمائة مليار .

متفـسـرج ١ : الحديد و الصلب الكابلات الكهربائية السجاد الغزل و النسيج ،

الدلتا الصناعية (ايديال) العربية للراديو النصر للتليفزيون،

مصر للألومنيوم النصر للمعدات والتركيبات ،

كيما الأسمدة النصر للأجهزة الكهربائية راكتا للورق ،

الماكو للمحولات النصر للنقل الخفيف ،

قها فيليبس كوالدير الغازات الصناعية ،

الخزف والصينى ترسانة الاسكندرية ،

أسمنت طرة أسمنت حلوان أسمنت العامرية ،

الاسكندرية للأسمنت الصناعية للمبيدات والأسمدة،

مصر للصناعات الكيماوية البويات والصناعات الكيماوية ،

العام للصوامع والتخزين مطاحن مصر العليا ،

مطاحن شرق الدلتا مطاحن وسط وغرب الدلتا ،

مطاحن مصر الوسطى مطاحن شمال القاهرة ،

المصرية لتصنيع الأخشاب النصر للملابس والمنسوجات ،

العربية للغزل والنسيج الأسكندرية للغزل والنسيج ،

دمياط للغزل والنسيج المتحدة لتجارة المنسوجات ،

النصر للمنسوجات ستيا ، الدلتا للغزل والنسيج ،

مصر شيين الكوم للغزل المنسوجات الحديثة ،

العربية لتجارة المنسوجات بورسعيد لتصدير الأقطان ،

عمر أفندي صيدناوى شيكوريل بنزا يون عدس ريفولى ،

بيع المصنوعات المصرية ،

متفرج ٢ : العربية للتوكيلات الملاحية ميتالكو المالية ،

القناة للتوكيلات الملاحية الأسكندرية للحاويات،

دمياط للحاويات النصر للزجاج والبلور ،

مصر للزيوت والصابون المصرية للنشا والجلوكوز ،

الزيوت المستخلصة الشرقية للكتان بكفر الزيات للمبيدات ،

النيل للكبريت المصرية للصباغة والتجهيز النصر للمعدات

والتركييات ،

ممفيس للأبوية القاهرة للأبوية الغربية للأبوية الأسكندرية

للأدوية ،

السويس للمناطق الحرة المجاذى للإسكان و التنمية ،

أطلس للمقاولات التنمية المتحدة للإسكان ،

مصر للأسواق الحرة. ،

متفسر ج ٣ : الدواجن كرونا للحلويات الأهرام للمشروبات ،

مصر للألبان بسكومصر إدفينا، للمعلبات ،

فنادق كوزموبوليتان فلسطين شهرزاد البرج كليوباترا النيل ،

شبرد، ميناهاوس منيل بالاس ماريوت الخيام ،

كتراكت أسوان ونتر بالاس هلنان رومانس أسكندرية إجوتيل
الأقصر ،

أنى أتون حتب توت أسوان أوبرى السويس إتاب الأقصر ،

بولمان سيسيل الأسكندرية الأقصر كلايشة أسوان ،

العلمين مينا الأقصر آمون اسوان سافوى الأقصر سان
استيفانو،

بواخر إيزيس شهریار شهرزاد نفتيس ايزيس أوزوريس

هلنان ذهب هلنان بورسعيد كميت قرية مجاويش

مصر الجديدة للإسكان و التعمير مدينة نصر ،

الشرقية للدخان ،

متفسر ج ١ : وبعد ذلك : الكهرباء والمياه والمجارى ،

النقل العام والمترو والسكة الحديد ،

الطيران و المطارات و الطرق ،

التليفونات والبريد ، ،

الجامعات والمبثوك ، ،

قناة السويس والبترول ،

السيد العالى ، ،

المصانع الحربية

الأهرامات

(التى بدأت إسرائيل تطالب بها) ،

أى كل ممتلكات الشعب المصرى .

متفـرج ٢ : كل ما حاربنا و ضحينا ،

من أجل إقامته و الدفاع عنه ،

فى ٥٦ و ٦٧ و ٧٣ ،

وكأننا يا بدر لا رُحنا ولا جينا .

عروسة صفراء ٣ : الحكومة لن تبيع سوى الشركات الخاسرة ،

التي تمثل عبئا على الاقتصاد الوطنى .

متفـرج ٣ : كاذب فى أصل وشك !

فأنتم تبيعون الشركات الرباحة بحجة أن أحدا لن يشتري

الخاسرة !

وقد تعهدتم كتابة بأنكم ستستخدمون حصيلة البيع ،

إصلاح الشركات الخاسرة فعلا

تمهيدا لبيعها !!!

متفـرج ١ : كذبة أخرى من ترسانة أكاذيبكم ،

تضحكون بها على الشعب الساذج :

"الهدف من البيع هو توسيع قاعدة الملكية للمصريين ،

الشركات الاستراتيجية لن تمس ،

الأجانب لن يسيطروا على اقتصادنا ،

لن يضار عامل واحد ،

المعاش المبكر هو إجراء لصالح العاملين " .

متفـرج ٢ : تعهدتم للصندوق فى خطاب النوايا التعيس ،

أن تتيحوا للأجانب فرصة تملك المشروعات الوطنية ،

والمشروعات ذات المنفعة العامة ،

كالطرق السريعة التليفونات المترو ،

الكهرباء المياه المجارى ،

لمدة ٩٩ عاما (على غرار قناة السويس) ،

يقومون خلالها بجباية الضرائب نيابة عن الحكومة ،

لتحصيل التكاليف والأرباح ،

وتحويلها لا لخزانة الدولة وإنما لبلادهم فى الخارج .

متفـرج ٣ : تعهدتم أيضا بأن تعطوا الأجانب ،

ما بخلتم به على أبناء بلادكم وصناعاتها :

إعفاءات ضريبية وجمركية لمدة خمس عشرة سنة ،
وفرصنة الاقتراض من البنوك المصرية .

متفـرج ١ : وأقسمتم على المصحف ،

أنكم ستساعدونهم على التخلص من ١٤٠ ألف عامل ،
بعد مهلة ٣ سنوات ،
بلعبة المعاش المبكر .

متفـرج ٢ : تعهدتم أيضا بعدم المساس باحتياطياتنا من النقد الأجنبي ،

التي تكونت من ثمرة جهدنا ومعاناتنا
(يدفع المواطن نصف دخله في ضرائب مختلفة دون أن
يشعر) .

١٨ مليارا من الدولارات ،

التزمتم بعدم استخدامها في مشروعات إنتاجية أو حتى في
سداد الديون ،

و بإيداعها في البنك الفيدرالى الأمريكى ،
أى حبسها لصالح عدونا الأكبر .

متفـرج ٣ : تعهدتم بإجراء تخفيض الجمارك بنسبة ٧٠ بالمائة خلال ٣
سنوات،

بينما حددت اتفاقية الجات هذا التخفيض بنسبة ١٠ فى المائة
سنويا فقط
خلال عشر سنوات .

متفرج ١ : التزمتم أمام ساداتكم بأن يقوم البنك الدولي وصندوقه ،

بمراجعة دورية لأداء الحكومة كل ثلاثة شهور .

متفرج ٢ : هكذا اكتملت حلقات المؤامرة الجهنمية ،

التي بدأت مع نجاح أول خطة خمسية لتصنيع البلاد في

١٩٦٥ ،

فبعد أن أغرقنا السعوديون في مستنقع اليمن ،

استخرجنا الإسرائيليون إلى فخ ٦٧ ،

وتولى أنور وصحبه الباقي .

متفرج ٣ : ما أشبه الليلة بالبارحة !

كلما تذكرت أن للخواجة مكتبا دائما في وزارة الاقتصاد

المصرية ،

بصفته ممثلا لهيئة صندوق النقد الدولية ،

خطرت لي صفحة مأساوية في تاريخنا الحديث ،

بدأ معها تخلفنا المشين .

فبعد محاولات التحديث بالتصنيع و التعليم ،

التي قام بها محمد علي ،

(في نفس اللحظة التي بدأت فيها اليابان)،

وأجهضتها أساطيل الغرب ،

انصرف حفيده إسماعيل إلى التحديث بالقصور و التماثيل ،

فبيد ثروات البلاد في سغه ،

ثم تحول إلى الاقتراض من أصدقائه الأوروبيين .
وعندما عجز عن السداد ،

أجبروه على إعلان الإفلاس ، ،

وإنشاء هيئة أجنبية تتولى إعتصار الاقتصاد ،

لسداد الديون ، أسموها صندوق الدين ،

أقام ممثلاه في المكتب الذي تحتله سيادتك ،

فمهدا الطريق لسبعين سنة من الاحتلال .

عروسة صفراء ١ : مهلا ، مهلا ، يا سادة !

شراء المستثمرين الأجانب للشركات المصرية ،

سيمدنا بالعملات الأجنبية التي تحتاجها التنمية .

متفـرج ١ : الأجانب لن يدفعوا نقودا في الشراء ،

بل سيشترى الديون الخارجية للشركات بقيمة اسمية ،

ثم يحولون الدين إلى أسهم في هذه الشركات ،

بقيمة تساوى أضعاف ما دفعوه لشراء الدين .

و بعد ذلك يحولون هذه الشركات

إلى إنتاج السلع الوسيطة إياها ،

بحيث يمكن تصدير السلع الرخيصة للخارج ،

واستيراد السلع المتكاملة غالية الثمن .

(ارتفعت الواردات الخارجية من ٨ مليار دولار عام ١٩٩١

إلى ١٤ مليار دولار عام ١٩٩٣

بزيادة بلغت ٨٠ بالمائة خلال عامين) ..

العروسة الصقراء

السابقة : شراء المستثمرين الأجانب للشركات المصرية ،

سيتبعه حتما تطوير إدارى و تكنولوجى ،

ندخل به القرن الواحد والعشرين ،

مرفوعى الرعوس والقامات .

المتفرج السابق : أحلام العصافير ،

وحجج اللصوص والمرتشين .

ستدخلون حقا القرن الواحد والعشرين ،

وإنما فوق بطونكم منبطحين .

الشركات العالمية تحرص على أسرارها وخبراتها .

وهى تعمل وفق استراتيجية معروفة ،

تقوم على نشر عمليات إنتاج السلعة فى عدة بلدان ،

بحيث لا ينتج البلد الواحد غير حلقة واحدة أو أكثر ،

من سلسلة إنتاج السلعة الواحدة .

حالة واحدة تتصرف فيها بكرم ،

عندما يتعلق الأمر بالصناعات الملوثة للبيئة .

متفرج ٢ : سأقرأ عليكم تقريراً داخليا للبنك الدولى ،

نشرته فى ٨ - ٢ - ١٩٩٢ مجلة الإيكونومست الإنجليزية

(التى يملك نصفها بنك روتشيلد إياه) .

يقول التقرير أن المصلحة الاقتصادية (لمن ؟)

تحتّم نقل الصناعات الملوثة ،

مثل البطاريات الكهربائية والمبيدات ،

الحديد الزهر و الأسمنت و الاسبيستوس ،

إلى العالم الثالث .

ويسوق التقرير ثلاث حجج في هذا الشأن :

الأولي بالحرف : من الأفضل تلويث البلدان المنخفضة الأجور
حيث أن تكاليف حماية البيئة بها منخفضة كذلك .

الثانية بالحرف : من الأفضل تلويث البلدان التي لم تلوث
بعد لأن ذلك يكلف أرخص في بداية الأمر .

الثالثة بالحرف : من الأفضل تلويث المناطق ذات مستويات
المعيشة المنخفضة

حيث يكون لدى الناس على كل حال كثير من الهموم الأخرى .
ويضرب التقرير مثلا على الحجة الأخيرة قائلا بالحرف :
إذا كانت إحدى الصناعات الملوثة .

تؤدي إلى زيادة احتمال الإصابة بسرطان البروستاتا ،
بنسبة واحد في المليون ،

فإن القلق الناشئ عن ذلك سيكون بالبداية ،
أشد بكثير في بلد يمتد فيه عمر الإنسان طويلا ،
(بلادهم هم طبعا)

من بلد يموت فيه ٢٠ بالمائة من الأطفال ،

قبل الخامسة من عمرهم

(بلادنا نحن بالطبع.)

متفرج ٣ : كافة البلدان التي تعاملت مع الصندوق،

ونفذت رؤيته المشنومة ،

تعرضت للفاجعة .

زادت الديون الخارجية ،

وهبط مستوى المعيشة و القوة الشرائية ،

وتدهورت الخدمات و الصناعات المحلية .

متفرج ١ : أغرب ما في الأمر أن الصندوق نفسه ،

يعترف بأن برامجه الإصلاحية لم تثمر ،

وأنها أدت إلى زيادة التضخم ،

وانخفاض معدلات النمو ،

لكن المرتشين الفاسدين يشيدون بدورها

في إزالة "أسباب الخلل الاقتصادي" ،

ويؤكدون أنها أفضل وسيلة ،

لا لإذلال الجماهير وتمريفها في التراب ،

وإيادة أكبر جزء من السكان ،

وإنما لتحسين مستوى معيشتها ،

وتحقيق رفاهيتها !

متفرج ٢ : قوانين السوق التي يتم إجبار دول الجنوب على تطبيقها ،

هي نفسها التي أوجدت ٢٠ مليون عاطل و ٤٠ مليون فقير ،
في الدول الغربية .

عروسة صفراء ٣ : اقتصاد السوق هو الذي نادى به رينا و نادى به الأديان .

وهو الكفيل بكسر الطوق ،

ليبدأ عصر الإنتاج الواسع القادر على غزو الأسواق العالمية،
حقا ستكون هناك قرارات صعبة في مجال التعليم و الصحة
والتغذية ،

لكنه الطريق الوحيد للحاق بالنمور الآسيوية .

متفرج ٣ : حديث النمور ينم عن جهل أو خداع .

فقد بدأت بنفس سياستها في إحلال الواردات .

لكنها على العكس منا ،

تمتعت بمساعدات أمريكية كريمة ،

في صورة منح لا ترد ،

من أجل مواجهة الخطر الشيوعي ،

ولم تنشأ إلى جوارها إسرائيل ،

قلم تتعرض للعدوان أو الاستنزاف ،

وتجنبت الوقوع في فخ المديونية .

وعلى العكس منا ،

طبقت نظاما صارما للنقد الأجنبي ،

فلم يسمح للأفراد بحيازته إلا مؤخرًا ،
و أقامت الحواجز في وجه الواردات المنافسة للإنتاج المحلي
الذي مازال نصفه حتى الآن ملكا لقطاع عام ،
تسيطر عليه الحكومة بخطط خماسية ورباعية
(خلال ٢٥ سنة لم تستورد كوريا الجنوبية سيارة واحدة) .
النمو لم تنجح إلا لأنها لم تستسلم
لمفعول قوى السوق ، والحرية الاقتصادية .

متفـسـرج ١ : كما أنها ضحت بعدد من الأجيال ،
لا جيل واحد كما ألفت انتقاد التجارب الاشتراكية .
فالمناطق الحرة التي أقامت لتجهيز الصادرات ،
نجحت في اجتذاب الاستثمارات الأجنبية ،
بسبب المزايا التي قدمتها :
عمالة منخفضة الأجر تضم الإناث و الأطفال ،
سبعة أيام عمل في الأسبوع ،
حرمان من العطلات ،
ومن حق التنظيم و الإضراب ،
و من حد أدنى للأجور،
ومن حد الثماني ساعات عمل ،
من التأمينات والمعاشات ،
و الخدمات الصحية والتعليمية ،

مما جعل الفرد فى زعر دائم .

أهذا هو ما تريدونه لنا ؟

متفرج ٢ : الواحد منا يستيقظ فى الصباح على منبه يابانى .

ويفسل وجهه بصابون فرتسى ،

ثم يحلق ذقنه بفرشاة صينية و ماكينة انجليزية ،

ويفسل أسنانه بمعجون أمريكى ،

ثم يتناول إفطارا من جبن دمياطى صنع فى الدنمارك ،

و يشرب شايا هنديا أو سيلانيا ،

بعد أن يضيف إليه لبنا جافا من فرنسا أو سويسرا ،

ثم يرتدى ملابس بسيطة : قميص أو بنطلون على المودة

القائمة ، مع الرخصة ، من فرنسا أو إيطاليا .

- وفى العمل يرتقى مصعدا بلجيكيًا ،

و يشرب فنجان قهوة برازيليا أو سفن أب وكوكاكولا ،

مع سيجارة مارلبورو أو روثمان ،

بعد أن يشغل التكييف التايوانى أو اليابانى ،

ويتحدث فى تليفون سويدي .

ثم يبدأ العمل ، مستخدما قلما فرنسيا أو يابانيا ،

ورقا فنلنديا ،

وعند الظهر يذهب إلى الجمعية القنوية ،

ليشترى سكرا كوييا ، تونة تايلاندية ،

سردين أسباني ورنجة هولندية .
وفي طريق العودة إلى المنزل يأخذ خبزا مصنوعا بدقيق
أمريكي ،
و منظفات فعالة بالماركة الأجنبية ،
ومصباحا بلجيكيًا أو بولنديا ،
ودهانا استراليا لتلميع الأحذية،
وصلصة يونانية ، وأدوية سويسرية وإيطالية ،
و تنصدع رأسه و تتخرم أذنيه من نداءات للبيع أو للصلاة ،
من مكبرات صوت يابانية .
و يركب الأتوبيس الألماني الصنع ،
أو ميكروباسا يابانيا أو أمريكيا ،
دقت مساميره في العاشر من رمضان ،
ثم يشتري لابنه شكولاتة سويسرية ،
وعلى شاشة تليفزيون كوري ،
ركبت مفاتيحه في السادس من أكتوبر،
يتفرج على فيلم أميركي أو فرنسي .
وقبل أن ينام يسمع في نشرة الأخبار ، .
تصريحات المسئولين ،
تشيد بالصناعة المصرية ،
والانطلاقة الإنتاجية .

عروسة صفراء ١ : الغباء هو الذى يشكك فى أربح صفقة ،

نقايض بها ما لدينا ،

الموقع الجغرافى ،

العمالة الرخيصة والسوق الواسعة ،

بالمستقبل .

متفـرج ٣ : أنتم فعلا نقايضون ما لدينا ،

بالمستقبل .

عروسة صفراء ٢ : الأعمى هو الذى يعجز عن الرؤية :

فالعالم الآن أصبح سوقا تصديرية كبيرة ،

و ستؤدى عملية السلام إلى ازدياد الاستثمار فى المنطقة ،

وتوسيع السوق الشرق أوسطية ،

وزيادة الاندماج بين نولها ،

بحيث تتشارك فى الموارد المتاحة .

متفـرج ١ : أموال الخليج ونقطه ،

مياه النيل والأردن و اليرموك،

و الفرات و اللبئانى ،

وكهرباء السد العالى .

عمالة مصر وفلسطين التعيسة .

متفـرج ٢ : و تتولى إسرائيل المقاوله و السمسرة ،

فى مشروعات متكاملة ،

تقودها أمريكا ،

تعتمد على الموارد المتوفرة ،

من أموال و نفط و مياه و كهرباء ،

وعمالة تعيسة .

متفـرج ٣ : إن لم تعجبنا هذه السوق ، أمامنا واحدة غيرها ،

تضم البلاد المطلة على البحر المتوسط ،

جاهزة هي الأخرى ،

لاستغلال النفط و المياه و الكهرباء ،

والعمالة التعيسة ،

بقيادة فرنسا و ألمانيا ،

وقاعدتها إسرائيل أيضا .

متفـرج ١ : تحضرني حكاية تناسب المقام ،

بطلاهما اثنان من بلدياتنا ،

أحدهما بحراوي و الثاني بكما هو متوقع ، صعيدي ،

قادهما البحث عن الرزق إلى الأدغال الأفريقية ،

وإلى الوقوع في أسر قبيلة متوحشة .

وكان رئيس القبيلة لطيفا للغاية .

فقد خيرهما بين مصيرين :

إما "هونجا " و إما "قتلى " .

ومن إشارات يديه أدرك الاثنان المقصود بكلمة "هونجا " .

على الفور أعلن الصعيدي ، الذي يعتز بالشرف أكثر من الحياة ،

أنه يريد أن يكون من القتل .

وكانت للبحراوي وجهة نظر أخرى .

بعد قليل من التدبر ، قال :

— هونجا .

تأملهما رئيس القبيلة طويلا ثم أصدر أمره لأتباعه :

— الاثنين هونجا حتى القتل !

عروسة أميركية : الجحود الذي تبذونه لا حدود له ،

فأنتم تتنقذون و تتمهزأون ،

ولا يعجبكم العجب .

بينما تتوالدون كالآراب ،

مما يقضى على كل فرصة في التنمية .

متفـسـرج ٢ : هذه هي نمرتكم الكبرى !

ولحسن الحظ أن شاهدا من أهله قد شهد .

يقول أحد مسئولى وكالتكم التنموية :

" إن استمرار الانفجار السكاني سيؤدي إلى ثورات،

و بدون أن نحاول معاونة بلدان العالم الثالث في تحديد

النسل،

ستثور شعوب العالم ضد الوجود التجارى الأمريكى "

هكذا بوضوح.، و دون لف أو دوران .

رغم أن المنظمات التابعة للأمم المتحدة أكدت أكثر من مرة ،

أن العالم لا يشكو من نقص الغذاء ،

بقدر ما يعاني من سوء توزيعه .

و أنه قد يواجه كارثة إذا تقلص نموه السكاني ،

لأن الموارد الطبيعية لم تستغل حتى الآن بشكل كاف .

متفـرج ٣ : في عام ١٩٨٤ تكـدس في أوروبا الغربية فائض من المواد الغذائية

يكفي لمـلء مليون عربة ،

فوق خط حديدي طوله ١٥ ألف كيلومتر.

و بدلا من توزيع هذا الفائض على الأطفال النـافقين ،

في تشاد و الصومال و إثيوبيا و بنجالاديش ،

جرى سحق الفواكه والخضراوات بالجرارات ،

و أُلـفـت الحبوب بالمواد الكيماوية .

متفـرج ١ : ما يشغل خبـراً عـكم هو المحافظة على مستوى معيشة الغرب .

الفرد الأمريكى يستهلك من المواد الغذائية قدرا يستهلكه ٥٠٠ هـندى .

وسكان الولايات المتحدة يستهلكون ثلث النفط العالمى ،

وربع الحبوب و نصف الفوسفات ،

مع أنهم لا يزيدون عن ستة بالمائة من مجموع سكان الأرض.

عروسة صفراء ٣ : هناك الكثير من المبالغات والمغالطات ،

فيما قيل هنا .

وأخطاء فاحشة أيضا .

فأنا و زملائي من رجال الأعمال المصريين الأمريكيين ،

كنا نتصور أن يجرى تكريمنا لا التشهير بنا .

فرغم أن أغلبنا خضعوا للتأميم في السابق ،

وهاجروا منذ ثلاثين عاما ،

فإننا لم نحمل أى غضاضة ،

وهرعنا جميعا للاستثمار في مصر ،

عندما أصبحت الفرصة مواتية ،

ذلك أننا نحبها ، أى مصر ، من أعماق القلب .

وانى أنتهز هذه الفرصة لأستحث ،

كل رجال الأعمال المصريين في الخارج على العودة .

ففضلا عن الارتباط القومى و العاطفى ،

فإن العائد المالى مفر ، لا يقل عن عشرين بالمائة

(بينما لا يزيد في أوروبا و أمريكا عن ثلاثة بالمائة) ،

وذلك بفضل المناخ الاقتصادى و السوق المفتوحة على البهلى.

عروسة صفراء ٤ : كلام مضبوط جريته .

كان الأمر ميسرا للغاية ،

لم يتطلب سوى عدة ملايين من الجنيهات لا الدولارات ،

تقاسمها بعض الوزراء ورؤساء القطاع العام ،
وكبار الصحفيين ، دون أن أنسى الشاشة الصغيرة .
وإذ لك أمكنتى أن أستولى على محصول القطن ،
وعندما تحقق له أحسن سعر فى بورصات العالم ،
قمت بتصديره .

ولأنى أحب مصر ،
و أشفق على أبنائها وعمالها ،
رتبت فى نفس الوقت الأمر ،
فاستوردت لهم قطن أمريكا الرخيص .
صحيح أنه لا يصلح لمغازلنا فانهارت و أغلق أغلبها ،
لكن ثمن التكنولوجيا ليس بخسا ،
ولا توجد جراحة بدون ألم .

عروسة صفراء ٥ : وأنا قمت عن طريق شبكة الأقمار الصناعية ،
وإصالح شركة أمريكية ،
بعمل مسح للأراضى المصرية ،
يمكنها من التنبؤ بكمية المحاصيل قبل الحصاد بمدة كافية .
وبذلك يمكن تحديد مساحات التخزين ،
وسياسات التسعير و التمويل ،
أى السيطرة على الوضع الزراعى .

عروسة صفراء ٦ : أنا عبقرى آخر ،

مصري أميركي أو أميركي مصري ،

كما تشاعون .

كل نبضة من نبضات قلبي تنادي بحب بلدي ،

مصري يعني .

متفـرج ٢ : تانى !

عروسة صفراء ٦ : حاربت مرتين و كنت ضابطا مقاتلا فى حرب اكتوبر العظيمة .

و عندما أغرقت السيول ذخيرة الجيش الثالث ،

كنت أنا الذى قمت بإصلاحها فى مواقعها .

و بعد الحرب قمت بمفردى بإطالة أعمار صواريخ سام ،

عندما قطع عنا الروس الملاعين صواريخ الدفاع الجوى .

قدمت لمصر خلاصة فكرى .

ثم هاجرت إلى أمريكا ،

و أعطيتها هى الأخرى خلاصة فكرى .

أنا الذى قمت باختراع نظام "الدفع الالى" للجيش الأمريكى .

واخترعت لهم نظام الدفع الهيدرومغناطيسى لحرب الكواكب .

و قمت بحل مشاكل صاروخ الهاربون للبحرية الأمريكية ،

و مشكلة تذبذب الضغط فى محرك مكوك الفضاء ،

و قدمت لهم مشروعاً قالوا أنه سيحدث طفرة فى

التكنولوجيا .

فيحق لبلادي أن تفخر بي .

متفـرج ٣ : كان لدينا الكثيرون من أمثالك غداة حرب أكتوبر ،

عشرات الألوف من الشباب المؤهل لاستيعاب التكنولوجيا .

كنا في حاجة إليهم لنبنى ونعمر ، .

فدفعوهم إلى الهجرة ،

ليخلو لهم الجو ويحلو السهر .

لكن لكل عملة - كما لعلك تدرك - وجهان .

فأنت بالتأكيد تعرف قصة الجسر الجوي الذي أمد إسرائيل

بالدبابات ،

في أخرج لحظات الحرب ،

وبالأعداد التي قتلها السلاح الأميركي .

فضلا عن المساعدات المالية و المساعدات الأخرى ،

التي قدمتها بلادك - أمريكا -

لشرارهم الأمم ،

فمكنتهم من اغتصاب أرض ودولة .

فعلا ، يحق لبلادك أن تفخر بك .

متفـرج ١ : العباقرة الأمريكوميصريون أو المصرأمريكيون كثيرون ،

وأغلبهم يعيشون بين ظهرانينا .

وبدون أن يحملوا الجنسية المبدلة ،

تفانوا في خدمة وطنهم الأعلى ،

وفى إجراء البحوث المشتركة .

عروسة صفراء ٧ : لا أنكر أنى ، فضلا عن مهام أخرى ،

لم يحن وقت الكشف عنها ،

أشرفت على إجراء أكثر من مائتى بحث ،

عن الزواج و الزار ، هجرة العقول و الانتخابات ،

العمالة مصادر الطاقة و المياه ،

الصحة توزيع الدخل ومعوقات الإنتاج ،

القوى السياسية ، الجماعات الإسلامية و القبطية ،

النوع العام تحديد النسل تجديد شبكات الطرق ،

كل شئ يعنى ،

بواسطة باحثين لامبالين من الشباب ،

كانوا فى حاجة إلى أكل العيش على كل حال .

متفلسف ٢ : فساعدت سادتك ، من بدرى ،

على تحديد اتجاهات الاستثمار ،

وإعادة صياغة أنماط الاستهلاك ،

والسيطرة على السوق ،

وفرض الشروط :

عروسة صفراء ٨ : أنا أسافر كثيرا بحكم عملى الصحفى ،

ودائما فى مغية الرئيس ،

وفى كل مرة أزداد اقتناعا بأمر هام :

أنا نستطيع أن نخلق لأنفسنا ما نتمناه ،

من حياة كريمة و مجتمع راق ،

لو بذلنا مزيدا من العرق و الجهد .

متفـرج ٣ : ليس ثمة شك فيما تبذل من جهد و عرق ،

فأنت تسافر على الأقل مرة كل شهر،

و تستغرق كل سفرة قرابة عشرة أيام .

صحيح أنك تتقاضى بدل سفر لا يقل عن ألف دولار في
اليوم،

أى ما لا يقل عن عشرة آلاف دولار فى الشهر ،

و تحصل على نصيبك من عائد الإعلانات التى تنشرها
الصحيفة ،

و عمولات على آلات الطباعة التى تستورها ،

و المباني التى تقيمها باسمها ،

فضلا عن المنافع الأخرى التى لا تعد و لا تحصى ،

و لا تقدر بثمن ،

لكن هذا كله لا يقارن بما تبذله - حقا -

من جهد و عرق .

عروسة صفراء ٩ : أنا قمت بواجبى على الوجه الأكمل ،

مع آخر طلقة فى حرب أكتوبر العظيمة .

كانت مهمتى هى التوعية و إعادة التثقيف ،

واتبعت فى ذلك ما نصح به نوى الخبرة من الأمريكان .

استلمناهم من لحظة الصبحيان :

أكاذيب تدعمها حقائق ،

مشروعات وإنجازات على الورق ،

مهرجانات دائمة ،

إعلانات ملونة ،

أذان يخرم الأذان ،

ومسلسلات حتى الفجر،

إلى أن نؤخناهم .

لو سألتهم أحدهم الآن عما حدث فى ٥٦ أو ٦٧ ،

سيحتاج بعض الوقت كي يتذكر.

البعض لم يعد يعرف حتى اسمه .

متفرج ١ : جئتم من أسفل الدرك ،

يعطش لا يرتوى للنعيم و السلطة .

تقريتم من الحكام ،

بمسح الجوخ و القوادة أو النسب ،

بكتابة التقارير، وشهادات الدكتوراه ،

التحليلات الإشكالية والشكلانية ،

الإشتراكية المخصوصة و القومية العربية ،

الأقنعة السبعة و الأزمنة المتغيرة ،

المسيرة والمعركة ،
الحدائث وما بعدها ،
والشرق أوسطية .
وتنقلتم على أبواب السفارات :
الليبية والعراقية ،
وعندما تحول الميزان ،
الكويتية والسعودية ،
مرورا بمنظمة التحرير .
تذهبون في الصباح معطرين مهتدمين لمكاتب مكيفة ،
بعيون حمراء من السهر ،
حيث تتفننون في التعليق والتزويق ،
التفسير والتحليل ،
التبرير ، والإشادة ،
ولعق المؤخرات .
عروسة صفراء بعمامة : كنت معتكفا عندما جاؤا بي إلى هنا ،
منصرفا إلى هداية واحد من الجان ،
وإدخاله الإسلام .
متفـرج ٢ : صفحتك مشرفة في الهداية ،
تشهد بها الممثلات والجنيات .

و مع ذلك فانتك بعض الجهد ،

لهداية شياطين الإنسان ،

ليكفوا عن قتل المسلمين فى فلسطين ولبنان ،

ويتنازلوا عن بعض الديون ، و الشروط .

عروسة صفراء بلحية و ملابس

باكستانية : بسم الله الرحمن الرحيم ،

و الصلاة و السلام على سيد المرسلين .

الشرع شرع الله ،

ولا حكم إلا لله ويكتاب الله .

قال تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرين" ،
صدق الله العظيم .

متفـرج ٣ : تسعون فى المائة من الشرع الذى تتحدثون عنه ،

قوانين استنتها بشر ،

وصايا مؤقتة مرتبطة باحداث وقعت للرسول و أتباعه .

يمكننا أن نهتدى بها ،

لكن يجب أيضا أن نستخدم عقولنا ،

التي وهبنا الله إياها .

متفـرج ١ : القرآن الكريم حمال أوجه ،

فيأى وجه تحكمون ،

إن كنتم تعلمون ؟

متفـرج ٢ : بينما هم ينتجون و يبتكرون و يرحلون فى الفضاء ،

ويرسمون خريطة جديدة للمنطقة ،

تمكنهم من نهب الثروات العربية ،

تنشغلون و تشغلوننا بالحجاب و النقاب ،

عذاب القبر ،

و ألوان الخرافات ،

و الجهة التى يجب أن نأتى بها الطعام فى الصحاف ،

و هل يجوز للأم المبيت مع أولادها بملابس النوم ،

و هل من الحرام أن يجلس الرجل فى مكان احتلته امرأة قبله،

وأن يتعامل الأب مع إبنته البالغة ،

أم يجب ألا يجلس معها و ألا يتحدث إليها إلا من خلال أمها ؟

متفـرج ٣ : مهووسون أنتم بجسد المرأة ،

شأنكم شأن أبناء الشيطان الأكبر .

هوليود الفاجرة عرته ،

و أنتم تسدلون عليه الحجب ،

وفى عظاتكم ترعمون :

" يكون للرجل فى الجنة سبعمائة زوجة .."

متفـرج ١ : ألم يأتكم تنزيل العزيز الحكيم :

" لله ملك السموات والأرض و ما بينهما " ؟

و إنه وحده هو المالك ،

وليس للإنسان حق التصرف

بالتبديد و التدمير،

أو الجمع و التكنيز؟

متفـرج ٢ : هل بلغكم قول الرسول الكريم ،

عليه الصلاة والسلام :

" الناس شركاء في ثلاث ،

الماء و الكلا و النار؟ "

متفـرج ٣ : حقا ، قبل أن تقتلوا و تدمروا و تعتدوا ،

قولوا لنا أولا : لمن الأرض و المعادن ،

المصانع و المزارع ؟

للمرتشين و المضاربين ،

أو الاكتنازيين ،

أم لله وعباده المؤمنين ،

للعاملين و الكادحين

بحق ،

وعابري السبيل ؟

متفـرج ١ : نواياكم طيبة بلا شك ،

أفرعكم حال الوطن .

نساء يغيرن لون البشرة ،

و أولاد يعوجون الأستة .

مخدرات على النواصي .

شباب لا يشغله غير البحث عن العمولة ،

إعلام كاذب و مخادع ،

وحكام ضالعون مع الأجنبى ،

يزدانون ثراء وإنحلالا ،

ينهبون الفقراء ،

ويضحكون على ذقونهم .

متفـرج ٢ : أرفعكم حال العالم ،

أقلية لا تتعدى الخمس ،

تستهلك ثمانين بالمائة من الموارد الطبيعية ،

وتسيطر عليها .

و ٣٥٠ شخصا فقط ،

يستحوذون على قسط من الثروة ،

يمثل ما لدى مليارين من البشر .

متفـرج ٣ : رعى أموال ترتع كالوحوش ،

تتسابق بلهفة وشراهة ،

على تقسيم الموارد والأسواق ،

نون أن تضيف شيئا إلى الحياة .

تبيع الحاجيات القديمة لزيائن جدد ،

وتخلق حاجيات جديدة عند الزيائن القدامى .

متفـرج ١ : ويهدف الحصول على أكبر سيولة نقدية ،

فى أسرع وقت ،

و أعلى ربح بأى ثمن ،

لا تتورع عن نشر الدمار والحروب والمخدرات .

متفرج ٢ : وممثلوها فى اجتماعات القمم الدولية ،

يصيحون بسخرية :

" يا عمال العالم ،

بدلا من أن تتحبوا ،

تنافسوا

فى خدمتنا ! "

متفرج ٢ : فى حضارة الرأسمالية ،

يتم تسميم الأرض والماء والهواء ،

لكى تنتج أموالا أكثر.

متفرج ٣ : ويجرى الترويج بحماس لقيمة التملك ،

بحيث أصبح الناس عبيدا للأشياء لا سادة لها .

متفرج ١ : أصبح حق الملكية ،

أهم من حق الحياة ،

وقيمة البشر،

أقل من قيمة الأشياء .

متفرج ٢ : وتدنت الحياة اليومية إلى أسفل درجات المهانة ،

بينما الناس مخدرون باحتياجات اصطناعية ،

أنستهم احتياجاتهم الحقيقية .

متفرج ٣ : سرقت منهم أرواحهم ،

وحولوا إلى كائنات متوحشة أنانية ،

لا يشغلها في الحياة ،
غير القتال من أجل مجرد البقاء .
جماعة العرائس : كل هذا جميل .
ونصدقكم القول أننا حقاً سعداء ،
بأن أتحنا لكم الفرصة ،
كي تخرجوا ما في صدوركم .
ولعلكم تكونوا الآن قد استرحتم .
جماعة المتفرجين : حرمتونا من طعام صحي ،
مياه نقية نشربها ،
مستشفى حقيقي ،
مسكن ملائم ،
هواء نقي نستنشقه ،
رصيف نمشي فوقه ،
وسيلة انتقال آدمية ،
حديقة خضراء وزهور يانعة ،
من فرصة التريض والتتزه ،
من البهجة والفرح ،
من الطمأنينة
والسعادة .
فماذا تنتظرون ؟

فترة صمت . يخلت نور الكشافين تدريجيا . يخطو الدكتور رمزي إلى
مقدمة المسرح .

د. رمزي : في بورسعيد ،

التي جئنا منها بفكرة هذا العرض ،
يستمر الأهالي في التشهير بالتمثيل ،
إلى أن يتتصف الليل ،
وعندئذ يشعلون فيها النار ،
وهم يزعمون .

وتظل النار مشتعلة حتى تشرق الشمس .
فيوجهون إلى البحر ،
ليغتسلوا من أثر الحريق ،
ويبدأوا يوما جديدا ،
بعد أن قسّوا عليهم .

يتلاشى نور الكشافين تدريجيا . يتناول الدكتور رمزي علبة نقاب من جيبه
ويشرع في إشعال مجموعة من أوراق الصحف . ينهض الأمور والضباط واقفين
في ارتباك . هرج ومرج . تتقلب مائدة العرائس . الحراس يتفخون صفاراتهم .
يعود الضوء المبهر . يشير الأمور إلى الدكتور رمزي هاتفا :
- امسكوه .

يهرع الحراس إلى الدكتور رمزي فيقيدون ساعديه و يقنطونه إلى الخارج .

يجمع المسجونون بطاطينهم و يتجهون إلى زنازينهم . ترتفع من بينهم
أصوات ضاحكة : هوتجا حتى القتل !

القسم الثالث

القسم الثالث

خرج المأمور من معركة اللحي كما تخرج الشعرة من العجين (إذ لبس إيدكو الموضوع برمته) ، لكن التوفيق جانبه في حالة الاحتفال بالسادس من أكتوبر ، فقد كانت مسئوليته واضحة كالشمس . ألم يجرا الاحتفال بمبادرة شخصية منه ؟ ألم يترك الدكتور رمزي مهمة إعدادة دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عما ينتوي العمل بعرائسه ؟ صحيح أنه شعر بالانزعاج في منتصف العرض لما جاء على ألسنتها وألسنة المتفرجين الذين دسهم الدكتور بين الحاضرين (لم يفهم الكثير مما رددوه لكن شعورا مبهما خالجه بأن الأمور ليست على ما يرام) . وداعبه خاطر إيقاف العرض وإلغائه . ثم أدرك أن الإلغاء سيستدعى س و ج من رؤسائه وهو أمر يمكن تجنبه لو مر الأمر في سلام . لهذا تفاضى عن العبارات التي أثارت قلقه واكتفى بأن يأمر بالقبض على الدكتور عندما شرع في إشعال النار ثم تبين أنه لا يمكن القبض على شخص مقبوض عليه بالفعل ؛ فأمر بإرساله إلى التأنيب ثم تراجع عن ذلك عندما تذكر أن التأنيب مكتظ بأصحاب اللحي ، فأرسله إلى زنزانته ، واكتفى ببعض الإجراءات لمواجهة رد فعل البيروقراطية عندما يتسرب إليها نيا ما حدث ، فاستعد لزيارة مفاجئة من ممثليها بفرق نظافة من خدم الميرى مسحت ولعت الأرضيات ودهنت الطرقات وبعض الزنازين التي اختارها كي يدخلها الزائرون صدفة .

حط الزائرون فجأة كما توقع و تجولوا في العنابر والورش فألفوا النظام مستتباً ودخلوا الزنازين بالصدفة ووجدوها نظيفة مرتبة مدهونة يقطنها نزلاء تم تأديبهم وإصلاحهم ، كما وجدوا الطبيب في العيادة والمرضى في المستشفى ،

واستقبلهم العاملون بالمطبخ فى معاطف بيضاء نظيفة بل وقفازات من البلاستيك الشفاف . لم يفد كل هذا بشئ ، ففى نهاية الأسبوع نقل المأمور و زوجته الصغيرة النزقة (وفى جعبتها صندوق سكرابل) إلى أطراف الصعيد ، وعين العميد " سيد الضرويش " مكانه .

لم يكن هذا بالطبع لقبه الحقيقى . وإنما اكتسبه على مرالسنوات الخمسة والثلاثين التى قضاهها فى خدمة مصلحة السجون . وبدأ مناسبا لوجهه المتجهم وجسمه البدين وساقيه المقوستين قليلا وحركات ساعديه العشوائية .

كان هو الذى اختار العمل فى مصلحة السجون بعد تخرجه من كلية الشرطة إذ استهواه تطبيق لاثنتها . و أتيحت له الفرصة على الفور فى ليمان " أبو زعبل " وبالتحديد فى سجن ملحق به يسمى "الأوردى " حيث كان الشيوعيون يتعرضون للضرب يوميا كى يردبوا أغنية أم كلثوم الشهيرة : " يا جمال يا مثال الوطنية " .

ما أثار سيد الضرويش وقتها ليس رفضهم الغناء وإنما التبرير الذى قدموه . قال متحدث باسمهم (أستاذ فى الجامعة) أنهم يحبون الغناء و يعتقدون بوطنية جمال عبد الناصر و على استعداد لأن يتغنوا باسمه ليلا و نهارا لكنهم لن يفعلوا ذلك تحت وطأة التعذيب . لم يكن الأمر متعلقا برؤية خاصة بفن الغناء . فقد ظل يضرب واحدا منهم (من عمال النسيج) بعصا غليظة على رأسه كى يقول أنه امرأة فرفض . و عندما كلت يده و أوشكت رأس المعتقل على التصدع أوقف الضرب وسأله عن سر تعنته . أجاب أنه لا يجد ما يشين فى أن يكون امرأة لأنه يؤمن بالمساواة التامة بين الجنسين لكنه لن يقولها إلا بمزاجه .

بدلا من أن تشبع الإجابتان فضوله ، ضاعفتا من رييته فى أن هناك ملعوبا ما يدار من خلف ظهره . فهل يعقل أن يسجنهم عبد الناصر لكى يجبرهم على الهتاف باسمه ، الأمر الذى كانوا يفعلونه طواعية وهم أحرار ؟ ومن ناحية أخرى،

فالمنطقي أن يصبحوا ضد النظام بسبب ما يتعرضون له وكونهم مستمرين في تأييده لفرز آخر. هل هي تمثيلية متقنة من الجانبين ؟ ما لم يفهمه أبدا هو تصرف السلطات معه ، فهي نفسها التي أصدرت إليه الأوامر بتطبيق اللائحة على هؤلاء الكفار الملحدين وبعد ذلك على المؤمنين ذوي اللي وعاقبته في الحالتين على أنه نفذ التعليمات بأمانة وتقان، فاستحق لقب الضرويش بجدارة .

نقل الملازم أول سيد الضرويش إلى وظيفة مكتبية في المقر الرئيسي للمصلحة عندما توفي أحد المعتقلين أثر ضربة شوم محكمة . هكذا لم يعد لديه من مجال لتطبيق اللائحة غير المنزل . وكانت وجهة نظره التي شرحها لأهل زوجته عندما إستتجدت بهم أنه لا بد من إحترام السلطة (خاصة و أنه لا يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة) .

تجول سيد الضرويش بين مكاتب المصلحة لمدة عشرين سنة بينما كان زملاؤه ينعمون بتطبيق اللائحة (ظهرت ملامح النعمة في شكل سيارات فاخرة وشقق جديدة وملابس أنيقة ونساء استبن) إلى أن بدأت موجة حرق نوادي الفيديو و دور العرض و المسارح والكنايس ، ومست الحاجة إلى خبراء تطبيق اللائحة فأعيد إلى حليته الأساسية حيث صال وجال إلى أن استدعى لقرض الخطيط والريط اللذين أخلت بهما إحتفالات أكتوبر .

أقبل على عمله الجديد بهمة لتعويض ما فاتته من فرص تطبيق اللائحة (فلم يعد بينه وبين التقاعد غير سنتين) : أمر بوضع الدكتور رمزي في التأديب (وتحرك شرف بالنتيجة بمقدار نمرة بعيدا عن دلو البول) ثم ألحقه بعم فوزي ، صانع العرائس ، من باب الحيطة (تجاهل الدور الذي لعبه شرف و سامح وصبري إكراما لخدمات أولهم) . وعندما تبين أن العنبر الصغير المخصص للتأديب كامل العدد بأصحاب اللي ، تصرف بذكاء : وضع كل من الاثنين في

زنزانة انفرادية بالطابق الأرضي من عنبر الآخر: الدكتور في الميرى وعم فوزى
في الملكى ، وطبق عليهما اللائحة : الفسول والصراصير والفئران ، فضلا عن
اللاءات الثلاث : الطابور والزيارة والقراءة . لكنه لم يتمكن من حرمانهما من
سماع نشرات الأنباء أو إذاعتها ، فى حالة الدكتور رمزى .

ففى أول ليلة له بالزنزانة الانفرادية ، وبعد النشرتين التقليديتين ، الدنيوية
والروحانية ، إنطلق صوته من شراعة الباب . كان ضعيفا مترددا فى البداية فلم
ينتبه إليه أحد . لكنه ما لبث أن ازداد ثباتا وقوة وأصغى أكثر من خمسمائة
سجين لصوت أجش يحمل عليهم :

"... لماذا تقبلون معاملة الحيوانات؟ لماذا تتركونهم يسرقونكم و يضطهدونكم ؟
لماذا لا تطالبون بحقوقكم ؟ طبقا للائحة السجون ، لكل واحد فيكم الحق فى سرير
ومرتبة وملاءات وبطاطين وأبوات طعام وطقمان من الملابس الداخلية والخارجية
صيفا وشتاء لكنكم لا تحصلون على السرير والمرتبة والملاءات و يعطونكم بطاطين
متهرئة وطاقم واحد من الملابس .

" طبقا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق فى ١٤ وجبة فى الأسبوع منها
٧ فول و ٣ عدس و ٢ لحم و ١ جبن و ١ وجبة خضار ساخنة وقطعة عجوة تزن
حوالى ١٢٥ جرام . لكنكم لا تحصلون إلا على فقات لا يصلح ولا حتى للحيوانات.
" طبقا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق فى رعاية صحية كاملة لكن
السجن به طبيب واحد يأتى مرة واحدة فى الأسبوع لمدة ساعتين ولكى يفوز
الواحد منكم بلقائه لا بد أن يدفع عتبة سجائر للتومرجى ثم فى النهاية لا يحصل
على غيرحبتين من الأسبيرين .

" وإذا اشتكيتم أو تضررتم تعرضتم للجلد ، وهى عقوبة مهينة تنتمى إلى
عصور العبيد و تتنافى مع الدستور .

"لماذا تقبلون إستغلال النوباتجية و الحراس ؟

"هل تعرفون أن لائحتهم تعطىكم حق الاحتجاج و الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى تأتى النيابة لتسجل مطالبكم ؟ " .

ران الصمت على العنبر عدة لحظات ثم انطلقت صيحات التهليل من الزنازين المختلفة ، ما لبث أن غطى عليها صوت جهورى وجه إلى الدكتور أقذع الشتائم (تعلق برجولته المفترضة) ، تلاه صوت جهورى آخر أعلن : " الدكتور رمزى عاوز يروح لأمه يا جدعان " ، وكررثالث نفس الإستنتاج مقلدا عربية الدكتور الفصحى : " الدكتور رمزى يريد الذهاب إلى أمه يا رجال " .

من جانبه قررالدكتور أن يعطيهم القوة فأعلن فى اليوم التالى الإضراب عن الطعام إلى أن يتم تطبيق اللائحة والدستور .

تلقى الضروبش نبأ هذا الإعلان بغير مبالاة . ففضلا عن سذاجة الطالب ، تنص اللائحة على عمل محضر رسمى بالإضراب بعد مرور أربع وعشرين ساعة . لكن اللائحة شئ وتطبيقها شئ آخر . فمئذ قيام الثورة لم تعد السجون تنفذ هذا النص إلا بعد مرور أربعة أيام على الأقل تستخدم خلالها كل وسائل الإقناع حتى يعدل المسجون عن الإضراب وبالتالي لا يثبت أمره فى أوراق السجن . لم يهتم الضروبش بمحاولة إقناع الدكتور إذ تصوره غير أهل لذلك . اكتفى بأن عرضه على الطبيب النفسى الذى أرسلته المصلحة خصيصا ، ووجه جهده كله إلى حملة الخبط والربط التى شنها ، فأحال للتحقيق على بلبل لأنه غادر السجن قبل مواعده (الساعة الثالثة والنصف فى قول الضابط مرقص فهمى والرابعة والنصف فى قول أمين البوابة) . فتش على طفايات الحريق فوجدها معطلة ثم اكتشف أن لا أحد بالسجن كله من ضباط وحراس ومسجونين يعرف كيفية تشغيلها ، فأحال الجميع (الطفايات) للتحقيق . لاحظ وجود كثير من الكلاب الضالة فى أنحاء السجن فأحالها إلى "سماوى" متخصص اضطادها وضربها بالنار ليلا .

هجم على المخازن فوجد بها ٢٩٤ كيلو عجوة تالفة بسبب إنتهاء صلاحيتها للاستهلاك الأسمى . وتبين أن تحقيقا إداريا جرى فى هذه الواقعة منذ ثلاث سنوات وأرسلت نتيجته إلى المصلحة بالمحضر رقم ١١٦ . وأقرمراجع المخازن بالمصلحة "إبوارليب" بإستلامه إلا أنه أفاد بتسليمه لرئيسه "عبد القادر الدسوقي" الذى أنكر ذلك وبالتالي ضاع المحضر المذكور نهائيا .

فتح س و ج مع المساعد أول شرطة أمين المخزن الذى كان اسمه ، بالضرورة ، إبراهيم أمين، فقرر أن العجوة التى تسلمها كانت سليمة .

س : وكيف عرفت أنها كانت سليمة ؟

ج : لأن اللجنة التى إستلمتها من شركة قها وقعت بأن الكمية صالحة وتم الصرف منها فى حينه إلى أن أوقف سيادة النقيب أحمد الجوهري الصرف .

س : هل تعرف لماذا أوقف سيادة النقيب أحمد الجوهري صرف العجوة

المذكورة ؟

ج : بناء على شكوى المساجين .

س : وبماذا اشتكى المساجين ؟

ج : اشتكوا من وجود آثار عض بها .

كشف التحقيق أن الضابط المذكور خالف التعليمات لأنه فعل ما فعله دون أن يصرر محضرا به أو يطلب لجنة لتحديد المسئولية والصلاحية ولهذا أحاله الضرويش إلى التحقيق .

خلال ذلك كان الدكتور يواصل نداءاته من شراعة الزنزانة ، فبعد أن مل

تكرار ندائى الحقوق والإضراب عن الطعام انتقل إلى مجال تخصصه :

– هل تعرفون أن ٦٠ بالمئة من ثمن النواء فى مصر يذهب إلى الموزع

والمستورد ؟ وأن النواء الذى تدفعون فيه الآن ثلاثة جنيهات ستدفعون فيه

عشرين بعد تطبيق الجات ؟ هل تعرفون أن ٥٥ بالمائة من الأطفال مرضى
بأكبادهم وأن عدة أفراد لاوطن لهم ولاضميركدسوا ثروات بالملايين من استيراد
الأطعمة الفاسدة ورش المبيدات ؟ هل تعرفون أنهم يبيعون السرطان لعشرين
مليون طفل ؟ اشربوا هذا بطعم البرتقال ، كلوا هذا بطعم الفراولة ، الحسوا هذا
بطعم الأناناس والشكولاتة والملح والخل والكاري والكباب والخراء . مياه غازية
وكولا ملونة وشكولاتة وحلوى وأعصرة وشربات و مربات وجيلي و غزل بنات ،
عبارة عن مكسبات طعم ورائحة ولون أى أمراض تدوخ أطفالكم طيلة العمر إلى
أن يقصفه السرطان بعد أن يصابوا بالفشل الكلوى من جراء المياه الملوثة
أو الطرش والغباء بسبب التعرض للرصاص المنبعث من عوادم السيارات أو
يرحمهم الرحيم فيقعوا فى بالوعة مجارى أوتدهمهم سيارة أو ينفخهم صاحب
ورشة ...

طبعاً لم يكونوا يعرفون كل هذا وإلا ما ربوا عليه بנדاءات معاكسة تضمنت
اتهامات بذيئة تتعلق بأمه (أهونها رغبتة فى الخروج إليها) ، استفزت الدكتور
فوجه إليهم السباب :

- يا حيوانات يا مساكين ! دفعتم نصيبكم من الأموال الهائلة التى تنفقها
الدولة على تعليم وتدريب أطباء يستنزفونكم ويعاملونكم معاملة الحيوانات . يجرون
لكم جراحات لا تحتاجون إليها وينسون مشارطهم فى بطونكم . دفعتم نصيبكم
من الأموال الهائلة التى تنفق على إقامة مستشفيات لا يدخلها من يحتاج إليها ،
تستخدم أدوية فاقدة الصلاحية ولا تقبل الحالات العاجلة وحوادث الطرق دون
أتعاب وتتقاضى أجوراً باهظة رغم أنها معفاة من الضرائب لمدة خمس سنوات
على الأقل ومعفاة أيضاً من الجمارك . جهاز الأشعة الذى ثمنه ٢٠٠ ألف جنيه
جمركه ٥٠ ألف ويدفع المستشفى ألف واحدة فقط ثم يطالبكم بالآلاف . يا غلبة

يا مساكين .. الواحد منكم يعيش فى كشك طوله لا يتعدى ثلاثة أمتار و عرضه متر ونصف متر والسقف تبدو منه السماء بعد أن فتنته الأمطار... يعانون البرد وتقضون حاجتكم ليلا فى بورة مياه مشتركة يستعملها ثلاثون أسرة على الأقل أى مائة وخمسين شخصا على الأقل . وتحصلون على المياه العذبة من المسجد القريب وأحيانا تشترون الجركن بخمسين قرشا .. وحوالكم آلاف الشقق المغلقة والأبراج العملاقة . اسألوا أنفسكم : لماذا تقبلون كل هذه المهانة ؟ "

لم يعبأ الضرويش بنداءات الدكتور إذ إنشغل بالبحث عن خاتمه الذهبى الذى فقدته فى غمار تطبيق اللائحة . كان قد اشتراه بعد تعيينه فى المصلحة من أول راتب له . ولهذا كان يستبشر به بعد أن ربط بينه وبين طاقة القدر التى فتحت له . وبلغت معزة الخاتم عنده أنه رفض بيعه لمواجهة الضائقة التى مر بها عندما أغلقت الطاقة ونقل إلى المكاتب . لهذا جند السجن كله بحثا عن الخاتم دون جدوى . وفى النهاية التجأ إلى "المهدى" المنتظر .

كان عم حسين الكعكى متهما فى قضية إهانة أديان ، ويؤمن بأنه المهدى المنتظر الذى تحدث عنه الأديان المتهم بإهانتها ، وأنه سيحكم العالم فى القريب . لم يكن الأمر هزلا فقد آمن به الكثيرون وعلى رأسهم دكتور فى أصول الفقه بالأزهر، أخرج أولاده الأحد عشر من المدارس على أساس أنها مضيعة للوقت طالما أن زعيمه سيحكم العالم قبل أن تنتهى السنة الدراسية .

أحضره الحارس فى قميص مشجر وبنطلون هافانا . كان ربعة ، ممتلئ الجسم ، حاد النظرات ، فصيح اللسان ، تبدو عليه ملامح الذكاء والحيوية البالغة.

خاطبه الضرويش باستخفاف : إزيك يا عم حسين . عامل إيه ؟

أجاب المهدى المنتظر برصانة بالغة : أحمد الله وأشكره ياسيادة الأمور .

أخفى الأمور ضيقه من تجريده من لقب الباشا المعهود وقال : الله . أنت
بتعرف ربنا أهوه .. أمال إيه اللى بيقلوه عليك ؟

سيطر المهدي المنتظر على أعصابه و شرح للمأمور كيف أنه يؤمن بالله
ويرسله جميعاً بما فيهم هو نفسه . وعندما لم يبد الاقتناع على وجه الأمور
أضاف :

- أنا سيادتك تحديد النيابة و القضية أتى قادر على حل ثلاثة ألغاز حيرت
العالم.

لم يكن المأمور فى هذه اللحظة معنيا بغير لغز واحد . أشار عليه المهدي أن
يستدعى كافة الأشخاص القريبين منه ، من الضباط و الحراس إلى المجندين
والنوياتجية . تفرس فى وجوههم الواحد بعد الآخر فاصفرت جميعها وبدأ
الارتباك على أصحابها . إصفر وجه الضرويش أيضا إذ ظن أنهم اشتركوا كلهم
فى سرقة الخاتم . لكن سر المهدي كان باتعا فقد خطا نحوهم وأشار بحركة
مسرحية إلى أحد المجندين الذى تراجع قليلا إلى الخلف فى ارتباك شديد . تولى
الضباط الباقي فوجه إليه على بلبل السباب وتوعده بالويل والثبور ، وعاجله خضرة
بصفعة على وجهه وركلة فى مؤخرته ، ثم تسلمه مرقض فهمى إلى أن يعترف .

عبر الضرويش عن إمتنانه بطريقة أسلافه من الحكام . طلب من المهدي
المنتظر أن يتمنى عليه شيئا بعد أن وعده بتحقيق أمنيته . فطلب نقله من الزنزانة
التي يسكنها وضمه إلى أعوانه وأتباعه .

لم يكن فصله عنهم لسبب غير أزمة المساكن وضيق الأماكن . أما ضيقه
بزنزانه الحالية فكان جمال عبد الناصر هو المسئول عنه . ففي غمار التصريحات
اليومية الصادرة عنه والتي تبلور أفكاره وفلسفته ، والتي قسم فيها الأرواح إلى
خيرة وشريرة ، أعلن ذات مرة أن ناصر من عتاة المجرمين ، دون أن يتنبه إلى

أن الزنزانة تضم ثلاثة من عتاة الناصريين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فى تنظيم ثورة مصر المسلح وكانوا فى طريقهم من الليمان إلى القصر العينى للعلاج . ولم يكونوا فى حاجة إلى أية أسلحة كى يحولوا حياته إلى جحيم . ارتبك سيد الضروبش وقال : السجن زحمة الوقت ع الآخر ، لكن فى أقرب فرصة حانقلك .

كان المهدي المنتظر خيرا بوعود الحكام فقرر أن يعتمد على نفسه . فى نفس الليلة أيقظ زملائه فى الزنزانة عند الفجر ، وهو الموعد الذى يتلقى فيه الوحي ، و هتف فيهم :

— أبشروا يا أخوانى .

بهت الأخوان وتبادرت إلى أذهانهم بشرى واحدة لا غير وعندما استوضحوه الأمر قال :

— الحبيب أخبرنى أنه تمت إعادة تقويم عبد الناصر فى البرزخ وتقرر ضمه إلى العناصر الخيرة .

بالمقابل أعاد الناصريون تقويم المهدي المنتظر . وكما يحدث عادة فى هذه الحالات ، اشتطوا فى الأمر فأمنوا بالرجل و بدعواه . ومن جانبه وثق هو فيهم فأسر إليهم ببقية رسالة الحبيب : فى نهاية الشهر الهجرى التى تحل بعد اسبوع سينطلق موكب المهدي المنتظر من المنطقة المقدسة (أى السجن الذى تقدس بوجوده) بعد أن تنزل من السماء أربعة أسود تفتح الطريق أمامه و دابة قادرة على التمييز بين المؤمن وغيره تهش للأول وتكشر للثانى . وتصادف أن التجأت إحدى القطط الضالة إلى الزنزانة فى نفس اليوم فاعتقد الجميع أنها الدابة المقصودة وشرعوا يعاملونها برقة بينما أخذ هو يردد لكل من يخاطبه فى شئ : إن هى يا بنى إلا مسالة أيام .

تضاعف إيمان الجميع بمقولات المهدي و دعاويه ويأثنه سيخرج و يحكم العالم كله. و أبلغ الناصريون المحامين الذين كانوا يسعون إلى استصدار عفو صحي عن بعضهم : أوقفوا مساعيكم . خلاص . الدنيا كلها حنتغير بعد يومين .

حل اليوم الموعد أخيرا دون أن يحدث شئ بالطبع . فانقلب الجميع على المهدي المنتظر وأشبعوه سخرية و استهزاء . تحمل الرجل الموقف في بسالة المجاهدين و أصحاب الرسالات دون أن يصيبه اليأس . و بعد عدة أيام أيقظهم في الفجر قائلا أن الحبيب جاءه وعاتبه لأنه أفشى السر فالخبر كان له وحده ولهذا قرر أن يريه بتأجيل التنفيذ . وأكد الحبيب ماسبق أن قاله بخصوص قرب خروجه في موكب ليحكم العالم فهو الحق بعينه . لكنه ، عقابا له ، لن يذكر له من الآن لا الموعد ولا الزمان ولا الكيفية .

خلال ذلك انشغل الضرويش بإعادة تقويم الرائد مرقص فهمي على ضوء اعترافات جديدة من سارق الخاتم الذهبي ألمحت إلى الرواتب الشهرية التي يحصل عليها من المساجين الذين يعملون في مشغولات الخرز والخشب كي يسمح لهم بالخروج إلى الزيارة يوميا لعرض منتجاتهم على الزائرين .

استقبل الضرويش هذه الاعترافات بهوء . و إنتظر فرصة ملائمة للتصرف . سنحت الفرصة سريعا . ففي أثناء مروره بالفناء وجد سيارة "مازدا" يجري إصلاحها بواسطة أحد السجناء . أخبره الحراس أنها خاصة بالضابط مرقص فهمي وقد عهد بها إلى هذا المسجون بالذات لأنه من الخبراء النابرين في السيارات اليابانية (سرقها بالطبع) . وفي اليوم التالي رأى سيارة أخرى من طراز "أويل" مكان السيارة المازدا يتولى الخبير الياباني إصلاحها . استفسر من مرقص فهمي نفسه فقال أن السيارة لزوج أخته الذي أعجب بالإصلاحات التي تمت على المازدا فرجاءه أن يطبقها على الأول . و بعد يومين كانت هناك ثلاث

سيارات متجاورة فى الفناء من ماركات مختلفة . أراد أن يستفسر عن الأمر فبحث فى طلب مرقص فهمى. قيل له أنه غادر السجن لشراء مهمات للكانتين . بحث عن الخبير اليابانى فاكشف أنه غادر السجن أيضا فى رفقة الضابط . وتبين أن الاثنين نزلا إلى السوق لشراء قطع غيار للسيارات الثلاث .

لم تكن اللائحة تتضمن ورشة لإصلاح السيارات أو إمكانية استخدام الفناء لأغراض غير التريض (للمساجين) والجلوس إلى جوار الزهور (للضباط)، ولا كانت السجنون قد دخلت بعد برامج الخصخصة، كما أن مغادرة السجن بالنسبة للنزلاء كانت لها حالات محددة ، ليس بينها أبدا النزول إلى السوق . لهذا جرت مواجهة حاسمة بين الضرويش والضابط لم تؤد إلى إحالة الأخير وإنما أثمرت نتائج أكثر إيجابية أهمها تدعيم الورشة بخبيرين آخرين من تخصصات أخرى (السيارات الفرنسية والأمريكية) وإطلاق عملية الشاى .

ففى سعيه من أجل إحكام الطبط والريط ، شن الضرويش سلسلة من حملات التفتيش العشوائى (تسبقها معلومات محددة من المرشدين) صادفها المتنوعات التى صادفته وعلى رأسها بالطبع الشاى الذى عهد به إلى الضابط مرقص فهمى كى يبيعه سرا للمساجين من خلال شبكة المرشدين. وقبل أن يتمكن هؤلاء من استهلاكه قام الضرويش بحملة تفتيشية عشوائية ثانية فصادر نفس الشاى الذى سبقت له مصارقه و عهد به لمرقص فهمى ليبيعه من جديد وهكذا .

لم يكن قلقا بشأن الدكتور رمزى . حقا أن اللائحة ، الموروثة من العهد الملكى، تنص على ضرورة استدعاء النيابة للتحقيق فى مطالب المضرب عن الطعام فى موعد لا يزيد عن ٤٨ ساعة منذ بداية الإضراب أى منذ بداية تسجيله فى الدفاتر ، إلا أن هذه المدة إمتدت بلا حدود فى ظل الثورة . وبذلك أتيحت الفرصة للدكتور كى ينوع نداءاته ويوسع من مجالها :

- يا غلابة يا مساكين .. هل تعلمون أن خمسة من أهالى القرية يشغلون أهم المناصب الإدارية بها ، من العمودية إلى إدارة الجمعية ، هم أنفسهم تجار الأسمنت و مواد البناء والمقاولون الذين يتعهدون ببناء المنازل على الأراضى الزراعية التى اشتروها وقاموا بتقسيمها وبيعها من قبل . وهم كبار الحائزين يملكون ثلث الأرض ويستأجرون الربع و يملكون ثمانين بالمائة من أدوات الإنتاج خاصة الجرارات وماكينات الري ورافعات المياه ويقومون بتأجيرها لصغار الفلاحين بدعم المعونة الأمريكية بأجور مرتفعة بينما يستخدمون الأدوات الموجودة فى الجمعية التعاونية بأجر أقل وهى التى قيل للفلاح أنها معطلة ...

تهدج صوته من التعب لكنه واصل :

- يا غلابة يا مساكين .. هل تعرفون أن ثمانية تجار يسيطرون على سوق الخضر والفاكهة ، و أربعة على تجارة اللحوم المستوردة وسبعة على البقالة وثلاثة على سوق السمك . و أن كل هؤلاء يتفقون عليكم كل مساء .. وأن المستهلك ليس هو الضحية الوحيدة . المنتج أيضا من الضحايا .. فالمزارع و الصياد لا يحصلان على أكثر من نصف حقهما و يذهب النصف الآخر لتجار الجملة ..

وفى اليوم الذى بعده عاد إلى قضية الطعام ويبدو أن عزيمة الامتناع عنه أصابها بعض الوهن ، وأنه شعر بالحنين إلى بعض الأنواع المحببة إليه ، فأراد أن يشد من أزر نفسه :

- هل تعلمون أن مربي الدواجن يضيفون حبوب منع الحمل إلى أعلافها من أجل تسميتها فيعرضونكم لخطر الإصابة بسرطان الكبد ؟ وأن البصل الأخضر والفجل والجرجير والكراث التى تعيشون عليها وتحلمون بها ملوثة بالرصاص الذى يسبب الأنيميا والتخلف العقلى و يمحق الذاكرة و يجعل الواحد ينسى حتى أمه وبالكادميوم الذى يضر بالكلى و يؤدى إلى الإجهاض ؟

هل المساجين لندائه كالعادة . وصاح أحدهم من زنزانه فى الطابق الرابع :

- يا كاديوم إنت يا كايدهم .

هل اكتفى الدكتور ؟ كلا .

فى اليوم التالى واصل اختبار معلوماتهم : " هل تعلمون أن فى مصر ٣٠ ألف سيارة من طراز مرسيدس . متوسط سعر الواحدة ٧٠ ألف جنيه أى أن المجموع ٢١٠٠ مليون جنيه تكفى لسداد ثلث العجز فى الميزانية العامة أو نصف أصل الديون العسكرية ؟ وإن المرسيدس التى تدعى بالملكة لا يقل ثمنها عن ٤٠٠ ألف جنيه و هو مبلغ يكفى لشراء ثلاثة أتوبيسات للنقل العام و بناء أربعة آلاف وحدة سكنية اقتصادية ؟

" هل تعلمون ان سعر طفاية السجاير فى المرسيدس المدعوة بالشبح ٧٠٠ جنيه أى ما يكفى لإطعام ١٤٠٠ مصرى بوجبة إفطار مكونة من ٢٨٠٠ سندوتش فول. و أن سعر الإطار الواحد لهذه السيارة يساوى مرتب عشرة موظفين مصريين فى شهر، والفانوس الواحد بها ثمنه ٤٥٠ جنيه والتكييف ١٥ ألف ؟ هذه هى السيارة التى يملكها الان ١٣٦٠ من الذين يدعون أنفسهم برجال الأعمال ومنهم وزراء ورؤساء صحف، وحجزها ٤٠٠ غيرهم بقوا جميعا فيها ما يساوى ثلثى تكاليف فوائد الدين السنوية على مصر ومقدارها أربعة مليارات جنيه. وهم لا يدفعون عنها ضرائب فهى تمر من الموائى بنظام التريتيك الذى ابتكروه خصيصا لمصلحتهم فيضع صاحب السيارة قيمة الجمرك فى أحد البنوك فتوفر له ضريبة التريتيك التى تقدر بالآلاف بدلا من الجمرك الذى يقدر بالملايين، أو يكون أصلا صاحب مشروع يتمتع بالإعفاءات الجمركية فتضاف السيارة إلى الأصول المعفية. بمجرد أن تعرض الدكتور رمزى للسيارات بدأ الضروبش يشعر بالقلق . استخرج ملفه و تصفح التقرير الطبى الذى أهمل قراءته فى حينه . كان بتوقيع

الدكتور حمدى السكرى، الطبيب بمستشفى حلوان للأمراض النفسية . وجاء به أن المسجون "يتمتع بشخصية قوية تميل للعظمة كما أنه جذاب للآخرين . ذكى يحب الناس جميعا وخاصة ذوى المراكز المرموقة . طموحه أكبر من قدراته . نوذاكرة قوية . يتمنى أن يصلح الكون . مضطرب نفسيا نتيجة ما يحدث حوله من انحرافات " . حاول أن يستخلص من ذلك نوع الإجراء الذى يتعين اتخاذه . وقبل أن يصل إلى قرار وقع ما صرف اهتمامه فى اتجاه آخر .

فبينما هو يقرأ خطابات السجناء لشطب أى إشارة إلى سوء المعاملة ويبحث عن أى عبارة يمكن أن تغذى مشاعره الإيروتيكية الذاتية ، هبطت عليه فجأة لجنة مشتركة من لواءات المصلحة (مباحث السجون) والداخلية (أمن الدولة) والمخابرات العامة ؛ وتبين أن المهدي المنتظر تمكن من تسريب رسالة إلى رئيس الجمهورية . لم ينزعج ممثلو البيروقراطية لأنه تمكن من إخراج رسالة من السجن عن غير الطريق الرسمي ، ولا لأنه تجاسر على مخاطبة رئيس الجمهورية ، ولا على الطريقة غير اللائقة التى خاطبه بها إذ وصفه بأنه من الأشخاص ذوى الأرواح الخيرة ثم حذره من أن يتعرض للإفساد على أيدي أصحاب الأرواح الشريرة . ولا أزعجهم قوله أنه يستطيع أن يقدم للرئيس الدليل على صدقه بأن يحل الألفاظ الثلاثة التى حيرت العالم . ما أزعجهم لدرجة بللت ملابسهم الداخلية هو ما جاء فى نهاية خطابه من أن الله سيخرجه من السجن لمدة أربع وعشرين ساعة بكيفية لا يعلمها إلا هو (أى سبحانه تعالى) .

استدعى المهدي المنتظر لمقابلة البيروقراطية . وقف أمامهم محاطا بحارسين أمسكا بساعديه حتى لا يخرج من السجن بدونهما . سأله لواء مباحث السجون :

— إيه يا عم حسين اللي إنت باعته للرئيس ؟

أجاب عم حسين على الفور :

- الرئيس رجل طيب وخير . و أنا استخدمت حقى فى مخاطبته .

سأله لواء المخابرات العامة : وإيه هى بأه الألفاظ اللى حيرت العالم ؟

أجاب المهدي المنتظر :

-إنها ثلاثة يا سيادة اللواء . مثلث برمودا وقارة الأطلنطيد المختفية وأصل

موشيه دايان .

- ماله موشيه دايان ؟

أجاب بثقة : أصله سفاح أمريكى كان موجودا فى أمريكا سنة ١٨٠٠ ، لو

ضاهى أحد بصماته ببصمات موشيه ديان لتطابقا .

- وانت ناوى تهرب ؟

- لا يا سيادة اللواء . الله سبحانه سيخرجنى من هنالمدة ٢٤ ساعة فقط وأعود

مرة أخرى .

تدخل لواء مباحث أمن الدولة :

- حتعمل إيه فى الأربعة وعشرين ساعة دى ؟ إذا كان عندك مصلحة

مستعجلة قلنا عليها وإحنا نشوفهاك من غير ما نتعب نفسك و نتعب المولى معاك.

- أستيغفر الله يا سيادة اللواء . إنها إرادة الله و لا راد لمشيئته .

أمر اللوآءات بإخراجه من الغرفة على أن ينتظر بالخارج مع حارسه . .

فور خروجه أعلن الضرويش بصوت حاول أن يجعله قويا :

- الجن الأحمر نفسه ميقدرش يطلع من السجن من غير إذننى .

تطلع إليه لواء أمن الدولة باستخفاف ، وطالب لواء مباحث السجن بوضع

المهدي فى التأديب وتشديد الحراسة عليه . رد الضرويش بأن التأديب لا يوجد به

مكان فارغ . و أن الحراسة مشددة عليه بالفعل و هو فى زنزانتة .

عاد اللواء الخير بأوضاع السجون يتكلم :

- بالنهار طبعاً مفيش مشكلة . تقدرنا تراقبوه بكذا طريقة . المشكلة بالليل .
مين حيراقبه طول الوقت ؟ حتى لو حطيناه حارس مخصوص على الباب .
منضمنش إنه يسبب مكانه و يروح يشرب شاى أو ياخذ تعسيلة .

استشار لواء المخابرات العامة أوراقه وقال :

- معلوماتنا إن الساحر ميقدرش يخرج نفسه من المكان إنما يقدر يخفى
نفسه فى المكان . فافترضوا إننا حطيناه فى زنزانة لوحده وأخفى نفسه ؟
بعد تفكير ومشاورات توصلوا إلى وضعه فى زنزانة خاصة مع عدد محدود
من النزلاء بينهم مرشد أو إثنان يتكلفان بمراقبته طول الوقت - وخاصة بالليل -
والإبلاغ عن تحركاته وخططه واللحظة - لا قدر الله - التى يختفى فيها .

أضاف لواء أمن الدولة :

- إحنا حنراقب كمان بيته و الأماكن اللى بيتردد عليها عشان لو خرج .
مفيش أى معلومات عن مكان معين بيتكلم عنه ؟
قال الضرويش : هو دايم بيتكلم عن مكان اسمه البرزخ . لكن مبيقولش هو
فين .

سجل اللواء هذه المعلومة فتدخل لواء المخابرات العامة :

- باين عليه مكان خارج البلاد . يبقى من اختصاصنا .

عند انصراف اللوات حصر كل منهم على الإنفراد بالمهدى المنتظر
لاستفساره فى شأن "بعض المتاعب الصحية" . ولم تغب طبيعة هذه المتاعب عن
فطنة المأمور الذى سبق أن استشار المهدى فيما يؤرق كل المأمير و اللوات .

انفرد الضرويش نفسه بالمهدى بعد انصراف الزائرين :

- اسمع يا عم حسين . إنت لازم تفهم أنا معنديش حاجة ضدك . أنا بأدى واجبى وبس .

- فاهم يا سيادة الأمور .

- أنا عاوزك تحلف ع المصحف إنك متضرنيش بحاجة . أنا عارف إنك واصل وبتا عرينا .

حلف عم حسين وأطمأن الأمور فساله فى استعطاف :

- انت ناوى ترجع فعلا لو خرجت ؟

أجاب المهدى المنتظر بتؤدة :

- كله بأمر الله .

أمره بالانصراف واجتمع على الفور يضباطه لتدبير الزنزانة الخاصة واختيار نزلائها . و عندما جاء نور المرشد الذكى الذى سيتولى المراقبة والإبلاغ تذكر الضابط خضرة أنه ورث بين ما ورث من متعلقات إيدكو وأوراقه : أشرف عبد العزيز سليمان وأن هناك غطاء جاهزا للعملية . فقد حان الوقت لترقية نزلاء زنزانة الإيراد الجديد بالطابق الأرضى وتوزيعهم على الزنازين المتخصصة بالطوابق العليا . .

رقدت فى النور أغالب النعاس . أردت أن أنقلب على جانبى الأيسر لكنى تذكرت تعليمات سيادة الضابط خضرة لى بالأ يغيب عم حسين عن بصرى طول الليل وأن أستدعى الحراس إذا اختفى فجأة . إنقلبت على الجانب الأيمن واختلست النظر إليه . وجدته غارقا فى النوم . فهو ينام مبكرا دائما ويستيقظ فى الفجر وهو الموعد الذى يأتية فيه الحبيب ، أى الرسول عليه الصلاة والسلام .

كنا خمسة فى زنزانة المخزن الصغيرة بالطابق العلوى المخصص لجرائم المخدرات و النفوس: أنا و المهدي المنتظر والنويجى توكل والحاج شوقى ورضا بوند . لم تكن هناك أماكن خالية فى الزنازين الكبيرة لهذا وضعونا سويا فى هذه الزنزانة رغم اختلاف جرائمنا . و عين لنا توكل أماكننا فخص نفسه طبعا بالركن البعيد و وضع المهدي المنتظر فى مواجهة الباب مباشرة و رضا بوند فى الركن الآخر . أما أنا فقد وضعتنى إلى جوار المهدي ، بينه وبين رضا . وجعلنى هذا أشك فى أنه على معرفة بمهمتى السرية وربما كان رقبيا علينا نحن الاثنين . لكنى سررت لأنى تحررت أخيرا من رفقة دلو البول .

خالجنى أيضا شعور بأن توكل سعد بهذا التغيير ليتحرر من وجود المتعلمين من أمثال عزت بيه و سامح و الدكتور رمزى ومسترتا مر . وفى أول ليلة لنا بالزنزانة جمع منا الرسوم التقليدية ، ثم أعددتنا مائدة مشتركة وأكلنا فى صمت . وتولى عمل الشاى بمساعدتى ثم صاح فىنا فجأة :

- جرى إيه يا اخوانا ؟ إحنا فى ميتم و الا إيه . إنتو عمركم ما دخلتم

سجن؟

لم يرد عليه أحد فاستطرد : عرفتكم اللى حصل النهاردة مع سيادة الباشا
المأمور ؟

هزنا جميعا رؤوسنا فى حيرة .

قال : بعت جاب سيادة الضابط خضرة و قاله يقوم ع الفيوم فى الحال
بواحد مسجون . و طلب منه أنه يروح بالطريق الصحراوى عشان يمر على بيته
فى المنزل - بيت المأمور - و يشوف إذا كان هناك والا لا .

تطلعنا إليه فى وجوم و أخيرا بدأ رضا بوند يضحك فاستوقفه توكل بإشارة
من يده : - لسه . مش تعرف اللى حصل بعد كده ؟ سيادة الضابط خضرة قام
على طول . على باب السجن قابل سيادة الضابط على بلبل . بلبل سأل : على فى
العزم ؟ قاله ع الفيوم . قاله متوصلنى معاك . قاله مش حينفع عشان أنا طالع
الهرم . ليه ؟ قاله المأمور عاوز كده . عاوزنى أفوت على بيته و أشوف إذا كان
هناك والا لا . بلبل خبط كف على كف : أما غبى صحيح . ما عنده التليفون يقدر
يتصل بيته و يسأل .

ضحكنا جميعا فانبسط توكل . قال : لازم الواحد يضحك . وإلا طق . محدش
واحد من الدنيا حاجة . حته قطن بس . مش كده يا شرف ؟ عارف عشان إيه ؟
لم أكن أعرف . قال : محضرتش ميت بيتغسل ؟ مشفتهومش و هم بيسدوا
كل خرم فى جتته ؟ لو كنت شاطر قوللى يعوزوا كام حته قطن .

أحصيت على أصابعى : اتنين للمراخير و اتنين للودان . و الخامسة . .

قاطعتنى : فيك ولا مؤاخدة .

انفجر ضاحكا و خبط على النمرة : ساعة الحظ مهمة . تدينى كم سنة ؟

لم أرد فوجه السؤال إلى المهدي : تدينى كام سنة يا عم حسين ؟

لم ينتظر الإجابة واستطرد : أنا ثلاثة وخمسين ولى أخ أصغر منى بثلاث سنين لو شففته تقول عجوز . ده لأنى مبشيلش هم . أقوم م النوم قبل الضهر . آخذ الإصطباح وأنزل . ألقى الناس زى ميكونوا مضروبين بالصرم ، والصناعية مقلين ومكشرين . أزق فيهم : جرى إيه يا ولاد القحايب ؟ محدش عملكو حاجة إمبراح والايه؟ وأقوم موزع عليهم الدوا . على طول يفكوا ويهيصوا .

و أضاف موجهها الكلام إلى شوقى عمر : صح والا لا يا حاج ؟ اللى زينا بيخدموا البلد شوف الناس يبقى شكلها إيه إن مكناش نخفف عليها . قال و بيحاكمونا على كده .

تذكرت أبو السباع وحديثه عن دوره القومى . وتأكدت شكوكى فى توكل عندما هجعنا للنوم و طلب منه المهدي أن يخلع المصباح الكهربائى فرفض قائلا أن التعليمات تقضى ببقائه مضاء طول الليل . ورأيت المهدي يبتسم فأدركت أنه فهم أن هذا الإجراء يتيح للحراس رؤيته من النضارة أثناء الليل و التأكد من عدم اختفائه .

وجدت نفسى أستريح للمهدي . كان يتكلم كثيرا ويفتى فى كل شئ مثل الدكتور رمزى . لكن حديثه كان شيقا على خلاف الأخير . كان مغرما بمسلسل "فالكون كريست" ولا يمل الحديث عن أبطاله وحكى لنا منه عدة حلقات سبق أن شاهدتها لكنى إستمتعت بطريقته فى الحكى . وكان يرتدى قمصانا مشجرة أو "بولو سبورت" و ينتعل فى الطابور حذاء "ريبوك" فوق جوارب من نفس الطراز نقش عليها العلم الأميركى . وكان الطعام يأتية يوميا و عندما يحضره ويدخل الزنزانة يكشف محتوياته قائلا بالفصحى التى لا يتخلى عنها أبدا : "ترى ماذا أعدت لنا أم المؤمنين اليوم" ؟ كان يقصد زوجته وأرانى صورتها وكانت جميلة جدا رغم الحجاب الذى يغطى رأسها ويحيط بوجهها .

شرح أنا نظريته وهى أن ربنا خلق مجموعة من الأرواح الشريرة والخيرة ذات دورات . وجعل الأنبياء روحا واحدة خرجت منها نورة باسم عيسى و أخرى باسم موسى وثالثة باسم محمد عليه الصلاة والسلام وهو آخر نورة فى الأنبياء . وقال أنه تحدى فى التحقيقات أنه قابر على حل ثلاثة ألغاز حيرت العالم : مثلث برمودا وقارة الأطلنطيد و أصل موشيه دايان . و عندما سألته عن حل هذه الألغاز قال أنه يحتفظ به للوقت المناسب .

سأله توكل : وانت ناوى فعلا تهرب ؟

كان أمر الخطاب الذى أرسله إلى سيادة الرئيس قد ذاع فى السجن .

قال : الحبيب هو الذى سيخرجنى و يعيدنى بعد أربع و عشرين ساعة .

– تعمل فيهم إيه ؟ عندك معاد مهم ؟ ولا يمكن مؤتمر ؟

لم يكن المهدي يعبأ بمحاولات الاستفزاز ولا كان يفضب من المزاح . كان يتجاهله وينطلق فى حديث جاد ومنطقى ويجبر سامعه على احترامه والإتصات إليه.

اطمأنت إلى أنه غارق فى النوم فاعتدلت على ظهري و التفت ناحية رضا . كان أكبر منى بعشر سنوات ، ضخم الجسم مستدير الوجه ، حليق الرأس ، ذو عينين واسعتين وشارب كث . وكان معروفا بأنه من أخطر لصووص السيارات ويخل السجن عشرات المرات ولديه أكثر من خمسين قضية .

قلت له : مش عارف أنام و عندي زيارة الصبح .

سألنى : سلك ولا خاصة ؟

قلت : خاصة .

عاد يسأل : مين جايلك ؟

قلت : أمى هى اللى بتيجى دايمًا . وانت ؟

قال : أمى برضه . معنديش غيرها .

طلبت منه أن يحكى لى كيف قبض عليه فضحك .

قال : مش حتصدق .

لم يكن السجناء يتحدثون عادة بصراحة عن جرائمهم ويحرصون على التأكيد على براعتهم . ولهذا شعرت بالزهو لأن رضا يحكى لى كل شئ ولا يخفى شيئًا . وتأكدت أنه يثق فى .

قلت و أنا أختلس نظرة إلى عم حسين و أتأكد من وجوده :

— احكىلى .

— شوف يا سيدى : مرة شفت أتوموبيل فى المهندسين عجبني . مرسيدس فيها كل الكماليات وعليها اللوحة الخضراء بتاعت السفارات . مشيت وراها لغاية معرفت انها تتبع سفارة أفريقية . بلد كده إسمها غريب . تصورنسيته ؟ المهم . قعدت أراقب السفارة وأفكر فى طريقة أخطف بيها الأتوموبيل . وفى يوم لقيت فيها شغل نقاشة وعمال بتيجى الصبح . رحت متكر فى هدوم نقاش ودخلت ضمن العمال وسهيت السواق وهربت بالأتوموبيل .

نظرت إليه فى إعجاب فضحك وقال : اللى حصل بعد كده يموت من الضحك .

كانت زوجته تنتظره على ناصية الشارع ومعها طاقم ملابس لسائق رسمى . احتلت المقعد الخلفى وأنزلت الستائر ومضى هو بالسيارة إلى شارع جانبى هادئ فأوقفها . استبدل ملابس النقاش بملابس سائق رسمية أحضرتها له . ثم إنطلق فوق كوبرى فيصل إلى الهرم وإلى طريق اسكندرية الصحراوى .

- طلعت بالأتوموبيل وهو رافع علم السفارة . فجأة لقيت ضابط مرور على موتوسيكل . كان بيتكلم فى اللاسلكى . قلبى طب ومراتى قالتلى وقعنا يا رضا . قلنلها دى داورية عادية . مسألنش فيه وعديته . بصيت لقيته جاي ورايا . مراتى قالتلى اوعى تنهور يا رضا . بصيت لقيته مسرع ومحصلنى . قلت رحنا فى داهية . حصلنى و عدانى . ولقيته عمال يفتح لنا السكة و ماشى قدامنا كانه الحرس بتاعنا . وكل شوية يبص ناحية مراتى باحترام . متنا على نفسنا م الضحك . الظاهر لما لقي أتوموبيل السفير ماشى من غير حراسة كلم الرئاسة بتاعته فكلفته بالحراسة . فضل قد امنا لغاية ما وصلنا اسكندرية وقدام الشيراتون حيانا تحية عسكرية ورجع ع القاهرة عشان يبلغ إنه قام بمأموريته .

تطلعت إليه مبهورا بجرأته :

- محدش اكتشف المقلب ؟

- جايك فى الكلام . قبل مايوصل سمع بلاغ من قيادة الطريق السريع بسرقة سيارة سفير ، واكتشف أنه كان بيحرس السيارة المسروقة . مبلغش حد رجع اسكندرية على طول . كنت سبت الشيراتون و نقلت فندق تانى ففضل ورايا لغاية ما لقانى . من غيظه تف فى وشى أول ما مسكنى .

صاح فينا الحاج شوقى عمر أن تكف عن الكلام كى يتمكن من النوم . وكان الجو قد مال إلى البرودة وتغطى الجميع بالبطاطين . سحب رضا بطانيته فوقه بحيث غطته تماما بعد أن ثنى ركبتيه إلى أعلى . وشعرت بالغيظ لأنى عاجز عن تقليده وممارسة متعتى السرية . وظللت ساھرا وحدى فى الضوء أقاوم النعاس . وتسليت باستعراض مغامرات رضا متخيلا نفسى مكانه .

كنت واثقا أن توكل مستيقظ رغم أنى كنت أسمع شخيرہ بين الحين و الآخر . وعندما بزغ الفجر نهض المهدى فتوضأ و صلى . و قام توكل أيضا يعد لنفسه كوبا من الشاي ، فانتهزت الفرصة و أخذت لنفسى تعسيلة .

ذهبت إلى الزيارة قرب الظهر وأنا كالمخدر من قلة النوم . وجدت أمي بمفردها ومعها كيس الطعام وكيس آخر به بيجامة كستور و بلوفر من الصوف . بسطت البلوفر فوق حجرى فألفيته رخيصة للغاية لا يقارن بما بدأ يظهر على بعض المساجين . لم أتصور نفسى به فى الطابور لكنى أخذته بعد أن قدرت أنى قد أحتاج إليه أثناء النوم عندما تشتد البرودة .

لاحظت أنها شاحبة الوجه ويبدو عليها الإعياء . وقالت لى و أنا أتفحص كيس الطعام أنها كانت عند المحامى بالأمس وطمأنها على نتيجة الجلسة القادمة فى شهر ديسمبر . سألتها عن عايدة و عما إذا كانت فاطمة قد وجدت عملا فهزت رأسها نفيا . كنت أرغب فى تجنب الحديث عن أبى . لكن الصمت ران علينا ولم أجد ما أقوله . سألتها عنه فأنفجرت باكيا .

قلت و أنا أكشف غطاء إناء صغير من المعدن : فى إيه ؟ حصل حاجة ؟ وقبل أن ترد تبينت أنها أحضرت لى بطاطس مطبوخة فصحت بها : بطاطس تانى . مش قلتك بلاش تجيبيلى بطاطس .

واصلت البكاء فقلت لها متذمرا : كفاية عياط بأه . انت حنقليها محزنة .
قالت : أبوك .

قلت : ماله ؟

قالت أنه دخل المستشفى مصابا بجلطة فى المخ .
بحثت عن سجائر فى الكيس فم أجد . كنت دخنت أخر سجائرى قبل الزيارة فسألتها فى نرفزة : انت مجبتيش سجائر ؟

قالت أن مصاريها كثرت بسبب علاج أبى و أنويته .
زعقت فيها غاضبا : لما انتو مش قادرين على مصاريفنا خلفتونا ليه ؟

أخذت تبكى فى سكون . وأخذت أفكر فى كل الأشياء التى حرمت منها بسببهم . على الأقل لو كنت دخلت مدرسة لغات لكنت الان أتكلمها بطلاقة وكنت التحقت بالعمل فى فندق أو شركة سياحة بسهولة .

أعلن الحارس انتهاء الزيارة فودعتها فى صمت . وتبعته مع المساجين الآخرين إلى العنبر .

صعدت السلم الكبير الذى يتوسط القناء الداخلى للعنبر . نادى على عم فوزى من شراعة زنزانتة الانفرادية فلم أرد عليه . كانت زنازين الطابق الثانى مغلقة كالعادة منذ معركة التليفزيون . وظهرت وجوه نزلائها الملتحين وراء قضبان الشراعات . حاولت أن أتبين بينهم وجه الشيخ عصام فلم أتمكن .

واصلت الصعود إلى الطابق الثالث المخصص لقضايا الأموال العامة من رشوة واختلاس واحتيال وتبديد . كان يتقدمنى أحد نزلائه حاملا صندوقين كبيرين أحدهما يحمل شعار "بترافات" والثانى شعار "لا بوار" الطوانى . استقرت عيناى على اليتيم اللتين كانتا تتراقصان بشدة بسبب بدانتة . وكان فى انتظاره عند رأس السلم اثنان من زملائه يرتدى أحدهم روب دى شامبر مكوى فوق بيجامة . كانوا يشتركون فى زنزانة واحدة تزدهم بالخيرات من معلبات تونة وأنشوجة و سردين و ماكريل و كومبوت و خلافة وبها ثلاجة "فيليبس" صغيرة ونامون فوق أسرة حديدية وضعت فوق بعضها . كان الثلاثة أيضا يشتركون فى ملكية ثلاث قرى سياحية على شاطئ البحر الأحمر وتهربوا من سداد ضرائب وتعويضات مقدارها أربعة عشر مليوناً من الجنيهات . وكان رأى الحاج شوقى أن هذا لا يكفى لسجنهم و لا بد أن أحد الكبار حاول الاستيلاء على القرى وعندما فشل جرهم إلى السجن .

بلغت الطابق الرابع وأنا أفكر فى أن زنزانتهم تمتلئ بالتأكد بصناديق المارلبورو . وداعبنى خاطر التسلل إليها لكنى استبعدت الأمر لصعوبته . مضيت

إلى زنزانتى مارا بعم حسين الكعكى جالسا إلى جوار حارس الدور . وضعت حاجياتى فوق نمرتى . ولحت توكل يتناول زجاجة المياه الخاصة به وعندما وجدها فارغة اتجه ناحية الباب . أسرع نحو قائلها :

- عنك يا نبطشى .

جمد فى وقفته وتطلع إلى متمجنا . و شعرت به يفكر بسرعة فى مدلولات تصرفى وما سيترتب عليه . وانتظرت قراره و قلبى يخفق فى صدرى .

ترك لى الزجاجة وقال و هو يخطو إلى الخارج : ماشى .

طرت بالزجاجة إلى نورة المياه فملأتها وعدت . لم يكن بالزنزانة غير الحاج شوقى . ولاحظت أنه يبكى . كنت أشفق عليه لأنه مهدد بخطر الإعدام مثلى . كان تاجرا ناجحا فى الموسيقى إلى أن سقط فى الإدمان و أهمل عمله فتكاثرت عليه الديون واتجه إلى الاتجار فى الهيرويين لتغطية نفقاته . وأعدت له الشرطة كمينا فتقدم له ضابط متتكر اتفق على شراء كمية كبيرة من تذاكر الهيرويين و فى الموعد المحدد للتسليم بكويرى القبة حوصر وضبطت معه الكمية مع الخاتم المعدنى الذى يستخدمه فى ختم التذاكر و ٥ آلاف جنيه حصيلة البيع .

وضعت الزجاجة بجوار نمرة توكل واستدرت لأنصرف وهنا تبينت أن الحاج شوقى فى حالة غير طبيعية . كان مخاطه يسيل من أنفه فوق فمه ويعرق بشدة ثم بدأ يتشنج ورأيته يتبول على نفسه و الظاهر أيضا أنه تبرز ؛ إذ شممت راحة عفته . لم أدر ماذا أفعل فأسرعت أبحث عن توكل ووجدته جالسا مع حارس الدور وعم حسين الكعكى فناديته و أبلغته بحالة الحاج شوقى .

اتجه توكل بخطوات سريعة إلى الزنزانة . كان شوقى ما زال بمفرده ، وقد ألقى فوق نمрте محتضنا نفسه بساعديه . انحنى توكل فوقه وقال له شيئا . هن

الحاج رأسه نفيا فاعتدل واقفا وقال : لما ممعش يبقى خد أنجكة . أرخص .
قلت إيه ؟

مد شوقي يده إلى كيسه فاستخرج منه ثلاثة صناديق من سجاييركليوباترا
أعطاهما لتوكل الذى انتزع من أحدها ثلاثة علب وضعها فى جيبه ثم نادانى
وناولنى الصناديق الثلاثة قائلا:

- خد السجايير دى للحاج رأفت فى زنزانة ستاشر . وهات الحاجة اللى
يديهاك . طيارة . بس إوعى الشاويش يشوفك .

لم أكد أتحرك حتى نادى على و أشار إلى أن أقترب منه ثم همس : قوله
يديك العدة كمان .

مضيت إلى الزنزانة ١٦ فى الربع المخصص للمخدرات بالناحية الأخرى من
الطابق . كانت واسعة تضم خمسة وعشرين نزلا توحى محتوياتها بالثراء وتزين
جدرانها صور المجلات .

كان الحاج رأفت معروفا للجميع فقد دخل السجن ثلاث مرات لتنفيذ أحكام
آخرها الحبس خمس سنوات . وكان ينفق ببذخ وتأتية فى الزيارة تورقات ضخمة
وكميات كبيرة من الخضروات والفاكهة ويرتدى ملابس بلدية فاخرة . وكانت
زوجته مسجونة أيضا و للمرة الثانية وعندما خرجت أول مرة أشاع أولادها نبأ
موتها وأقاموا لها سرادقا كبيرا فى بولاق أبو العلا بينما اختفت فى شقة فاخرة
فى مدينة نصر زاولت منها نشاطها إلى أن قبض عليها .

وجدته متربعا فوق نمرة وفى يده مسبحة . . كان ضئيل الحجم يعانى من
شئ فى عينيه كالحول لم أدرك كنهه وإن كان يحد من قدرته على الرؤية . وكنت قد
سمعت أن زوجته أيضا شبه عمياء .

أخذ منى السجائر ووضعها بجواره على الأرض ثم نادى أحد النزلاء الشبان وأسر إليه بشئ فغادر الزنزانة . ولحظت أنه إتجه ناحية المراحيض . طلبت منه سيجارة فأعطاني واحدة "روثمان " .

عاد المسجون الشاب بعد لحظات فأعطاه لفافة صغيرة ناوئها قائلا : خبيها كويس .

بلغت أنفى رائحة غريبة منفرة و أنا أدس اللفافة فى صدرى . أطفأت السيجارة عند منتصفها و أسرعرت إلى زنزانتى . ألفت العرق يقطر من خدى الحاج شوقى ويتجمع حول إبطيه .

فك توكل اللفافة و استخرج منها لفافة أخرى ملوثة ببقع بنية فميزت رائحة البراز . إنحنى فوق دلو البول وأشار لى أن أصب له كوزا من المياه . وبعد أن شطف اللفافة الملوثة صببت له المزيد من المياه فصببها وغسلها جيدا . ثم شطفناها للمرة الأخيرة و غسل يديه كما غسل علبة صابونة صغيرة فارغة .

طلب منى أن أوارب باب الزنزانة وأقف خارجه فى الممر لأحذره إذا اقترب الحارس أو دخل الضابط العنبر . خرجت وواريت الباب ثم إختلست النظر من فرجته . رأيته يفك اللفافة المغسولة ويستخرج منها قطعة قطن و محقن بلاستيكى وبالونة حمراء معقودة الطرف . وبسط ورقة جريدة فوق نمرته وضع فوقها محتويات اللفافة . ثم ملأ كوبا من مياه الدلو وناول الحاج شوقى ليمونة من كيسه مزقها بأسنانه .

كنت أعرف أن الليمون يعصر على البودرة الرخيصة المخلوطة بشوائب ولا تصلح للشم لتطهيرها من التلوث قبل استخدامها فى " الأنجكة " أى الحقن .

راقبت يديه تتحركان بحذق وسرعة . امتص بعض المياه فى إبرة المحقن ورفعها فى الضوء ليتأكد من صفائها . ثم فض بالونة وسكب ما بها من مسحوق

فى علبه الصلصه و عصر عليه الليمونه ثم سحب الخليط إلى المحقن من خلال
قطعه القطن .

قال شيئاً للحاج شوقى ففك هذا حزام بنطلونه وشمر عن ذراعه ثم ثناه
بعثف عدة مرات كأنما يطويه ولف الحزام بمهارة حول الجزء العلوى من ذراعه ،
واحتوى طرفه فى يده اليمنى . تحسس توكل ذراعه بأصابعه إلى أن عثر على
وريد كبير بارز قرب المرفق ، فأمسكه بين الأصبع الوسطى والإبهام ، وجعل يضخ
بيده حتى نفرت العروق على ظهرها . وضع طرف الإبرة وضغطها . اندفعت
الدماء إلى القطارة فضغط الحقنة ودفع المحلول ببطء شديد . بعد عشر ثوان تنهد
الحاج شوقى فى نشوة . واسترخى جسده ولانت ملامحه وتباطأ تنفسه . سحب
توكل الإبرة حتى أوشكت القطارة أن تمتلئ بالدماء ثم جذب السن ومسحه فى
ورقة كلينكس ومسح أيضا ذراع الحاج النازف وجمع العدة بسرعة وأعادها إلى
كيسها و دسه فى صدره فولجت الزنانة . وفجأة انحنى الحاج شوقى إلى الأمام
واضعا يده على بطنه ثم تقيأ فوق نمرته .

لم يبد توكل انزعاجا وقال له :

- ميهمكش . دايم كده فى الأول . عشان كده إسمه السم .

أشعل سيجارة وعندما نظرت إليه قدمها لى لاخذ منها نفسين . راقبنى وأنا
أستنشق الدخان بشراهة . وأمرنى بأعداد الشاى للحاج شوقى ففعلت . ولاحظت
أن علامات الانبساط بدأت تظهر عليه بالتدريج وأشعل سيجارة جذب أنفاسها
فى عمق .

سألنى توكل : انت مجتلكش سجائر فى الزيارة ؟

أجبت : لا . وكنت عايز أستلف منك .

قال : ممعيش .

ثم أضاف : متقلّش . حتفرج .

ناولنى عقب سيجارته فجذبت نفسا عميقا ساختا جعلنى أسعل بشدة . وولج
عم حسين الزنزانة فقال عندما رأنا :

– سمعتو الخبر ؟ الدكتور رمزى رجع العنبر . خطوه فى زنزانة أموال عامة
بالدور التالت .

كنت قد تابعت أخباره منذ نقله إلى زنزانة انفرادية فى العنبر الآخر ، ثم
إضرابه عن الطعام . وكانت حالته قد ساءت بعد مرور عشرة أيام . لكنه ركب
رأسه وواصل الإضراب طالبا أن تاتى النيابة لسماع أقواله . وركب المأمور رأسه
هو الآخر ورفض إبلاغ النيابة وفشلت محاولات إقناعه بوقف الإضراب . وبعدها
باسبوع رآه الطبيب وأعلن عدم مسئوليته عن حياته وراجت اشاعة بأنه مات . ثم
عرفنا أن المأمور نقله قسرا إلى المستشفى بسبب تدهور حالته لكنه امتنع عن
تناول العلاج مشروطا مجئ النيابة ؛ فاضطر المأمور للخضوع وأخطر النيابة التى
جاءت وأخذت أقواله فأوقف الإضراب وخضع للعلاج .

هبطت إلى الطابور فوجدته جالسا فى الشمس ، مستندا يظهره إلى حائط
العنبر وممددا ساقيه أمامه وقد بدا عليه الهزال الشديد ، وأحاط به سامح و أبو
السباع و مستر تامر الذى غطى عينيه بنظارة " لويسول " وارتدى سويت شيرت
أسفل " باركا " زرقاء من النايلون ، ذات وسط مطاطى .

تطلعت إلى الدكتور بإعجاب وسألته عن الإضراب وهل كان شاقا . هز
كتفيه قائلا : – أصعب وقت هو التلات أيام الأولانية بعدها تكون المعدة تعودت
والواحد نفسه تنسد .

انضم إلينا رضا وقرهص إلى جوارنا . كان يرتدى سترة " أولد انجلند " من
الجبردين مخططة طوليا فوق بولو من القطن " ثوماس بيربريز " ، وكرافته من نفس

الماركة بألوان العلم الألماني ، ويتنعل موكاسان جلد ينعل كاوتشوك فوق جوارب قطنية "بول سميث" . ولاحظت أن ينطلونه ضيق يضغط على محاشمه ويوضح تفاصيلها .

سأله عن هدفه من الإضراب فقال ببطء :

- تطبيق اللايحة و الدستور بالنسبة لمعاملة المسجونين .

علق رضا ساخرا : واطبقوا ؟

أجاب الدكتور في تردد : النياية سجلت كلامي . لما نشوف .

نهض رضا واقفا و هو يقول : شالله يانيابة .

أخرج علبة سجائر مارلبورو تناول منها سيجارة . نهضت واقفا وأنا أنظر إلى العلبة . علقت على أناقته فقال بزهو : دى عدة الشغل .

أعطاني سيجارة فوضعتها في عبي لكي أدخنها بالليل . قال ونحن ندور حول الفناء :

- لازم ألبس كويس عشان محدش يشك في . مرة فتحت باب أتوموبيل وفجأة لقيت صاحبه جنبى . تماكنت أعصابى وقلته ان العربية بتاعته سدة السكة قدام عربيتى و انى معرفتش أزقها لقدام فجريت المفتاح بتاعى وفتح . الراجل مشكش في حاجة و اتأسف لى . الهوم الى أنا لابسها ساعدتنى . وفضلت واقف لغاية ما مشى .

سأله : إنت ناوى على حاجة النهاردة ؟

ضحك : ياريت . مفيش غير المحامى .

نفخ الحارس في صفارته معلنا إنتهاء الطابور . ونادانى توكل بمجرد صعودى وأخذنى إلى بورة المياه فإنتحينا فجوة صغيرة في مدخلها بعيدا عن الأنظار .

قال بصوت خافت : اسمع . الوقت لازم نشيل العدة و التموين لعمك شوقى
قبل التمام . يمكن يحصل تفتيش . فايه رأيك ؟

لم أفهم ما يقصده . قلت : اللى تشوفه .

قال : أنا حظيت كل حاجة فى لفة صغيرة . همتك بقى يا بطل .

أرانى لفة واحدة إحتوت على عدة خوابير مدكوكة فى بعضها البعض وملفوفة
ببلاستيك الأكياس الناعم .

تطلعت إليه متسائلا فصاح فى : إيه ياواد حتستعبطلى ؟ يالله خش البسهم .

بدت لى اللفافة كبيرة الحجم وبدون تفكير قلت : وليه ما يلبسهمش هو ؟

قال : ما انت شايف إزاي بيريل على روحه . أنا او مكنش عندى بواسير كنت
لبستهم على طول ولا الحوجة للنيم .

قلت محتجا : لكن نول كثير .

ضحك : يابنى لا كثير ولا حاجة . مش فاكرك لما إيدك ومسك الواد بريمة
وغسله معدته ؟ فاكرك طلع منها إيه ؟

تذكرت أنهم أخرجوا من بطنه عشرين علبة سجاير و كتلة حشيش و أفيون
وعدة أمواس حلاقة و حوالى ألف جنيه .

قال : مفيش مشاكل . انت بس تزقها زقة صغيرة . ولما نعوز حاجة تحرق
فتتزفلط على طول من غير ما تحس . بس خلى الخابور الأحمر ده فى الآخر
عشان لما نعوز نعمر دماغنا يبقى فى ايدنا .

قلت: طب افرض جابوا الأجهزة اللى بتكشف كل حاجة فى الجسم ؟

ضحك : هو إنت معرفتش ؟ مش عطلت كلها و معرفوش يصلحوها . رموها
فى المخازن .

قلت : ولما أدخل الدورة الصبح ؟

كشر قائلا : الله بأه . يا بني متخافش . حاخذها منك ساعتها . بالنهار أقدر أتصرف إنما المشكلة بالليل . عشان المهدي الله يجحمه .

كنا فعلا نتعرض بسببه لتفتيش شبه يومى فى أوقات مختلفة وخاصة بعد التمام . أخذت اللقافة و دسستها فى صدرى فأضاف محذرا :

- بس اسمع . كلمة واحدة منك و تروح فى الباي باي . فاكرا اللى حصل

لسكسكة ؟

كان سكسكة نشالا مشهورا فى عنبر الميرى و أبلغ الإدارة عن شحنة مخدرات دخلت السجن و بعد أسبوع وجدوه فى المرحاض مغمى عليه و عينه مفقوئة .

قلت : أيوه فاكرا . متخفش .

وقف هو فى مدخل الدورة بينما دخلت المرحاض الأخير و أسدلت ستارته . قرفصت وفككت اللقافة وأخرجت الخوابير فلبستها واحدا بعد الآخر وحرصت على أن يكون الأحمر فى الآخر .

وجدته فى انتظارى عندما خرجت فأشعل سيجارة كاملة وقدمها لى لندخنها سويا . و عدنا إلى الزنزانة فوجدنا الحاج شوقى مصهلا . وجدت صعوبة فى الجلوس إلى أن تعودت على وجود الخوابير فى إمعائى .

تخلى الحاج شوقى بعد العشاء عن الحذر الذى لازمه معنا ، ومضى يحكى مغامراته . روى لنا كيف كان عليه مرة أن يذهب إلى الإسكندرية بسيارته ال ١٢٧ ليسلم " بضاعة " . فخبأها فى خزان البنزين ولم ينتبه إلى تأثير ذلك على سعة الصغيرة من الأساس ، وإلى أنه لم يعد يتسع لأكثر من عشرة لترات ، وتوقفت

السيارة فى الطريق ، يابويك بعد ما عبر البوابة ، بعيدا عن أى محطة بنزين . لم يعد أمامه غير أن يعتمد على السيارات المارة . فأشار لواحدة رفضت التوقف ، واعتذر سائق الثانية بقله ما معه . وكانت السيارة التالية للشرطة وهى التى أعطته . جاء الدور على رضا فقال :

– مرة فتحت أتوموبيل فلقيت ع الكرسي شنطة فيها ٦٥ ألف جنيه . أخذت الشنطة وسبت الأتوموبيل وبعد أسبوع رجعت سرقة ..

اعتذلت فى جلستى بحثا عن وضع أكثر راحة وسألته إذا كان حزينا لأنه دخل السجن . هز كتفيه وقال : أزعل ليه ؟ كلها كام شهر وأخرج وأرجع لنشاطى .

– إزاي ؟

– حأخرج بكفالة وبعد كده يبقوا يلاقونى .

كنت مفتونا بحكاياته لا أمل سماع المزيد و أتخيل لى نورا فيها . وخطرلى فجأة أن أسأله عما دفعه لاختيار هذا الطريق .

أطرق برأسه ثم ابتسم :

– كنت بازهق من المدرسة وأهرب مع الشلة نطلع نتفصح . وكنا مصاحبين ٣ بنات و عاوزين نعمل مغامرات على طريقة الأفلام . عملنا رحلات فى النيل . كنا نسرق القوارب ونتفصح بيها طول النهار وفى آخر اليوم نسيبها على الشط الثانى . وبعدين نقلنا على الأتوموبيلات نسرقها وبعد مانتفصح نسيبها فى أى حته بعيدة . تعلمنا السهر والسجايرو مصاريفنا زادت فبقينا ناخذ حاجات من الأتوموبيل قبل ما نسيبه و نبيعها . وبعد شوية مبقيناش نسيبه خالص . يقينا نبيعه للتجار اللى يفكوه ويبيعوه قطع غيار .

سألته عن أهله و هل كانوا يسببون له مشاكل فتردد لحظة ثم قال :

- لا . عادى .

تخيلت نفسى عضوا فى شلته و أشاركه فى مغامراته . ثم سألته عن المرة الأولى التى قبض عليه فيها . فقال أنهم سرقوا سيارة وذهبوا للسهر فى عوامة على النيل فتشاجروا مع آخرين . و قطع أحدهم حبل العوامة فجرفها التيار إلى عرض النهر وبدأت تصطدم بالقوارب الصغيرة وتملك الذعر الجميع إلى أن أنقذتهم شرطة الإنقاذ النهري و سحبت العوامة إلى المرسى و ألقت القبض على كل من عليها . وهنا اكتشفت الشرطة أمر السيارة المسروقة فأحالت رضا وأصدقائه إلى النيابة التى راعت ظروف المراهقة والدراسة فاكتفت بتوجيه تهمة استهلاك وقود لهم بدلا من تهمة السرقة وأحالتهن إلى المحكمة التى قضت عليهن بالحبس ٢٠ يوما .

- الشهر ده كان بدايتى الحقيقية . كان زى المدرسة . اتعلمت فيه حاجات كتير من المعلمين الكبار . ولما خرجت أخذت علاقة محترمة من أبويا ومنعنى شوية من الخروج . رحت مصنع طفاشة تنفع لكل أبواب الأتومبيلات . و بدأت أشتغل لوحدى ونجحت بفضل الطفاشة . وبعد شوية سكنت لوحدى و اتجوزت صاحبتى.

تصورت المفتاح السحري فى حوزتى و أنواع السيارات التى سأطير بها . ثم انتبهت إلى أنه بيكى .

يهت الجميع و وساد الوجوم . ولم يلبث أن تمتم :

- رينا انتقم منى ، أنا عمرى ما حببت واحدة زيها . الواحد له مرة واحدة بس يا يلقاها يا ميلقهاش . متعوضش أبدا . كائنات تعمل معايا كل حاجة . كنا نسرق سوا ونهرب سوا ونتفصح سوا ...

سرد علينا ما حدث : كانت بمفردها فى الشقة تعد الطعام عندما أمسكت النيران
بملايسها النايلون . صرخت واستنجدت بالجيران إلا أن النيران تفكنت منها .
ونقلها الجيران إلى المستشفى بين الحياة والموت . لكنها لم تكف عن النداء باسم
رضا حتى جاء وظل يبكى بلا دموع حتى لا تشعر به إلى أن لفظت أنفاسها فى
حضنه .

ران الصمت علينا و اكتأبنا . و أخرجنا توكل من حالتنا بأن صاح :

— الله ...أمال بقى .. لوكان الواحد بدل ما اتجوز اشترى بالفلوس بهائم
مش كان أحسن ؟ أنا متجوز من ثلاثة وعشرين سنة وحببت خمسة . إجوزت على
مراى وبعدين طلقت الجديدة و أجوزت واحدة عرفى .

جاراه الحاج شوقى متسائلا :

— و أنى واحدة فيهم بتبسطك ؟

— اللى أنا متجوزها عرفى .

أشعل سيجارة و بدأ يتحدث جادا :

— لازم تحسس مراتك إن فيه واحدة تانية و ياريت تعرفها و تكون أقل منها
فى حاجة عشان تتجنن . أيوه كده .

أدار بصره فينا ثم أضاف بزهو :

— نيمتهم جانبى واحدة على يمينى و الثانية على شمالى .أنا الجاهل . حد
فيكم يا متعلمين عملها ؟

قال عم حسين و هو يتناول مسبحته :

— معاذ الله يا أخ توكل .

تجاهله توكل و نظرا إلى وقال : وانت يا شرف ؟ تلاقيك لسه مدخلتش دنيا ؟
مش عاوز تدخلها ؟ تعال جنبى هنا و أنا أعلمك .

لم أدر بماذا أريد . خفت أن أنتقل إلى جواره و من ناحية أخرى إذا لم أريد
سأعرض لسخريته . و أخيرا أجبت و أنا أهن كتنفى : مش عايز .

نظر إلى بوقاحة و قلدى بصوت أنثوى : مش عايز . مش عايزة ليه يا بطة ؟
ارتفع صوت الدكتور رمزى فجأة من الطابق الثالث : " يا غلابة يا مساكين.
فكروا بعقولكم . إنهم يسرقونكم طول الوقت و يضحكون على ذقونكم . وأنتم
تتجاهلون حقوقكم . الأمور ليست سداها مداها فى البلدان المتقدمة كما يحاولون
إيهامكم . الدولة فى البلدان المتقدمة تحمى مواطنيها عندما يشترون احتياجاتهم
من السلع وعندما يتحدد سعرها و عندما يعلن عنها وعندما توزع فى السوق .
البائع مثلا يجب أن تتأكد نظافته و خلوه من الدرن و الالتهاب الوبائى بشهادة
صحية غير مزورة . و يجب أن يمر مراقب أغذية يأخذ عينات من السلع
الغذائية ليتم تحليلها فى معامل مختصة . و من واجب الدولة أن تراعى اعتبارات
الأمان فى السلع التى تشترونها و أن تحميكم عندما تتحدد شروط البيع و عندما
تتحدد المواصفات و البيانات اللازمة عن السلعة كمحتوياتها و تاريخ إنتاجها
وصلاحيتها ووزنها وتركيبها وسعرها .. " .

هلل المساجين و أعلن أحدهم نبأ عودة الدكتور رمزى من المستشفى .
والظاهر أن هذا الاستقبال شجعه فمضى يقول : " ضحكوا عليكم و سرقوكم
عندما أعلنت الشركات و الجمعيات عن فتح باب الحجز لسلعها بدفع الثمن مقدما
كاملا أو جزئيا لتمول أعمالها بأموال المستهلك نون أن يحصل على عائد
استثمار أمواله و ينتظر سنوات فإذا اشتكى قالوا له خذ نقودك . طبعاً نون عائد
استثمارها . و عندما يستلم السلعة يجدها من موديل غير الذى اتفق عليه و أحيانا
بسعر غير الذى تعاقد عليه و إذا اشتكى يجد أن شروط الحجز تعطى الشركة
الحق فى تعديل التصميم و السعر و التأخير فى التسليم . ضحكوا عليكم

وسرقوكم عندما فرضوا عليكم تقسيطا في أسعار السلع يضاعف ثمنها تقريبا .
وعندما تقاضوا منكم مبالغ كبيرة بصرف النظر عن مستوى السلعة أو الخدمة
ونوع المعاملة التي تتلقونها : التليفون الذي يتكرر عطله ، الكهرياء التي يتقلب
تيارها و يتلف ما لديكم من أجهزة . ثم جاء أصحاب شركات توظيف الأموال
وأبلغوكم أنهم ضد الربا وأنكم طبقا للشرعية تستحقون ربحا مقداره ٢٥ بالمائة
وأكثر فأخذتم الربا وعشتم في نشوة عاما أو اثنين لغاية ما راحت عليكم أموالكم
ومع ذلك لا تتعظون . . تستسلمون بكل بلاهة لكل ما ينشر في الصحف أو يعلن
في التليفزيون ..

علق توكل وهو يشعل نصف سيجارة :

- الراجل ضرب . الصيام خلاه يهلوس . هو عايز يغير الكون والا إيه ؟ هو
ماله ومال الحكومة والتجار . عامل راسه براسهم ؟ عامل فيها فلة ؟ طب
ولما يرقوه حكم محترم ؟ حتفعه الفلسفة دي ؟ كده والا لا يا شرف ؟

ناولنى النصف فأجبت على الفور : تمام يا معلمى .

كانت أول مرة أخاطبه بهذا اللقب و أعجبه ذلك فانطلق في الكلام :

. - بص . أنا مبدئى هو أمشى مع الريح وصيل معاها لما تميل وانت
تستريح . طب قولى يا حاج .. صاحبك والا أخوك ؟ أخويا هو اللى ينفعنى . أنا
سيبت أختى بتعمل عملية و واحد صاحبى فى الإنعاش و رحت أعزى فى
واحدليه عنده مصلحة . أه . هو كده . صبح والا لا يا عم حسين؟ ..

قال عم حسين وهو يبسط بطانيته استعدادا للنوم :

- غدا إنشاء الله أحدثك عن رأى فى كل ما ذكرت .

لم يكشف اختفاء المهدي إلا عند إجراء التمام المسائي . وكان شرف من الذي نبه "اسحب الفجل" إلى غيابه فنودي عليه في المرحاض وفي الزنازين الأخرى بالطابق الرابع وبقيّة الطوابق وجرى البحث عنه في الفناء والمكاتب والفرن والمغسلة والورش دون جدوى .

وكما يحدث في أمثال هذه الحالات ، قرر اسحب الفجل أن المهدي إشتراك في طابور بعد الظهر . وشهد حارس الطابق الثالث أنه رأى يصعد السلم بعد انتهاء الطابور . وأكد عدد من النزلاء بينهم توكل أنهم لمحوه في الزنزة قبل إجراء التمام بدقائق .

ظلت الزنزاة بغير تمام ولم يسجل الضرويش التمام العمومي في الدفاتر وبالتالي ظل السجن مفتوحا . وطاف بأرجائه يوزع الشتائم والأوامر واضعاً على عينيه نظارة "فوارنيه" أخفتها تماماً بفضل زائدتيها الجانبيتين ، مؤجلاً إلى آخر لحظة ممكنة إبلاغ مثلث الرؤساء (في المصلحة والمباحث والمخابرات) . واستولت على السجناء حالة من الترقب الحذر كما تصف وكالات الأنبياء لحظات الأزمات : فلونجح الإختفاء تعرض الجميع للتكدير، وطبقت عليهم اللائحة بحذافيرها فيتم التشديد على دخول ممنوعاه (منعها لا السماح بها) كي ترتفع أسعارها . ولهذا السبب تمنى الجميع سرعة ظهوره . دافع آخر لهذه الرغبة الإجتماعية هو الغيرة . فهل هناك سجين لا يحلم بالعثور على طاقية الإخفاء ؟ بل إن البعض ، مثل توكل ، يعتبر ذلك من الفرائض .

شرح وجهة نظره من الناحية القانونية :

- لو القضية جناية الحكم يسقط بالتقادم بعد عشر سنين ، ويسقط لنفس السبب بعد ثلاث سنين بس إذا كانت جنحة .

كان لديه مثال جاهز هو ما حدث مع الملحن "بليغ حمدي" الذي غادر البلاد قبل ساعات من صدور الحكم عليه بثلاث سنوات في قضية مقتل المغربية سميرة مليان ، وبعد انقضاء السنوات الثلاث عاد ولا يهم أنه مات بعد قليل .

من يضمن مثل بليغ حمدي أن تتحول الجريمة من جناية إلى جنحة ؟ تبقى المفاضلة بين عشر سنوات في السجن وعشر مثلاً من الاختفاء والخوف والحرية . رضا الأكثر خبرة بدخول السجن والخروج منه قدم حالة أخرى بالمثال التالي : إذا كان الحكم ستة شهور ولا ترغب في أن تصبح لك سابقة رسمية تطعن في الحكم . في هذه الحالة تنتظر في السجن نتيجة النقص التي قد تأتي بعد أربع سنوات . فمن يعوضك عن هذه الفترة لو صدر الحكم النهائي ببراعتك ؟ استخلص شرف النتيجة : الأفضل أن يختفي الواحد ويعتمد على حظه ، رغم أن الفشل ينتظره في غالب الأمر .

آخر المحاولات الفاشلة تمت في نفس الشهر من العام الماضي . فقد نجح مسجونان في تهريب منشار من الصلب في رغيف فيتو وعكفا على قضبان الزنزانة حتى تمكنا من نشرها وتسلا منها إلى السقف وبطريقة ما وصلا إلى السور وإلى الحرية التي لم يتمكننا من الاستمتاع بها أكثر من بضع ساعات إذ قبض عليهما في المنزل الذي إختفيا به والذي تركا عنوانه في ورقة بالزنزانة .

وليس معنى هذا أن الحظ لا يضرب ضرباته أحياناً ، فمئذ بضع سنوات حصل أحدهم - وكانت له علاقة بمافيا مخدرات إيطالية - على ملابس

ضابط وغادر السجن بطريقة عادية فى يوم الأولومبياد و كانت تنتظره بطاقة طائرة أقلته خارج البلاد قبل أن يكتشف مأمور السجن إختفائه .

لم يكن عم حسين عضوا فى أى مافيا ولا تمكن من تهريب ملابس عسكرية فضلا عن منشار و لهذا السبب عثروا عليه بعد خمس ساعات . كان قد نجح فى التسلل أثناء الطابور إلى خزان مياه فوق سطح المغسلة وإنزوى به منتظرا موعد تغيير الحراس فى منتصف الليل ليستغله فى التسلل إلى السور . لكن الخزان بدأ يمتلئ بالمياه قبل منتصف الليل بساعتين ووجد نفسه مهددا بالغرق فاضطر لمغادرته وهنا كشفت الأنوار الكاشفة للحراس الذين كانوا ينقبون القنأ بحثا عنه . و تولى اسحب الفجل سحبه إلى عنبر التأديب .

ترتب على ظهور المهدي إخلاء إحدى زنازين التأديب من أصحاب اللي وعودتهم إلى زنازينهم الأصلية بالطابق الثانى من عنبر الملكية ، وكان مذيع النشرة الإسلامية بين العائدين فاستأنف العمل على الفور. والظاهر أنه كان متأثرا بطول الفترة التى عزل فيها عن العالمين الداخلى والخارجى ، فبعد أن استعرض الثوابت بسرعة (الخمر و الزنا و الميسر و الربا) إنتقل للتعليق بصوت يرتعش من الغضب على إغتصاب المسلمات فى البوسنة بواسطة وحوش الصرب ، ثم إنطلق يندد بعميد كلية الشريعة المصرية الذى أفتى بجواز إعادة غشاء البكارة للفتاة بواسطة الجراحة كي لا يفتضح أمرها أو يلحق العار بأسرتها طالما أنها ثابت ورجعت إلى الله . و أعلن فى سخط أن ذلك غش وخداع لا يقره الإسلام وإغراء لفتيات غيرها على الزنا . ثم ختم نشرته هاتفا :

- هذه العملية حرام حرام حرام .

انتقلت عدوى السخط فيما يبدو إلى الدكتور رمزى كما إتضح من أول

نداء له بعد ظهور المهدي :

- يا غلابة يا مساكين . هل تظنون أنفسكم أحياء ؟ أنتم موتى .
الواحد فيكم مرسوم ككائن حي لكنه ليس حيا على الإطلاق . تأملوا أحوالكم
وأحوال زوجاتكم . الواحدة تطبخ وتعطي جسدها بدون إنفعال وتحمل وتلد
وتواصل حياة هي والموت سواء . أنتم لستم سوى فئران تجارب . قبلتم معاملة
الحيوانات . تشربون مياه الترع الملوثة بالحيوانات النافقة والمبيدات والقانورات
والخراء وتتنفسون الأتربة والأبخرة السامة وعوادم السيارات ويدقون رؤوسكم
بالميكروفونات والستريوهات فيصيبكم الطرش وتنخفض نسبة المغنسيوم في
أجسامكم فتتلاشى قدرتها على تجديد البناء وتضطرب أعصابكم وتنهار
خلايا أمخاخكم ويصيبكم الإكتئاب، ويرتفع ضغط دمكم ، إذا تبقى عندكم دم .
تعرف السجناء على أعراض العلل التي يشكون منها فهللو للدكتور
الذي واصل هجومه :

- هل تعرفون أن في مصر خمسة آلاف مصنع غير مرخص تنتج سلعا غير
مطابقة للمواصفات مثل اللانشون و البسطرمة و السجق و الجبن الأبيض وملح
الطعام ومستحضرات التجميل وزيوت السيارات و إطاراتها و تيل الفرائل
وأسطوانة الديرياج والأسلاك الكهربائية والأجهزة الكهربائية المجهزة من أجهزة
قديمة . أى أنكم إذا لم تموتوا بسرطان المعدة والأمعاء فبحادث سيارة أو
صعقة كهرباء .

على خلاف ما حدث في عنبر الميرى ، حيث كان الإستتكار لنداءاته شاملا
(من باب الجهل على الأقل) ، انقسم عنبر الملكى بشأته إلى مؤيدين
ومعارضين وبين بين . وتم الانقسام على أساس طابقي ، لا طبقي ، فبينما
صفق له سكان الطابق الأول من نشالين ولصوص صفار (ولو من باب
التهريج) وإيراد جديد (لم تقضح الرؤية له بعد) ، هاجمه سكان الطابقين
الثاني المخصص لأصحاب اللحى (على أساس الخلاف الأيديولوجى المزمع بين

محمد و عيسى) والثالث المخصص لقضايا الأموال العامة من رؤساء شركات وموظفين كبار ومحتالين وقوادين ومزيفين وأصحاب قري سياحية (على أساس موقعهم فوق قمة النظام الإجتماعى و بالتالى مسئوليتهم فى الدفاع عن كل تجلياته) . لنفس السبب تعاطف معه سكان الطابق الرابع من قنلة و تجار مخدرات ينتظرون أحكاما تتراوح بين المؤبد والإعدام (كماسبق أن تعاطفوا مع تطبيق الشريعة) . ولم يعباُ به نفر قليل من سكان هذا الطابق هم (الحر) . كانوا ثلاثة جواسيس لإسرائيل يرتدون ملابس الإعدام الحمراء ، يحتلون ريعا كاملا من الطابق وينفرد كل منهم بزنزانة خاصة ، ولا يتاح لهم الإختلاط ببقية السجناء . وهو وضع يعتبر إمتدادا لمناخ عهد سابق كانوا يتعرضون فيه للأذى على يد المساجين العاديين قبل أن تعطيتهم "كامب ديفيد" الشرعية . وبالرغم من تغير الأوضاع وثقتهم فى حتمية الإفراج عنهم لم يكونوا ينعمون بالنوم غير ليلة واحدة فقط فى الأسبوع هى ليلة الخميس لأن الجمعة هو اليوم الوحيد الذى لا تنفذ فيه أحكام الإعدام . أولهم وليم الهش الذى لم ينكر أبدا جريمته وأعلن أمام المحكمة : "إسرائيل مش محتاجة جواسيس ، هى عارفة كل حاجة عن مصر" . وكان شابا ، من جيل أكتوير ، عمل فى مصنع ملابس بالأسكندرية يصدر إنتاجه المتميز إلى إسرائيل دون علامات مصرية وهناك توضع عليه علامات إسرائيلية ويصدر إلى أوديا . عن هذا الطريق سافر إلى إسرائيل والتقطته فتاة بادلته الحب بالمعلومات فأسمن الاثنين والتحق بالموساد .

ثانيهم ، " مصطفى صوريا بيه " ، كان حارسا (ماركة غفير لا أمن) لشركة مقاولات فى سيناء ، يتصيد الجنود الذين يعرون به ويتوقفون لشرب الشاي أو الماء ويعرف منهم أسماء وحداتهم وأرقامها فى البريد الحربى وأسماء الضباط ، فيحفظها فى ذاكرته لأنه أُمى لا يعرف الكتابة أو القراءة ثم

يسلم هذه المعلومات إلى مندوب إسرائيلى . وفى يوم عثرفى كوم من الزبالة بجوار مبنى للدفاع الجوى فى الإسماعيلية على ورق غريب مثقوب من الجانبين فسلمه للمندوب الذى سعد به قائلا أنه ورق كومبيوتر مهم وكافأه بكاميرا ومهمة تصوير مداخل ومخارج شبكة الكهرباء فى المبنى . وتتابع بعد ذلك مهام التصوير التى أنجزها بكفاءة . أما السبب فى لقب الشهرة الذى عرف به فى السجن فيعود إلى ما جرى أثناء التحقيق معه بواسطة المخابرات المصرية وهى قصة لم يكن يمل روايتها بتفكه بالغ ، إذ قال له الضابط المحقق متلطفًا :

- يا عم مصطفى قل لنا المواقع اللى إنت صورتها عشان نغيرها .

فرد عم مصطفى وهو يبتسم :

- سوريا بيه من الأسكندرية لغاية أسوان .

الثالث "يوسف ليفى" هو الإسرائيلى الوحيد بين الجواسيس (والملتحق الوحيد بينهم) ، ولهذا يستمتع بزيارة دورية من ممثل السفارة الإسرائيلية يزوده خلالها بحاجته من الهيرويين ويؤكد له قرب الإفراج عنه وهو مصير لم يشك فيه أبدا بعد أن رأى بنفسه كيف أدانت المحكمة زميله "مصراتى" فتبول أمامها ثم أفرجت عنه السلطات (هو وابنته) وسلمته لأهله معززا مكرما . كان يعيش فى عالم خاص به يتمحور بين صحيفتين يوميتين (فهو الوحيد أيضا بين الثلاثة الذى يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة) : "الجمهورية" ليتابع قضايا الدعارة التى تخصصت فى نشرها بالتفصيل . ويسجل أسماء المتهمات ثم يخمن السجنون التى ذهبن إليها فيكتب إليهن خطابات يهربها عن طريق الحراس أملا فى عقد أواصر علاقة عاطفية على الورق .

الجريدة الثانية التى كان يتابعها بانتظام هى جريدة "الأهرام" ليبرهن على عبثية الوجود : ما فعله فى خدمة إسرائيل (واستحق عليه الإعدام) لا

يساوى شيئاً إلى جانب ما يؤديه لها صاحب العمود اليومي الصغير في جريدة مصر الأولى .

ترتب أيضاً على ظهور المهدي وإحالاته إلى عنبر التأديب أن الزنازة المخصصة في المخزن فقدت مبرر وجودها فأعيد توزيع فزلائها طبقاً لقواعد اللائحة : رضا لطابق الحرامية والحاج شوقي في زنازين المخدرات ، وشرف وتوكل مع أقرانهما من القنلة في زنازين النفوس حيث تحرر الأول من مهام الرقابة والتخزين لينتقل إلى مهام أخرى أكثر إثارة .

في زنازته الجديدة التي اتسعت لأكثر من عشرين قاتلاً واحتل فيها كالعادة أول درجة في السلم (بجوار دلو البول) ألقى شرف نفسه في عالم شديد الثراء . على خلاف الجرائم الأخرى كانت للقتل نوافع غاية في التنوع من الثأر لأب أو ابن قتل في القرن الماضي أو الذي قبله إلى علاج الموقف الذي نشأ عن رش قليل من المياه النقية أمام بكان خضري . كان هناك من قتلوا صديقهم بالعصى والحجارة وحرقوا جثته لأنه طالب بنصيبه من عدة مئات من الجنيهاً سرقوها من أحد المخايز ، ومن ألقى بمطلقة شقيقه من الطابق الثاني بعد أن صب عليها كمية من الكيروسين وأشعل فيها النيران لاستيلائها على الشقة ، ومن قذف رأس خطيبته بحجر فبهشمه عندما إلتقى بها مع أمها في الطريق فوجهت إليه سؤالاً سخيفاً بشأن إعداد منزل الزوجية بعد أن مضى على الخطوبة خمس سنوات . من ذبح شقيقه الصغير وشقيقته الطالبة في الجامعة ليقتنص أصدقائه التلاميذ بأنه أصبح رجلاً . من مزق والده الكهل بالساطور ليمنعه من الزواج بفتاة صغيرة ومن قضى على أمه بطعنات سكين إرضاء لزوجته ومن دس السم لزوجته إرضاء لأمه ومن خنق زوجته لأنها لا تنجب ومن مزقها قطعاً صغيرة وزعها في أماكن متباعدة على طريقة "ست وإيزيس" لأنها أنجبت من وراء ظهره ، ومن ذبحوا ابنة عمهم الجميلة لسوء سلوكها ومن إغتصب ابنة خالته الطفلة حتى الموت .

كان هناك أستاذ الجامعة الذي قتل عمه من فرط حبه له ، وصاحب ورشة السمكرة الذي نفخ طفلا يعمل عنده وعلقه من قدميه في السقف حتى خرجت روحه وذلك من أجل تهذيبه وإصلاحه ، والطبيب الذي أجرى عملية ختان لطفلة في السادسة من عمرها من أجل مساعدتها على التمسك بالفضيلة فأصيبت بنزيف قصى عليها وأراحها من مشقة المجاهدة . وخريج معهد التدريب بالمحارية (دبلوم برادة) الذي عمل سائقا على فان نقل لدى مطعم يملكه أحد المطربين غيشتري مستلزمات المطعم وينقل الزبالة ويتولى توصيل الطلبات للمنازل أي يعمل من الفجر الفجر مقابل ٢٥٠ جنيها في الشهر يرفعها البقشيش إلى ٣٠٠ يدفع منها ٦٠ للسكن والباقي ينفق منه على زوجة وطفلين وعندما طالب بالتصحيح هددته المطرب بمسدس وبالنتيجة حقد على صاحب المطعم وقتله . وكان هناك من أطلق النار في الهواء إحتفالا بنجاته من القتل فأصاب أحد المارة في مقتل . وكان هناك من لم يقتل أصلا وإنما اتهمته زوجته الأولى بأنه اشترك مع الثانية في تقييدها ثم سكبوا الكيروسين عليها وأشعلوا فيها النار ثم أعترفت قبل الموت بأنها حرقت نفسها إنتقاما منه . وكان هناك سالم محمود سالم الذي يقتل بلا سبب.

لم يتعلم لأن أهله لم يتمكنوا من العثور على مريلة من قماش معين حددتها المدرسة شرطا للملابسه ولقبوله . فتحول إلى رعى الغنم ثم عمل في ورشة بلاط . ثم سحب المالك قراريط كان يزرعها الأب بالإيجار فبكى الأب وتمرغت الأسرة في طين الأرض ترفض الخروج منها إلى أن طرد أفرادها بالقوة . ذهب سالم إلى المسجد ليصلي ركعتين ويطلب من الله أن يخرّب بيت المالك ويقي به حتى صلاة العشاء. إستجاب الله لدعائه مع تعديل بسيط . فعندما عاد إلى منزله وجد في انتظاره مخرّبا صحبه إلى مركز الشرطة حيث اتهم بقتل صاحب الأرض .

كانت الجريمة مفبركة لأن السلاح كان على مكتب الضابط و أمامه شهود يؤكدون أنه هدده وبينهم إمام المسجد الذي أنكر رؤيته . صدر الحكم بثلاث سنوات فى سجن أسبوط و عند الإفراج تم اعتقاله فى سجن قنا باعتباره من الخطرين حيث أمضى ثلاث سنوات أخرى . ثم أفرج عنه بشرط البقاء تحت المراقبة . ولم تكد تنتهى مدة المراقبة حتى قبض عليه مرة أخرى بتهمة التهرب من التجنيد الذى حان موعده و هو فى المعتقل فلم يتقدم له لحظتها بالطبع . شحن إلى إدارة التجنيد على أنه من أفراد الأمن المركزى الهاربين و تمسك هو بالتوصيف الجديد لحالته فما أن حصل على الكارنيه وتسلم العهدة حتى هرب فعلا إلى الصعيد .

التحول التالى فى حياته تم بنصيحة أحد معارف السجن الذى يتمتع بفراصة شديدة . تفرس فيه طويلا ثم قال له أنه يصلح لاحتراف النصب . كل ما يتعين عليه فعله هو أن يرتدى ملابس فاخرة و نظيفة ويتسلح بأعصاب باردة . أى نور ينتحل ؟ هناك غيردور رجل المباحث ؟ ولم يمض وقت طويل حتى صار خبيرا بانتقاء المغفلين : ينادى الواحد منهم باحتقار ويسأله إذا كان يحمل بطاقة . سواء كانت الإجابة بالسلب (وهى غالبا هكذا) أو بالإيجاب فإنها تعينه على دراسة الضحية وتجريده من نقوده . المرحلة الأخيرة يتظاهر فيها بأنه أشفق عليه ولهذا قرر أن يخلى سبيله ، ولا يصدق الضحية أذنيه ، فيطلق ساقيه للريح .

أدار النجاح رأسه وانتشى ، لا بالنقود السهلة وإنما بالسطوة ، فتعطش للمزيد . تكررت عمليات النصب حتى ضبط و حكم عليه بالسجن لمدة عام لكنه فضل الهروب بعد دفع الكفالة . وفى القاهرة استأنف النشاط . فى القاهرة أيضا وقع التحول الأخير .

كان أول من لقي مجندا فى الجيش فوق كوبرى مسطرد . سأله عن التصريح الذى غادر بمقتضاه المعسكر فارتبك . طلب منه أن يرفع يديه فاستسلم

للتفتيش . كان معه أربعة عشر جنياها . أبلغه أنه مضطر لاقتياده إلى مركز الشرطة لأنه مطلوب فى قضية . وأضاف أنه لا بد من تقييده قبل الدخول على ضابط المباحث . ولهذا لا بد من ربط يديه من الخلف . لم يعترض المجند . كان الوقت قبل الغروب بقليل . فجاءه بعد قليل وهما يسيران بين الحقول :

- إيه رأيك لو أسبيك تروح ؟

- وتدينى فلوسى ؟

أبدى سالم تعجبه مما إعتبره من قبيل البجاجة :

- شوف الواد ، بدل ما تبوس إيدى .

ركب الواد رأسه :

- أنا معلش قضية ومش حاسيب فلوسى .

أمره بالجلوس و هجم عليه من الخلف و ربط كوفية كانت معه حول عنقه لكنه قاوم وحاول أن يقف فوضع ركبته فوق كتفه و جذب طرفى الكوفية حتى خرج لسانه و لفظ أنفاسه دون صرخة واحدة ثم انكفأ على الأرض فتركه و مضى .

كانت تجرية مذهلة : ظلت يداه ثابتتان ولم يرمش له جفن . وعلى العكس : شعر أنه يحلق فى الهواء كما لو كان قد دخن قرشا كاملا من الحشيش . وأخذ يستعيد لحظة الخنق فى نشوة : بدت له مثل لحظة الخلق . فعندما تمكنت يداه من عنق الضحية كان بوسعه أن يفعل ما يشاء : أن يواصل الضغط أو أن يطلق سراحه . أن يأخذ روحه أو يمنحه الحياة . أدرك أيضا أن القتل لا يختلف عن أى شئ آخر فهو مثل المشى . بعد الخطوة الأولى يصبح سهلا . يتعوده الواحد .

كانت الضحية التالية رجلا فى الأربعين قابله فى محطة حامية الزيتون .

ابتدره:

- معاك بطاقة ؟

ارتبك الرجل لكنه أبرزها من محفظة معبأة بالفلوس ، ألقى نظرة على البطاقة رغم أنه لا يعرف القراءة أو الكتابة ووضعها في جيبه قائلاً : أهو إنت.

تسأل المسكين في حيرة : أنا مين ؟

- إنت اللي بندور عليه .

أمسك به من كتفه بالطريقة التي يقبض بها المخبرون على المتهمين ودفعه أمامه بعد أن أوهمه أنهما ذاهبان إلى مركز الشرطة . بعد أن وصلا إلى جسر المطرية كرر عليه قصة القيد الضروري قبل الدخول على ضابط المباحث ، ربط يديه بكوفية (صار الآن يحمل ثلاثاً بصفة دائمة) ثم قال له أنه مشفق عليه من الجريمة المتهم بها والتي سيواجهه بها الضابط وعرض عليه أن يسلمه مائة جنيه مما معه مقابل إطلاق سراحه . لكنه رفض قائلاً أنه برئ .

لجأ سالم إلى الصراحة :

- إفرض ان أنا مش مخبر ولا حاجة ، إنما بتاع ليل وقتلتك : عمرك والا فلوسك .. تقول إيه ؟

أجاب العبيط في صلف و غرور :

- لسه متولدش اللي ياخذ منى فلوسى .

لم يملك سالم نفسه أمام هذا الغباء . كانوا قد أشرفوا على فناء مهجور فطلب منه أن يجلس على الأرض ليستريحاً قليلاً . وما أن جلس حتى لف الكوفية حول عنقه وقتله .

الذى بعده لم يكن معه مليم واحد ومع ذلك (أوريما بسبب ذلك) قتله . وبلغ عدد قتلاه ١٣ دفعوه جميعاً لقتلهم . وعندما شرع يلف الكوفية حول رقبة رقم ١٤ ظهر فجأة عابران أمسكا به . لم يعرف أحد بأمر القتل السابقين وحكم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة قضى ثلاثة أرباعها في

الليمان . وقبل موعد خروجه بأيام قبض عليه من جديد لأنه طعن سجيننا أماته ورفض أن يعتذر .

رؤى القصة لشرف : لم يكن أمامه خيار فلو تركه بعد الإهانة تشجع غيره . سيطلب منه واحد أن يحضر له شيئامن الكانتين أو أن يغسل له ملابس أو أن ينحني أمامه ويفك سرواله . سينزع الأمر : سالم محمود سالم لا يريد القتال لأنه فى طريقه إلى الخارج . بعض السجناء لا يأس بهم لكن هناك أيضا بينهم حيوانات . حثالة الأرض القذرة المعفنة : الطريقة الوحيدة لردعهم هى أن تكون دائما مستعدا لتسييح بمائمهم . والنتيجة : أولا إلغاء العفو عن ربع المدة وعودته لإستكمالها و ثانيا الحكم عليه بخمس عشرة سنة أخرى قضى منها ثلاثا فى انتظار حكم النقض .

كان السفاح فى حوالى الستين من عمره ، طويل القامة مهيب الطلعة يوحى وجهه الأسمر القوى بالثقة والطمأنينة ، يعتلى قمة الشارب المنفوش المعهود ، فى حالة ارتخاء لا إلتصاب ، مسدلا الستار على عدة فجوات بين الأستان ، يشغل الركن الذى يشغله النوياتجية عادة ويحسب له الجميع حسابا ، بما فيهم النويتجى الذى كان على عكس ما يتوقع المرء تماما فى زنزانه تضم قتالين القتلة . فبدلا من أن يكون شيخ منصر كان رجلا منكسرا فاقد الهمة دائم الشرود قليل الحركة بسبب نوالى واضحة فى قدميه ينتظر حكم النقض فى جريمة لم يرتكبها .

لم يكن سالم يشارك فى اللسانيات إلا نادرا أو هكذا بدا فى الأيام الأولى التى واجهه فيها شرف من مكانه فى مدخل الزنزانه . لكن مجئ الأخير شجعه على ممارستها فدعاه فى أول ليلة للعشاء وشرب الشاى (وهى دعوة رحب بها شرف الذى عاد للاعتماد على اليك ليفطى به الثغرات المتسعة باستمرار فى الغطاء العائلى) واستمع منه إلى قصته بالتفصيل . توات

الجغرافيا الباقي ، إذ كان موقع شرف إلى جوار دلو البول يجعله في مواجهة السفاح القابع في الركن البعيد عن الباب وفي المجال الدائم لرؤيته . وهو أمر أثار خوف شرف في البداية (خصوصا بعد أن سمع بقصة الكوفيات الثلاث) إلى أن ألفه بالتدريج حتى صار ينزعج إذا أخطأ السفاح وصوب عينيه نحو هدف آخر . أبدى السفاح أيضا لمسات إنسانية رقيقة فاذا رآه متعبا سأله : أجييلك أسبرينة ؟ (حقيقية لا كودية) ، وإذا لاحظ أنه يفتقر إلى السجائر أشركه في أنصاف سجائره وإذا وجدته مكتئبا فاجأه بكوب ليمونادة أو بسيل من النصائح تؤلف رؤية كاملة في الحياة :

- معاك فلوس الناس الحلو تحترمك . ممعكش يدوسوك بالجزم .
- لو كنت متعلم وأقدر أداغ عن نفسي أو أقدر أأجر محامي كبير كنت قلت .
- المال الحلال معدش سهل زى زمان . مكسب الوقت كله حرام .
- كل اللي انت شايفهم دول سمك صغير . السمك الكبير ميجيش هنا أبدا .
- النساء ناقصات عقل ودين ولا يمكن عمل صداقة معهن إنما الصداقة فقط مع الرجل .

إلى جانب هذه الأفكار الحداثيّة كانت هناك ومضات كلاسيكية بعضها كفيل بتنظيم علاقة الإنسان بالسلطة (اتعلمت من صغرى انى مصدقش الحكومة . مش راح أكون أبدا شخص محترم فى المجتمع . عشان أبقي كده لازم يا إما أبقي مرشد أو جبان أو جردل خرا يمشى زى الأعمى ورا أى واحد حمار يختاروه للحكومة) والبعض الآخر كفيل بحل قضايا معقدة مثل الصراع العربى الإسرائيلى (لو حد دخل بيتى عشان ياخذ منى حاجة مش حاروح للبوليس . إذا مكنتش أقدر أداغ عن نفسى واسترد حقى يبقى الراجل ده من حقه ياخذ اللى عاوزه لأنى مستحقهوش) وإن عبر أحيانا عن فلسفة الدولة الإسرائيلىة ذاتها (الحق معى لأنى أملك القوة) .

ويبدو أن السفاح كان واثقا من مصير شرف إذ أخذ يعده لحياة
اليمان: لا تفتح فمك إلا عند الضرورة القصوى ، تجنب الاحتكاك بالآخرين ،
احذر من مصادقة أحد مهما كان طيبا (باستثناء السفاح نفسه بالطبع) ،
لا تتنازل طوعا عن أى شئ (إذا تنازلت عن شبر واحد حيحاولوا ياخذوا
منك اثنين) ، أضعف لحظة هي أثناء التبول (خلى بالك وانت بتطرطر) ،
فى السجن ليس هناك من يحل لك مشاكلك ، إذا ذهبت إلى الإدارة
ستوصم بأنك مرشد وهذا قد يقضى عليك . إذن فأنت مضطر لأن تعالج
مشاكلك بنفسك . من سيطلب منك إنزال بنطلونك لن يكتفى بذلك ولهذا يجب
أن تكون مستعدا للقتال والدفاع عن نفسك أو تستسلم .

لكن أهم شئ هو ألا تجعل السجن يهزمك بأن تهزمه أنت . كيف ؟
باستخدام مخك .

استخدم سالم محمود سالم مخه من أجل الترويح عن نفسه بانتاج
خمر محلية (خبز وبرتقال وماء و سكر تترك فى علبه بلاستيك أربعة أيام)
ولقاومة متاعب المعدة والأمعاء بصناعة الزبادى (قطعة صغيرة من لبابة
الخبز فى حجم الليمونة مع أروانة لين وتوضع فى مكان دافئ لمدة يومين)
وفى الاستعداد للاختفاء بأبوات بسيطة (أى سلك من الصلب الرفيع من علبه
نظارة مثلا كفيلا بنشر القضبان) والدفاع عن النفس بالسلح (تلف فرشاة
أسنان جيدا بكيس بلاستيك ثم تسخنها بعيدان الكبريت إلى أن تتصلب ثم
تدعكها فى أرضية الزنزانة عدة ساعات يصبح لديك بعدها سكين من
البلاستيك) . هذا هو الدرس الأول .

الدرس الثانى كان كفيلا باثارة غضب الرئيس الراحل أنو السادات لأنه
يتلخص فى تغذية الحقد : فالحقد الصافى الخالص يمكن الإنسان من
الصبر والتحمل والصمود لسنوات . إنه يعطى السجن عطايا للانتقام ورغبة

فى البقاء ولو لدافع واحد هو أنه يحرم ساجنيه من متعة الظن بأنهم قد هزموه .
انتقلت عدوى توجيه النصائح إلى الدكتور رمزى فانهال بها على الغلبة
المساكين :

- لا تثقوا فى أحد . لاتصدقوا الصحفيين والكتاب الكبار. لا تثقوا فى
طبيب أو محامى أو بائع مهما بسملاوا وحوقلوا فهم يسعون جميعا وراء
لحمكم الحى . لا تثقوا بالحكام .كذبوا عليكم ووعدوكم بالرخاء والعدالة
والسعادة . ولم تحصدوا غير الفقر والمعاناة والكآبة . ضحكوا عليكم وقالوا
لكم أن الإشتراكية مساواة فى الفقر وأنها تحرم الإنسان من أعز غرائزه وهى
التملك والتميز . صدقتموهم فماذا كانت النتيجة ؟ هم وحدهم الذين تملكوا
وتميزوا لا تثقوا فى إعلانات الصحف . كلما كبر الإعلان وارتفع ثمنه
كلما كانت الهبة ضخمة . التهنة أو التعزية الموجهة إلى وزير أو مسئول
لها ثمنها الذى سيأتى من جيوبكم . لا تثقوا فى التليفزيون . لا تثقوا فى
أنباء السى إن إن مهما تظاهرت بالحياد والموضوعية . فكروا بعقولكم .
اسألوا أنفسكم دائما : من المستفيد . كم المكسب . تذكروا دائما أن السلعة
التي يعلن عنها فى التليفزيون بمئات الألوف من الجنيهات لا بد أن يكون مكسبها
بالملايين . إسألوا أنفسكم كيف ؟ من أين تأتى هذه الملايين وأين تذهب .
إسألوا أنفسكم ما معنى أن المسئولين عن التليفزيون يعملون هم و أولادهم فى
نفس الوقت لدى تليفزيونات منافسة يملكها السعوديون الذين يسيطرون على
كافة وسائل الإعلام العربية . إسألوا أنفسكم ماذا يريد هؤلاء منكم . كونوا
دائما على حذر . عندما يذكر أحد المتحدثين فى التليفزيون أنه يحب مصر ،
تحسسوا جيوبكم . إنتهبوا وافتحوا عقولكم جيدا .

كما احتوت نصائح السفاح لشرف على جانب عملى ، كذلك كان الأمر فى
نصائح الدكتور :

- لا تتساقوا لنصائحهم وتوجيهاتهم . اعملوا بعكس ما يطلبون منكم . لا تشربوا مياههم الملونة الضارة . اعتمدوا على تراث الآباء والأجداد . بدلا من الكولا إشربوا العرقسوس والقصب والينسون والحلبة والكركديه . كلها مشروبات صحية ومفيدة . لا تأكلوا الهامبورجر لأنه قد يسممكم . لا تستعملوا المعلبات الغالية التي يأخذون منكم عشرات أضعاف ثمنها الحقيقي . أنتم لا تحتاجون إلى كل هذه الرشاشات التي تملأ شاشة التليفزيون ورفوف السوبرماركات . ملعقة كبيرة من تنوة القهوة القهوة تنظف أية أنية تلتصق بها مخلفات الطهي . إحدروا مساحيق الغسيل التي تتنافس في زيادة الفعالية بإضافة مواد كيميائية سرطانية . بوسائل بسيطة ورخيصة يمكنكم أن تصنعوا الصابون بأنفسكم . لا تتناولوا أدوية السعال التي أغرقوكم بها . قليل من مغلي لبان الذكر يقضى على أقوى كحة . وفروا نقودكم وصحتكم واحكموا عليهم بالإفلاس . لا تتركوهم يضحكون عليكم .

أثارت نداءات الدكتور استغراب السفاح وفضوله . وازداد الاثنان عندما روى له شرف ذكريات زنازنتهما المشتركة . شرف أيضا كان يشعر بالاستغراب والفضول لا لسلوك الدكتور وإنما لسلوك السفاح نفسه .

كان الطعام يأتيه يوميا والسجائر لا تفرغ من عنده ولا تخلو الأكياس المعلقة من حبل فوق رأسه من كل ما يحتاج إليه السجين الذي ينعم بمصدر مالى ثابت . ومع ذلك لم يكن يتعامل مع الكانتين ولا يتلقى زيارات ولا حوالات مالية مثل الآخرين .

ألقي السفاح ضوئا كافيا على مصادره المعيشية مصادفة عندما روى في زهو قصة صداقته مع النجم السينمائى "فؤاد وصفى" . تعرف به يوم وصوله إلى اللومان بتهمة الاتجار فى المخدرات . كان رقيقا وادعا ضئيل الجسم . وكرمته إدارة السجن (التي اشتهرت بتقدير الفن والفنانين) بإعطائه زنازنة مستقلة مفتوحة طول اليوم . وبعد أيام قليلة اقتحم بلطجيان زنازنته وأوقعاه

أرضاً ووضعاً سكيناً في عنقه ثم شرعاً ينزعان سرواله ، وكان يمكن أن يحدث ما لا يحمد عقباه لولا الظهور المفاجئ للسفاح وتخلصه من الشقيين على طريقة " فريد شوقي " . هكذا اقتنع الممثل الوسيم بأهمية صداقة السفاح (فضلاً عن حاجته إليه لتزويده باحتياجات مزاجه) ورتب له إيرادات يومياً من الطعام والسجائر . ما لم يدركه الممثل هو أن الاعتداء الذي تعرض له كان من تدبير صديقه وحاميه .

بالإضافة إلى عيني السفاح كانت عيون أخرى تلاحق شرف أثناء صعوده ونزوله وتنزل فوق أماكن من جسده ساعد الأكل المنتظم المتنوع وندرة الحركة على تسمينها . وكانت هناك ابتسامات هازئة في العيون وتلميحات بذينة واحتكاكات عفوية . ووضع السفاح حداً لكل ذلك .

ففي أحد الأيام ، تلقى شرف من أمه في الزيارة (التي أصبحت تخلو من السجائر بسبب تفاقم حالة الأب الصحية) علبتي كليونياترا . استخدم واحدة واحتفظ بالثانية في كيسه . وعند عودته من طابور المساء اكتشف اختفائها . فتش عنها جيداً بمساعدة السفاح لكنهما لم يجدا لها أثراً . انتظرا حتى انتهى التمام واستقر كل نزيل فوق نمرته فخاطب السفاح الجميع :

- في علبة سجائر ضايعة من شرف . حد شافها يا جدعان ؟

تبادل الجدعان النظرات دون أن يفتح أحد فمه . وتطلع البعض ناحية النوبتجي الذي تشاغل بترتيب نمرته .

خاطبه السفاح قائلاً : إيه رأيك يا نبطشي ؟

استدار النوبتجي نحوهما قائلاً : مش يمكن تكون وقعت منه في الطابور ؟

قال شرف : دي كانت هنا في الكيس بتاعي .

قال النوبتجي : ع العموم محدش هنا بيد إيده على حاجة حد .

ثم أضاف مخاطباً الموجودين :

– إذا كان حد أخذها بالغلط يرجعها وإحنا نسامحه .

قال السفاح بصوت مرتفع :

– اللي حيمد إيده تانى على حاجة شرف أنى حاقطعها له .

وضع هذا الإعلان كل الأمور فى نصايها وأحدث صدى واسعا كالذى أحدثه فى الماضى إعلان الحماية البريطانية على مصر لادى الطامعين الآخرين مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا فضلا عن الباب العالى فى استنبول . وظهرت النتائج على الفور إذ طفت علبة السجاير فى الصباح . وتوقفت الابتسامات الهازئة والتلميحات البذيئة والمضايقات التى كان شرف يتعرض لها من أصابع الباشا .

لم تكن نوعا من الحلوى و إنما لعبة . ففى طابور بعد الظهر كانت الألعاب تنقسم إلى كرة القدم و"صلح المعدلة " . ولما كان شرف لا يلعب الأولى بسبب عيب (خلقى لا خلقى) فى باطن إحدى قدميه فانه كان يلعب الثانية التى طورتها أجيال من السجناء . فبدلا من أن يقف الواحد واضعا يده اليسرى مبسوطة الكف على كتفه اليمنى ويتبارى اللاعبون فى ضربها بكفوفهم ويتعين عليه ان يحذر شخصية الضارب من ضغط كفه ، صار اللاعبون يستخدمون أصابعهم بدلا من كفوفهم ، يفزونها فى أى مكان من جسم الضحية . وكان الاختيار لدورا لآخر يتم بالقرعة على طريقة ملك وكتابة والسبب غير مفهوم يقع دائما من نصيب شرف .

تتابعت ردود أفعال إعلان الحماية حتى بلغت أوجها بظهور اسحب الفجل فى مدخل الزنزانة بوجهه الشاحب المعبر عن فقر الدم ، حاملا لفافة مستطيلة فى كيس أسود ، قادما فى سفارة . استقبله سالم فى ترحاب وأصر أن يتناول معا طعام الغذاء الذى أعده شرف من علبة بولوييف كاملة تم إنضاجها فوق السخان الكهربائى بعد إضافة بصلتين وحبّة طماطم . تباست اسحب الفجل فتحدث

بصوته المبحوح عن متاعبه التي تتمثل في الانفاق على بيتين (الأصلى مع الزوجة والأولاد في الصعيد والثاني مع حارسين أعزبين قرب السجن) وعن أبيه الذي كان سجاناً مثله وأمياً . كان ذلك أيام القيود الحديدية التي تكبل المحكومين بالأشغال الشاقة (حلقة في كل قدم تربطهما سلسلة وزنها أربعة كيلوجرامات متصلة من الوسط بحلقة أخرى معلقة في حزام جلدي ولا يخلع السجين هذه القيود أبداً في نومه أو يوقظته أو حتى عند الإستحمام، تصور) وعلمه المسجونون الشيوعيون (في واحد من أخطائهم التاريخية) الكتابة والقراءة فأصر على تعليم ابنه جدول الضرب ، فأتقن هذا الاثنان : الضرب والحساب . بعد الشاي والسجائر انزوى اسحب الفجل مع السفاح جانباً وقدم إليه اللفافة السوداء وكشف عن سفارته بصوت خافت .

لم يسمع شرف الحديث لكنه رأى السفاح يفض اللفافة التي احتوت على خرطوشة كاملة من كليبواترة . أطرق السفاح بعض الوقت ثم أعاد كليبواترة إلى لفافتها واللفافة إلى حاملها قائلاً في صوت بارد :

– قوله يفتح الله .

شعر شرف شعوراً مبهماً أن الأمر يتعلق به . وصدق شعوره عندما روى له السفاح القصة : فالجاسوس الإسرائيلي ضاق بغراميات الورق وحن إلى الواقع فوق اختياره على شرف الذي صدم للنبا لا لأنه أصبح موضوعاً للتفاوض بين قوى خارجية ولا لطبيعة الخدمة المطلوبة وإنما للثمن البخس الذي وضعه في مستوى سجين مثل عزيزة يتقاضى صندوقاً مماثلاً مقابل جولة سريعة بالنهار وعدة أضعاف إذا تعلق الأمر بليلة كاملة .

ليست هناك أسرار في السجن ولهذا لم تمض ساعات حتى عرف الجميع بموقف السفاح الرافض . وتسببت عيون شرف في زيارة ثانية من اسحب الفجل في اليوم التالي ، هذه المرة في سفارة من عشم الله .

جاء عشم الله من قرية في كفر الشيخ حيث كون عصابة للثأر من أسرة إشتراك

أبناؤها فى اغتصاب أخته البكماء . وليضمن الحماية قرر أن يؤجر عصابته لمن يدفع من أصحاب التفوذ . لكنه كان مغرما باللسانيات التى أدت إلى وقوعه والحكم عليه بخمسة عشر عاما . وخلال وجوده فى السجن ورطته اللسانيات مرة أخرى . فقد حكى لأصدقائه كيف استأجرته سيدة بمبلغ عشرين ألف جنيه لقتل مزارع استولى منها على قطعة أرض ، فقام بالمهمة على أفضل وجه ولم تستدل الشرطة على القاتل وحفظت النيابة النيابة التحقيق وقيدت الجريمة ضد مجهول . بعد الإفراج عنه أمرت النيابة بإعادة التحقيق فى القضية وإعادة حبسه .

ما دفع عشم الله للمزايدة على الجاسوس الإسرائيلي البخيل لم يكن معارضة منه للتطبيع وإنما ضعفه المزمع أمام العيون . فقد كانت هى القاسم المشترك بين أول وآخر عملية له . فى الأولى هاجم مزرعة وأطلق الرصاص على مابها من أبقار . بعد ذلك لم يتمكن من نسيان نظرة عيونها إليه أثناء إحتضارها . وفى آخر عملية تعرفت عليه فلاحه عندما اغتصبها فحاول أن يخنقها لكن عينيها ظلتا مفتوحتين فارتجفت يداه ولم يتمكن من انتزاع روحها . أمال رأسها إلى الخلف وطعنها فى رقبتها بقرن الغزال لكنها لم تغلق عينيها وظلت تنظر إليه . استخدم يديه الإثنتين فى دفع المطواة بلا جدوى ، فالتقط طوية وأمسك المطواة بيده اليسرى ومضى يدها بالطوية ثم جذب المطواة ناحية اليسار و مرة أخرى ناحية اليمين إلى أن أتم مهمته .

لم يعرف أحد ما إذا كانت عينا شرف قد ذكرته بعيون البقر أو بعيني الفلاحة العنيدة ، فقد ضاعت فرصة معرفة ذلك . حقا ان اسحب الفجل قد حمل معه خرطوشتين من كيوياترة مما أرضى كبرياء شرف (رغم أنه ما كان سيرضى بصفقة تنال من شرفه) ، لكن الرد الذى حصل عليه من جهة الاختصاص - سالم - كان واحدا :

- يفتح الله .

وعندما تطلع إليه شرف متعجبا قال فى اقتضاب :

- أنا مش وسخ .

إنكمشت فوق نمرتى وأنا أرتعش من البرد . كنت ألتف بالبطانيتين المخصصتين لى بعد أن جعلت الوسادة من كيس حاجياتى وحذائى كما كنت أرتدى البلوفر الصوفى الذى أحضرته لى أمى و كلسون طويل من القطن لكن برد ديسمبر خرم عظامى بسهولة . كنت فى نقطة إلتقاء تيارين من الهواء اللاسع : واحد يهب من من إحدى النافذتين اللتين تتمتع بهما الزنزانة والثانى يندفع من أسفل الباب المجاور لى ويصطدم مباشرة بجانبى الأيمن كله من الرأس إلى القدم أنصت لأصوات شخير النائمين و تنفسهم و خصوصا الذين كانوا فى الركنين البعيدين عن تيارات الهواء وهما سالم والنويتجى . كان إلى جوارى عجوز أهتم منهم بقتل شريكه فى محل بقالة . وكان قد حصل على بطانية إضافية من الحراس مقابل سجاثر ثم جاءت واحدة "ساراتوجا " ثقيلة من أهله . لكنه كان دائم القلب والتنهيد .

أثنيت ركبتي وكورت جسمى وإقتربت قليلا من العجوز لأتدفأ بالحرارة المنبعثة من جسمه و دسست يدي بين فخذي محاولا تجاهل البرد بالتفكير فى شئ آخر . استعدت صورة زوجة الدكتور ثابت محفوظ أثناء جلوسها فى المحكمة واضعة ساقا فوق ساق . وجدت نفسى عاجزا عن تذكرها بوضوح وعاجزا أيضا عن التركيز من البرد . وشعرت بالأسف لأنى لن أراها ثانية أثناء الزيارة أو فى المحكمة إذ خرج زوجها بكفالة كبيرة .

انتظرت فى لهفة بزوغ النهار . وتابعت شقشقة الفجر من النافذة . وتمنيت أن يكون اليوم مشمسا لأتخلص من برد الليل .

كان سالم أول من استيقظ وبدأ يعد الشاي و عندما رأى مفتوح العينين
أضاف كوبا آخر إلى الماء . إنتظر حتى غلى الشاي فصب لى كوبا ارتشفته فى
لهفة .

قلت : ياريت التبطشى يحطلنا كرتونة أوأى حاجة فى الشباك اللى جنبى .
سمعنى وهو منكمش أسفل أغطيته فاعتدل جالسا و سعل بشدة . صوب
بصقة تابعتها فى قلق حتى استقرت فى دلو البول بجوارى .
قال : لو غطينا الشباك حنتخق من النفس والزراط .

قلت : يعنى الواحد يموت من البرد ؟

توجه إلى الآخرين بالحديث :

— حد تانى عاوز قفل الشباك ؟

أبدى الجميع اعتراضهم وتطلعت إلى جارى العجوز لكنه لم ينبس بحرف .
قلت فى نفسى أن لديه ساراتوجا كما أنى أصد عنه التيار القادم من تحت عقب
الباب .

قال سالم للنوبتجى : أنقله بعيد عن التيار .

قال النوبتجى : أوديه فين ؟ و مين ييجى مطرحه ؟

— طب شوفله بطانية . أنا لو مكتش ظهري تعبى كنت اديتله واحدة .

تطلع النوبتجى إلى ثم إلى سالم وأدركت فيما يفكر : الثمن ومن الذى سيدفعه
لكنه لم يعلق و اكتفى بان قال :

— إن شاء الرحمن .

تناول سالم إحدى بطاطينه الثلاث وكانت من بطاطين السجن الداكنة لكن فى
حالة جيدة . قدمها لى قائلا : خد دى لغاية ما يشيئ الرحمن .

ابتسم النوبتجى فى خبث فابتعدت عن يد سالم الممدودة قائلا :

-- لا . انت محتاجها أكثر .

ألحف على سالم بقبول البطانية لكنى أصررت على الرفض و غادرت الزنزانة إلى نورة المياه .

فوجئت عند مدخلها بحجاج الذى تعرفت عليه فى عنبر الميرى والذى اختطفته العصابات وهو صغير . كان يرتدى جلبابا فضفاضا بعض الشئ تبلو من تحته ملابس داخلية من الكستور : كلسون طويل حتى القدم وقانلة بكمين طويلين . وكان يحمل فى يده فوطة كبيرة ملونة وصابونة "كامى" .

صبحت عليه و أضفت فى استغراب : بتعمل هنا إيه ؟

احمر وجهه وقال : الحاج رأفت نقلنى .

- الحاج رأفت ؟

- أيوه . كلم سيادة الضابط مرقص فهمى فنقلنى .

- فى زنزانة ستاشر ؟

أطرق برأسه مؤمنا . تذكرت فوطته الممزقة الجريانة وأدركت أنه يحمل فوطة الحاج رأفت و صابونته و أنه فى طريقه كى يحجز مكانا للحاج فى الدورة .

تبعته إلى الداخل وصح حدسى إذ وقف أمام أحد المراحيض الخالية مانعا الآخرين من دخولها حتى يأتى صاحبه . تبولت فى المجرى و لم أعبأ بالإغتسال إن كان اليوم موعد الحمام الأسبوعى . وعدت إلى الزنزانة فأقظرت مع سالم بقطعة من الجبن القريش أضاف إليها ملعقة من الطحينة البيضاء .

كنا قد تبادلنا العزائم عدة مرات ثم اقترح أن نتشارك فى الطعام والشراب والسجائر فأصبحنا نتقاسم كل شئ . وكان هذا الترتيب ملائما لى إذ بدأت زيارات أمى تقل واقتصر تموينها الضئيل من الطعام و السجائر على مرة واحدة فى الأسبوع .

جاء الدور على زنزانتنا بعد ساعة لنزول الحمام ، ووقفنا عراة في القاعة الصغيرة أسفل مياه الدش الساخنة . كان سالم قريبا منى ، وكانت أول مرة نستحم فيها سويا و لاحظت أن له كرشا بارزا و ثديين متهدلين، و تأملنى هو بإمعان ثم علق على شعر سيقانى الكثيف .

كان السنية فى طابور بمفردهم فصعدنا إلى أعلى وانتظرنا عودتهم . وتلكأت قرب السلم بحثا عن الشيخ عصام الذى لم أره منذ عاد من التأديب . نهرنى الحارس وأمرنى بدخول زنزانتى مهددا بإغلاقها . وأسر لى سالم أنه يريدنى فى أمر و طلب منى أن أتخلف عن نزول الطابور .

انتظر حتى نزل الجميع إلى القناء ثم شرح لى أن زنزاة ١٦ ستحتفل الليلة بالإفراج عن أحد نزلائها وبالتالي يحتاجون إلى تمويل من المخدرات . وقال اننا مدعوان - أنا وهو - لقضاء الليلة معهم .

كانت العادة ألا تحتفظ زنازين المخدرات بأى كميات منها تجنبا لأى تفتيش مفاجئ رغم أن السجن كله يعرف دائما بحملات التفتيش قبل موعدها بوقت كاف . ولهذا تودع فى مخابئ بزنازين أخرى . وكشف لى سالم أنه يتولى أمر أحد هذه المخابئ بزنازتنا و أنه سيتولى فتحه أثناء الطابور و يحتاجنى للقيام بدور الناظر .

واربنا الباب ووقفت فى الخارج متظاهرا بالتدخين . و أخذت أنقل عينى بين السلم و أبواب الزنازين الأخرى . فلم تكن نخشى الحراس وحدهم وإنما أيضا السجناء الآخرين

ألقيت نظرة داخل الزنزاة فرأيت سالم قد طوى نمرته وجلس فوقها ثم تناول علبة حلوة طحينية فاقتطع منها بأصابعه كتلة فى حجم البرتقالة وفتتها نتفا صغيرة فوق غطاء العلبة . مزق صفحة من جريدة رقعا صغيرة . ودعك كل رقعة فى فتافيت الحلوة ووزعها فى شبه دائرة فوق أسفلت الأرضية ثم أشعل عودا من الكبريت وقربه من الورق وتركه يشتعل ببطء .

تابعت الحلاوة فى أسى إلى أن ذابت تماما ولانت الأرضية قدس فيها سلكا رفيعا وحركه فى دائرة بحجم رغيف الخبز. كرر العملية عدة مرات إلى أن انفصلت الدائرة عن بقية الأرضية . رفعها ووضعها جانبا ثم استخرج من الحفرة لفافة سوداء من البلاستيك فض محتوياتها فوق الأرض وتناول منها عدة لفائف صغيرة وضعها فى صدره و أعاد اللفافة الأصلية مكانها و أضاف إليها لفافتين أخرتين أخرجهما من جيب جلبابه . أعاد دائرة الأسفلت مكانها ثم وزع رقع الورق المدهون بالحلاوة حول محيط الدائرة وأشعله وانتظر حتى ذاب الأسفلت من جديد حول الدائرة فأخذ يخزه بحرف السلك . واطب على هذه العملية إلى أن سوى سطح الأرضية وأعاده إلى ماكان عليه واختفى الشق الدال على الحفرة . ثم جمع الرماد المتخلف عن العملية ونثره فوق سطح الحفرة ومسحه بلطف . وكرر هذه العملية أيضا إلى أن استعادت المنطقة لونها الأسود القديم .

ظهر مساعد الحاج رأفت بعد قليل فجمع لفائف المخدرات فى صدره ومضى إلى المراحىض ليلبسها توقيا لأى تفتيش مفاجئ عند التمام بعد أن شاع نبأ الاحتفال المزمع . فكرت أن أحلق ذقنى بهذه المناسبة لكنى لم أكن أملك ما أدفعه للحلاق . وقبل التمام حملنا نمرنا وانتقلنا إلى زنزانة ١٦ .

أعطانا النوبتجى مكانين متجاورين فى العمق بعيدا عن الباب وتيارات الهواء. واقترح سالم أن نعد فراشا مشتركا لنضمن الدفء . فبسطنا البرشين متجاورين وفوقهما بطاطينه الثلاث وأبقينا بطانيتى الاثنتين لتتغطى بهما معا .

كان الحاج رأفت فى مكانه المعهود بمركز الصدارة يتوسط الحائط الممتد بين ركنى العمق وإلى يمينه حجاج . و لاحظت أن الأخير يرتدى جلبابا أبيض نظيفا وأن خديه أملسان ويلمعان وأدركت أنه حلق ذقنه بالفتلة . وجلس الحاج عرفة ، المحتفل به ، إلى يساره . كان يرتدى بذلة كاملة من صوف "ستيا" وكرافطة لم تعجبني ألوانها ، وله عدة أسنان ذهبية فى مقدمة فمه . ورأيت إلى جواره تاجر

المخدرات وإبنى أخيه الذين كانوا فى زنزانة عبد الفتاح بالطابق الأرضى
بالإضافة إلى عم حسن نويتهجها . سألونى عن أخبار عبد الفتاح وعما إذا كنت
ألقى منه خطابات أو أنباء . وأجبت بالنفى .

كان العشاء مخصوصا و يتضمن دجاجا محمرا و صينية كثافة ضخمة وعدة
سلطانيات مهلبية . وبعد الشاي صعد النويتهجى إلى شراعة الباب وصاح بأعلى
صوته :

– المعلم عرفة مروح لاه يا جدمان عقبالنا جميعا يا حباب .

تصاعدت الصيحات من مختلف الطوابق . وبدأت كل زنزانة توجه تحياتها
للمفرج عنه . وفجأة سمعت صوت الدكتور رمزى يشترك فى التحية ثم ينطلق فى
موال من مواويله اليومية :

– يا غلابة يا مساكين .. الواحد فيكم سرق ألف أو ألفين . أو قتل واحد أو اثنين
بينما هم يسرقون و يقتلون بالملايين ولا يدخلون سجون ولا يعرفون مشانق .
انطلقت التهليلات والشتائم من كل اتجاه . وصحنا جميعا فيه أن يسكت .
لكنه لم يعبأ وواصل :

– يا غلابة يا مساكين . أنتم تعيشون حياة الموتى بينما يبددون أموالكم
وحقوقكم . سرقوكم ونهبوكم . خدعوكم وضحكوا عليكم من زمان ... فى الأول
منوا عليكم بدعم تحصلون به على السكر والأرز والزيت والخبز بأسعار رخيصة
وكأنهم يعطونكم من جيوبهم متجاهلين أنه يأتى من جيوبكم ويذهب أغلبه لهم ومنه
شيدوا ثرواتهم . فمن جيوبكم دفعت الحكومة دعما للأسمدة والأسمدة وحديد
التسليح ذهب لأصحاب العمارات والأبراج ، والدقيق الفاخر والسكر ذهب
لمصانع الحلويات والمياه الغازية (فتتكلف زجاجة السفن أب عشرين قرشا
وتباع بخمسين) . أى أنكم اقتطعتم من خبزكم ودخولكم كى يحصل أصحاب
العمارات والمخابز ومحلات الحلوى على المواد الخام بأقل من أسعارها الحقيقية

ثم ألفيتم أنفسكم عاجزين عن السكنى فى عماراتهم أو شراء منتجاتهم التى تذهب للقادرين من أمثالهم بأسعارفى متناول أيديهم ، نتيجة الدعم المزعوم . ومنوا عليكم بدعم الكهرباء الذى يذهب أغليه لسكان المدن والقادرين منهم على شراء الميكفات والأجهزة .

بعد ذلك تدفعون ضرائب وهى ضرائب غير عادلة لأنها على الدخل وليست على الثروة ولا تستطيعون التهرب لأنها تخصم من المنبع على العكس منهم فهم يملكون حسابات فى بنوك فى الخارج و يملكون السلطة والنفوذ فى الداخل ويستمتعون بالاعفاءات التى تقدر بأربعة مليارات جنيه فى السنة . وأنتم تدخرون إجباريا فى صندوق التأمينات وتقترض الدولة من هذه التأمينات بفائدة رمزية و أيضا من صندوق توفير البريد وشهادات الإستثمار لتنفق على احتياجات الموظفين من سيارات ومكيفات وديشات .

وتقدم البنوك قروضا ميسرة للإسكان والأمن الغذائى واستصلاح الأراضى وشراء الأراضى المستصلحة . وتحمل الخزانة العامة ، أى خزانةكم التى تمولونها بعملكم و تضحياتكم ، الفرق بين سعر الفائدة فى السوق والسعر المنخفض الذى يدفعه المقرض وهو عادة من الأغنياء .

فهل حل هؤلاء مشاكلكم ؟ لقد أقاموا العمارات الفاخرة الضخمة متعدين أن يصبح الرصيف والشارع جاراجا لسياراتهم ، فأخذوا منكم الشارع الذى دفعتم ثمن رصفه . و لأنهم يملكون جيدا بالطبع فالمتوقع أن يكون ضغطهم عاليا على شبكة الصرف الصحى ، و النتيجة قرض أجنبى من أجل إصلاح وتطوير الشبكة بتكلفة ثلاثة مليارات من الجنيهات اقتطع منها الوسطاء والخبراء الأجانب والوزراء شريحة ضخمة . وتدفعون من قروضكم المحدودة كل هذا : ربح صاحب العمارة وقيمة القرض الناشئ عن أثارها و (مخلفاتها) و تتكرر القصة فى شبكة المياه وشبكة المواصلات وشبكة التليفونات و بقية الشبكات .

والآن وبعد أن اغتبنوا واكتفوا ، يلغون الدعم بناء على طلب الصندوق ، فيحرمونكم حتى من القليل الذى كان يصلكم ، بدعوى تسديد الديون التى اقترضوها باسمكم ، ضاحكين عليكم للمرة الثانية .

يقولون لكم أن صندوق النقد مبسوط وقرر إسقاط عدة مليارات من الديون ولا تعرفون أن ذلك تم مقابل الخصخصة . فبعد أن فقد الدائنون الأجانب الأمل فى الحصول على ديونهم وأصبحوا مستعدين للتنازل عن نصفها مقابل الحصول على النصف الثانى ، يتيحون لهم الحصول عليها كاملة بشراء المصانع والشركات والبنوك التى قامت بأموالكم وتضحياتكم . يشترونها بتراب الفلوس ويحصلون معها على سوق لمنتجاتهم الأخرى و عمالة رخيصة فكأنهم استردوا ديونهم مضاعفة عدة مرات ...

أغرقت صيحاتنا صوته حتى اضطر للصمت . ولم يلبث أن إرتفع صوت آخر خيل الى أنه صوت الشيخ عصام . ويدا أن الليلة لن تنقضى على خير . لكن لم يكذ ينطق بكلمتين حتى غطى عليه صوت قوى سمعته يقول :

- أخى المسلم انظر ماذا فعل الله بأبرهة الأشرم حينما جاء بالقيلة ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ؟ و ماذا فعل الله بفرعون حينما قال " ما علمت لكم من إله غيرى ؟ " ماذا فعل الله تعالى ؟ أغرقه الله و من معه . قل يا أهل الكتاب إن الله حرم الخمر و الزنا و الميسر و الربا فتعالوا إلى كلمة سواء فإن لم تأتوا إن ربك لبالمرصاد

استمعنا جميعا فى هدوء ولم يجرؤ أحد على التشويش عليه . و ظهر حارس الليل عند الباب فناوله النوبتجى من الشراعة نصيبه من الطعام وعندما أعطانا الأمان قام مساعد الحاج رأفت و أقعى بجوار دلو البول وتعاون النوبتجى مع سجين آخر فحجبا عن الأنظار بيطانية رفعها فى الهواء ، ثم أنزلاها فظهرت فى

يده لفافة المخدرات . تولى النوبتجى صب المياه فوق يديه فغسلهما هما واللفافة جيدا بالصابون . وفك النوبتجى اللفافة فكشف عن كيسين يضم أحدهما قطعة من الحشيش فى حجم كف اليد تشممها النوبتجى فى إعجاب ويضم الآخر أقراصا بيضاء وأخرى خضراء فوسفورية .

تولى الحاج رأفت توزيع الأقراص يمينا ويسارا بينما انهمك مساعده فى تقطيع الحشيش . واعتذر سالم عن تناول الأقراص فقال له الحاج ضاحكا وهو يبرز زجاجة باراكودايين :

— كودا صلايش فودرة .

كان يقصد أن الجمع بين أدوية السعال وأبو صليبة يعطى نفس تأثير البودرة. أصر سالم على الرفض وسألتى إن كنت جربت هذا المزيج فقلت :

— مرة . كان لى شلة أصحاب فى المعادى . وقعدنا نسمع مزيكة . شريط لفريق إسمه "بينك فلويد" بيقول حاجات عن الظلم واضطهاد الشباب والفقر . وكنا بنسمع كمان "محمد منير" . قعدت مشعشع مدة وبعدين صدرى طبق على وحسيت إنى حاتخنق . و نمت بعدها ثلاث تيام .

قال بصوت خافت : الحاجات دى مضرة جدا . تعرف إن كل اللى بياخدوا أدوية الكحة دى بيخلصوا . مبيعودش فيهم للنسوان ويجيلهم احتباس فى البول . سكت لحظة ثم أضاف :

— اوعى تاخد الحاجات دى . . ولا حتى البانجو . . ده يلحس الدماغ . . خليك فى المية والحشيش أحسن ..

أبرز الحاج رأفت جوذة محلية الصنع تتألف من علبة عصير من الصفيح مثقوبة من الجانبين وعدة "حجارات" مصنوعة من لباب الخبز وبوصتين قصيرتين ثبت كل بوصة فى ثقب ثم وضع "الحجر" فوق إحدى البوصتين و ثبته بجزء مز

غلاف علبة سجائر . وقامت الحلاوة الطحينية بدور الوقود مرة أخرى فوضع الورق المدهون بها فى فتحة "الحجر" ثم أشعله وأضاف إليه الحشيش . ومرت الجوزة حتى وصلت إلى سالم فأخذ نفساً عميقاً إحتفظ به طويلاً فى صدره ثم أطلقه وناولنيها . قلدته وتركته النفس فى صدرى أطول مدة ممكنة كما فعل وأطلقته فشعرت بالنوارثم بدأت أسترخى . وكان النوبتجى قد أعد دوراً ثانياً من الشاي وقدمه إلينا قائلاً :

- شاي كواليتى ... عقبالنا جميعاً ياأبن الله .

تناهى إلى حديث بين الحاج رأفت والحاج عرفة . وكان الأخير يحاول تأكيد سلامة الخطوات التى يتخذها عند تعبئة البودرة :

-إحنا بنخلطه تمانية لواحد . أربعة مانيتا وأربعة كينين . وبعدين ننخلهم مرة واثنين وثلاثة ، ست مرات لغاية ما ينصفوا تمام .

مال على سالم وهمس :

- بقى هم دول اللى بيدخلوا البلد مخدرات بألف مليون جنيه فى السنة ؟ زى مقلتك السمك الكبير ميجيش هنا أبدا .

إنطلق عم حسن يغنى أغانيه الصعيدية ثم ردد آخر أغنية "خالد عجاج" التى أحبها :

"فى ناس بتحب تاخذ كل حاجة

مع إنها مش محتاجة

وناس بترضى بأى حاجة

فى عز ما هى محتاجة .."

فوجئت بسالم يردد بصوت أجش أغنية سميرة توفيق : أنا عاشق . وعندما وصل إلى المقطع التى تقول فيه : " أنا عاشق يا صاحبي من زمان " التفت نحوى .

أعلن النوبتجى أن الأغنية التالية مهداة إلى الحاج عرفة فنهض وخطا وسط الزنزانة وتناول من عم حسن الشال الأبيض الذى يلفه فوق رأسه فحطاط به خاصرته وعقده على جانب . انطلق يرقص ونحن نصفق ثم انضم إليه النوبتجى . وقام الأخير بتقليد الراقصات فعزى جانب جلبابه ببطء وهو يبتنى فكشف عن ساق ضامرة غطاها الشعر . تعالت صيحاتنا ورددت أصوات اسم حجاج فقام وحزموه ورقص بحرفة وعزى ساقه حتى أعلى الفخذ وكانت ملساء بلا شعر فهللنا له وصاح الحاج عرفة مقلدا العالمة : أيوه يا أختى . ويلغ الهياج مداه .

تعلقت عيناي بصور يسرا و ليلي علوى و فيفى عبده ورضا عبد العال الملصقة على الجدران ثم نقلتهما بصعوبة إلى مجلس الحاج رأفت . تابعت أحد النزلاء يقترب منه حاملا بطانية وبسطها ثم رفعها بحيث حجبنا عنا حجاج . وعندما أبعدنا بعد قليل انطلقت صيحات التهليل ورأيت حجاج يزعم شفتين مصبوغتين بالروج الثقيل وهو يضحك .

ابتسم الحاج رأفت فى زهو و تطلع حوله بعينيه الضيقتين القاصرتين وبدأ الرقص من جديد . أمسك الحاج عرفة بالغطاء المعنى لداو المياه وأخذ يدق عليه بكف يده وقاد زفة بدأت من الباب حتى مجلس الحاج رأفت حيث يستدير الراقص ويثنى جسده للخلف مقتربا برأسه من الأرض إلى أن تصبح فى حجر حجاج بينما يرعش جسده ويصيح الجميع : ادلع يا عريس و عروستك جاية .

دارت الجوزة حتى وصلتنا فأخذت منها نفسا طويلا دون أن أرفع عيني عن حجاج . وتمددت فى جلستى مستمتعا برائحة الدخان التى اختلطت بالرائحة المنبعثة من ملابس سالم والتى نكرتنى برائحة ملابس أبى . وسرح فكرى إلى عبد الفتاح ثم هدى .

حكى أحدهم نكتة بائخة عن الصعايدة ومع ذلك انفجرنا ضاحكين ثم نكر ما دبروه لأحد الضباط الذى كان مغرما بتفتيش الزنازين و يثور إذا لم يجد شيئا

من الممنوعات . حصلوا على قليل من المواد الكاوية التى تستخدم فى تنظيف المراحىض ووضعوها فى كيس صغير أخفاه أحدهم فى ملابسه . وابتهج الضابط عندما عثر على الكيس وأراد أن يتأكد من طبيعة المسحوق الأبيض بداخله ففتحه وذاق محتوياته بطرف لسانه . ومن ساعتها حرم .

روى آخر ما فعلوه فى الليمان أثناء مرور اللواء مدير المصلحة عندما أرادوا الاحتجاج على سوء المعاملة . انتظروا حتى دخل العنبر بصحبة مدير الليمان وضباطه بعد أن صاح الحراس بصوت كالرعد " إنتباه " وساد سكون مطبق فدسوا قطعة صغيرة فى جوب وأطلقوها فى العنبر . وفوجئ اللواءات بكرة داكنة تصدر عنها أصوات غريبة تندفع نحوهم بسرعة خارقة نون أن يتمكن الحراس من الإمساك بها . فاستولى عليهم الذعر وجروا مبتعدين . وطبعاً عرفت الحقيقة فى النهاية وتعرض الليمان كله للتكدير .

استولى على النعاس مرة واحدة واستيقظت فجأة شاعراً بيد تعبث بسر والى . ظننت أنى أحلم ثم تبين أن النور مطفأ والجميع نيام و سالم إلى جوارى تحت غطاء واحد . إعتدلت جالساً فسحب يده على الفور واستدار معطياً ظهره لى .

ظللت جالساً أحدى فى الظلام وقلبى يدق فى عنف . أنصت لصوت تنفس سالم وحاولت تحديد موقع الحاج رأفت وحجاج إلى أن بزغ الفجر فغفوت . واستيقظت من جديد عندما فتحت الزنازين فنهضت أنا أتأشى النظر إلى سالم وشعرت أنه هو الآخر يتجنب مواجهتى . وخيل إلى أنه يشعر بالحرج فملأنى هذا بنشوة غريبة .

حمل كل منا نمرته وعدنا إلى زنازتنا . تركته يتناول الإفطار وحده وبعد أن شرب الشاي غادر الزنازة . قمت إلى نمرته فوجدته قد ترك لى نصيبى من الجبن والخبز وقطعة من الحلاوة الطحينية . فضلاً عن سيجارة كاملة بجوار الوسادة . أفطرت وأعددت كوباً من الشاي ثم قسمت السيجارة إلى ثلاثة أجزاء وضعتها فى

علبة صغيرة من الصفيح وبخنت إحداها . تكرر الأمر ذاته فى الغداء فأعد قروانة من الفول بعد أن انتقاه وقشره وخلصه من السوس ثم أضاف إليه قليلا من الزيت وبصلة وحب طماطم ووضعها على السخان . وعندما استوى أكل نصفه وترك لى النصف الثانى . وفى العشاء اضطررت أن أنضم إليه فوق نمرته كعادتنا كي لا أثير التساؤلات .

كان قد أعد مائدة مؤلفة من قطعة مكرونة بالفرن وصحن من الخبيزة أضفت إليها نصيبى من اليمك الذى لم يكن أحدنا يستسيغه . أكلنا فى صمت ثم التجأت إلى نمرتى فأشعلت الثلث الأخير من السيجارة وتشاغلنا بالإنصات إلى الأحاديث الدائرة والفرجة على بقية المساجين . وكان أحدهم منشغلا برتق فائلة من الصوف فقررت أن أعهد إليه بفانلتى التى تمرقت عند الابط . وعرض على فريق الكوتشينة أن ألعب معهم فاعتذرت وتسليت بمتابعة الإذاعات التى بدأت كالعادة بأخبار السجن . لم أكن أتوقع زيارة من أحد فى الغد كما كان بينى وبين موعد جلسة المحكمة أسبوعان ومع ذلك أنصت فى إنتباه لأسماء الزيارات والترحيلات أملا أن أسمع اسمى بينها .

انتهت النشرة وثلتها النشرة الإسلامية ، وفى نهايتها طرح المذيع سؤالا وإجابته . كان السؤال عما يفعل الخطيب إذا حدث ناقض لوضوئه وهو يخطب الجمعة . قال أن الخطيب فى هذه الحالة له أن يستمر فى الخطبة ثم يتوضأ بعد ذلك ليصلى بالناس أو يقدم شخصا آخر لإمامة الناس بدلا منه حتى يتوضأ وإما أن يقطع الخطبة وينيب غيره لاستكمالها أو يذهب هو ليتوضأ ثم يعود ليخطب فكل ذلك جائز.

جاء دور الدكتور رمزى الذى انطلق كعادته :

- يا غلبة يا مساكين أنتم لا تفهمون سعر الفائدة أو الخصم . لاتفهمون شيئا فى الإقتصاد . لهذا تتركبونهم يقترضون ويقرضون ويغامرون بأموالكم

ويستثمرون وفي النهاية أنتم تدفعون . ضحك عليكم أصحاب الذقون واستولوا على مدخراتكم ثم أودعتم الباقي في البنوك التي أغرتكم بربا مرتفع . وبعد فترة خفضت السعر وتلاعبت به . أما أموالكم فقد أقرضوها بالملايين للأفاقين والمغامرين والنصابين وأبناء الحكام وأقاربهم . وأغلبهم لا يردون هذه القروض ويتهربون من سدادها بكافة الوسائل . وتساعدهم البنوك بأن تعتبرها في النهاية قروضا معدومة أو ميتة . وتقرأون عن ذلك في الصحف وتسمعون أن فلانا هرب بعدة ملايين وفي الحاليتين تهزون أكتافكم بغير مبالاة ولا تدرون أنكم ستدفعون كل الملايين المعدومة والهاربة في نهاية المطاف . كيف ؟ أولا هم يعطونكم ربا بسيطا على إيداعاتكم أقل بكثير من الذي يأخذونه عند إقراضها لغيركم أى أقل مما يحق لكم . كما أنهم يحسبون ربا الإقراض بطريقة الربح المركب فيترايد يوميا . هذا الفرق الكبير الذي يأتى من جيوبكم وشقاؤكم هو الذي يغطى القروض الميتة التي يحصل عليها أقارب الحكام وأصحاب الأموال ..

استمر موال الدكتور رمزى بعض الوقت لكنى انصرفت عنه إلى عدد من مجلة " الكواكب " وجدته بجوارى ثم تناولت صحيفة اليوم . طالعتنى صورة لضابط شرطة شاب وسيم قتله الإرهابيون فى الصعيد بعد أن أطلقوا النار على الناس فى السوق وأردوا بعضهم .

نمت فى عمق لم يوقظنى منه البرد . وفى الصباح اكتشفت أن سالم وضع فوقى إحدى بطاطينه فأعدتها له بون كلمة .

أفطر كل منا بمفرده وتوضأت ونزلت لصلاة الجمعة فى فناء الطابق الأرضى . وتبعنى سالم بعد قليل . كان الخطيب بآدى التجهم وبعد أن حمد الله وأثنى عليه انطلق يهاجم مذهب الشيعة . استفاض فى شرح بعض المسائل الفقهية التى استعصت على فهمى فأنصرفت عنه إلى تأمل الجالسين وأفيتهم مثلى يتململون ثم بدأوا ينتبهون للخطيب وسمعته يقول أن بعض كتب الشيعة تعتبر المرأة ناشزا

إذا رفضت الوطأ في دبرها من الزوج كما أن أحد أئمتهم أفتى بأن الزوجة إذا ماتت من الوطأ في دبرها فلها نصف الدية وهذا كله يعنى إباحة الشيعة للشنود رغم علمهم إن الإيدز لم يأت إلا من وراء هذه الأفعال القذرة .

سرت همهمات بين السجناء وعلت الابتسامات وجوه بعضهم . مضى الخطيب فقال :

- إن الشيعة في موقفهم هذا يستندون زورا وبهتانا إلى القرآن الكريم وقوله تعالى : " وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبله كانوا يعملون السيئات قال يا قومى هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى أليس فيكم رجل رشيد ، قالوا قد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد " صدق الله العظيم . وهنا قال الشيعة أن لوطا قال لقومه إنى أعرض عليكم بناتى وهو يعلم أنهم لا يريدون إلا الأدبار فكأنه وافق على وطء بناته فى أدبارهن .

فى ختام الخطبة رفعنا جميعا أيدينا بالدعاء لله تعالى كى يصلح أحوال البلاد والأمة ويغفر لنا ذنوبنا ويمن علينا بالإفراج القريب ، وصعدت بعد الصلاة إلى الزنزانة فألقيت نظرة داخلها . كان سالم قد سبقنى وجلس يدخن فوق نمرته . ولم أر أثرا لأى سجائر فوق نمرتى . مضيت فى الطريقة إلى نهايتها فافترشت الأرض جاعلا ظهري إلى الحائط الخلفى للعنبر . وأخذت أستعرض المساجين الذين يمكن أن أقترض منهم وفكرت فى توكل . كان قد عرض على أن أوصل تخزين لفائفه مقابل حصاة من السجائر وقلت لسالم فمنعنى وحذرنى منه ، متعهدا بأن يتكفل بحاجتى من السجائر إلى أن يفرجها الله .

صعبت على نفسى قدمعت عيناي و فوجئت بسالم يقترب منى فانتابنى الخوف . جلس إلى جوارى وقال دون أن يلتفت نحوى :

- أنا مش عاوزك تفهمنى غلط . اللى حصل كان غصب عنى . إوعى تفكر إن ده هو اللى أنا عاوزه منك . أنا أقدر أفك حاجتى بأسهل ما يمكن ، أنت عارف

ده كويس ، لكن مش حاقدر ألاقى أبدا صاحب . . اسمع . . أنا لى فى السجون أكثر من عشرين سنة . تفتكر إيه أكثر حاجة كنت محتاجها ؟

لم أجب فواصل : تفتكرأنا مكنتش محتاج لحد جنبى ؟ حد يطبطب على وأطيطب عليه ؟ حد يحضنى و أحضنه ؟ عارف يعنى إيه انك تقعد عشرين سنة من غير ما تلمس إنسان تانى ؟ من غير ما حد يحبك ؟ مش معنى كده انك عاوز تعمل معاه حاجة . مش ضرورى . فيه شئ اسمه الصداقة . إن يكون جنبك حد يعرف إنت بتفكر فى إيه وتقصد إيه لما تقول حاجة . . واحد يفهمك و يقدرك ويعزك ويخاف عليك و يساعدك و يقف جنبك وقت العوزة .

قلت فجأة : أنا أبويا عمره ما حضننى .

أشعل نصف سيجارة فى مبسمه و قدمه إلى فتناولته . واستأنف حديثه :
- ناحية الغريزة دى حاجة طبيعية . السجن هو اللى مش طبيعى . العالم اللى هنا كله منحرف . تفتكر انا معرفش الفرق بين الراجل و الست ؟ الراجل مش ممكن يحل محل الست أبدا . حتى ولو نام على ظهره . بس بص حواليك . إنت شايف ستات كتيرة هنا ؟ طب الواحد يعمل إيه . أوقات أبقى حاسس انى حاجتن ، ومهما حاولت مفكرش مفيش فايدة . مفيش يوم يفوت من غير ما حاجة تفكر . صورة فى مجلة . غنوة . حركة . فيه ناس تعمل أنها مش مهتمة بالموضوع ده ، خايفين من اللى ممكن يحصل ، خايفين يتسخطوا . مفيش حد هنا يحب ييقى شاذ . الشواذ دايمًا محقرين والناس بتستضعفهم و متعملش لهم حساب . طب الواحد يعمل إيه ؟

جذبت نفسا من نصف السيجارة حبسته فى صدرى ثم ناولته المبسم وأطلقت الدخان من فمى بون أن أعلق . كان يدهشنى دائما بقدرته على أن يتحدث مثل المتعلمين .

مضى يحكى لى عن مسجون من أصدقائه قبض عليه أول مرة وهو فى سن الثامنة عشرة . وفى مركز الشرطة اعتدى عليه ثلاثة من الأشقياء بالقوة . وبعد ست سنين قبض عليه مرة ثانية وفى مركز الشرطة وجد معه صبيبا فى السابعة عشر من عمره فاغتصبه بعد أن ضربه . وقال لسالم أنه كره نفسه ساعتها لأنه تذكر ما حدث له شخصيا وكيف كان شعوره و هو عاجز عن المقاومة بينما مغتصبوه يتتابعون فوقه . ثم اعترف بأنه استمتع باغتصاب الصبى . لا بالعملية الجسدية وإنما لأنه ، على حد تعبيره ، " كان فوق مش تحت " .

لمحت نزيلا من فرق النظافة الميرى يحمل فى يده لفافة مغلقة بورق الفويل المفضض ويطل فى الزنازين كمن يبحث عن أحد . أشار سالم للنزيل و هو ينهض قائلا : الأكل وصل .

تناول اللفافة من النزيل و تبادل معه بعض كلمات ثم ولج الزنازاة وهو ينادى على . ذهبت إليه فأرانى صينية مستطيلة من الكرتون استقرت فوقها ثلاث سمكات مشوية مغطاة بالبقدونس وكمية من البطاطس الفريت .

قال : إيه رأيك ناكل الوقت البطاطس بالعيش و نسيب السمك للعشا .
أعددنا سندوتشات البطاطس و جلسنا نأكلها . وتجرأت فسألته عن مصدر الأكل فضحك وقال :

– الجماعة بتوع القرى السياحية . عملتهم خدمة .

– و خبيزة إمبراح ؟

– هم برضه . شوف بعطولى إيه كمان .

أرانى ماكينة حلاقة "جيليت" من النوع الجديد الحساس و لوحة شفرات من النوع ذى الحدين اللذين يعلو أحدهما الآخر و التى تثبت فى الماكينة بضغط خفيفة على نتوء بها . تناولت لوحة الشفرات و قلبتها فى يدى . كانت بلا هوية ولا

تحمل اسم ماركة معينة ثم اكتشفت في طرفها عبارة بخط دقيق : "MADE IN ISRAEL".

شعرت أنه لا يريد أن يذكر نوع الخدمة التي أداها لهم فلم أسأله عنها .
توليت إعداد الشاي وجلسنا نشربه في الطريقة . سألته بعد لحظة إذا كان قد
تزوج فقال :

- مرة . اللي زى مالوش في الجواز . السجن بيخرب الواحد . أنا أول
مادخلت السجن كنت دايمًا أشوف نفسى فى الحلم بره . الوقت عندي حلم بيتكرر
كثير . باشوف نفسى فى العنبر وفيه هوجة وأدخل زنزانة فيها إيدكو عمال يعيط .
أمسكه من شعره وأهزه قدام المساجين وأقوله يفك بنطلونه فيترجاني إنى
مقتلوش عشان عياله . ويعد ماينزل بنطلونه أخليه يطاطى وأسخمله . وبعدين
ألاقى نفسى ماسك سكة وعمال أغزها فى ضهره . حاجة فظيعة . مش كده ؟
فى الأول كنت باحلم بنسوان عريانة لها بزاز كبيرة . شوف وصلت لإيه ؟ يا ترى
بعد خمس سنين مثلاً حاحلم بايه ؟ والا لما أخرج . لكن حاروح فين ؟ لو كنت
حأخرج بكره تفتكر حاتغير ؟ طب وحأعيش إزاي ؟ حاقف فى كشك سجائر ؟ ولو
عبيت مين حيعالجنى ؟ لو كنت لوا شرطة ولا ممثل أو مهرج وحصل لى حاجة فى
القلب حيسفرونى على طول أتعالج بره على حساب الدولة . لا . أنا مشيت فى
سكة من زمان وخلص . بس عمرى ما فكرت انى حاقضى حياتى فى السجن .

قلت : إنت اللي جييته لنفسك .

قال : معاك حق .

صمت لحظات فى وجوم ثم قال :

- تعرف إنى كتير أحسد اللي أنا قتلتهم ؟ تعرف إيه ؟ لأن محدش حيجرى
وراهم ولا حيهرىبوا ومش حيقتلوا حد . كل واحد فيهم كان له اللي حزن عليه . أنا
بس اللي حزنت على نفسى من بدرى لأن مليش حد يحزن على : أبويا مات

مشلول وأمى عميت ومعدتش باسأل عليها . مش عاوز ابعتها حاجة حرام وأنا
مبكسبش من حلال .

نادى علينا الحارس لطابور العصر . ولزمتنى ثرثرة سالم طول الوقت .
حكى لى طويلا عن طفولته . ولم يتوقف إلا عندما بدأت نشرات المساء . استمعنا
إلى واحد يتحدث عن ضرورة الصبر مستشهدا بمحنة النبی أيوب . ورتل بصوت
رخيم : " وأيوب إذ نادى ربه إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا
له فكشفنا ما به من ضر وأتيناه أهله . " وقال إن الضر يقرب المؤمن من الله ،
فعندما يشكو أوجاعه إلى الله ويتضرع إليه ينال ثوابا عظيما . والله يبتلى البر
والفاجر بالبأساء والضراء لحكمة قدرها فالأول يزداد من الله قربا حين يستنجد
به بينما الفاجر يزداد بعدا عن الله حين لا يتضرع إليه ولا يستغيث به .

تنهد سالم وقال :

— الحاجة اللي مش قادر أفهمها انه بعد كل التقدم اللي حصل والإختراعات
والصواريخ اللي بتلف فى السما وكل ده ملقوش لحد النهاردة حل للمجرمين اللي
زبى غير السجن ؟ هم عاوزين منى إيه ؟ يعاقبونى ؟ طب ده يفيدهم بيايه ؟ يقواك
السجن تهذيب وإصلاح . انت شايف فيه تهذيب وإصلاح ؟

أشرت إليه أن يصفى معى للدكتور رمزى الذى صاح فينا :

— يا غلابة يا مساكين . لو أنا سألت الواحد منكم ، كم دفع هذا الشهر من
الربا سيجيب قائلا : الربا يدفعه من يقترض من البنوك أما أنا فمن يقرضنى ؟
وإذا سألت واحدا آخر : كم دفعت من ضرائب هذا الشهر ؟ سيجيب بأنه رجل
فقير ولا مال عنده وبالتالى فلا يدفع ضرائب . ولم يدرك المسكينان أن الرغيف
الذى يشتريانه يضم فى ثمنه نسبة مخيفة من الربا ومن الضرائب . الرغيف يمر
قبل وصوله إليكم بخمس مراحل : مرحلة الزراعة أو الاستيراد ، مرحلة تخزين
القمح ، مرحلة الطحن ، الفرن ، بيع التجزئة . كل مرحلة يجرى تأمينها عن طريق

القروض الربوية التي تضاف إلى تكلفة كل مرحلة وتصاف الخسرية بنفس الطريقة . فإذا كان رغيف الخبز ثمنه عشرة قروش وإذا حسبنا نسبة الربا في ثمن الجرار والمبيدات والبذور والسماد أو تكلفة الإستيراد والنقل ومخازن الحبوب والأفران لوجدناها الثلث أما الضرائب التي تدفع من ثمن التراكتور إلى آخره فهي أيضا في حدود الثلث . أى أنه لو كان هناك نظام غير ربوى ونظام ضريبي عادل فإن بإمكان الواحد أن يشتري ثلاثة أرغفة بدلا من الرغيف الواحد وتصبح قدرته ثلاثة أمثالها .

لم أفهم ما يعنيه الدكتور رمزي بالضبط ولهذا بحثت عنه في طابور الصباح لأستفسر منه وأيضاً كي أهرب من ثثرة سالم . وجدته جالسا إلى جوار الحائط وقد مدد ساقيه وعراهما ليعرضهما للشمس وأحاط به سامح ورمضان . جلست إلى جوارهم وانضم إلينا مستر تامر بعد قليل، وكان يمسك بمجلة فرنسية سميكة تحمل فوق غلافها صورة مايكل جاكسون في ملابس الذهبية اللامعة التي تلتصق بجسمه .

وضع مستر تامر المجلة جانبا وأنصت للنقاش فتناولتها وتصفحتها بسرعة . كانت بها إعلانات كثيرة عن المودات الجديدة للملابس الرجال . وأعجبني معطف ترواكار من الصوف له ياقة قصيرة منفصلة تثبت فوق الصدر بزرار كبير ، ومعطف آخر من النايلون ببطانة كاروهات من الصوف وياقة عالية من الفرو وجيبين ساتلين عند الصدر وزراير ذهبية عند الرسغين من إنتاج بيربيريز الإنجليزى . كما أعجبتنى مجموعة من كرافقات سيروتى الفرنسية . وفهمت من إعلان عن عطر "أوبيوم" النسائي أنهم بدأوا ينتجون للرجال أيضا . وكانت هناك عدة صور للموديلات الجديدة من سيارات فرارى وألفا روميو ومرسيدس تشبه السيارات التي تظهر في أفلام الفضاء وخصوصا واحدة بلا عجلة قيادة . وتوقفت طويلا أمام صورة امرأة شقراء جميلة ارتدت بلوزة شفافة محزقة أبرزت حلمتى الثديها بوضوح تام .

لمح مستر تامر المجلة فى يدى فأخذها منى . وجهت انتباهى لحديث الدكتور رمزى :

- بعد سنة البنك يدىك فلوسك بزيادة . صح ؟ معنى كده انك أخذت مكسب من غير مقابل . أخذت فلوس من غير متعمل حاجة . من غير ما تنتج حاجة ، صح ؟ جت منين الفلوس دى ؟ يا إما من إالى تطبعه الحكومة من غير رصيد يعنى من غير مايسنده إنتاج . وده يضرك لأن الفلوس لما تكثر فى السوق قيمتها تقل . مسألة عرض و طلب . أويكون البنك أخذ من حقوق غيرك وإداك . يعنى الكل يخسر عشان انت تستفيد . أو تخسر أنت عشان يستفيد غيرك .. . عشان كده بقول ان اللى بياكل الربا بيخذه من عرق الفقير .. تعرف البنك الأهلى حقق السنة اللى فاتت أرباح قد إيه ؟ مليار جنيه . جم منين دول ؟ سكت لحظة يفكر ثم إستطرد :

- لو أخذنا واحد مرتبه ٣٠٠ جنيه فى الشهر مثلا . حتلاقىه فى الحقيقة بياخذ خمسين جنيه بس . إزاي ؟ أولا بيدفع تأمينات . قول عشرة فى المية . طبعا صاحب العمل بيدفع قدامه عشرين فى المية لكنه بيحمل المبلغ ده على سعر السلعة والنتيجة ان الفقير بيدفعها تانى لما بيعى يشتري . بعد كده بيدفع خمسة وعشرين فى المية ضرائب دخل والباقى هو الراتب الصافى . يعنى كأنه بياخذ تلتين حقه ومن التلتين دول يدفع ضرائب تانية غير مباشرة عبارة عن تلت تمن السلع التى بيشتريها . يعنى يفضل من مرتبه تلت واحد . التلت ده نفسه ربعه بيضيع فى التضخم والإنخفاض المستمر فى قيمة العملة نتيجة ان الدولة بتطبع فلوس من غير رصيد . يعنى عمليا بيتفضاله سدس المرتب الاصلى . يعنى متسخط تمام .. . لمحت حجاج جالسا إلى جوار الحائط فانتقلت إلى جواره . فوجئت به يبكى . سألته عما به فلم يرد و واصل البكاء . ربت على ظهره ثم على شعر رأسه الناعم . مسح دموعه بكم جلابه والتفت نحوى قائلا : مفيش . بفتكر حمادة .

سألته و أنا أتأمل شفتيه : حمادة مين ؟

ذكر لى أنه صبى فى سنه يتيم الأب تشاجر مع أمه بسبب الفلوس والتقطه زرافة فصار يخرج معه ويسرحان فى القطارات . وفى يوم قرر حمادة الهرب فقفز من القطار وسقط على الأرض بجوار القضبان . قفز حجاج وراءه وأسرع إليه فوجد رأسه تنزف . نادى عليه فلم يرد فقطع قميصه وربط له رأسه واستنجد بالمارة الذين تبينوا موته . وعندما سألوه عنه أنكر معرفته به وتسلسل هاربا .

- رجعت لزرافة وأنا بعيط . كنت خايف منهم جدا ومرعوب وبعدها سخنت وقعدت أرتعش ومرضيتش أكل . أصل حمادة كان صاحبى الوحيد و كنت باحبه قوى . زرافة أخذنى وأنا تعبان كده وقعد يشحت بى فى الشارع على إتنى ابنه وعيآن ومعاهاوش ثمن العلاج . فضلت ع الحال ده أربع أيام لغاية ما خفيت بس كل مفكر حمادة أروح معيط .

صفر الحارس معلنا انتهاء الطابور فقمنا متثاقلين وإرتقيننا السلم على مهل . وتوقفت أستريح عند الطابق الثانى . وحانت منى التفاتة إلى الفناء فلمحت نزيلا جديدا يدخل من بوابة العنبر حاملا نموته . تعرفت فيه على موظف التربية والتعليم الذى لقيناه فى حجز القسم . لم أتذكر اسمه فناديتة :

- كعب الداير .

رفع وجهه إلى و لوح بيده . لم أعرف إذا كان تذكرنى .

سألته : إيه اللى جابك ؟

ضحك و صاح : أنا لسه راجع من لفة المحافظات . إنشاء الله أخرج قريب .
قاده الحارس إلى زنزانة الإيراد وواصلت الصعود و عندما بلغت قمة الدرج شعرت فجأة بآلم حاد فى جانبي جعلنى أنحنى ممسكا به . تكرر الألم فخطوت بصعوبة نحو الزنزانة . وهرع سالم إلى جوارى وعاوننى على الوصول إلى نمرتى فتمددت فوقها وأنا أئن .

تجمع النزلاء حولى واستمر أنينى فتعددت الآراء والاقتراحات بشأنى . فمن قائل أنى تعرضت لضربة برد ومن أفتى بأنه المصران الغليظ و من أكد أنه المصران الأعور . أعد لى سالم كويا من عصير الليمون . وعندما وجد أن الأكم مستمر قال:

— لازم نوديه العيادة .

قال النوبتجى :العيادة مقفولة . الظاهر محدش جه منهم النهارده .

تذكرت الطبيب المزيف فى زنزانة عبد الفتاح فطلبت من سالم البحث عنه . أحضره بعد قليل ففحصنى وقال أنى أشكو من برد فى الكلى أوحصوة . ونصحنى بأن أشرب السوائل باستمرار وأتدفا جيدا .

شربت كويا من الشاى وأعطانى سالم فائلة صوفية لففتها حول خصرى ويسط فوقى بطانتين من بطاطينه . وأحضر لى النوبتجى أسبرينة وقرص نوفالجين . لكن المغص لم يتوقف بل ازداد حدة . فطلبت من سالم أن يذهب إلى الدكتور رمزى ويطلب منه مسكنا . وجاء الدكتور رمزى بنفسه فأعطانى حقنة . وبعد ربع ساعة أخذ الأكم فى الانحسار حتى اختفى تماما .

أصر سالم على نقلى إلى جواره بعيدا عن تيارات الهواء ولم يعترض أحد . وأعد لى كويا من الحلبة الساخنة . وكان جارى من الناحية الأخرى سائق ميكروياس اصطدم بمقطورة نقل على الطريق الزراعى فقتل سبعة من ركابه . كانت له رأس ضخمة بالنسبة لجسمه القصير ورحب بى قائلا : خدما إيزى . وكان دائم التردد لهذه العبارة بمناسبة وغير مناسبة .

روى لى كيف قرر أن يصبح سائقا وهو طفل لأنه أعجب بما يتمتع به سائق مأمور المركز من هيبة ونفوذ . وعلق قائلا :

— أنا دايم خيبان . جماعة قرايىي هاجروا استراليا وقالوا لى أروح معاهم .

مرضيتش . يعنى مش كنت سمعت كلامهم أحسن ؟ مكنش حصلى اللى حصل واطرميت الرمية المهبية دى .

قلت له : خذها إيزى .

ضحك وقال : واخذها . بس وحياتك مش خسارة ؟ كان زمانى الوقت مع قرايى . بلاد بتحترم البنى آدم . العيل يتواد بمعاش . الرعاية الصحية شاملة ودقيقة وأميئة ومجانى . الساعة خمسة الى يفضل من العيش يحطوه فى أكياس ويوزعوه على البيوت مجانا . التفاح الى مجروحة قشرته يوزعوه على الناس مجانا . النتيجة مفيش لا سرقة ولا جريمة ولا مخدرات . . المصريين هناك عايشين ملوك . الولاية قرييتى كانت عاوزه تيجى مصر زيارة بنتها الصغيرة قالتها يا ماما خلىنا هنا أحسن منروح ليل الشحاتين .

حكى لنا عما يصادفه فى عمله من مواقف و شخصيات ونعست خلال حديثه . رحت فى نوم عمق مستمتعا بالدفء . وفى الصباح أصر سالم أن أعرض نفسى على طبيب السجن . قلت أن جسمى قذر ولا بد أن أغير ملابسى الداخلية وأستحم أولا بينما مياه البورة باردة . قال أنه سيتكفل بتسخينها وأعطانى فائلة نظيفة . ثم أخرج من كيسه ماكينة الحلاقة ذات الشفرة المزدوجة ومراة صغيرة مكسورة واقترح أن أحلق ذقنى . أسندت المراة إلى قروانة مقلوبة ودعكت ذقنى بصابونة بالموليف ثم بالفرشاة وحلقت ثم نظفت الماكينة والمشرط و أعدتهما إليه فقال :

- خليهم . بالمره تشيل الشعر الزيادة الى فى جسمك .

حملت الفائلة النظيفة وفوطتى والصابونة بالموليف . وسبقنى إلى البورة فأنعد لى دلوا كبيرا ممتلئا بالمياه الساخنة أخذته معى إلى المرحاض الأخير . أنزلت الستارة وخلعت ملابسى وألقيت بها فوق الحافة الخشبية . دهنت ساقى بالصابون ودعكته جيدا بالفرشاة إلى أن تكونت رغوة كبيرة فرفعت ساقى إلى أعلى وتناولت الماكينة فقربتتها من أعلى فخذى وبدأت فى إزالة الشعر .

تمت

شكر واجب

لمحمد برادة الذى أتاح لى الفرصة ، وأعاننى بتواصله (فضلا عن نصائحه المستمرة !) .

لكمال القلش الذى كان كعهده دائما خير صديق وقت الحاجة .

للفنان الكبير بهجت عثمان .

لصلاح حزين .

لأسرة دار المستقبل العربى، التى والتى دائما بالتشجيع والمساندة .

للأصدقاء الذين لم ييخلوا بمعلوماتهم : أحمد سيف الإسلام المحامى، وائل عويس ، إيهاب الأرفلى ، د.إسماعيل محمود فهمى ، إمام رفاعى المحامى، الكتاب : يوسف فاخورى ، رؤوف مسعد ، وأشرف توفيق (وقد استفدت بالخصوص من كتابيه عن المخدرات) وأحمد زغلول الشطى الذى تكرم بتصحيح معلوماتى عن اجراءات التحقيق كماوردت فى الفصول التى نشرت بالصحف .

وللآخرين من ضباط سجون وسجناء سابقين تحدثوا بصراحة عن تجاربهم، وأمدونى بحاجتى من الوثائق وتخرجوا من ذكر اسمائهم .

لمحمد سعد شحاتة الذى تكرم بمراجعة المخطوطة (مستكرا تجاهلى المشين لقواعد الهمزة) . وتامر سعيد ونادية محمد الجندى اللذين اكتشفا العديد من التناقضات .

وللأقلام أيضا نصيبها من الشكر ، فقد استفدت كثيرا من شهادات : فتحى فضل فى الزنزانة (١٩٩٣) ، طاهر عبد الحكيم فى ،الاقدام العارية، ، فتحى عبد الفتاح فى ،شيوعيون وناصريون، ، مصطفى طيبة فى ،رسائل سجين سياسى إلى حبيبته ، ، فؤاد حجازى فى ،سجناء لكل العصور، (١٩٨٧) ، الهام سيف النصر فى ،معتقل أبو زعبل، ، نوال السعداوى فى ،مذكراتى فى سجن النساء، (١٩٨٦) ، شريف حتاتة فى ،النوافذ المفتوحة ، (١٩٩٥) .

استفدت أيضا من : مؤلفات محمد حسنين هيكل التى لا غنى عنها لفهم التاريخ المصرى المعاصر (وبالخصوص دراسته القيمة عن المصرفى الأمريكى روكفلر و بياناته الموثقة عن حركة المال المصرى والعربى) ،

كتابات رشدى سعيد ودراسات رمزى زكى عن الديون والتضخم وأزمة الدول النامية ، والليبرالية المتوحشة ،

مؤلفات ANTHONY SAMPSON الذى تقصى آليات النظام الإقتصادى المعاصر من أول أسواق السلاح إلى البنوك العالمية والشركات العملاقة وخصوصا كتابه عن شركة آى تى تى ،

كتاب STANLEY ADAMS عن شركة روش ١٩٨٤ ،

منشورات مؤسسة OXFAM الإنجليزية وخاصة BITTER PILLS BY

DIANNA MELROSE ، ١٩٨٢ ، صناعة الجوع ، تأليف فرانسيس لا

بى و جوزيف كوليتز وترجمة أحمد حسان ، وأمريكا وصناعة الجوع ،

للمؤلفين السابقين بالاشتراك مع ديفيد كينلى ، ترجمة د. حسن أبو بكر ، (١٩٨٧) ،

من الاقتصاد القومى إلى الاقتصاد الكونى ، لمايكل تانزر وآخرين ترجمة

عفيف الرزاز (١٩٨١) ، التاريخ السرى للبنك الدولى ، لزكى العايدى

ومقدمته الهامة لرمزى زكى (١٩٩٢) ، دعم الأغنياء ودعم الفقراء ،

لمجموعة باحثين ، ١٩٨٥ ، نموذج النمر الاسيوية ، لابراهيم العيسوى

(١٩٩٥) ، الفرصة السانحة ، لريتشارد نيكسون ، ترجمة أحمد صدقى مراد ،

١٩٩٢ (وقد نقلت عنه الفقرة الخاصة بالموقف الأمريكى من اسرائيل) ،

برنامج حزب الرفاه الاسلامى التركى ،

الطبعة العربية من مجلة ديموند ديپلوماتيك ، الفرنسية ،

تحقيقات مجلتى روزاليوسف ، واليسار ، وصحف الاهالى ، والشعب ،

والنواء الاسلامى ، .

الشكر أيضا لجمعيات و مراكز حقوق الإنسان فى مصر وخاصة مركز

القديم ، الذى أتاح لى الاطلاع على بعض وثائقه .

هذه الرواية

★★ أسند شرف رأسه إلى صدر الخواجة العريض، فقد حانت لحظة الاعتراف. وأثبتت اللغة الانجليزية أنها عصية على الحقيقة، فعاد إلى لغة موطنه: العربية لا «المعادية»: كيف أنه كان يكذب، وأنه لن يستطيع شراء شيء، وحتى الآن لم يتمكن من دخول الجامعة، ورائحة الياسمين التي ذكرها عندما تحدث عن منزله هي الرائحة الدائمة ل... الذي يتجمع في بئر أمام باب المنزل وتأخذه شاحنة مرة في الاسبوع. ذروة الاعتراف بدت كمقطع من أغنية لأم كلثوم، أي ميلو درامية تماما: أنا زهقت من حياتي ونفسي أسيب البلد.. ياريت تاخذني معك بعيد..

لم يتكلم الخواجة واكتفى بأن وضع السلسلة حول عنق الشاب، ثم مد يده إلى ساقه وتحسس فخذه ..

شرف ..

رواية ١٩٩٧

رقم الايداع : ١٤١٤٥ / ١٩٩٦

I.S.B.N

977-07-0515-2



صنع الله ابراهيم

★★ عرضت أولى رواياته «تلك الرائحة» ١٩٦٦ للمصادرة فور نشرها. ولم تصدر طبعتها الكاملة إلا بعد عشرين عاما في القاهرة والدار البيضاء والخرطوم في وقت واحد.

أصدر «تجمة اغسطس» ١٩٧٤ «اللجنة» ١٩٨١، «بيروت» ١٩٨٤، «ذات» ١٩٩٢.

★★ ترجم عددا من الأعمال الادبية مثل «العدو» للكاتب الامريكى جيمس دروت ١٩٧٥، و«الحمار» للكاتب الالماني جونتر دي برون، ١٩٨٣، «التجربة الانتوية» ١٩٩٤.

★★ كتب للفتيان والصغار خمس روايات وعشرات من الحكايات العلمية فضلا عن اليوم من القصص التاريخية المصوره ..

روايات الهلال

تقدم :

الضمت رواية يابانية

تأليف :

شوساكو إندو

ترجمة

كامل يوسف حسين

تصدر : ١٥ إبريل سنة ١٩٩٧

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباهت .
- الحياة مرة أخرى .
- التنويم المغناطيسى .
- نوم العازب .
- من شرفات التاريخ ج ١ .
- أم كلثوم .
- المرأة العاملة .
- قادة الفكر الفاضلى .
- الملامح الخفية (جبران ومي) .
- عبد الحليم حافظ .
- انقراض رجل .
- الشخصية المتطورة .
- محمد عبد الوهاب .
- الشخصية السوية .
- الشخصية القيادية .
- الإنسان المتعدد .
- الشخصية المبدعة .
- فكر وفن وذكريات .
- ساعة الحظ .
- سيكولوجية الهدوء النفسى .
- الإعلام والمخدرات .
- من شرفات التاريخ ج ٢ .
- الشخصية المنتجة .
- الأسرة مشكلات وحلول .
- ظلال الحقيقة .
- شعرة معاوية ، وملك بنى أمية .
- مذكرات خادم .

- طيبة أحمد الإبراهيم
- نوال مصطفى
- يوسف ميخائيل أسعد
- محمد حسن الألفى
- د . محمد رجب البيومى
- مجدى سلامة
- سوزان عبد الحميد أغا
- يوسف ميخائيل أسعد
- لوسى يعقوب
- مجدى سلامة
- طيبة أحمد الإبراهيم
- يوسف ميخائيل أسعد
- مجدى سلامة
- يوسف ميخائيل أسعد
- يوسف ميخائيل أسعد
- طيبة أحمد الإبراهيم
- يوسف ميخائيل أسعد
- لوسى يعقوب
- محمد حسن الألفى
- يوسف ميخائيل أسعد
- د . نوال محمد عمر
- د . محمد رجب البيومى
- يوسف ميخائيل أسعد
- مجدى سلامة
- طيبة أحمد الإبراهيم
- عرفات القصبي قرون
- طيبة أحمد الإبراهيم

Bibliotheca Alexandrina



0494011